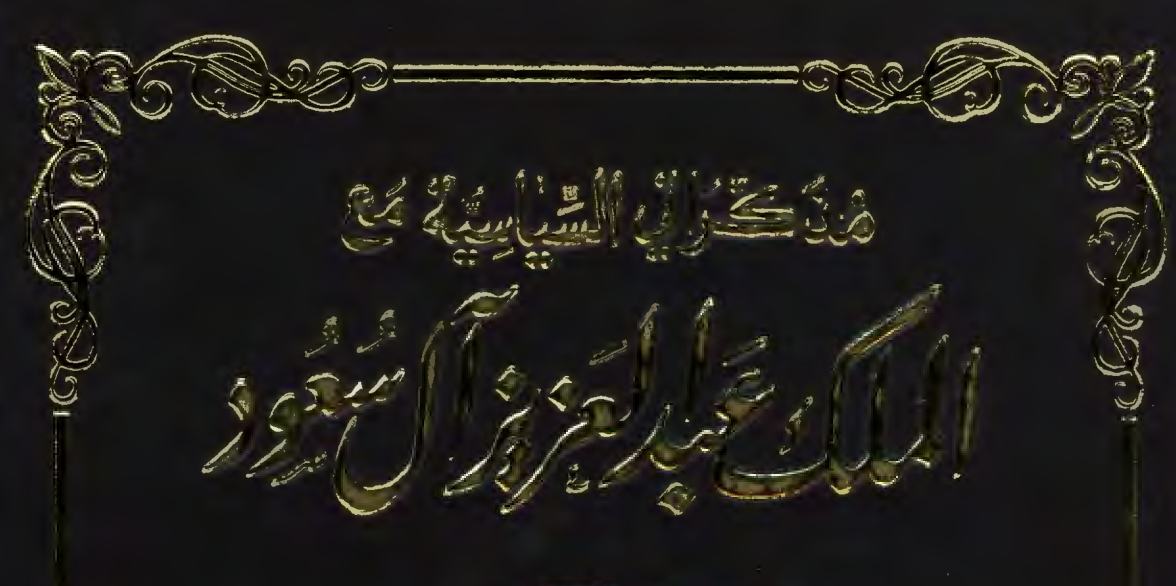


مذكراتي السياسية مع الملك عبد العزيز آل سعود



تأليف

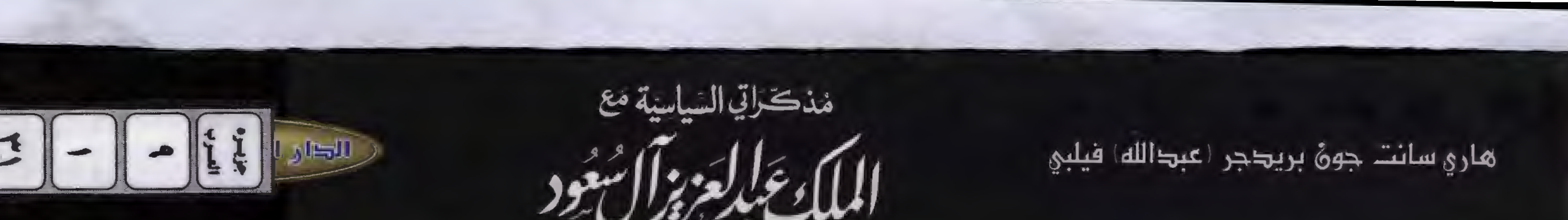
هاري سانت جون بريدجر (عبدالله) فيلبي





الدار العربية للموسوعات




هاري سانت جون بريدجر (عبدالله) فيلبي
مذكراتي السياسية مع
الملك عبدالعزيز آل سعود
جزيره العرب
٩
١
٣١



من أقوال الملك عبد العزيز آل سعود

- كلكم يذكر أنني يوم خرجت عليكم كنتم فرقا وأحزابا يقتل بعضكم بعضا، وينهب بعضكم بعضا وجميع من ولاه الله أمركم من عربي أو أجنبي، كانوا يدسون لكم الدسائس لتفريق كلمتكم وإضعاف قوتكم لذهاب أمركم. أما اليوم إن الأمن سائد في طول البلاد وعرضها قد لمستموه بأيديكم وشاهدتموه بأعينكم، وهذا من فضل ربي علينا، ونحن لا نقول هذا للافتخار وإنما للإشارة إلى أننا - أسرتي وشعبي - جند من جنود الله نسعى لخير المسلمين ولتأمين راحة الوافدين إلى بيت الله الحرام وأداء مناسكهم.

- أنا عربي، ومن خيار الأسر العربية، ولست متطفلا على الرئاسة والملك وإن آبائي معروفون منذ القدم بالرئاسة والملك. ولست ممن يتكئ على الغير في النهوض والقيام، وإنما اتكالي على الله، ثم على سواعدنا يتكئ الآخرون ويستندون إن شاء الله.

- لا أريد في حياتي أن أسمع عن مظلوم، ولا أريد أن يحملني الله وزر ظلم أحد أو عدم نجدة مظلوم أو استخلاص حق مهضوم.

- إنكم لتنامون ملء عيونكم هانئين مطمئنين في بيوتكم، وأما أنا فأبيت سهران قلقا لا يقر لي بال أنظر وأتأمل في سبيل مصالحكم وتأمين رفاهيتكم وسلامة بلادكم.

- لست من المحبين للحرب وشرورها، وليس أحب إلي من السلم والتفرغ للإصلاح.

- أسست هذه المملكة من دون معين وكان الله القدير وحده معيني وسندي وهو الذي أنجح أعمالي.

- أنا ترعرعت في البادية فلا أعرف أصول الكلام وتزويقه ولكن أعرف الحقيقة عارية من كل تزويق.

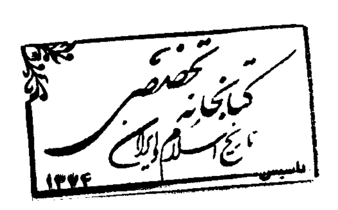
- إني على استعداد لأن أكون كجندي بسيط أجاهد في سبيل العرب وتوحيد كلمة العرب، وتأسيس الوحدة بين العرب.

- سنبقى مثابرين على هذه الخطة أنا وأسرتي إلى ما شاء الله، ولن نحيد عنها قيد شعرة بحول الله وقوته، ومن الله نسأل التوفيق والهداية.

ISBN 978-614-424-117-2




الدار العربية للموسوعات



مُذكراتي السِّياسِيَة مَع

الملك عبد العزيز آل سُعُود

اسم الكتاب: مذكراتي السياسية مع الملك عبد العزيز آل سعود

تأليف: هاري سانت جون بريدجر (عبدالله) فيلبي

الطبعة الأولى: ٢٠١٤م - ١٤٣٥هـ

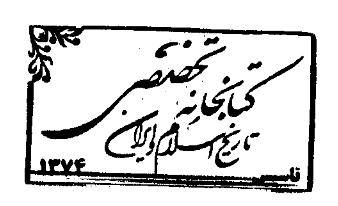
ISBN 978-614-424-117-2



الدار العربية للموسوعات

المدير العام: خالد العاني

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٠٠٩٦١ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com



مذكراتي السياسية مع

الملك عبدالعزيز آل سعود

هاري سانت جون بريدجر (عبدالله) فيلبي

Harry St John Bridger (Abdullah) Philby

ترجمة

د . خالد أحمد عبدالله

الدار العربية للموسوعات

بيروت





موحد الجزيرة العربية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (رَحِمَهُ ٱللَّهُ)





صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد العزيز ولي العهد (رحمه الله)



المقدمة

لم يكن إصدار هذا الكتاب أمراً سهلاً بأية حال! وبصرف النظر عن الحقيقة الماثلة في أنه دائماً من العسير على المرء أن يكتب صراحة عن أحد أصدقاء عمره مهما كان عظيماً أو أهلاً للمدح والثناء، فإن هذه الصفحات تبدو كشعار على قبر ميت، ليس هو لحسن الحظ البطل صاحب هذه القصة الذي ما زال والحمد لله ينعم بوافر الصحة والحيوية، ولكن عصره قد ولى وانقضى إلى الأبد، وكان هو أبرز ممثل له. ومنذ عصر إبراهيم إلى حكم آل سعود أو لفترة تقارب أربعين قرنا اضطرّ التطور الاجتماعي في الجزيرة العربية على وتيرة يمكن أن تقارن بالعمليات الجيولوجية التي ندين لها بوجود المواد والرواسب التي تكوّنت منها القشرة الأرضية. ولم يجد العلماء في بلاد العرب منذ فترة طويلة إلّا القليل الذي يبدو غريباً غير مألوف أو الذي يعتبر ثورة وتجديداً، وربما كان مما يثلج صدورهم وينعش فؤادهم أنهم وجدوا أن المبادئ الجماعية التي هم واضعوها، ما زالت مزدهرة سائدة في موطن ميلادها.

ولكن الفترة الأخيرة التي حكم فيها الملك عبد العزيز آل سعود قد شهدت توقفاً وانفصالاً عن الماضي كما كان في أصوله، مثلها مثل هذه الزلة الجيولوجية الكبيرة التي انحسرت عن خلق وادي الرافدين والبحر

الأحمر. إن المشاكل الجديدة التي نشأت في مثل هذا المدى بسبب الثورة الاجتماعية والاقتصادية، تتطلّب وجود وسائل وكفايات جديدة قد تحتاج بدورها إلى عمر جيل أو جيلين حتى يكتمل لها النمو والاستقرار. وهكذا أصبح الوجل والقلق يساوران المرء بالنسبة لمستقبل هذه الأعمال العظيمة والرسالة الضخمة التي سجلت في الفترة السابقة **وفي ظل ملك عظيم**. ولهذا فإني حاولت ولم أحجم عن واجب تبيان وإبراز القصور والأخطارالكامنة في وسائل الحكم الراهنة. وعلى الأجيال المقبلة من العرب أن تبرهن على أهليتها واستحقاقها لمثل هذه الفرصة التي أتاحها **لها ملك من أعظم الرجال في تاريخ بلادها الطويل.**

ليس لي أن أدعي: أن هذا الكتاب الحافل سجل تاريخي مكتمل الأسباب لحكم الملك عبد العزيز آل سعود الطويل، إنه أقرب لأن يكون عرضاً لأعماله ونواحي رسالته في لوحات متتابعة تبين الفترات التي تميز به حكمه وأسلوبه. ولهذا فلا معنى أن يوجد في هذه الصور بعض التكرار للأمور، هذا التكرار الذي أرجو أن لا يعتبره القارئ اللبيب وليد المصادفة أو الإهمال، ولكنه توكيد متعمد لعوامل معينة أساسية لنجاح وظفر منقطعي النظير. ولقد تراءى لي أنه من الأنسب، رغم بعض الملاحظات الواردة في الهوامش عن بعض الحوادث الثابتة (١٣٦٩هـ، ١٩٤٩-١٩٥٠م) استلزم سياق التدليل إضافتها، أن أترك سجل حياة الملك حيثما كان في شهر تموز/ يوليو سنة ١٩٥٠، يوم اكتملت له (٥٠) سنة قمرية من حكمه المطلق لبلاد العرب. وقد قررت كذلك بصفة خاصة وبعد تفكير عميق، أن أدع الفصل الذي يُعالج علاقات الملك عبد العزيز بالشريف عبدالله بن الحسين ملك الأردن كما هو، وأن لا أغير شيئاً في الملاحظات العارضة عن الملك الأخير في فصول الكتاب. ولا ريب في أنه يكون ضرباً من الملق الرخيص لرجل قام بهذا الدور الهام المعروف على

المسرح العربي طوال الفترة التي يعنى بها الكتاب، أن نتجاهل أو ننتقص من دوافع سلوكه وأثر نشاطه في هذا المشهد العارض الموقت. إنه نفسه لم يكن قط ممن يتجنبون متناقضات زمنهم كما يعلم تماماً كل من يقرأ تاريخ حياته الذي كتبه بيده. وفضلاً عن هذا فإنه يبدو لي في الواقع أن دراستي لمواقفه وتفاعلاته إزاء الأعمال التي سجلت في هذه الصفحات إنما كانت بدافع من الاقتناع والأمل في أن تتاح له فرصة الاطلاع عليها، ويبدو لي في هذا الواقع سبب قوي لأن أدعها كما هي دون أي تغيير. **وقد ينطبق مبدأ القول، إن الموتى تنسى حسناتهم،** إلى حد بعيد على عظماء العالم الذين يعيشون حياتهم في ضوء العلانية، والذين يكون لأعمالهم صدى أوسع مدى في الزمان والمكان مما يخلف المغمورون من الأموات. **وكما قال شكسبير: «إن سيئات الناس تغفر بعد مماتهم، أما الحسنات فغالباً ما تدفن مع عظامهم، ولهذا فلندعها مع جثمان قيصر!».**

هذا ولم يبق لي إلّا الاعتراف الجميل بحجم المساعدات التي قدمت لي لتحضير هذا الكتاب. وإني مدين خاصة بالشكر للسير روبرت هاي المقيم البريطاني في الخليج العربي، للمتاعب التي تجشمها بالبحث في السجلات القديمة للاستعلامات العارضة عن تحرير الملك عبد العزيز لمدينتي الرياض والأحساء في سنتي ١٩٠٢، ١٩١٣ على التوالي، اللتين تعتبر تفاصيل وتواريخ حوادثهما قد حددت على وجه الدقة. وكذلك فإني أتقدم بالشكر عن المعلومات التاريخية الهامة إلى شقيق الملك الأمير مساعد بن عبد الرحمن إذ وضع تحت تصرفي وثيقة خطية مهمة لتاريخ نجد تسمى **(عنوان السعد والمجد)** تشمل الفترة بين سنتي ١٨٨٥، ١٩٣٥م، قام بجمعها عبد الرحمن بن ناصر صاحب المجمعة، وهي تقوم على أساس الجزء الثاني المفقود من وثيقة خطية تاريخية أخرى اسمها (عقد الدرر) وضعها إبراهيم بن صالح بن عيسى، أو لعلها نقلت

منها. ويبتدئ الجزء الباقي من هذه الوثيقة من سنة ١٩٥١ تكملة للتاريخ المشهور لعثمان بن بشر وتنتهي في سنة ١٨٥٠، وتعنى بتاريخ الأسرة السعودية حتى سنة ١٨٨٥.

ومن المحتمل أن يكون الجزء الثاني من (عقد الدرر) قد صودر من قبل السلطات نظراً لآراء المؤلف غير الموالية للأسرة الملكية الحاكمة، لأنه كان يناصر ويحبذ أسرة ابن الرشيد. وعلى أية حال فإن صورتي الوثيقتين اللتين وضعهما تحت تصرفي كل من سعود بن هذلول من فرع ثنيان من الأسرة السعودية ومتعب بن عبد العزيز أحد أبناء الملك تنتهيان سنة ١٨٨٥م هذا ولا يعد اعتبار الصورة التي تحت يد عبد الرحمن بن ناصر سابقة الذكر تتمة لتاريخ ابن عيسى أن يكون ضرباً من الحدس والتخمين، وقد يصدق هذا القول على وثيقة خطية أخرى اسمها (ثابت الحوادث) وضعها سعود بن هذلول نفسه الذي تفضل بإعارتي الصورة الأصلية التي تحتوي على تاريخ الأسرة حتى سنة ١٩٤٠م، وكذلك ملاحظات غير دقيقة عن حوادث وقعت في سنين تالية لهذا التاريخ.

وهناك وثيقة تاريخية خطية أخرى أعارني إياها صاحب السمو الأمير متعب بن عبد العزيز كما سبق القول، وتسمى هذه الوثيقة «شذا الندا» التي وضعها مطلق بن صالح عن الفترة بين سنتي ١٨٨٠، ١٩١٧م، ثم أتمها ابنه حتى سنة ١٩٤٠.

إني مدين لكل هؤلاء الذين قدموا لي هذه الوثائق بعميق الشكر للمادة التي تحتويها والتي لا معدى عنها لوضع مؤلف مزمع عن **تاريخ نجد والأسرة السعودية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر**، أما فيما يتصل بهذا الكتاب فإني لم استخدمها إلّا لتحقيق بعض التواريخ والتفاصيل المتصلة بمواضيعه وكذلك فإني مدين بالشكر الجزيل لكثيرين من أمراء الأسرة المالكة وغيرهم الذين تقدموا مشكورين

لمساعدتي في واجب وضع سجل دقيق قدر الامكان لجميع أجيال بيت آل سعود من أكبر جد معروف حتى فترة صدور هذا الكتاب. وأعود مرة أخرى فأكرر شكري لسعود بن هذلول الذي برهن على أنه كنز ثمين للمعلومات النافعة عن كل هذه المسائل، وخاصة بالنسبة للغموض الذي يتعلق ببعض فروع الأسرة التي ينتمي نفسه إلى أحدها وكذلك أتقدم بالشكر لرجلين من أسرة السديري، التي ينتسب إليها الملك عبد العزيز نفسه عن طريق والدته، لمساعدتي في وضع شجرة مكتملة لبيت اشتهر في تاريخ نجد الحديث بارتباطه بصلات نسب كثيرة بالبيت المالك، وبأن كثيرين من حكام الأقاليم من أبناء الذين مارسوا فنون الحكم ومهروا فيها. أما الرجلان اللذان أدين لهما خاصة بجزيل الشكر لوثيق تعاونهما معي فهما الأمير عبدالله بن سعد بن عبد المحسن بن أحمد السديري، والأمير عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن أحمد السديري، والأول منهما حاكم المدينة المنورة الآن، والثاني حاكم قريات الملح، وكلاهما صهرا الملك.

سانت جون فيلبي

مكة المكرمة في ٣٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٥١



الفصل الأول

بزوغ الشمس

لا نعرف، وقد لا يمكن أن نعرف أبداً، على وجه الضبط والدقة اليوم والساعة في الزمان والمكان اللتين ولد فيهما هذا الرجل العظيم، بطل هذا الكتاب. لم يبد غداة ميلاده ما يوحي بأن أعجوبة وضرباً فذاً من العظمة قد جاءا إلى هذه الدنيا. لم يكن الولد البكر لأبيه، أما أمه، التي لا شك تملكها السرور والزهو أن أنعم الله عليها بمولود ذكر بعد فترة انقطع فيها الرجاء، فكانت لا تجيد القراءة والكتابة، والأرجح من أنها لم تكن على علم بتاريخ الأيام. وهكذا وإن لم يسجل هذا الحدث العظيم بالدقة والحرص العزيزين على مؤرخي الحوادث إلّا أن الحساب التقريبي الذي يرجع إلى مجرد ما تعي ذاكرة بعض الذين شهدوا هذه المناسبة السعيدة، قد انتهى إلى الاعتراف الرسمي بأن يوم ٢٠ من ذي الحجة سنة ١٢٩٧هـ الموافق يوم ٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٨٨٠م هو على الأرجح يوم ميلاد «**عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود: ملك البلاد العربية السعودية**». وعلى هذا يكون جلالته في السبعين من عمره المديد وفق التاريخ الميلادي، ويزيد قليلاً عن الثانية والسبعين وفق التاريخ القمري.

لا بأس من أن نذكر لهؤلاء الذين يهتمون بمغزى الأرقام ودلالتها، أن سنتي ميلاده ويوبيله وهما ١٢٩٧، ١٣٦٩هـ على التوالي، بمجموع

أرقام كل منهما ١٩ : إشارة إلى هذا القرن، إذ شاء الله جلت قدرته أن يكون مطلع حكمه المديد في اليوم الثالث من شوال سنة ١٣١٩هـ، وهو اليوم الذي يصدر هذا الكتاب بمناسبة ذكراه السعيدة. ولعل القارئ اللبيب قد أدرك أن هذه المناسبة العظيمة، وفقاً للتاريخ القمري إحدى السنين المباركة في الإسلام التي توافق فيها وقفة عرفات يوم جمعة، أو سنة الحج الأكبر، بما تبشر به من واسع الرحمة والغفران لآلاف المشدوهين الواقفين على جبل عرفات في هذا اليوم المشهود.

لقد كان في مقدور بعض من شهدوا هذه المناسبة العظيمة أن يعودوا بذاكرتهم إلى الوراء. إلى أول موسم للحج أقيم في ظل حكم الوهابيين سنة ١٩٢٥م، وكان أولى بهم أن يتدبروا ويتبصروا فيما يسجلون لملك وهابي كان ذاكر اسمه كفيلاً بأن يلقي الرعب في قلوبهم، إذا أضمرت شرًّا! وإذا كان بعضهم قد بقي في الحجاز بضعة شهور لكي يساهم في الاحتفال بالذكرى يوم مناداته ملكاً في مكة يوم ٨ كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٢٦ ، إلّا أن قليلاً، أو لا أحد منهم، قد لاحظ أن التاريخ القمري لهذه المناسبة: هو يوم ٢٣ جمادى الثانية سنة ١٣٦٩هـ أو يوم ١١ نيسان/ أبريل سنة ١٩٥٠م. وبقدر، اتصل بعلمي، فإن أحداً لم يحاول ولم يجتهد - لا شعراء البلاد العربية السعودية ولا غيرهم - في هذه الفرصة أن يربط بين اسم بطلها وسنة يوبيله الذهبي، أو أن يكشف عن الصلة بينهما أو لهذا فلا جرم أن أبرز هذه الحقيقة كتوافق أخير يتمثل في أن هذه العبارة ملك العرب الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، التي قد يسحبه بها أحد رعاياه أو المعجبين به، هذه العبارة يساوي المعدل العددي لمجموع أرقامها ١٣٦٩ وفقاً للنظام الأبجدي العددي.

كان يبدو في أفق تاريخ بلاد الجزيرة العربية فجر حقبة جديدة يكتنفه ضباب معتم كثيف أسود. لقد بدأت الفترة الأولى منها بصراع الأخوين في

أعقاب موت الإمام فيصل بن سعود الكبير سنة ١٨٦٥، وانتهت بعد عشر سنين كاملة بموت ثاني أبنائه سعود الذي إحتلّ العرش من أخيه الأكبر عبدالله في سنة ١٨٧٠، والذي أضاع ولاية الأحساء المهمة فظفرت بها تركيا في السنة التالية، فضلاً عن اضطراره للتسليم باستقلال ولاية القصيم. أما وقد عاد عبدالله بعد خمس سنين إلى عرشه، فإنه لم يضيع وقتاً لكي يثبت وجوده ويفرض شخصيته، مع أنه كان مجرداً من أية كفاية سياسية أو عسكرية. وكان في ذكريات طفولته حسب ما أرخ ابن أخيه، رجلاً ذا جاذبية قوية وخبرة كبيرة بتقاليد مجالس الأمراء وقاعاتهم، وكان منمق الحديث فصيح الكلام قد تزود بحذق التهكم وبسرعة خاطر ساخرة كثيراً ما كانت جارحة مؤلمة، بينما كانت تعوزه أصالة الرأي، كما كان سريع الاضطراب والقلق إزاء الأزمات وفي المهمات الصعبة. والواقع **أنه كان جد شبيه بملك إنكلترا شارل الثاني هذا الرجل الذي لم يقل شيئاً نزفاً طائشاً، ولم يعمل شيئاً حكيماً نافعاً.**

إن ما اتصف عبدالله من نقص كفاية وقصور عزم، وما ساد دولته من أسباب الفوضى والتصدع، كان أبرز نقيض لما كان يجري في الإمارة الشمالية المنافسة، جبل شمّر، من استقرار الحكم واستتباب الأمن العام ودلائل التقدّم والرخاء في عهد محمد الرشيد الكبير. ومن حق هذا علينا أن نقرر أنه لعب دور الصديق الوفي في تمهيد السبيل لتنازل أبناء سعود الأربعة عن أطماعهم في الملك ولاسترداد عبد الله عرشه الشاغر في الرياض.

أما ابن الرشيد نفسه فكان في هذا الوقت أكثر اهتماماً بتوسيع رقعة إمارته صوب الشمال لتضم الجوف ووادي السرحان، وبتدعيم سلطانه فوق أرض لم ينازع أحد فيها سلفه العظيم، بينما كان أكثر حرصاً وغموضاً في بسط نطاق نفوذه على القصيم والأقاليم الشمالية الوهابية

المتاخمة له. ولقد ضاق جزء من إقليم القصيم بهذا التدخل وساءه، كما لم يكن عبدالله حريصاً في تشجيعه لنشاط الشيخ زامل السليم زعيم عنيزة في محاولته دفع نير أو نفوذ كان أقوى وأوطد من أن يكون شيئاً اسميًّا فحسب، فعرض قواته للفناء في معركة الحمادة سنة ١٨٨٣ لكي يسترد سلطته على إقليم سدير وزلفى. وبعد أن فر عبدالله من ميدان القتال إلى الرياض بعث أخاه محمد لكي يتفاوض في عقد صلح مع المنتصر الذي لم يتردد في إعادة المناطق المحتلة إلى صاحبها الأصيل في نبل وشهامة تثيران الإعجاب، قائلاً إنه لم يدخلها إلّا ليوطد السلم والأمن على حدود بلاده! ولكن محمد الرشيد كان مقتنع بأن أسلم طريق ليصل إلى الحكم هو أن يترك الأسرة المالكة في الرياض لتقضي عليها عوامل الشقاق والفتنة الداخلية التي تكتنفها، إذ لم تتكلف أسرته أكثر من جهود قليلة في عشر سنين ماضية لكي ترفعه إلى العرش. ولكن خضوع عبدالله وتقاعسه قد شجع الأدعياء بأحقيتهم في العرش، على بذل محاولة أخرى لاسترداد السلطات. ففي سنة ١٨٨٤ وبعد احتكاك فاشل مع ابن الرشيد في بعض المعاقل القبلية التي كانت الفوضى التي عاشت فيها بلاد العرب في تلك الأيام، انقض أبناء سعود على عمهم، وسرعان ما وقع في قبضات أيديهم. ولكن عبدالله كان يتوقّع ذلك، ولهذا فإنه كان قد طلب من ابن الرشيد عونه ومساعدته، للقبض على الأدعياء وأجلوا عن الرياض باختيارهم. أما عبدالله وأخوه الأصغر عبد الرحمن وأهم أعضاء الأسرة منذ دعاهم محرر بلادهم لأن يجعلوا مقر إقامتهم في حائل ضيوفاً عليه، واقترح أن يعين سالم بن سبهان نائباً عنه لكي يحكم الرياض من جديد باسم أميرها الغائب. وعلى هذا كان سقوط أسرة سعود وانتهاء حكمها فعلاً في نيسان/ أبريل سنة ١٨٨٥م في وقت قريب من يوم، وما كان إلّا لنبي أن يتنبأ بأن هذا الطفل الباكي في «بادولا» سيلعب يوماً من الأيام دور القديس

يوحنا المعمدان، لدى طفل «**ولد ليكون ملكاً» على صحراء بلاد العرب.** ومع هذا فإن والديّ الصالحين لا بد أن أخذا مثل هذا الاحتمال في الحسبان عندما منحاني هذا الاسم الذي أعرف به.

وبقدر ما استطعت أن أحقق، فإن عبد العزيز بن عبد الرحمن (وكان في السادسة من عمره) وشقيقته نورة (التي تكبره بسنة واحدة) قد تخلفا في الرياض عندما انتقل أبوهما إلى حائل. وكانت سنهما في سنة ١٨٨٦ تسمح لهما بأن يشعرا بشيء من الرعب والخوف التي اعترت كبار الأسرة إثر سماع أنباء مذبحة الخرج التي نصبها لأبناء عمومتهم «الأدعياء» سالم السفاح وبأن يغتبطا ويفرحا مع الكبار عندما طردوا بناء على احتجاجاتهم.

لقد أتيحت لهم الفرصة بعد سنتين بأن ينعما بعودة أبيهما من المنفى في صحبة عمهما عبدالله الذي اشتد عليه المرض في حائل وسمح له، تفضلاً، بالعودة إلى الرياض كحاكم لها باسم ابن الرشيد. وقد كانت هذه بلا شك تجربة جريئة من جانب أمير شمّر، وربما كانت حركة حكيمة تضاف إلى حساب كياسته ودهائه وسياسته الغامضة المعقدة: إنها كانت بمثابة التضحية بقلعة في مقابل موت الملك! والواقع أن عبدالله قد يسّر الأمور باستسلامه لمرضه الذي ألم به في سنة ١٨٨٩ قبل أن يتسلّم وظيفته الشكلية. ولقد كان لدى محمد الرشيد من قوة الأسباب ما عرف عنه أصغر أبناء فيصل، وهو عبد الرحمن، قد اختير ليكون على رأس الأسرة السعودية المالكة تفضيلاً له على أخيه الأكبر محمد الذي لم يكن طموحاً قوي الشكيمة. ولهذا كان عبد الرحمن أكثر خطراً لأنه أكثر فطنة وأشد مراساً من أخيه سهل القياد. ولهذا أيضاً رفض ابن الرشيد مطالبة عبد الرحمن بأن يكون حاكم الرياض، وأعاد تعيين الجبار سالم بن سبهان حاكماً عليها باسمه وقاية وتحرزاً من كل المتاعب والاضطراب المنتظر وقوعهما بينه وبين عبد الرحمن لو ولي حكم الرياض. وفي عيد

الأضحى المبارك من السنة التالية (سنة ١٨٩٠) استدعى سالم جميع الذكور البالغين من أسرة آل سعود للمثول بين يديه كي يستمعوا إلى رسالة تحية بعث بها سيدهم، فمشوا إلى قاعة المقابلات على حذر ووجل وفي عدة وسلاح، وما هي إلّا لحظات حتى كان سالم الجبار وكثير من أعوانه قد لقوا حتفهم وأصبحوا جثثاً هامدة وسط هذه القاعة.

في هذه الأثناء أصبح عبد الرحمن سيد الرياض، وأخذ يعدّها مباشرة إعداداً لائقاً للدفاع والوقوف في وجه العاصفة التي كانت توشك أن تهب قاصفة نحو عاصمته. وفي هذه الوقت كان زامل زعيم عنيزة قد وطد العزم على أن يلقي بنير ابن الرشيد عن عاتقه، فأسرع بإرسال تهانيه إلى عبد الرحمن طالباً إليه أن يعملا متحالفين على استرداد حرية شمال نجد. ولكن محمد الرشيد كان أسرع من الحليفين، بحيث أرغم زامل على قبول صلح مؤقت لأنه لم يكن ليستطيع وحده وبدون عون من الخارج، أن يقاوم مقاومة جدّية، وبهذا تسنى لابن الرشيد أن يوجه كل قواته لسحق الرياض. أما عبد الرحمن، الذي كان شجاعاً بقدر ما كان فطناً، فقد صمم على مقاومة الهجوم، ولكن بعد حصار أربعين يوماً شقّ حمله على سكان الرياض الذين تملكهم التذمر والضيق، اضطر آسفاً لأن يفاوض العدو. وكان على رأس الفريق الذي بعث به عبد الرحمن لمفاوضة أخيه محمد وأكبر رجال الدين وهو عبدالله بن عبد اللطيف، كما كان ضمن أعضاء هذا الفريق عبد العزيز بن عبد الرحمن الذي لم يزد عمره آنذاك على عشر سنين عندما ظهر للمرة الأولى على مسرح التاريخ العربي.

لقد كان محمد الرشيد نبيلاً كريماً مرة أخرى، إذ وافق على بقاء عبد الرحمن حاكماً على الرياض تحت سيادته، وسحب فوراً قواته إلى الشمال حيث وقع في اشتباك جديد مع زامل، قبل أن تنصرم السنة. ولقد أتيحت لهذا فترة لكي يسترد عزيمته و نشاطه ويستعد للحرب التي ولج ميدانها في

سنة ١٨٩١. وسرعان ما زحف عبد الرحمن وقواته صوب الشمال لكي يساهم في محاولة أخيرة لتدمير العدو المشترك. لقد كانت هذه محاولة فاشلة ومخاطرة جريئة حمقاء، إذ لم يستطع أبداً الوصول إلى ميدان المقربة في المليدا. وبعد بضعة أيام في قتال واشتباك مرتجل غير ذي هدف محدد بين كثبان الرمال في وادي الرمة حيث كانت فرسان ابن الرشيد تقابل محرجة جنود عنيزة وحلفاءهم من مقاتلة البدو، فإن زامل لم يلبث أن خرج إلى السهل مخدوعاً بتقهقر مصطنع قام به العدو الذي عاد فانقض عليه وقتله كما قتل أفراد من أكبر أسرته في اشتباك بالسلاح الأبيض، وقضى على جيشه قضاء مبرماً. وعند ما سمع عبد الرحمن أخبار الكارثة والهزيمة التي حاقت بحليفه، ولى مدبراً إلى الرياض بكل سرعته، ولكنه لم ينتظر هناك ليلاقي المنتصرين الموتورين الذين يجدون في أثره، بل أعد على عجل كل شيء للفرار، واتخذت القافلة سبيلها إلى جوف الصحراء تحمل إلى المنفى كل من بقي من آل بيت سعود: رجالاً ونساء وأطفالاً وكل ما استطاعت حمله غيرهم. ومع هذه القافلة ذهب الأمير عبد العزيز محمولاً هو وأخته نورة في هودج على ظهر بعير، كما لا شك يذكر آنذاك اليوم جيداً.

كانت شمس الأسرة السعودية تجتاز مدارج خسوف منذ سنة ١٨٨٥، وعندئذ أصبح هذا الخسوف كليًّا لا يعرف أحد كم يعمر؟ وكان كل ما يعني هذه الأسرة هو أن تجد لها ملجأ تسكن إليه حتى تنتهي هذه الفترة، وربما للأبد، إذا لم يقدر لشمسها أن تسطع مرة أخرى. وكانت وجهتهم المباشرة هي ولاية الأحساء حيث لقي عبد الرحمن، ترحيباً كبيراً، بل وعرضاً لعودته إلى الرياض في ظل الحماية التركية: يعود مصحوباً بقوة تركية لتحميه من أعدائه، وبديهي كذلك لتراقب أعماله وحركاته ثم لتجمع جزية اسمية. ولكن عبد الرحمن كان قد قاسى من

التجارب التي مرت به وأصبح اضعف من أن يغريه مثل هذا العرض، ولهذا فإنه لم يلبث أن ارتحل مهاجراً إلى قطر، فأثار بذلك ظنون الترك ومخاوفهم في أنه قد يعمل مع مضيفه الشيخ قاسم آل ثاني حاكم قطر على خداعهم وإثارة الفتنة ضدهم. وكذلك فشلت محاولة بذلت للإقامة في الكويت إذ رفض ذلك أميرها الشيخ محمد الصباح بناء على إيعاز تركيا كي تستأثر بهذه الفرصة. وبعد فترة وجيزة انقضت في التجوال على متن الصحراء الشرقية مع قبيلة العجمان، حطت الأسرة رحالها في قطر مرة أخرى، ثم بعد مفاوضات دارت مع السلطات التركية في الأحساء، رجعت القافلة إلى الكويت حيث سمح للأسرة بإقامة مستديمة، وهناك عاش الشاب عبد العزيز في كنف أسرته حتى مطلع قدوم قرن جديد. وكانت تعاليم ومبادئ الأسرة الوهابية الوطيدة هي أهم مواد دراسته، بينما ترك تثقيفه في المسائل الدنيوية الأخرى للفرص والظروف في بادئ الأمر، وبعد بلوغه سن المراهقة استمد ثقافته من حضور الحفلات الرسمية التي كان يقيمها كبار الأسرة ومن أحاديثهم القيّمة وسحرهم المهذب الممتع. ولا بد أنه أنه قد أفاد كثيراً من حضور الاجتماعات العامة التي كان يعقدها مضيفهم شيخ الكويت مبارك الصباح الذي كان بلا شك من أبرز الشخصيات العربية في تلك الأيام الحرجة عندما كانت السياسة الألمانية تضع الكويت نصب عينيها، لتكون نهاية الخط الحديدي (برلين - بغداد). ولا شك كذلك في أنه كان على علم وإدراك كاملين بما لبريطانيا من ظلال تقي لفحات السياسة: ظلال كانت تحس أكثر مما ترى، خلال الأيام السابقة لاعتبار الخليج العربي بحيرة بريطانية، وعندما كانت تحترم بكل دقة السيادة التركية الوهمية طالما لم ترتبط بمصالح عناصر عدائية قوية. ولا ريب أن هذه الفترة هي التي اكتمل أثناءها في نفس الشاب عبد العزيز الإعجاب البريء بالاستعمار البريطاني، هذا الإعجاب الذي صحبه في

حياته بتحفظ واحد هو: أن لا يصطدم بنطاق نشاطه الخاص. وقد يكون من المرجح أنه بدأ يفكر خلال هذه السنين في إمكان بناء إمبراطورية لنفسه تضم ما تفرق وتشتت شمله من الأقاليم التي حكمها أسلافه والتي قامت عليها مملكة محمد الرشيد حتى مماته في سنة ١٨٩٧م وربما كان هذا التفكير عاملاً قويًّا خداعاً في أحلام يقظته آنئذ، ولكن كان لا بد من انقضاء بضع سنين أخرى حتى أمكن أن يوفر له من الحقيقة مادة وعدة.

ولقد لزم الأمير عبد العزيز، طوال هذه الفترة عن طواعية واختيار، طراز الحياة العربية في تلك الأيام، فقد كانت هناك خيل وجمال للركوب وكذلك صقور وبزات للصيد، وفضلاً عن هذا فكانت هناك مضارب النيران والقهوة تدفئ الإنسان وهو يقضي ساعات الظلام منصتاً لأحاديث قدامى الجنود وقصصهم عن الحرب والحب في آن معاً. وكانت هناك بعد هذا كله أسرار النعيم المنزلي وسحر الأسرة الذي يتملك الإنسان في سن غضة وعود رطب فيدفع عنه نكد العيش ونحس الطالع. ولم يكن لعبد العزيز ما يشكو منه في هذه الناحية، رغم أن عروسه توفيت بعد ستة شهور من زواجهما، دون أن يضعف من ذكرياته لها مر السنين، فكما ارتدت به الذاكرة آسفاً إلى هذه الشهور القليلة السعيدة! وكان لا بد من انقضاء فترة ليست بالقصيرة، قبل أن يقدم على أن يغرق أسفه وحزنه في عرس جديد أنجب له أكبر أبنائه تركي في السنة الأولى من هذا القرن، ثم ابنه سعود، وليّ العهد الآن، في الشهر الذي قرن بانتصاره على مغتصب مُلك أسرته ابن الرشيد (شباط/ فبراير سنة ١٩٠٢). وما زالت هذه الزوجة الكريمة على قيد الحياة لتبتهج وتفرح بذكرى هذه المناسبة السعيدة.



الفصل الثاني

المغامرة الكبرى

بصرف النظر عن رغد العيش الذي كان ينعم به الأمير عبد العزيز في أبان فتوته، فقد بدأ يتحوّل تفكيره، بعد فترة لم تطل، عن مفاتن الحب وحياة المرح وعبث الشباب إلى أمور أكثر جدية وخطورة. لقد مات محمد الرشيد في سنة ١٨٩٧م بعد أن ارتقى عرش حائل سنة ١٨٧٢ وظل مسيطراً على سياسة صحراء بلاد العرب عمر جيل، وغدا حاكمها الفعلي منذ سنة ١٨٩١ ، ثم خلفه على العرش ابن أخته عبد العزيز بن متعب الذي كان غنيًّا بميزات الجنود والمحاربين، فقيراً في الكفاية السياسية والإدارية، مما



سعدون باشا حاكم المنتفك

أدى إلى ضياع كثير من الأصقاع التي كان يحكمها سلفه، ومن ثم إلى تمهيد الطريق لانهيار مرتقب لأسرة ابن الرشيد. وفي هذا الوقت كان الشيخ مبارك بن الصباح أمير الكويت هو منافسه الأول الذي كان يرنو إلى بريطانيا العظمى وامقاً لحمايته من محاولات تركيا التي ترمي لأن تجعل من إشرافها الاسمي على إمارته سيادة فعلية.

وبعد هذا فقد كانت في الصحراء قوة سياسية ثالثة تجسدت في سعدون باشا، حاكم المنتفك على حدود ولاية البصرة، والذي كان بينه وبين السلطات التركية في الموصل مشاكل مستمرة. ولقد أكد محمد الرشيد قبل رحيله في نصيحته لخلفه المرتقب ألا يغريه ملق تركيا وغوايتها فيندفع في أعمال عدائية ضد الكويت لا يمكن أن تعود عليه بفائدة بل سوف تثير حتماً مضاعفات دولية بالنسبة لالتزامات بريطانيا للشيخ مبارك في مسائل معينة. ولكن عبد العزيز الرشيد تجاهل هذه النصيحة فلم يكد يستقر على العرش حتى سير حملة عسكرية صوب الكويت نفسها والأقاليم القبلية في مؤخرة العراق: وبهذا اضطر الشيخ مبارك والشيخ سعدون، لمقاومة ضغطه عليهما، إلى عقد تحالف فعال بينهما لقي بدوره رضا الترك وتشجيعهم. وفضلاً عن هذا فقد كان في استطاعة الشيخ مبارك أن يعتمد على معاونة جدية من ضيوفه أمراء بيت آل سعود، تحت قيادة الإمام السابق عبد الرحمن بن فيصل، ضد ابن الرشيد. ورغم أنهم وخدمهم وأتباعهم لم يزد عددهم على فئة قليلة لا تجدى نفعاً في الأعمال العسكرية، إلّا أن القيادة والجرأة الشخصية كان لهما الأثر الفعال في تلك الأيام وبين معالم الصحراء أهمية كبيرة تربى على مجرد العدد الهائل من المقاتلين. والحقيقة التي كشفت عنها الأحداث سريعاً هي أن هؤلاء الأمراء برزوا وحازوا على السبق في الميدان كما برز الأدهم المجلى في السباق الكبير: سباق الخيل العربية!

في سنة ١٨٩٩ وبعد تردد طال أمده، اضطرت بريطانيا، نظراً للنشاط التركي وعلاقته باقتراح إنشاء خط حديدي يمتد إلى رأس الخليج العربي، لأن تعيد النظر في سلوكها العذري نحو مفاتن الكويت. ولقد قبل الشيخ مبارك الصباح اقتراحها متلهفاً على أن تقوم بينهما زيجة شريفة عادلة. وفعلاً عقدت بينهما معاهدة على نسق المعاهدتين القائمتين بين بريطانيا وكل من البحرين ومسقط، وفّرت للشيخ مبارك الحماية التي كان يرنو إليها ضد محاولات تركيا التدخل في حكم إمارته، كما وفّرت لبريطانيا الضمان الذي رغبت فيه من عدم التنازل عن أي جزء من أرض الكويت لدولة أجنبية غير مرغوب فيها. ولقد حاولت تركيا أن تتدخل متأخرة جدًّا، فوجدت نفسها في مواجهة الأمر الواقع، فلم تستطع أن تعمل أكثر مع أصدقائها في الصحراء وتشجعهم على تعكير صفو الأمور وإزعاج الشيخ مبارك قدر المستطاع: موقنة بأن الإنجليز لن يكونوا أقل وجلاً من التدخل الفعلي في شؤون سياسة الصحراء. وفي خلال ذلك كانت الكرة قد ابتعدت عن قدمي ابن الرشيد برمية ماهرة صوب جناحه الأيسر. فاضطر سعدون باشا لأن يقوم بضربة جانبية قبل أن يتحول اللعب إلى وسط الميدان. ولقد قابل عبد الرحمن ابن سعود الاندفاع صوب الكويت بهجوم على جناح العدو الأيمن في الصحراء الشرقية دون أن يحقق نتائج مادية، ثم كان على ابن الرشيد أن يواجه زحفاً مضاداً صوب عين السيد حيث اشتبك في احتكاك ومناوشات مع قوة متحالفة فتراجع مختاراً انتظاراً لتطور الأمور. حدث هذا في ربيع سنة ١٩٠٠م التي خرجت القوات المتحالفة في خريفها من الكويت للقيام بهجوم كبير. وكان على مقاتلة قبائل من مطير والعجمان ومرة أن تتجمع في وادي الشعب الشوكي في الناحية الغربية من الدهناء. وعندما تجمع عشرة آلاف رجل على أتم استعداد وأهبة للعمل، قاد الشيخ مبارك القوة الرئيسة صوب الشمال لملاقاة ابن

الرشيد وقواته الأساسية، بينما عهد إلى الشاب عبد العزيز بقيادة كتيبة تقوم بالهجوم على الرياض وتشغل العدو جديًّا. ولقد كانت العمليات الحربية التي قام بها أكثر أهمية من هذا إذ قطع المؤن ومنع وصول المدد إلى جيش ابن الرشيد. ونتيجة لتقاليد حروب الصحراء ومناوراتها فإن الجيشين المتنافسين لم يلتقيا إلّا في شباط/ فبراير سنة ١٩٠٠م ليجتازا امتحاناً قاسياً وعسيراً لقوتيهما بين التلال الرملية في منطقتي الرصيف والطرفية إلى الشمال من بريدة. ولقد انتهت معركة الصرف كما تسميها أخبار الصحراء - بهزيمة الجيوش المتحالفة هزيمة نكراء، فلاذت بالفرار إلى الكويت بأقصى سرعة لتندب خسائرها التي لم تكن قليلة بأية حال. أما عبد العزيز فعند ما بلغته هذه الأنباء السيئة، فإنه أسرع برفع الحصار المضروب حول الرياض وتراجع إلى الساحل، بينما كان ابن الرشيد يجتاز في مواكب انتصاره الأقاليم شمالي المدينة، موقعاً في قسوة لا مبرر لها العقاب على كل من ساعد العدو أو رحب في مقدمه، ثم اتجه بقواته صوب الشرق وشن هجوماً على قرية جهرة الساحلية بالقرب من الكويت، ولكن السكان دافعوا بكل قوة وصبروا على القتال حتى ظهرت سفينة حربية بريطانية في الحلبة استمد منها المدافعون عوناً روحيًّا في أقل تقدير، مما دعا ابن الرشيد لأن ينسحب إلى معسكره في حفر الباطن، راجياً أن تمده تركيا بعد هذا بمساعدة مادية ليعيد تنظيم قواته ويعوض خسارته.

ولكن تركيا كانت في هذا الوقت منشغلة بالمفاوضات مع برلين حول الخط الحديدي المزمع مده إلى بغداد وإلى الخليج العربي. ولهذا كانت راغبة عن كل ما يبرر تدخل بريطانيا تدخلا فعليا، مما دعاها لأن تترك حليفها ليدبر شؤونه بنفسه، دون أن تعده بشيء إلا المساعدة الأدبية بالموافقة على كل ما يستطيع عمله لكي يبقى الموقف في هذه الأصقاع

مائعا. أما الشيخ مبارك الذي كان يلعق جراحه الدامية فقد تجنب كذلك أية مغامرة أخرى من شأنها أن تثير حفيظة تركيا عليه. وكان يبدو كأنما فصل الصيف ١٩٠١ - ١٩٠٢ قد ينقضي دون أن يشهد حدثاً جديداً، لولا أن عبد العزيز كان يسّر أموراً أخرى عندما وافق الشيخ مبارك وعبد الرحمن على أن يخرج الأمير الشاب في رحلة إلى الصحراء للكشف عن مصادر أضرار قد تتحقق. وما كان الشيخ مبارك ولا عبد الرحمن ليتوقع أحدهما نتائج مهمة تنحسر عنها هذه الرحلة. ورغم هذا فقد حذرا الأمير الشاب من التورط في مشاكل لا فائدة ترجى من ورائها، عندما خرج في (٤٠) من رجاله الأقوياء من الكويت على ظهور جيادهم متجهين صوب الجنوب إلى الصحراء المتاخمة لإقليم الأحساء الذي كان ولاية تركية آنئذ، واخذوا يجمعون لأنفسهم أحلافاً من البدو حيث استقر بهم المطاف في أول السنة الجديدة عند مياه حرض، هذه البقعة التي ذاعت شهرتها بعد ذلك بخمسين عاماً كأغنى مكان للبترول في العالم. وإلى هذا الحد كان تجوالهم عقيماً غير ذي ثمر، وتسرب أغلب الرجال من البدو عائدين إلى بلادهم ليقضوا شهر الصوم «رمضان» في شيء من الراحة والدعة بين أهلهم.

وقرابة نهاية هذا الشهر قاد عبد العزيز من بقي من رجاله وقد بلغ عددهم (٢٠٠) من أشداء المقاتلين متجهاً بهم صوب الشرق حيث احتفلوا بعيد الفطر المبارك عند آبار أبي جفان، وفي نفس الليلة ركبوا زاحفين على الرياض! قضوا النهار التالي بين أحضان الوديان الظليلة من هضبة جبيل، حيث كانوا أقل عرضة لأن يراهم أحد أثناء أيام العطلة التي يقضيها كل إنسان في بيته ليشارك أسرته الاحتفال بالعيد. ولكن المسير بدأ ثانية بعد غروب الشمس في (٤٠) رجلاً اختارهم عبد العزيز وكانوا خيرة رجاله وأشدهم بأساً، بينما تركت بقية الرجال لتعود بالمتاع وبأسرع ما يمكن

إلى الكويت إذا لم تصلهم أخبار عن حوادث هذه الليلة حتى ظهر الغد. وعندما اقتربوا من الرياض في ظلمة ليلة غير مقمرة، بعث عبد العزيز معظم رجاله بقيادة أخيه محمد بين أدغال النخيل في العودة انتظاراً لما تتمخض عنه الحوادث، بينما اتخذ هو ورجاله (١٥) المختارون سبيلهم في هدوء إلى الناحية الشمالية للمدينة، إذ كانوا يعرفون من تجارب السنة الماضية أن سورها في هذه الناحية متصدع يمكن تسلقه واجتيازه بسهولة. لقد جرت الأمور بما يحبون، فالثلمة في السور لم تصلح، ولقد أوى سكان الرياض الأخيار إلى فراشهم بعد صلاة العشاء. لم يلحظ وجودهم أحد، ولم يلبثوا أن وجدوا أنفسهم، دون ما جهد ولا صعوبة. داخل المدينة وبجوار حصن المصمك. وكان من المعروف أن الحاكم الرشيدي عجلان يقضي فيه لياليه عند وقوع الأحداث، بينما كان مقامه الخاص في دار تواجه مباشرة المدخل الوحيد للحصن. تقدم عبد العزيز وأصحابه نحو هذه الدار، وما زالوا في خفية عن العيون، وطرقوا الباب ففتحته لهم امرأة، وعندئذ لم يتطلب الأمر إلّا ثواني معدودات لتقع الدار في قبضة الرجال الذين دفعوا بالنساء والخدم إلى إحدى الحجرات وتركوهم فيها تحت حراسة قوية. مكث عبد العزيز ورجاله يرقبون مدخل الحصن من فجوة في الطابق الأعلى، يشربون القهوة ويتلون القرآن الكريم حتى مطلع الفجر عندما بارح الحاكم الحصن إلى مسكنه الخاص. وبمجرد أن فتح الباب على مصراعيه وخرج الحاكم وبطانته إلى الطريق مزهوين، انقض عليهم عبد العزيز ورجاله من داخل الدار فنشبت بينهم معركة عاتية عنيفة بين الفريقين قتل فيها عجلان وبعض حرسه، كما أباد عبدالله بن جلوي رجال الحاكم الذين حاولوا أن يغلقوا باب الحصن في وجه المهاجمين. وهكذا انتهى كل شيء في بضع دقائق! وهكذا أتيح لأمير من بيت آل سعود أن يصبح سيد الرياض مرة أخرى، وأسرع رعاياه

ليظفروا برؤية آيات هذه البطولة وليقدموا التهنئة والترحيب للأمير المظفر[١].

لم يكن لحادث الرياض في نفس عبد العزيز بن الرشيد إلّا صدى ضعيف فاتر، وربما اعتقد أنه يستطيع أن يسترد مركزه في وسط بلاد العرب في الوقت المناسب وعند الفرصة الملائمة، إذ كان كل جهده مركزاً في الاستيلاء على الكويت. ولهذا بقي في معسكره عند حفر الباطن يرجوا من تركيا عوناً عسكريًّا لم ينله أبداً، ولكنه عندما اقترب الصيف ارتد إلى حائل ضجراً ساخطاً، لكي يعد حملة عسكرية يسير على رأسها في الشتاء التالي لقهر ابن سعود الذي كان أول ما عمل بعد فتح الرياض. أن جدد بناء أسوارها.

أما من الناحية السياسية فإنه ركز جهوده في إعادة تنظيم الولايات الجنوبية وهي الخرج والحوطة والأفلاج ووادي الدواسر، التي لم يستطع حتى محمد الرشيد أن يبسط عليها سلطته الفعلية والتي كثيراً ما طردت منها جامعي ضرائبه. وهكذا عرفت الولايات الشمالية من جراء المعاملة القاسية التي لقيتها من عبد العزيز الرشيد إثر انتصاره في معركة الصريف، ما يمكن أن تتوقعه إذا استرد بلادهم ووقعت تحت حكمه مرة أخرى. ولهذا كان في مقدور ابن سعود أن يعمد على عون مادي جدي من هذه المناطق. وكان أخوه سعد ساعده الأيمن في كل هذا النشاط، وعندما حل الخريف

---

(١) بقدر ما استطعت أن أحقق فإن الأربعة الآتية أسماؤهم من هذه القوة ما زالوا على قيد الحياة وهم: الملك نفسه، وابن عمه عبد العزيز بن مسعد (إذ كان وقتئذ في ريعان شبابه)، ثم سعد بن بخيت بن سيد، وعلى الأرجح كذلك عبدالله الحمصاني (ومن المعتقد أنه توفي)، وأيضاً شويش بن دوامي الذي كان من بين حرس قلعة الرشيد. وكذلك كان عبد العزيز بن ربيع بين الذين خرجوا من الكويت، ولو أنه لم يشترك في العمليات الأخيرة.

وقام ابن الرشيد بهجومه المرتقب، كان قد تم إعداد كل شيء ليلقى العدو استقبالاً حارًّا. وكان ابن السعود في هذه الأثناء قد دعا أباه كي يعود إلى الرياض، وكان قبل ذلك قد تنازل له عن العرش بعد هزيمته في معركة الصريف، ليكون نائب الملك أثناء غيابه في الميدان، وقد كان عودة الأب إلى وطنه بعد اثنتي عشرة سنة مناسبة لاحتفالات مظفرة حماسية ومظهراً رائعاً لعودة الأسرة المالكة إلى حكم البلاد التي حكمها أسلافها من قبل. ولقد ظل الوالد طوال ربع قرن رائداً ومعلماً وصديقاً لولده: في صحبة وجميل عشرة تعتبران مظهراً رائعاً ومثلاً أعلى لفخار الأبوة وحدبها ولولاء البنوة وحبها، وكان للأب في الحفلات وأضرابها من المناسبات مكان الصدارة والرئاسة، بينما كانت سلطة الابن ومسؤليته مطلقتين في شؤون الحكم ولا معقب عليهما، وكان الوالد هو «الإمام» بينما كان الولد هو القائد لرعيته في السلم والحرب، ولكن كانت هناك المسائل لم يكن الأمير الشاب يستشير أباه في شأنها.

كان ابن الرشيد في خلال هذا يعمل في الجنوب بتقاليد حروب الصحراء المتمهلة، فكان يقوم بإرسال طلائعه وبعوثه العسكرية في المقدمة وعلى جانب جناحي الجيش بحثاً عن الثغرات التي يمكن أن ينفذ منها. أما الهجوم المباشر الذي شنه على الرياض نفسها فقد تكسر على جدران حصونها الجديدة وعلى سواعد حماتها من خيرة الجنود الأقوياء. ولقد ذاع من الناحية الأخرى أن آل سعود موجودون في الجنوب لجمع قوات كبيرة وعتاداً ضخماً استعداداً لحملة طويلة. ولهذا قرر ابن الرشيد أن يرغمه على القتال قبل تمام استعداده واكتمال أهبته، فترك الرياض لتتنفس الصعداء منحدراً مع وادي السلى صوب إقليم الخرج الذي كانت عاصمته الدلم هي هدفه المباشر. وقد عسكر هذه الليلة بين نخيل نعجان لكي يبعث بقواته الخائفة عند الفجر عبر الطريق

المفتوح بين معسكره وواحة نعجان، ولكن عندما كانت هذه القوات على مسافة قصيرة من هدفها وقعت تحت نيران شديدة صبتها عليها قوة كبيرة أحضرها ابن سعود تحت جنح الظلام واتخذت مراكزها بين أدغال النخيل، وأمرت بأن لا تبدأ بإطلاق النار حتى يغدو العدو قريباً منها. ولقد بعثت هذه المفاجأة الغريبة بعض الاضطراب في صفوف العدو. ولكن عبد العزيز الرشيد، الذي كان قائداً عسكريًّا محنكاً، أسرع بإعادة تنظيم جنده ودفع بهم في معركة عنيفة استمرت حتى غروب الشمس دون أن تسفر عن نتيجة حاسمة، ولو أن التميز كان في جانب المدافعين الذين لم تأخذهم الدهشة ولم يتملكهم الخوف والوجل رغم ان ذخيرتهم كانت على وشك النفاد. أما وقد كان عبد العزيز الرشيد يجهل هذه الحقيقة الحيوية فإنه قرر الانسحاب إلى السليمية أثناء الليل قانعاً بعلمه أن العدو في مكان تتعذر مطاردته فيه، ثم واصل السير صوب الشمال ليجمع الجند ويستعد لفرصة أخرى تمتحن فيها قواته. وهكذا، ورغم أن الجولة الأولى لم تكن فاصلة، فإنها كانت في صالح ابن سعود الذي كسب بسببها فسحة ثمينة من الوقت لاستكمال خططه التي لم تكن بأية حال قاصرة على أوجه الدفاع وحدها.

وهكذا عاد ابن الرشيد يواصل اهتمامه بالكويت. وسرعان ما كان يعسكر مرة أخرى حول آبار حفر الباطن حيث كان يشن غارات منتظمة على إقليم مبارك حتى أسوار العاصمة نفسها. أما الأتراك فإنهم لم يغيروا من سلوكهم السلبي، وأما الشيخ مبارك وقد ضايقته وأحفظته هذه الغارات المتصلة، فإنه عجل بطلب العون من ابن سعود وقد انتهى من ملأ مخازنه واعادة تنظيم جيشه ولهذا أسرع إلى المنطقة الساحلية ليشترك بقواته مع جيش جابر، أكبر أبناء الشيخ مبارك، في عمليات هجومية حول معسكر العدو وبعد قتال في مناوشات ومعارك صغيرة غير فاصلة، أخلى ابن

الرشيد المعسكر في انسحاب عام صوب حائل تاركاً الجولة الثانية أيضاً لتكسبها القوات المتحالفة «بالنقط».

وبعد بضعة أيام كان يواجه أسوار الرياض، أما ابن سعود، وكان على علم بهذه الحركة الجديدة، فإنه ترك عاصمته لتعني بنفسها واتجه بكل سرعته إلى ولاية القصيم الشمالية ليغزو قبيلة مطير وغيرها من العناصر القبلية في قوات العدو. وكان من شأن هذا العمل أن يرد ابن الرشيد عن الرياض حقيقة، ولكن بعد قتال مرير كان في غير طائل إذ تكسر على أسوارها. ورأى عبد الرحمن في انسحاب العدو فرصة متاحة لكي يضرب ضربة لحساب ابنه، فأرسل قوة في أثر العدو وصلت فعلاً إلى ناحية الوشم أمام العدو المنسحب الذي وجد أن الطريق قد قطع عليه باحتلال القوة السعودية لبلدة شقراء أكبر البلاد التي تحت حكم مساعد ابن سويلم، كما احتل قرية ثرمدا بقوة أمامية صغيرة. ولقد كانت هذه القرية موالية دائماً لابن الرشيد الذي لم يجد صعوبة في طرد الكتيبة السعودية منها قبل أن يتقدم ليواجه مدينة شقراء التي ضرب عليها حصاراً لم يلبث أن رفع عند ظهور ابن سعود فجأة في قوة كبيرة اجتاحت فرقة منها تحت إمرة عبدالله بن جلوي قرية ثرمدا بعد قتال عنيف. ومن ثم استدار ابن الرشيد شرقاً إلى إقليم سدير على هضبة طويق، ولكن الوهابيين ساروا في أثره من بقعة إلى أخرى حتى تم لهم الاستيلاء على الولاية كلها إلّا عاصمتها المجمعة. ولما كان موسم القتال يقترب من نهايته، فقد قرر ابن الرشيد أن يضع حداً لخسائره بالانسحاب إلى ولاية القصيم حيث يستطيع أن يعتمد على مساعدة قوية من بريدة وقراها التي تدين له بالطاعة. أما ابن سعود فإنه لم يمكث إلّا لينظم الحكم في الولايتين اللتين أخضعهما ثم تركهما في عناية أحمد السديري، الذي تزوج ابن سعود ابنته بعد فترة قصيرة، وعاد إلى الرياض التي رجعت إليها أسرته كلها من الكويت: هذا في حد ذاته برهان قاطع على ثقته في قوة النظام الجديد وثباته.

انتهت هدنة الصيف بغزوة قام بها ابن الرشيد في خريف سنة ١٩٠٣ على قبيلتي عتيبة وقحطان اللتين دخلتا في حلف مع السعوديين عند فتح الوشم وعندئذ اتجه ابن سعود إلى سدير ليراقب الموقف ليستعد للخطوة التالية التي كانت تهدف إلى التقدم نحو ولاية القصيم، ولكن انحباس الأمطار الموسمية أوقع الأقاليم الوسطى من نجد في الظمأ والقحط، واستلزم الأمر تأجيل خططه فعاد إلى الرياض. ولقد انتهز ابن الرشيد هذه الفرصة الموقتة التي سكن فيها عدوه، لزيارة الحدود العراقية لكي يجمع جنداً من بين قبيلة شمّر في هذه المنطقة، ثم ليطلب من تركيا، في إلحاح أشد مما سبق، عوناً إيجابيًّا في موقفه الذي يهدد بأن يصبح بالغ الحرج نظراً للخطر الجديد المنبعث من الجنوب. ولقد اتخذ قبل سفره إجراءات وقائية إذ أقام مخافر أمامية قوية في ولاية السر شمال الوشم تاركاً خيرة قواته في القصيم تحت قيادة حسين بن الجراد. ومما برز هذا الإجراء الأخير إمكان وقوع أعمال عدوانية نظراً لكثرة الموالين السعوديين في عنيزة التي كثيراً ما كانت تنقسم على نفسها.

لم يعد ابن سعود إلى نشاطه وحركاته ثانية إلّا في آذار/ مارس سنة ١٩٠٤، ولكنه كان إذا عمل، إنما كان يعمل لبعض الأغراض. ولقد أنزل هزيمة مدوية بقائد ابن الرشيد إثر زحف خاطف على السر فقتل القائد نفسه في هذا الصراع، استطاع أن يخضع جزءاً من هذه القبيلة الكبيرة، قبيلة حرب التي ظلت غالبيتها على ولاء لابن الرشيد في المنطقة الشمالية لوادي الرمة. وبعد فترة استجمام قصيرة بعث ابن سعود برسله إلى جميع الجهات يدعو جموع العشائر والقبائل لمقابلته في واد بين ثنايا هضبة طويق، كان هذا يوحي في طبيعته بشيء كالتردد والتراجع قبل التقدم التالي، ولكن ابن سعود ضرب خيامه حقيقة في السر محافظاً على ميعاده. ولم يضيع فرصة وجوده بين رمال النفود، إذ استدار مسرعاً

صوب الشمال ليظهر فجأة ودون إنذار، أمام أسوار عنيزة تصحبه الشخصيات البارزة من سكانها ومن بينهم معظم سلالة زامل الذي استشهد في معركة المليدا سنة ١٨٩١. وكان ماجد بن سبهان[١] هو حاكم البلدة الرشيدي، الذي يعتمد على ولاء وعون آل بسام وغيرهم من الأسر المحلية الكبيرة. بدأ الهجوم على المدينة بمقاتلة عنيزة أنفسهم، وقد تقدم لمساعدتهم في مرحلة متأخرة من المعركة عبدالله بن جلوي بجنوده من الطراز الانكشاري. وكان النهار يسير متئداً في صالح المهاجرين، ولكن الحاكم الرشيدي فضل ما يدعو إليه التبصر على أعمال الجرأة والشجاعة في غير طائل، فولى الأدبار مسرعاً مع جنوده تاركاً المواطنين الموالين ليسلموا إلى قواد سليم بدلاً من المخاطرة بوقوعهم بين يدي ابن جلوي وجنوده المتعصبين. وهذه هي المعركة التي التقى بعدها ابن سعود بأبناء عمومته الذين افتقدهم منذ زمن طويل، وهم الأسباط الثلاثة لعمه سعود الذي يظن أنهم انحدروا من حائل لعلهم يستخلصون لأنفسهم شيئاً فيما لو دارت الدائرة على الوهابيين، والذين يبدو أنهم لم يشتركوا في هذه الأعمال: إلى حد أنهم شدوا الوثاق على سيقان خيولهم حتى لا يستطيعون حراكاً. استقبلهم ابن عمهم الظافر بذراعين مفتوحتين وأخذ يداعبهم بأن سماهم، «**العرائف**»، كما تسمى الإبل المسروقة التي استردت من الأعداء. ولقد برهنوا، كما سنرى بعد، على أنهم شركاء ضعاف غير ذى مواهب: لقد أرادوا مراراً أن يؤكدوا حقهم في عرش الرياض بحركات تمرد وانتقاض، مقيمين زعمهم على الحقيقة في أنهم كانوا الفرع الأكبر في أسرة سعود. وقد

(١) يقول المؤرخ الكبير الشيخ محمد بن بلهيد النجدي أن صحة هذا الاسم: ماجد بن حمود الرشيد.

كان لأحدهم، وهو سعود بن عبد العزيز بن سعود، أن يتزوج نورة شقيقة ابن سعود بما له في هذا من حق تقليدي وفق عادات نجد ورغم سلوكه المتمرد نحو أخيها، ولكن من حسن الحظ أن هذا الخلاف قد توارى منذ زمن بعيد بين طيات النسيان، وأن اثنين منهما قد امتد بهما العمر ليساهما في الاحتفال بالعيد الذهبي لهذه المناسبة. إنهما أكبر الذكور في الأسرة سنًّا، ولو أنهما من جيلين مختلفين، ويتقدم سعود على جميع أفراد الأسرة المالكة في بلاط ابن عمه: الملك.

لم يتوان ابن سعود في متابعة ظفره إذ أخذ يزحف إلى مدينة بريدة الذي لم يحاول ماجد بن سبهان الدفاع عنها، والتي لم يكن له جَلَد على القتال فأسرعوا يفتحون مداخلها للفاتح المظفر، رغم أن الحاكم الرشيدي المحلي قد استعصم وجنده بالحصن الكبير مدة شهرين رجاء وصول عون عسكري إليهم، فتركوا ليواجهوا قدرهم حيث هم أخيراً ولكنهم استسلموا في شهر حزيران/ يونيو. وبعد فترة تقل عن سنتين ونصف من فتح الرياض، كان ابن سعود قد استرد كل ممتلكات أجداده في نجد.

وهكذا ضاعت كل فتوحات محمد الرشيد، الكبير على يد خلفه الذي كانت كفايته وتدريبه في المعارك على نقيض ضعفه وجهله في الإدارة والسياسة.

وإذا كان الهدف الأصيل لابن سعود لم يتجاوز استرداد مملكة أجداده في نجد، إلّا أن إمكانيات بناء دولة واسعة بدت له عندئذ ممهدة السبيل خالصة من كؤود العقبات، لا يعترض تحقيقها إلّا هذا الرجل الذي هزمه ابن سعود. ويبدو أن عبد العزيز الرشيد قد تقبل هذه الهزيمة بروح فلسفية قوية وربما كان يعتقد على طراز البدو، أن يوم الثأر لا محالة آت في ميعاده المقدر وظروفه المناسبة! وكان في هذا الوقت دائباً على بذل ما

يستطيع من محاولات من معسكره في الباطن لكي يحفز تركيا على أن تمد له يد المساعدة إذ كان موقناً بأن ابن سعود لن يقنع بالتوقف عند حدود القصيم. وكان قد تحقق لدى تركيا من واقع تصريحات ونشاط اللوردين، لانسدرون وكيرزون، في سنة ١٩٠٣، أن بريطانيا لا تسمح بأي تغيير أو انتقاص من الاستقلال التقليدي لإمارة الكويت التي أرسلت إليها للمرة الأولى مبعوثاً سياسيًّا هو الصاغ س.ج. نوكس في السنة التالية رغم احتجاجات الباب العالي. ولهذا تحول انتباه تركيا إلى جنوب الصحراء، حيث جرى ما لم تكن تتوقع من أحداث أخذت تهدد استقرار الأمور في شمال بلاد العرب الذي كانت تعتبره دائماً جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. وكان ابن الرشيد يعتبر نفسه حقيقة حاكماً من قبل تركيا وتحت سيادتها، ولو أنه كان من الناحية العملية مستقلاً عن إشرافها ورقابتها، بينما كان ابن سعود يبدو كعدو بارز وحليف لعناصر معادية للباب العالي. وعلى أية حال فإن موقف ابن الرشيد كان حرجاً لدرجة حتمت على تركيا أن تعيد نظرها في سياستها إزاء الصحراء. ورغماً عن قيظ الصيف قررت تركيا أن ترسل إليه عوناً عسكريًّا سريعاً ليساعده على استعادة الموقف في القصيم. وفي نهاية آذار/ مارس سنة ١٩٠٤م تحركت ثماني كتائب تركية إلى الصحراء، تصحبها مقاتلة من شمّر جمعهم ابن الرشيد على ضفاف الفرات، فوصلت قصيبة شمالي القصيم في نفس الوقت الذي وصلها فيه حرس بريدة الذي كان قد سرح نظراً لظروف تسليمه.

وكان يبدو أنه لا بد من عمل مباشر من جانب ابن سعود لكي يحرّر القصيم فعلاً! هذا بينما تقدم القائد التركي فيضي باشا نحو الجنوب بكل قوته حتى نفود الملحاء في إقليم القرعى بجاور المكان الذي شهد انتصار محمد الرشيد في سنة ١٨٩١. أما ابن سعود فإنه تحرك من بريدة في قواته ليواجه هذا التهديد، واتخذ موقفه بالقرب من البصر بين الكثبان الرملية في إقليم خبوب بينما سار العدو على إفريز الرمال إلى البكيرية. وفي هذا

المكان يوم ١٥ حزيران/ يونيو نشبت معركة استمرت طول النهار تنقل أثناءها الحظ بين الجانبين. لقد ثبت الأتراك في مراكزهم بكل قوتهم، بينما اقتحمت فرقة القصيم من جيش ابن سعود معسكر جنود شمّر وشتت شمل المدافعين عنه.

وعندما عادت بعد ذلك إلى معسكرها الرئيسي، أفزعها أن رأت الترك قد احتلوا خيام الوهابيين الذين جرح من بينهم ابن سعود نفسه برصاصة أصابت يده، فولى الأدبار معتقداً أنه خسر المعركة وأن حلفاءه قد ذهبوا أيدي سبأ! ولكن رجال عنيزة البواسل انقضوا على الأتراك الذين استبدت بهم الدهشة إذ لم يتوقعوا ظهور قوات معادية في مؤخرتهم، فأسقط في أيديهم وولوا فراراً بدورهم تاركين وراءهم كل ما غنموا، وفوقه المدفعين اللذين أحضروهما للدفاع عن المعسكر إذا تجدد الهجوم عليه. ورغم هذا فقد ساور رجال عنيزة القلق لاختفاء ابن سعود الذي لم يجدوا له تفسيراً، ولهذا آثروا أن ينسحبوا من مركزهم المكشوف المهدد. وهكذا ظل الأتراك محتلين ميدان المعركة، وكان في مقدورهم أن يعتبروا هذا نصراً كبيراً من الناحية الفنية العسكرية، التكتيكية، ولو أنهم تابعوا زحفهم صوب اليمين لكان من اليسير عليهم أن يستولوا على المعسكر قبل أن يستفيق العدو من صدمته ويجمع قواته لجولة ثانية. ويقال إن عدد القتلى بلغ ألف قتيل من الفريقين.

ومن حسن طالع ابن سعود، أن قرر الأتراك وحلفاؤهم من شمّر قصر العمليات في وادي الرمة على شمال البكيرية بحيث تكون الرس هدفهم الرئيسي. وفي هذه الأثناء تلقى الجيش الوهابي مدداً عسكريةً من قبيلتي عتيبة ومطير وسرعان ما كان ابن سعود في موقف يسمح له بالتقدم نحو البكيرية حيث كان المعسكر التركي ومؤونة الجيش في حراسة ضعيفة، بينما كان الجيش التركي في شغل بالقرى الضاربة صوب الغرب، فلم يجد

الوهابيون صعوبة في احتلال المعسكر بعد مناوشات وقعت بينهم وبين فصيلة من فرسان العدو، بينما كان الجيش التركي يصب قنابله على قرية الخبر التي قاومت المهاجمين حتى اضطرت للتسليم بظهور الكوليرا، التي لم تكن معروفة حتى هذا الوقت في صحراء العرب، والتي انبعثت من معسكر العدو. ومن ثم تقدم الأتراك إلى شنانة لحصار الرس نفسها، بينما أسرع ابن سعود ليحمي المدينة من هجوم مسلح. ولقد اكتفى الترك بضرب المدينة بالقنابل ضرباً مستمراً وبهجمات للإرهاب وبث الفزع في النفوس، بينما بقي الجيشان المتنافسان متواجهين مدة لا تقل عن ثلاثة شهور في قيظ الصيف، وقد أفزعتهما الكوليرا في المعسكرين. وكانت الحالة في الجيش الوهابي تبين عن تمرد سافر بحيث لم يجد ابن سعود بديلاً عن أن يتقدم بمقترحات للصلح قوبلت من جانب ابن الرشيد بالرفض والسخرية، ومع ذلك فقد كان رجاله من قبائل شمّر هم الذين بدأوا بحركات الفرار من المعسكر وترك الجيش، بحيث اضطر لأن يسمح لهم بالذهاب إلى مراعيهم كي تستعيد الإبل نشاطها وتستجم. ولكن ابن سعود لم يرقه أن يذهبوا في سلام، فأخذ يهاجم في عنف قوافلهم المحملة بغنائم الحرب والمؤن كلما ذهبت. وأراد الأتراك أن يقابلوا هذا العمل بضرب منطقة قصر ابن عقيل المنعزلة المحصنة بالمدفعية ليحولوا دون مهاجمة قوافل مقاتلة شمّر. ولكن ابن سعود خرج ليعترض سبيلهم، فأخذ العدو يتقهقر صوب الشمال، وعندئذ دفع بفرسان الوهابيين في وجه الأتراك المجهدين الذين أرغموا على الوقوف في ممر في وادي الرمة. ولقد وجه فرسان شمّر بهجومهم الأول ضربات قوية إلى جناح الوهابيين الأيمن الذي بدأ يتراجع، ولكن ابن سعود وقد اتضحت له الحالة، لم يتردد في أن يدفع بجنوده إلى قلب العدو حيث اتخذ الأتراك مراكزهم ومعهم المدفعية، فبدأوا يتراجعون تحت أثر هذه المفاجأة وهذه المناورة الجريئة. وعلى

أثر ذلك انحلت عزائم فرقة شمّر وولت الأدبار مخلفة وراءها البنادق والمؤن والذخائر وكل عتادها. كانت غنيمة الوهابيين ضخمة جدًّا، ومن بينها مبالغ كبيرة من الذهب أعدت لدفع مرتبات الجنود من الأتراك، فانهمك الوهابيون في جمع الأسلاب والغنائم حتى لم يفكروا في مطاردة العدو. وقد كان من المحتمل أن تبلغ هزيمة الترك وحلفائهم مبلغ الاستئصال والإبادة، لو فطن الوهابيون إلى ذلك! ولكن لم يعد هناك احتمال لأي شك أو ريبة في أن ابن سعود قد انتصر انتصاراً كاملاً. وهكذا قدر لحملته التي بدأت وهي لا تبشر بشيء عظيم في حزيران/ يونيو عند البكيرية أن تنتهي في أيلول/ سبتمبر وقد حققت نصراً حاسماً. أما الأتراك الذين تضاءلت معنوياتهم على أثر الهزيمة والذين أضناهم القتال الطويل في جو غير ملائم، فلم تعد لهم أية قيمة من الناحية العسكرية، واستسلم بعضهم لابن سعود بينما قضى المرض والظمأ على كثير منهم في الصحراء: ومن بقي منهم بعد ذلك فقد ارتد مع ابن الرشيد إلى حائل. وبما أن الحكومة العثمانية كانت ملتزمة في نفس الوقت بإرسال حملة أكبر وأكبر خطراً إلى اليمن، فقد قررت أن تضع حدًّا لهذه المغامرة العربية، وأرسلت تعليمات إلى فيضي باشا ليبدأ مفاوضات مع ابن سعود لعقد معاهدة تكفل حياد ولاية القصيم كمنطقة حرام بين الدولتين الوهابية والشمّرية، تقوم على حيادها فرقة تركية تقيم في عنيزة وبريدة ويدير شؤونها حاكم تركي عام: والظاهر أن الحكومة التركية لم تكن تدرك حقيقة مركز جيشها في بلاد العرب! ولكن ابن سعود أيضاً لم يكن على ثقة تامة من مركزه من موقف أهل هذه الولاية المتقلبين المترددين، ولهذا فقد قبل فعلاً أن يتفاوض مع الترك على هذا الأساس المقترح، وعين والده لكي يرأس المفاوضات مع فيضي باشا. سارت هذه المفاوضات شهراً في إثر آخر دون أن تبشر بالوصول إلى نتيجة نهائية، حتى أرغمت تركيا تحت

ضغط الحوادث في اليمن على أن تسحب فيضي باشا ليقود الحملة التي أعدت لاستعادة الموقف في هذه البلاد، وبقي نائبه صدقي باشا ليباشر المفاوضات التي سرعان ما انتهت بتقرير سحب قوات الحملة التركية من بلاد العرب إلى العراق والمدينة. ولقد كان ابن سعود صادق الرغبة في أن تذهب هذه القوة دون أن تتعرض لأذى، ولكنه صمم على أن يكون ذهابها تحت حراسة قوية ليتأكد من مبارحتها البلاد، ومن أن لا تبقى في بلاد العرب إلّا القوة المقرر وضعها في المدينة. حتى تعبر القوة الأخرى الحدود العراقية. ولم يكن هذا أكثر من إجراء وقائي لتفادي أية خدعة مبيتة، ولكن وقع حادث غير متوقع وهو إن مرض الزهري الذي لم يظهر في وسط بلاد العرب منذ وجود الأتراك في هذه البلاد في فجر القرن التاسع عشر، قد عاد للظهور بين جنود ولاية القصيم. ومن نكد الطالع أن هذا المرض اليوم كثير الانتشار في بلاد العرب لدرجة تبعث على التشاؤم والتفكير جديًّا في هذه الحالة. ولكن الإصابات كانت قليلة عند دخول نجد منذ ثلاثين عاماً ونيف، كما أن الحالات التي عرفت كانت تعزى، أما إلى الحملة التركية، وإما إلى علاقات واتصالات بالمناطق الساحلية، وخاصة الحجاز.

إن انسحاب الأتراك في مثل هذه الظروف التي وطدت مركز ابن سعود ودعمت نفوذه، كان بمثابة ترك الرجلين المتنافسين على سيادة بلاد العرب لمواجهة بعضهما بعضاً حتى يفض القتال الخلاف الناشب بينهما دون ما تدخل من الخارج. ولكن الشيخ مبارك، وقد رابته جلائل الأعمال التي قام بها تلميذه السابق والنجاح المحلي الذي حققه، فقد أخذ يعمل على وجود توازن للقوى بالاتصال والتقرب من عدوه السابق وقد كان ابن سعود حازماً في تصميمه على أن تظل ولاية القصيم ضمن مملكته، رغم الدسائس والفتن التي كان يقوم بها الجانب المعارض له

في المدينتين الكبيرتين، والتي أحفظته واستشارته لدرجة لا حد لها. ولكي يبلغ بالأمور غايتها فقد ابتدع تجربة لطيفة في علم النفس المحلي، إذ كان قد تسلّم طلباً ملحاً بالمساعدة من الشيخ قاسم آل ثاني حاكم قطر على الخليج العربي الذي دبر أخوه أحمد مؤامرة لانتزاع السلطة منه. وقد يسر هذا لابن سعود عذراً معقولاً لكي يترك القصيم لمشاكلها موقتاً، رغم أنه كان يعرف أن ابن الرشيد قد ينتهز فرصة غيابه ليحاول مرة أخرى الاستيلاء على هذه الولاية. ولم يكد يبتعد في سفره حتى انحدر ابن الرشيد واحتل الرس كقاعدة لعمليات حربية تالية. ولقد منيت القوة التي أرسلت من القصيم لتسترد هذا المكان بهزيمة شنيعة تقدم بعدها ابن الرشيد ليلقي على سكان الرس درساً في الإرهاب والقسوة كما فعل بسكان الوشم وسدير بعد انتصاره في الصريف. ولقد كان لسكان عنيزة وبريدة عظة فيما وقع لجيرانهم من أعمال ابن الرشيد الوحشية التي لم تجد قبولاً ولا موافقة حتى من أنصاره، فأخذ سكان القصيم يجأرون بصوت واحد طالبين رجوع ابن سعود، كما أن شكواهم قد لقيت صدى لدى الشيخ مبارك الصباح الذي كتب لابن الرشيد يحثه على ترك سلوكه هذا وعلى مقاومة هذا الاتجاه لدى السكان. وبعد أن نجح ابن سعود في تخليص صديقه الشيخ قاسم آل ثاني من الخطر الذي حاق به، عاد إلى الرياض عاملاً على إعادة تنظيم قواته وتدعيم أداة الحكم، وكل ما استطاع عمله في هذه الآونة هو أن أرسل أخاه محمد ليغزو قبيلة حرب في شمّر بينما تقدم ابن الرشيد ليغزو مطير. ولكن لم يكد يحل خريف سنة ١٩٠٥ حتى ترك ابن سعود نفسه ليعسكر في إقليم الأسياح تصحبه قوة عسكرية كبيرة من بريدة تحت إمرة حاكمها صالح بن مهنى. ولكن بالنسبة للريبة التي ساورته من فتور صالح بن مهني، ولا نقول إمارات الخداع التي بدت عليه، فإن ابن سعود انتقل بجيشه إلى زلفى حيث غطت مؤخرته الولايتان الموالتيان

له وهما الوشم وسدير. وهناك علم بدسائس الشيخ مبارك مع كل من ابن الرشيد وحاكم بريدة، ولهذا سرحت فرقة بريدة وحلت محلها **قوة من قبيلة مطير تحت إمرة القائد المهيب فيصل الدويش.**

انقضت الشهور الأولى من سنة ١٩٠٦ في مناوشات لا طائل تحتها، إذ كان ابن سعود يحاول خوض معركة فاصلة بينما كان ابن الرشيد يتجنب ذلك ما أمكنه. وفي شهر نيسان/ أبريل من هذه السنة كان هذا قد اتخذ معسكره في روضة مهنى على مسير بضع ساعات من معسكر ابن سعود، مزمعاً الاتصال بقوات بريدة في شفة. والآن كانت فرصة آل سعود قد سنحت! ولكي يأخذ العدو على حين غرة، فإنه تقدم بقواته سيراً على الأقدام لقطع المسافة التي تفصل بينهما. لم تتم المفاجأة على الوجه الأكمل، ولكن الوهابيين قاموا بهجوم مكن لهم من احتلال المعسكر الرئيسي، بينما كان ابن الرشيد يحاول جُهدَ طاقته أن يجمع ويعيد تنظيم قواته المتناثرة المشتتة. ثم نشبت معركة عنيفة! كانت قوات شمّر تتراجع تحت هجمات العدو القوية، وقتل عبد العزيز الرشيد نفسه بينما كان يحاول أن يجمع جنده ويحثهم على الثبات. وبهذا انتهى القتال وانفض النزاع بين الأسرتين العربيتين المتنافستين ولكن إلى حين، إذ لم يكن ابن سعود في موقف يسمح له بالزحف على حائل ومحاولة فض هذا النزاع نهائيًّا. أما الأحياء من أسرة ابن الرشيد فقد تركوا ميدان المعركة مسرعين إلى العاصمة ليتخاطفوا وليتشبث كل منهم بالعرش الشاغر فيها، بينما انبعثت دسائس تركيا من جديد كي تظفر بموطئ قدم في قلب بلاد العرب: أولاً مع حاكم بريدة وفيصل الدويش، وأخيراً مع متعب بن عبد العزيز بن الرشيد ووريثه الذي عمل على تثبيت مركزه في حائل كخلف لأبيه: وهو الأول، وكانوا خمسة رجال تعاقبوا على هذا العرش في فترة سنتين بعد معركة روضة مهنى! ولقد تيسر لابن سعود أن يترك حائل بسبب

الصراع الناشب بين أمرائها، ليتجه في سرعة وحزم لمواجهة بريدة ومطير مواجهة فعالة، فقبض على صالح بن مهنى وأرسله إلى الرياض بينما أرسل فيصل الدويش ليشتغل في ضرب الخيام لقبيلته عند الغزو. وفي غضون هذا أرسلت الحكومة سامي باشا ليتآمر مع حاكم حائل الجديد، الذي وافق على أن تكون القصيم ولاية تركية. وعلى أية حال فإنه لم يكن يملك مثل هذا التصرف، إذ أوضح ابن سعود، بما لا يحتمل تأويلاً، أنه لا يقبل أي تدخل تركي في هذه المنطقة. ولقد أراد سامي باشا أن يغريه بالمال، ولكنه عجب إذ رفضت نقوده في شمم وإباء! ثم جاء سفره، نتيجة لإنذار ابن سعود، علامة لانتهاء محاولات دامت ثلاث سنين لكن تظفر تركيا بموطئ قدم في الصحراء، كما أن تبادل الرسائل الوقتية والمراسلات الودية بين ابن سعود والباب العالي انتهى بأن غدت السيادة الفعلية على الصحراء العربية كلها، خارج ولاية الأحساء التركية، لابن سعود وحده. ومن ثم أرسلت تركيا السيد طالب باشا النقيب، وهو من أبرز الشخصيات السياسية في البصرة، ليكون متصرفاً أو حاكماً لولاية الأحساء، ولكي يعمل على بقاء آل سعود بعيداً عنها بالحيلة والدهاء وبالقوة التي يستطيع أن يعدها.



السيد طالب باشا النقيب

لقد اكتفى ابن سعود مؤقتاً بما حقق من ظفر وفتح، وانصرف تفكيره واهتمامه لتنظيم الحكم واستقراره، لا إلى التفكير في الغزو والتوسع. وكان له في أبيه وفي الزعماء الدينيين في الرياض عون قيم إزاء هذه الواجبات والمسؤوليات الضخمة. وفي هذه المرحلة تقريباً بدأت سياسته، التي تهدف إلى جعل النهضة الدينية أساساً للنهضة السياسية في البلاد تتخذ شكلاً عمليًّا وتخرج إلى حيز التنفيذ. لقد أبان تاريخ أسلافه عن أن الغيرة الدينية ظاهرة متوطنة أبداً في صحراء بلاد العرب، فلو أمكن صقلها وتهذيبها كما ينبغي، لجعلت من مقاتلة نجد وبدوها قوة حربية هائلة ذات كفايات عظيمة، لأن بقاء الحماس الديني متأججاً إلى ما لا نهاية أمر مستحيل بين الشعب العربي الكثير التنقل والارتحال، ثم إنه شعب متباعد لا يميل بطبيعته إلى المركزية، كما كان التعصب القبلي يتلف كل ثمرة وكسب تنحسر عنها الحروب الدينية. ولقد أثبتت حياة محمد الرشيد وسيرته أن الدهاء السياسي والكفاية الإدارية تستطيعان أن تبقيا على تضامن البلاد ووحدتها في السلم والحرب على حد سواء، ولكن سوف تضيع سدى كل جلائل الأعمال بمجرد زوال هذا العامل الشخصي المسؤول. وعلى المرء أن يرجع إلى أغوار التاريخ العربي ليجد هذا التكامل التام بين الكفاية السياسية العالية والغيرة الدينية اليقظة في شخص النبي محمد ﷺ، الذي أودع أرض الصحراء نواة امبراطورية امتدت أطرافها مسافات شاسعة وراء حدود بلاد العرب. ومع ذلك فإن هذه الإمبراطورية قد تقطعت أجزاء لتصدع أسسها الدينية من جراء الدسائس السياسية ونفوذ الدول الأجنبية اللذين يعتبر سكان الصحراء من أهل الفطرة أشد حساسية وأكثر استجابة لهما، كما اتضح جليًّا في حاضرنا. وثمة سبب مهم آخر لانهيار هذه الإمبراطورية يتجسد في عدم وجود نظام وراثي للحكم لا مناص منه، لكي يمدها بالقادة والزعماء المسؤولين الأكفاء في أوقات الأزمات وساعات الحرج.

أما ابن سعود وقد نشأ بين تعاليم الرسول ﷺ مدركاً ما كان عليه من بساطة عيش وقناعة وتمسك بأمور دينه، كما يتبين من أحاديثه ومن القرآن الكريم قبل أي شيء، فإنه اتخذ من حياة الرسول ﷺ نفسه أنموذجاً وقدوة لسلوكه وسيرته بين الناس لا يحيد عنه طوال حياته. ولا شك في أن الإسلام خلال تاريخه الطويل كان عرضة لتسرب البدع وضروب الاجتهاد المخل إليه، ولكن تيسر له في بعض الفترات أن يطهر من البدع ويتخلص من الشوائب، وأن يعود إلى أوضاعه الأصيلة على أيدي رجال مثل أحمد بن حنبل، وابن تيمية، ومحمد بن عبد الوهاب، الذين بعثوا تعاليم «السلف الصالح، وهم خلفاء النبي ﷺ وصحابته ﷺ، الذين قامت الشريعة الإسلامية على ذكرياتهم الحقة عن الوحي نفسه وعلى رواياتهم الصحيحة عن الرسول ﷺ. وهكذا كان هدف آل سعود واضحاً جليًّا منذ البداية: إن الرجوع إلى أصول الدين وصحيح أحكامه يجب أن يكون الأساس الذي يشيد عليه سلطته الدنيوية التي تصلح إدارة لاستئصال ظاهرة الضعف المزمن من المجتمع العربي، كخطوة في سبيل قيام نظام للحكم ثابت مستقر، لا يتصدع لمجرد زوال اليد القوية التي تقبض على زمامه. وكان معنى هذا محاولة إصلاح العناصر البدوية في البلاد ورياضتها ثم وضعها في صف واحد مع سكان المدن والقرى المتواطنين الذين تؤكد مصالحهم في البلاد ولاءهم الشامل لأي حكم مركزي مستقر فعال. ولكن هذا بدوره كان يتطلب توطن البدو واستقرارهم في مناطق من الأرض لتكون لهم مصلحة مماثلة في السلم وثبات الحكم، وقد تستلزم الأوضاع أن يكون هذا التوطن على أساس مشترك، لا أساس قبلي. وكانت الخطوة الأولى هي أن تنساب خشية الله وجبروته إلى قلوب هذه القبائل، فأعد ودرب لهذا الغرض الدعاة والوعاظ وبعثوا ليعظوا الناس ويبشروا بالدين والحق ولينذروا بسوء عاقبة الكفر وعصيان أوامر الدين. ثم

اتبعت هذه الخطوة بالبحث عن مناطق صالحة للتوطن وبالعمل على تنمية الإنتاج الزراعي وتوفير عوامله. لم يكن المستطاع بين يوم وليلة وضحاها أن يتم تعليم وتهذيب هؤلاء البدو الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة فعلاً، ولم تتم إلّا في سنة ١٩١٢م أول عملية لاستيطان «الإخوان» عند آبار الأرطاوية لتكون أنموذجاً أصيلاً لقيام حملات عسكرية ومستعمرات أعدت لتكون دعائم الدين ولتمد الجيش الوهابي بأشد الجنود تعصباً ومراساً. ورغم ندرة موارد آل سعود، فإنه استطاع أن يوفر المال اللازم لبناء المساجد ولإعانة المؤسسات الدينية الصالحة، ولحفر وإعداد الآبار وغيرها من حاجات الزراعة، وفوق هذا كله، لتوفير السلاح والذخيرة لاستخدامها فيما يرضي الله تعالى. ولم تلبث كل من الأرطاوية وغطغط أن نمت سريعاً وأصبحت مدينة كبيرة، عدد سكان كل منهما حوالى عشرة آلاف نسمة، بينما كان عدد سكان مستعمرات القرى حوالى مائتي نسمة عند بداية الحركة. ولقد بلغ مجموع عدد «الإخوان» الصالحين للأغراض العسكرية (٢٥٠٠٠) رجل، لم يزد في الغالب عدد من طلب منهم للاشتراك في حملات عسكرية خاصة على خمسة آلاف رجل، ولم تكن أحوال بلاد العرب تسمح باستخدام عدد كبير من الرجال في تلك الأيام، وفي أكبر الحملات، كهذه التي زارت شرق الأردن في سنتي ١٩٢٢، ١٩٢٤، لم يزد عدد الرجال عن الف إلّا نادراً. أما عندما اتصل الأمر بمشروعات أكبر مثل فتح الحجاز، فإن العمود الفقرى للجيش الوهابي كان مكوناً من فرق مقاتلة المدن القديمة الذين كانت رباطة جأشهم وثباتهم إلى جانب تهور الإخوان واندفاعهم، عاملاً مهماً للإبقاء على النظام في النصر والهزيمة على حد سواء.

وهكذا مرت السنون التي تلت مباشرة الانتصار في روضة المهنا في واجبات إعادة التنظيم والتعمير، وفي خلال ذلك كان ابن سعود يعنى

بعمليات كثيرة عارضة في مختلف أنحاء المملكة. فقد كان حاكم بريدة الجديد، محمد أبا الخيل، ادعى للشك والريبة من سلفه، وسرعان ما شرع في التآمر مع فيصل الدويش لاستعادة استقلال ولاية القصيم. وفي هذا الوقت خرج ابن سعود مسرعاً ليواجه هذا الموقف، فوجد أن أبواب بريدة قد أغلقت في وجهه. ونظراً لإغضاء وتغافل بعض أصدقائه في المدينة فقد استطاع أن يدخلها عنوة بالقوة العسكرية، وسرعان ما أصبح الحاكم تحت رحمته: لقد عفا عنه وحذره من العودة إلى العصيان وأبقاه في وظيفته لكي يستمر في خداعه ودسائسه. وبعدئذ واجه ابن سعود مطيراً لاشتراكها في هذا الاضطراب ثم عاد إلى الرياض حيث لحقته أنباء أحداث جديدة في القصيم، مؤداها أن حاكمي بريدة ومطير، وما زالا يرمين بالعقاب الذي وقع عليهما، ثم لتحريض الشيخ مبارك الصباح لهما، أرسلا يطلبان العون من حائل التي استولى السلطان ابن حمود على عرشها اغتصاباً بعد قتل متعب ابن عبد العزيز واثنين من إخوته الثلاثة. خرج ابن سعود بمجرد سماعه هذه الأنباء إلى عنيزة، فوجد الحلفاء في قواتهم يحولون بينه وبين بريدة التي زحف عليها تواً. وفي أثناء معركة هجومية سريعة، ولكن غير فاصلة، عند صبخ، أصيبت نفسه بكسر في ترقوته، إلّا أن هذا الحادث لم يمنعه من مواصلة الزحف على ترقية ليواجه مطيراً التي هزمها نهائيًّا واحتل معسكرها. ولكن ابن الرشيد كان يجد في أثره فنشبت أخيراً بينهما معركة عنيفة استمرت طول الليل حتى الفجر. وكانت خسائر العدو فادحة في الرجال دون أن يجلي القوات الوهابية قيد أنملة عن مواقعها، فارتد إلى حائل. ولم يكن ابن سعود ليندفع في مطاردة العدو لأنه ترك قوة وراءه للدفاع عن بريدة، ولو أنه - ابن سعود - كان قد وطد العزم على عمل تصفية نهائية لهذا الحساب. لقد كانت بريدة موصدة في وجهه وفي يد العدو ولهذا وجه اهتمامه إلى

القرى المحيطة بها فهاجمها واستولى على ماشيتها في المراعي. ولكن السلطان ابن حمود عاد لكي ينقذ الموقف، فانقضت شهور الشتاء في أساليب حرب الصحراء المملة المضنية، حتى بدأ ابن الرشيد في أول سنة ١٩٠٨ مفاوضات للصلح جرت على أساس استبقاء الأوضاع السابقة. ولكن في نفس الشهر (كانون الثاني/ يناير) قتل السلطان أخواه سعود وفيصل واستولى أولهما على العرش، بينما ولى الثاني حاكماً لمقاطعة الجوف. وكان ابن سعود في خلال ذلك حرًّا في مواجهته لمدينة بريدة التي فتحت له أبوابها ليلاً بواسطة بعض سكانها الذين أضناهم طول القتال، واستسلم محمد ابو الخيل بعد التعهد له بضمان سلامة شخصه وترك المدينة إلى غير رجعة قاصداً منفاه في العراق. وبعدئذ قرر الملك المنتصر أن لا يعهد إلى مواطن من بريدة بأية سلطة في الإقليم، وعين ابن عمه وسنده القوى، عبدالله بن جلوي، حاكماً عاماً لولاية القصيم التي لم يحدث فيها بعد هذا ما يعكر صفو الحكومة المركزية.

كانت حائل في غضون ذلك موبوءة بالفتن الداخلية، وفي أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٠٨ نظمت حركة لإعادة العرش إلى أصغر أبناء عبد العزيز الرشيد يتزعمها أبناء عم صبحان وهما حمود وزامل اللذان ينتميان إلى أسرة من أكبر الأسر في المدينة، وهما اللذان عملا على تخليص الغلام من يد السلطان.. ولقد قوبل ظهورهما عند مدخل القصر في قوة كبيرة بالترحاب من جماعة كثيرة من الناس الذين ثاروا ضد مغتصب العرش. ودار على أثر ذلك قتال لقي فيه سعود بن حمود مصرعه، كما قتل غيره من أعضاء أسرته، ولجأ من بقي منهم على قيد الحياة إلى الرياض بينهم فيصل وضاري. نصب سعود أميراً تحت وصاية حمود بن صبحان الذي مات مسموماً بعد ذلك بفترة قصيرة وحل محله زامل وصيًّا على العرش. ولم

يكن هناك ما يغري ابن سعود بالتدخل في شؤون حائل طوال هذه الفترة أما في عهد الوصي الجديد فقد تيسر تجديد الاتفاقية القديمة فبعث الأمل قويًا في سلام طويل الأمد بين الطرفين.

وكان قد حان دور الجنوب في إثارة الاضطرب، إذ تطور عراك بعض الأسر في حريق عند رأس وادي الحوطة إلى حرب أهلية، فأسرع ابن سعود إليها لإعادة النظام إلى نصابه. لم تستطع قوته الصغيرة أن تقتحم أبواب المدينة، فوضع لغماً تحت بابها الرئيسي وهدد بتفجيره، مما أرهب **قواد الهزازنة** فاستسلموا وأرسلوا إلى الرياض للإقامة فيها ضيوفاً على الحكومة. ولكن لم يكن الوقت قد آذن لينعم ابن سعود بالسلام، إذ أدى الجفاف الناشئ عن قلة هطول الأمطار في شتاء وربيع سنتي ١٩٠٩ و١٩١٠ وما تبعه من قحط إلى عودة القبائل لغزو بعضها بعضاً، فقامت قبيلة العجمان بهجوم على قبائل الكويت بعلم وتشجيع ادعياء العرائف. ولقد بلغت احتجاجات الشيخ مبارك الصباح سمع ابن سعود في نفس الوقت مع أنباء حركات جديدة في شمّر نتيجة لتفاهم بين زامل بن صبحان وبين سعدون باشا حاكم المنتفك. ولكي يبقى ابن سعود بعيداً عن ميدان هذه الحركات المريبة، فإن ابن صبحان كان يغري ويشجع قبيلة العجمان لمواصلة ضغطها على الكويت وتحدي أي أمر يصل إليها من الرياض، بينما كانت تجري بين ابن سعود نفسه وبين كل من نوري الشعلان أمير الدولة وفهد بن هذال أمير العمارات مفاوضات للقيام بهجوم مشترك على جبل شمّر أو على معسكر ابن صبحان في الصحراء الشرقية. لم تكن كل هذه الحركات السياسية ذات قيمة عسكرية كبيرة، إذ كان الوهابيون مشتبكين مع قوات المنتفك عند غرب غربية بالقرب من الحدود العراقية، بينما هاجمت قوة كبيرة من فرسان شمر معسكر العمارات واحتلته. وكان الشيخ مبارك الصباح هو الذي مهد للمفاوضات في

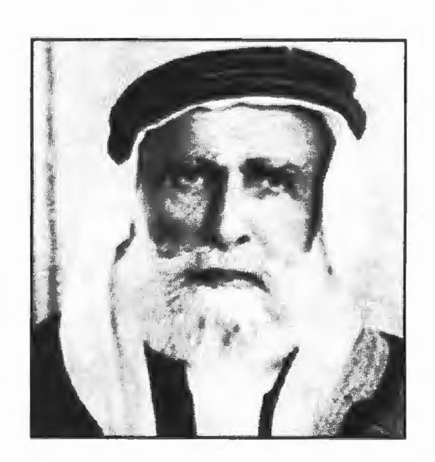
النهاية بين كل هؤلاء المحتربين وكف عن الاهتمام بإيجاد توازن للقوى في بلاد العرب طالما تاق إلى تحقيقه، إذ خلفت الثورة التركية في سنة ١٩٠٨ حركة وطنية عربية كان يتخذ فيها، إلى جوار الشيخ خزعل أمير المحمرة والسيد طالب باشا النقيب، مكان الزعامة، بينما تمسك سعدون باشا بمركزه كزعيم محلي لجمعية الاتحاد والترقي.



الشيخ مبارك الصباح

وهكذا أصبح ابن سعود، كما لم يكن متوقعاً، في موقف دفاعي وسط عناصر مزعجة معادية ليس لها إلّا القليل، أو لا شيء، مما يمكن أن تعرضه للضياع، بينما كان هناك ما يمكن أن تكسبه على حسابه. وفي هذه الأثناء لم يكن مركزه المالي وطيداً، ولكن بدا في هذه اللحظة خطر جديد يهدد استقراره وسلامة أراضيه في موضع لم يتوقع فيه خطراً ورغماً عن معارضة قبائل البدو ومقاومة أمراء مكة المكرمة، فقد كانت سكة حديد الحجاز قد وصلت إلى المدينة المنورة في سنة ١٩٠٨م، وفي نفس السنة عين السلطان عبد الحميد الثاني الشريف حسين بن علي أميراً على مكة المكرمة، فكان في المقام خادماً مطيعاً لتركيا. ورغم أنه نجح في معارضته لمد الخط الحديدي إلي مكة المكرمة، إلّا أنه كان موالياً حقًّا

لتركيا، ولم تسنح له الفرصة الطيبة إلّا في سنة ١٩١١ ليؤدي للأتراك خدمة عظيمة إذ أخمد حركة الإدريسيين التي قامت في إقليم عسير. وجاء في أعقاب هذا النجاح زحفه المظفر من أبها عن طريق بيشة ورانية وترابة إلى الطائف، دليلاً قاطعاً على أنه الأداة المثلى للتوسع التركي في صحراء العرب، بدلاً من ابن الرشيد الذي أهمل شأنه الآن. وكان الشريف حسين عندئذ يعمل أحسن ما يستطيع في هذا الاتجاه. وبدأ أدعياء العرائف يبرزون إلى العراء متحدين ومطالبين جهاراً بعرش الوهابيين يعضدهم الركود والحرج اللذان ظللا، بصفة عامة، الموقف في بلاد العرب. وكان سعود يتزعمهم بصفته أكبر الأحياء سنًّا من أسرة سعود بن فيصل، فاتخذ سبيله إلى الولايات الجنوبية حيث كان من المرجح أن يلقى بعض التعضيد والمساعدة هناك للذكريات الطيبة التي خلفها جده في هذه المناطق. وكان ابن سعود قد تبعه في اتجاه حريق ليقضي على الحركة بضربة حاسمة قبل أن تنمو وتستفحل، ولكن القوة التي صحبها لم تكن كافية لتحقيق هذا الغرض. وعليه فقد بعث بأخيه سعد ليجمع مقاتليه من



الشريف الحسين بن علي

عتيبة في اللحظة نفسها التي وصل فيها الشريف حسين إلى القويعية على رأس قوة ليضم عتيبة هذه إلى منطقة النفوذ التركية، فوقع سعد فجأة بين يدي الشريف حسين الذي قفل راجعاً إلى إمارته حاملاً هذه الغنيمة الثمينة. هب ابن سعود في أثره لا ليقاتل، ولكن ليساوم في إطلاق سراح أخيه الحبيب، ولكن الشريف حسين بعث إليه برسالة ودية بلغته بعد منتصف الطريق، قال فيها أنه حضر لمجرد رفع العلم التركي على إقليم كان تركياً، وإنه لا يكن نوايا عدائية لابن سعود الذي حكم هذه المنطقة بصفته والياً تركياً، والذي لا يطلب منه أكثر من الاعتراف بالسيادة التركية على إقليم القصيم على أقل تقدير، وهو كل ما تطلب تركيا في الصحراء، ثم عليه أن يدفع جزية اسمية عن هذه النقطة! فإذا وافق على هذه الشروط، فحباً وكرامة، ويطلق سراح أخيه فوراً، وإلّا فإنه سيذهب بسعد إلى الحجاز ليسلمه إلى الأتراك كدليل مادي حسي ملموس على رفض ابن سعود مصالحة تركيا والاتفاق معها. وهكذا قدر للإمبراطورية العثمانية أن تكسب بدهاء الشريف حسين هذا الوضع الذي حاولت عبثاً تحقيقه سنين طويلة بقوة السلاح وبتحالفها مع ابن الرشيد. لم يكن موقف ابن سعود ليسمح له بالمساومة، فقبل هذه الشروط المزرية وفرح برجوع أخيه غير الحذر إليه، وعادا معاً إلى مشهد نشاط أبناء عمومتهما، أما الشريف حسين فإنه عاد إلى إمارته مزهواً يفيض الفرح من حواشيه.

كان في مقدور ابن سعود آنئذ أن يرجع إلى حريق في قوة كبيرة، ولكن زعماء الهزازنة بعد أن أقاموا فترة قصيرة في الرياض، عادوا إلى مقرهم ليواصلوا كفاحهم ضد أعدائهم بمعاضدة، أدعياء العرائف، الذين فشلوا في محاولة إقامة حكومة رمزية في إقليم الخرج نظراً لموقف **حاكمها المحلي فهد بن معمر**. ولكن ابن سعود أخذ أعداءه المتحالفين على غرة منهم، ففر زعماء الفريق الأخير، لعدم توافر الوقت الكافي

لتنظيم دفاع فعال، إلى جنوب الوادي حيث رفضت المدينة الباسلة، الحوطة، أن تبيح لهم ملجأ فيها، فواصلوا الفرار جنوباً إلى إقليم الأفلاج، حيث وجد أحدهم، فيصل بن سعود، بعض المساعدة في سيح فبدأ الأعمال العدائية ضد العاصمة وهي مقر الحاكم أحمد السديري. تبعهم ابن سعود متمهلاً فرفرفت أعلامه على بلدة الحوطه التي كان موقناً من ولائها التام، وعندما وصل إلى أفلاج تبين له أن الحاكم قد نجح في إخماد حركة التمرد ومن هنا تمكن من القبض على زعيم العرائف سعود بن عبد العزيز وعلى كثير من زعماء الهزازنة، وفرت بقيتهم إلى مكة المكرمة حيث لقوا من الشريف حسين ترحيباً حارًّا، بينما انحدرا أحدهم، وهو تركي أخ سعود، جنوباً ليثير العجمان وغيرها من القبائل التي تكن له الود. عرض الأسرى على ابن سعود في اجتماع عام وقد شدت الأرسان حول رقابهم، أما زعيم الثوار سعود زوج أخته نورة فقد عفا عنه دون شرط وخيره بين البقاء في خدمته وبين اللحاق بأقاربه في مكة المكرمة، فاختار الأولى وظل قرابة أربعين عاماً على أتم الولاء وأعمق الإخلاص في السراء والضراء لابن عمه ومليكه جزاء ما لقيَ من تسامحه وعفوه، أما زعماء الهزازنة فلم يكن مثل هذا النيل والعطف من نصيبهم! لقد أثموا مرة قبل هذه وعفا عنهم، ولهذا فهم ليسوا أهلاً للرحمة والعفو، وأمر بقتلهم تواً. والواقع أن هذه الحادثة هي الاستثناء الفرد للقاعدة العامة التي لزمها في حياته وهي: **العفو عند المقدرة، والنبل والتسامح في ساعات النصر والظفر.** مكث ابن سعود بعد ذلك فترة في الأفلاج ليعيد الطمأنينة والثقة في منطقة الدواسر بعد هذه الاضطرابات، ثم تقدم نحو الأحساء ليبطل المحاولات التي يبذلها تركي بن عبد العزيز لإثارة العجمان. ولم يكد يصل إلى هذه المنطقة، حتى اضطر، بناء على طلب من الشيخ مبارك لعون سريع ضد زيادة ضغط سعدون باشا، لأن

يواصل زحفه شمالاً إلى حفر الباطن حيث اتفق مع قبيلة الظفير وزعيمها مبارك بن سويت على غزو معسكرات المنتفك، فاقتحمها فعلاً عند كابدة بالقرب من الزبير، وعندئذ طلبت إليه تركيا وقف الأعمال العدائية في مناطق قريبة جدًّا من الأرطاوية فتحول صوب الجنوب إلى مؤخرة الأحساء ليواجه قبيلة العجمان، أو في الحقيقة ليتفادى إثارة تركيا. أما وقد عاد إلى الرياض، بعد ان حل نهائيًّا مشكل وراثته للعرش وأحقيته للحكم بشهادة السيف وصخب المعارك، فإنه توفر على العمل لإتمام برنامج الإصلاح الديني الذي عكف على وضعه منذ بضع سنين. أما موضوع التوطن في الأرطاوية فقد اتخذ شكلاً عمليًّا في سنة ١٩١٢، بينما كانت حركة الإخوان في عمومها قد نمت لدرجة كافية لأن تضع بين يديه إدارة عسكرية قوية دفاعية وهجومية. ولقد كان في القضاء على حركة العرائف ما تقلص معه إلى أدنى حد احتمال وقوع اضطرابات جدية في مملكته. ولهذا فليس مستغرباً أن أخذت افكار ابن سعود في هذه الفترة نتيجة إلى الغزو والتوسع على حساب جيرانه، أما إلى أي مدى فكر في أن يسير في هذا الاتجاه، فأمر على الأرجح أنه نفسه لم يفكر فيه، أو هو تساؤل لم يحاول نفسه أن يجيب عليه. لقد كان مانعاً بأن يعرف طريقه التي يخطو فيها دون أن يضع حدوداً خاصة لمطامعه، ويبدو غريباً في معترك هذه الأحداث أن يتجاهل حائل والجزء الشمالي من بلاد العرب الذي كان جزءاً أصيلاً من ممتلكات سلفه وجزءاً مهما في اقتصاديات الصحراء، وكان فوق هذا صالحاً كممر «رأس كبري» للاستعمار التركي، أو على الأقل لزحف تركي على ولاية القصيم التي تنازل عنها منذ فترة وجيزة مقابل إطلاق سراح أخيه. وليس أقل غرابة من هذا أنه لم يفكر في هذه المرحلة جديًّا في الخطر الجديد الشديد الذي أخذ يبدو في الغرب والذي فتح له هذا الحادث الأبواب. لقد كان يشعر بثقته وكفايته لأن يحمي

حدوده من أي اعتداء عربي لا يعتمد على مساعدة تركيا التي كانت في الغالب راغبة عن التدخل بعد التجارب القاسية التي عانتها الحملة التركية في بقيرية. والواقع أن موارده من الذخيرة آخذة إلى النقصان لم تكن كبيرة كما يجب، ولعله **رأى من الأفضل والأرجح له أن لا يوقظ الكلاب النائمة،** وأن يبقي على ذخيرته لأعمال أجل خطراً. ولا شك في أن فكرة طيبة واضحة كانت قد اكتملت لديه وقتئذ عن ماهية هذه الأعمال التي قدر أن يكون هو البادئ بها وصاحب السبق فيها. لقد مضى على حكم الترك في الأحساء حتى تلك الآونة أربعون سنة كاملة كان خلالها موطداً راسخ الأقدام، ولقد وجد اليوزباشي ج.س. ليشمان، أثناء رحلة طويلة له من بغداد عبر القصيم والرياض حيث قابل ابن سعود قبيل حملته على حريق، أن قوة الاحتلال التركية في الهفوف كانت في بدء سنة ١٩١٣ سعيدة تطفح وجوهها بالثقة والاطمئنان. وفي غضون شهور أربعة بعد هذه الزيارة كانت هذه القوة والمخافر الأمامية التالية لها في مختلف أنحاء الأحساء قد تركت جميعها البلاد العربية إلى غير رجعة، وكان الاحتلال التركي قد انتهى في هذه المنطقة! والواقع أن مركز الأتراك في الأحساء لم يكن أقل حرجاً واضطراباً من مثيله في جميع اطراف العراق مثل منطقة سوق الشيوخ، إذ كانوا لا يخرجون من المدن ولا يسيرون إلّا في الطرق المحروسة المحصنة طلباً للأمن وخشية الاعتداء عليهم، ولضمان وصول القوافل التي تحمل الميرة والبريد. وكان الجنود يكرهون الخدمة في الأقاليم العربية. وأقصى ما يمكن أن يقال فيهم، إنهم حاولوا أن يصنعوا أحسن ما يمكن في أسوا ظرف ممكن، ففي اليمن وعسير كثيراً ما تزوجوا من نساء هذين البلدين، وكانوا يغدقون على أسرهن بكل ما في وسعهم. أما المستوى المعنوي والأخلاقي فكان بين هؤلاء عالياً، وكان معنى الخدمة في بلاد العرب هو عادة بمثابة حكم بالسجن المؤبد. ولا شك

في أن آل سعود كانت لديهم برامج معدة لفترات محدودة، تمكن أن توضع في بوتقة الاختبار العملي، إلّا أن الأتراك هم الذين اختاروا أن يكونوا البادئين بأعمال التحدي. وكانوا على حق في اعتبار ابن سعود عدواً لا تلين قناته لداعي العقل والحكمة ولا لغيرها من المغريات والحوافز كما أنهم كانوا لا يؤمنون بترك الأعداء وإغفال شأنهم حتى يصبحوا أقوياء. ولهذا فإنهم أخذوا في باكورة سنة ١٩١٣ ينشرون شبكة واسعة من الدسائس والمتاعب حول حوافي المملكة العربية السعودية. ولعل الشريف حسين وضيوفه من العرائف اللاجئين كانوا في هذا الوقت أهم عامل في المحاولات التي كان من شأنها أن تبقي الصحراء في حالة مستمرة من الذعر والاضطراب. وقد كان العجمان مورداً لا ينضب لإزعاج آل سعود، بينما كان فيصل الدويش ورجاله من مطير لا يصعب إغراؤهم لتهديد أركان السلم بغزوات شتى يقومون بها. وفي أثناء ذلك حل سعدون باشا ابنه عجيمي الذي كان راغباً في أن يرفع علم الجمعية، بينما كان ابن الرشيد، أو بالأحرى زامل بن صبحان، دائماً أداة قوية للتحدي والإثارة، إلّا أنه لسبب ما كان هادئاً مستكناً في هذه الفترة، كما كان الشيخ مبارك الصباح، كقائد للحركة العربية الوطنية، غير مستكيناً. لم يكن ابن سعود غافلاً عما يجري حوله، ولكنه تجاهل في شجاعة وخزات الإبر هذه من عدو لم يكن يزمع القيام بهجوم جدي. ولهذا فإنه ذهب إلى مخيم الربيع السنوي حول مستنقعات الخفس في شهر شباط/ فبراير لكي ترعى إبله وخيله في المراعى الغنية المجاورة. وكذلك لم ينفض يديه من الغزوات العادية الصغيرة على كل من مطير والعجمان في الصحراء القريبة. ولم يكن هناك ما يبرر أن يعمل الفكر في نشاط كبير، إلّا أنه وصل في أوائل أيار/ مايو مع قوة قوامها (٦٠٠) رجل بعد غروب الشمس إلى بعض الآبار التي تبعد بضعة كيلو مترات عن

الهفوف. وكان قبل ذلك قد علم من بعض الأصدقاء كل ما يحتاج من معلومات خاصة بالدفاع عن الحصن وعادات القائمين عليه. وعندما خيم الظلام، وكان قد صنع من جذوع النخيل بضعة سلالم، أخذ يقترب من أسوار الحصن الكبير في كوت من نواحيه الثلاث، وفاجأ الحراس النائمين وأسرهم، بينما لاذت بقية القوة بالفرار إلى المسجد الكبير وقد ملأها الرعب والخوف، تاركة الحصن للفاتحين الذين أعلنوا احتلالهم اياه من فوق الأسوار لسكان المدينة الذين تملكتهم الدهشة والعجب، ثم بعث رسولاً إلى الحاكم المحلي والقائد العسكري يطلب منهما تسليم القوة ويبلغهما الموافقة على السماح لهما بالرحيل إلى الساحل في أمن وسلام، وأن الهجوم سيتجدد في حالة الرفض، كما أن اللغم وضع تحت جدران المسجد سوف يفجر تواً. وفعلاً قبلت شروط ابن سعود هذه! وفي يوم ٥ أيار/ مايو سنة ١٩١٣ بارح الأتراك عاصمة الأحساء في آخر رحلة لهم إلى الشاطئ في صحبة ممثل ابن سعود، وهو ابن عمه أحمد بن ثنيان، الذي أسرع بترحيل بعض القوات في مراكب شراعية إلى البحرين، بينما حملت بقية الجنود بعد ذلك ببضعة أيام باخرة انكليزية تدعى **«جون وسكوت»**.

لقد حضر اليوزباشي نورينس بك من البصرة ليتقلد قيادة هذه القوات، ولكنه وجدها راغبة عن صحبته والعودة معه إلى المكان الذي هزمت فيه وأجليت عنه. وارسلت حملة لتتخلص القطيف من الوهابيين، ولكنها وجدت أن عبد الرحمن بن سويلم قد اقتحمها واحتلها ونصب نفسه حاكماً عليها، فرجعت القوة إلى البحرين حيث وصل إلى قائمقام عبد الجبار بك ليتولى قيادتها. وفي يوم ٢٦ أيار/ مايو أرسل نورينس بك على رأس قوة ليعيد العقير إلى الاحتلال التركي، ولكن بمجرد أن اقتربت القوة الوهابية لجأت غالبية هذه القوة التركية إلى القوارب تاركة

ضابطاً وستين جنديًّا في الحصن سرعان ما استسلموا لابن سعود بمجرد أن بدأ بنفسه في ساحة القتال، ثم أرسلوا إلى البحرين بعد أن جردوا من سلاحهم، فبلغوها يوم ٣٠ أيار/ مايو. وهكذا وفي مدة تقل عن شهر استطاع ابن سعود أن يطهر الأحساء من الأتراك نهائيًّا. وربما كان من الأفضل له أنه قام بضربته في هذا الوقت، إذ كان من المحتمل جدًّا بعد سنة ونصف أن تقوم بريطانيا باحتلال هذه الولاية لتتم رقابتها على الساحل العربي من الخليج العربي.



فيلبي قبيل خروجه في رحلته الى الربع الخالي عام ١٣٥٠هـ
وكانت السيارات لا تزال في تلك الفترة نادرة نسبياً في المملكة

الفصل الثالث

اتصالات مبكرة مع بريطانيا

... **ثم قال الملك**: «أجل، لقد كانت تلك الأيام في النهاية أحسن أيام حياتي: أما هذه الفترة الفاصلة التي كان كل ما عداها سهلاً ميسراً: سنين الكفاح المريرة في الصحراء مصحوبة بالجوع والاضطراب والعطش.. محفوفة دائماً بالمفاجآت والخطر: لم تكن فترة طويلة: عشرة أو اثنتي عشرة سنة لا أكثر، ولكن كل يوم منها مفعم بالمتعة وبرفاق السلاح المخلصين لا يمكن أن ينسى أبداً!» كان الملك مستسلماً لذكرياته! إنه كان في زيارة طويلة غير عادية لجدة في سنة ١٩٤٩م قبل عودته إلى الرياض بعد تأدية فريضة الحج في مكة المكرمة. ولقد كان وجهاء جدة، وفقاً لتقاليد القصر في مثل هذه المناسبات، مدعوون لتناول الغداء مع جلالته، وفي أثناء ذلك أثارت بعض العبارات العارضة ذكريات جلالته عن الماضي وقد انقضت منذ زمن بعيد. لقد تلاشت السنون! وجلس ضيوف الملك يصغون بقلوبهم وقد خيم عليهم صمت ملؤه الإعجاب والفخار، عندما عاد ابن سعود فجلس مرة أخرى على نيران المعسكرات في الصحراء بين رفاقه الأبطال إبان مغامراته، يراجعون هذه التفاصيل الرهيبة لأساليب الحرب القديمة بهذه المهارة الفطرية التي لا تبارى. ولكن لم تلبث هذه المناجاة أن انتهت فجأة، كما

بدأت بهذه العبارة التي افتتح بها هذا الفصل وما تنطوي عليه من شبه اعتذار، ثم وقف الحضور جميعاً ليشاركوا جلالته في أداء صلاة المغرب قبل أن يتفرقوا إلى منازلهم. إذا كان ابن سعود قد ولد في لفائف الملك، إلّا أن هذه لم تكن قط مدارج للعظمة بمعناها المتعارف عليه. ومما لا ريب فيه أن العظمة لم تسق إليه جزافاً في مهد الراحة والدعة، ولكنه كسب المجد بروحه وجوهره وبفضل شخصيته القوية التي تكاد تكون منقطعة النظير في تاريخ العرب، إلّا أن المجد جاء مصحوباً بما يشبه الصدمة أو خيبة الأمل إذ تحقق إن الفترة التي يعتبرها نفسه قمة نشاطه، قد مرت دون أن تخلف اثراً في صفحات التاريخ الحديث. لقد انتهت هذه الفترة لبضع سنين قبل مقابلتي لجلالته أول مرة في سنة ١٩١٧، وكانت تقارب نهايتها **عندما حظى اليوزباشي شكسبير الوكيل السياسي البريطاني في الكويت، بمقابلة جلالته لأول** مرة أيضاً ومصادفة سنة ١٩١١م في معسكر الربيع في الصحراء الشرقية. ولقد كانت هذه، بقدر علمي، هي المرة الأولى التي تشرف فيها بريطاني بمقابلة جلالته. والحقيقة أن الحكومة البريطانية منذ أخذت على عاتقها مسؤولية حراسة الأمن في الخليج العربي ومنحت لهذا امتياز الاحتفاظ بمراكز مهمة على شاطئيه، كانت قد وضعت لسياستها في سنة ١٨٩٧ مبدأ لا تحيد عنه، مؤداه تجنب التدخل في شؤون بلاد العرب لأكثر مما يتطلبه الاحتفاظ بالسلام في الخليج العربي، إلّا أنها في هذا الوقت كانت آخذة في الاتصال بالسياسة الداخلية للكويت التي كان حاكمها الشيخ مبارك الصباح في حزم وغير ما جهرَ ولا صخب، سياسة الباب العالي التي كانت تطالب بالكويت وبمنطقة واسعة غير محدودة حولها، كأجزاء أصيلة من الإمبراطورية العثمانية. وسارت الحكومة البريطانية في هذا السبيل إلى حد أنها عقدت معاهدةفي سنة ١٨٩٩م علاقات مع شيخ الكويت الشيخ مبارك الصباح الذي وعدته بالمعاونة

ضد الضغط التركي. وكما سبق القول فقد حدث أن كانت تركيا وألمانيا في هذه الفترة، جادتين في المفاوضات لإنجاز هذا المشروع الشهير وهو إنشاء سكة حديد برلين - بغداد التي اقترح أن تكون نهايتها على ساحل البحر بالقرب من الكويت. وفي غضون هذه الأحداث الهامة كان الكبار من أسرة آل سعود يقيمون في الكويت ضيوفاً على الشيخ مبارك الصباح أثناء الفترة التي احتل فيها ابن الرشيد بلادهم. ولا شك في أن الشيخ مبارك الصباح كان يبدي اهتماماً بسياسة جنوب البادية، حيث كانت المساعدة التركية لابن الرشيد تمثل خطراً أو تهديداً جديًّا لأمن إمارته واستقلالها. وكان بديهيًّا أن يعتبر إقامة أسرة سعود داخل حدوده عاملاً أصيلاً في النزاع بينه وبين ابن الرشيد، بينما عملت الحوادث اللاحقة، آليًّا، على خلق توازن بين القوى في الصحراء خفف كثيراً من مخاوفه وشكوكه وكان في خلال هذه الأحداث نفسها أن استخدمت بريطانيا كل نفوذها لديه ليتجنب إقحام نفسه في سياسة الصحراء حتى لا يذكي المصالح التركية في الكويت ذاتها وحتى لا تضطر بريطانيا أن تتورط في تنفيذ وعدها بكفالة استقلال إمارته ضد أي اعتداء تركي.

وفي نفس الوقت كان اهتمام ابن سعود منصرفاً أولاً وقبل كل شيء إلى واجب تصفية حسابه مع ابن الرشيد، إلّا أنه مكث في الكويت مدة كافية لن يتحقق له أن تركيا هي التي عليه أن يحاسبها آخر الأمر خاصة وأنها كانت في هذه الفترة تحتل فعلاً ولاية الأحساء التي تعتبر موانئها البحرية ذات أهمية أساسية لرفاهية نجد. ومن الثابت أنه اقتنع، بعد أن استرد ممتلكات سلفه، بحاجته إلى قيام تفاهم بينه وبين بريطانيا على نسق مماثل لما هو قائم بينها وبين الكويت. وقام آل سعود في سنة ١٩٠٤، عندما عين أول وكيل سياسي لبريطانيا في الكويت، بمحاولة في هذا الاتجاه إذ قدم عرضاً لبريطانيا بواسطة أبيه الإمام عبد الرحمن، ولكن

بريطانيا لم تستجب لذلك متعللة بأن العلاقات بينها وبين تركيا كانت، في الظاهر على الأقل، علاقات ودية، وأنها كانت غير راغبة عن أن تثير شبهة في أنها تعمل خفية ضد المصالح التركية في بلاد العرب.

وبما أن السلطات البريطانية كانت قد تبنت هذه السياسة في إخلاص فإن البريطانيين في الخليج العربي قد تجاهلوا تماماً هذه التطورات الهامة التي كانت تجرى في الصحراء العربية. وعندما قابل اليوزباشي شكسبير في سنة ١٩١١ ابن السعود كان هذا قد اكتمل نضوجه وتم تكوينه كعامل من أهم العوامل، إن لم يكن أهمها طرأ، في سياسة بلاد العرب. وفي هذه المناسبة كان العامل الوهابي هو الذي بدأ بنفسه الحديث حول إعادة النظر في موقف بريطانيا، فأخذ يذكر شكسبير بالعروض التي قدمها أبوه للصاغ نوكس في سنة ١٩٠٤. وبالمعاهدة (معاهدة رسيك) التي انضم إليها جده فيصل بن سعود في سنة ١٨٦٥، ثم عرفه مدى بغضه للأتراك عموماً وخاصة لنظامهم الجديد وما أعلنوا من سياسة تهدف إلى جعل بلاد العرب إيالة عثمانية بحق. وعرج ابن سعود مبيناً مدى الضرر الذي لحق بنجد من جراء احتلالهم لولاية الأحساء وموانئها، ثم عرض اقتراحاً خاصاً مؤداه أنه إذا أمكن علاج هذا الموضوع (بمساعدة بريطانية)، فإنه يرحب بوجود وكيل بريطاني في أحد الموانىء التي هي موضع الحديث، الأمر الذي يعود بنفع حقيقي على التجارة البريطانية مع داخل البلاد. لأن زيادة الأمن في طرق القوافل، التي أصبحت حقيقة واقعة، تجنب الأخطار الملازمة لسيطرة الأتراك على الشواطئ.

لم يستطع شكسبير أن يجيبه على كل هذا إلّا بالجواب التقليدي وهو أن مصالح بريطانيا قاصرة على المنطقة الساحلية، وأنها اعترفت بحق تركيا في إعادة الأمور إلى نصابها في وسط بلاد العرب التي أصبحت لا تعنيها في شيء، ثم أضاف إلى هذا أن بريطانيا على علاقات طيبة بتركيا،

وليس لها رغبة في أن تعتبر خارجة على عهودها وتحفظاتها. ومن الصعب أن نصدق أن هذا هو كل ما دار الحديث حوله في هذه المقابلة، بينما الواقع أن السير بيرسي كوكس أشار في تقرير رفعه إلى سلطات أعلى، إلى أن الأتراك يتصرفون في الخليج العربي تصرفات تتعارض مع المصالح البريطانية، ونصح بأن يؤخذ موقف ابن سعود الجلي الواضح في الاعتبار مستقبلاً إذا ما دعت الحاجة. وبعد أن أكد زيادة سلطة العاهل السعودي زيادة كبيرة، نصح بأن تزرع بذور صداقته حتى ولو على مسافة بعيدة. ولكن هذا التقرير لم يلق أذاناً صاغية في وزارة الخارجية البريطانية، التي أصدرت أوامرها باستمرار سياسة تلزم في دقة جانب الحياد في شؤون البادية. وهكذا ترك ابن سعود لموارده الخاصة، ولكنه استطاع بعد سنتين اثنتين ومن دون مساعدة الإنكليز أن يهاجم الأحساء ويطرد قوة الاحتلال التركية من شرقي بلاد العرب إلى الأبد. وقد قابل الباب العالي هذا التحدي الخطير بتراخ وتردد ولم يبذل أية محاولة جدية لاسترداد المقاطعة المفقودة. ولكن ابن سعود نفسه لم يكن بأية حال على تمام الثقة من استطاعته الاحتفاظ بهذا الوضع الجديد وحيداً وبموارده الخاصة.

ولهذا كان حكمه لهذه المقاطعة في الشهور الأولى من تحريرها يمازجه كثير من النشاط الدبلوماسي والسياسي، إذ قام الوكيل السياسي البريطاني في البحرين بزيارة ودية له في العقير، لا شك إنهما تبادلا خلالها وجهات النظر في النتائج العامة بالنسبة للوضع الجديد الذي قد يغدو فيه ابن سعود ذا أثر فعال في مقاومة التوسع الألماني إلى ما وراء الحدود التركية المتقلصة.

وكان يبدو أن الأتراك قد وطدوا أمورهم على ضياع الأحساء، إلّا أنهم كانوا يحاولون بالطرق الدبلوماسية أن يستردوا موقفاً كان يستعصي

عليهم استرداده بالموارد العسكرية المتاحة لهم ولهذا فإنهم عجلوا بإرسال السيد طالب باشا النقيب ليفاوض ابن سعود في تسوية كل المشاكل القائمة، فقابل العاهل الوهابي في سبيهية في الكويت، بينما كان سليمان شفيق كمالي باشا والي البصرة في نفس الوقت يبذل الوعود لابن الرشيد بمده بالسلاح والذخائر التي يحتاجها للقيام بهجوم على عدوه! وقد أسفرت محادثات سبيهية عن تفاهم شفوي مؤداه أن يعترف ابن سعود شكليًّا بسيادة تركيا على الأقاليم التي يحكمها مهما كانت هذه السيادة اسمية غير ذات أثر بينما تلتزم تركيا بمده بالمال والسلاح الكافيين للاحتفاظ بمركزه. ومع هذا فليس هناك ما يدل على اتخاذ أية خطوة من الجانبين لتنفيذ هذه الاتفاق.

وقبيل نهاية هذه السنة كانت هناك اتصالات غير رسمية بين ابن سعود واليوزباشى شكسبير عندما مر هذا بالرياض في خلال رحلته الكبيرة من الكويت عبر بلاد العرب إلى قناة السويس. ولقد أتاحت هذه الزيارة فرصة لاستعراض الموقف الناجم عن خروج الأتراك من الصحراء العربية من جميع نواحيه.

وكان الغرض من هذه المحادثات في إجمالها هو تمهيد الطريق لتفاهم كان ابن سعود جد تواق إليه، بينما لم يستطع شكسبير أن يبيح لنفسه إبداء مثل هذه الحماسة لسبب لم يكن في حل من ذكره للعاهل الوهابي. لقد كانت تجرى منذ فترة مفاوضات بين وزير الخارجية البريطانية السير إدوارد غراي والسفير التركي في لندن، إبراهيم حقي باشا لتوضيح موقف كل من بلديهما في مختلف المناطق المتاخمة للخليج العربي حيث قد يوجد تعارض في المصالح.

وانتهت المفاوضة فعلاً بتوقيع معاهدة يوم ٢٩ تموز/ يوليو سنة ١٩١٣ عالجت الموقف في الكويت والبحرين والإمارات الساحلية

المحايدة، ولكن لم تتعرّض بشيء لمقاطعة الأحساء ولم تشر إليها إذا كان من المتعارف عليه ضمناً أنها ولاية تركية، كما اتفق على أن يتم التصديق على هذه المعاهدة في غضون ثلاثة شهور، ولو أن هذه الفترة قد امتدت حتى يوم ٣١ تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩١٤ م عندما أعلنت إنكلترا الحرب على تركيا. وفي نفس الوقت أو بعد ذلك مباشرة، وبالرغم من أن تركيا فقدت فعلاً حقها المشروع في وسط وشرق بلاد العرب معاً، فقد كانت تجري مفاوضات بينها وبين المفوضين السياسيين لبريطانيا للوصول إلى تسوية أوسع مدى بالنسبة لبقية شبه الجزيرة العربية. ولا شك في أن ابن سعود كان كبير الاهتمام بهذه المفاوضات، خاصة وأنها حاولت أن تضيق من حدوده الجنوبية بدون قبول منه وحتى بدون علمه، ولكن بصرف النظر عن هذا فإن المفاوضات انتهت إلى نتيجة مرضية تضمنتها معاهدة وقعت في ٩ آذار/ مارس سنة ١٩١٤، وتم التصديق عليها في ٣ حزيران/ يونيو سنة ١٩١٤، إلى الأمبراطورية البريطانية بموجبها كل بلاد العرب الجنوبية جنوبي خط ممتد من قاعدة شبه جزيرة قطر إلى أقصى نقطة غربية من الحدود المتفق عليها والمخططة بين محمية عدن وولاية اليمن التركية، ووقع هذه المعاهدة مفوض حكومة لم تقحم نفسها قط من قبل، وما كان لها أن تفعل، في مشكلات أي جزء من هذه الأقاليم. أما أسباب هذه الطفرة في السلوك البريطاني في هذه المنطقة فواضحة جلية، إذ كان الطراز الاستعماري القديم في عنفوانه وإبان ثورته في تلك الأيام، ولكن ليس من اليسير هكذا تفسير سلوك الحكومة العثمانية، إلّا أنه كان بدافع من الحقد والرغبة في الكيد لابن سعود جزاء رفضه الموافقة على تسوية سخية مرضية، بحيث لا يجدي التفسير الهوائي الذي لا معنى له من جانب السنجق العثماني في نجد لتبرير هذه الفضيحة، ولا هو يستطيع أن

يخفي معالمها! هذا وليس من الغريب أن الحكومة البريطانية كان لا بد لها، وقد اصبحت معنية فعلاً بهذه المناطق، من أن تبحث وتناقش مسألة الحدود السعودية في مناسبات متفاوتة أثناء العشر أو الخمس عشرة سنة التالية، دون ما اعتبار لوجود هذه المعاهدات، حتى سنة ١٩٣٠ حيث بدأ اهتمامها بمنطقة حضرموت. ولكن ابن سعود كان يرفض دائماً مناقشة هذه المسألة على أساس الاتفاقات البريطانية التركية، وهكذا بقيت الحدود الجنوبية للمملكة العربية السعودية غير مخططة حتى هذا الوقت، إذ كان احتمال وجود البترول مما جعل المشكلة أكثر صعوبة وتعقيداً عما كانت عليه منذ سنين طويلة ماضية. ومن ثم أصبحت هذه المسألة محل مباحثات جدية بين الحكومتين فترة من الزمن[١]. لم تمر فترة طويلة بعد توقيع المعاهدة الثانية، وكذلك بعد رفض تركيا عرضاً بريطانيا للتوسط بينها وبين ابن سعود، حتى قام الأمير لاي و.ج. جراى الممثل السياسي البريطاني في الكويت بإبلاغ العاهل السعودي أن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تلتزم قبله بتقديم أية مساعدة إزاء مشكلاته مع الباب العالي، لأنها قد عقدت فعلاً معاهدة شاملة مع الحكومة العثمانية عالجت كل المشاكل التي تهم البلدين. عندئذ حاول ابن سعود تواً أن يتفاهم مع تركيا بواسطة سليمان شفيق كمالي باشا الذي جرت بينه وبين آل سعود مراسلات قبل ذلك بثلاث سنين وفي ظروف غريبة.

ولقد كلف والي البصرة أن يؤكد وجهة نظره بالنسبة لأصلح سياسة تركية تطبق في بلاد العرب بصفة عامة، وفي إقليمي عسير واليمن بصفة خاصة. إن هذه الفكرة التي عبر عنها ابن سعود في تلك الفترة كانت بمثابة

---

(١) جرت محادثات في لندن في شهر آب/ أغسطس سنة ١٩٥١ بين وزارة الخارجية والأمير فيصل لم يكن من شأنها أن تقترب هذه المشكلة من حل نهائي.

صدى سابق أو تجاوب تام لفكرة عرضتها على بريطانيا شخصية عربية طموحة بعد ذلك ببضع سنين، ثم إن ابن سعود انتقد سياسة التفريق التي تتبعها الحكومة العثمانية حيال بلاد العرب، واقترح عقد مؤتمر على أرض محايدة يضم كل من يعنيهم الأمر للنظر في توحيد البلاد كلها تحت حاكم واحد. وكان من الصعب أن يرشح أحداً غير نفسه للقيام بهذا الدور! ثم إنه كذلك تقدم بحل بديل هو الاعتراف بكل الأوضاع القائمة ووضع كل ولاية منها تحت حكم زعيمها الطبيعي كوحدات متمتعة بالاستقلال الذاتي تحت سيادة الباب العالي. وفي الحالتين تتحقق لتركيا فرصة الاعتماد على تعاون وولاء عربي صادق في كل مشكلة تنشب بينها وبين دولة أجنبية. وكانت النقطة الأساسية هي اعتراف تركيا باستقلال بلاد العرب. ولكن نصيحته هذه لقيت آذاناً صماء، وهكذا كانت محاولته مع والي البصرة لمصلحته الخاصة. والظاهر أن تركيا عرفت بريطانيا بأن هذه المحادثات قد أسفرت عن معاهدة سرية، رغم أن سجلات الحكومة السعودية لا تضم أي شيء عن هذه المعاهدة. وعموماً فإن ابن سعود قد أبدى استعداده لأن يعتبر نفسه والياً على نجد وأن يرفع العلم التركي في المناسبات الملائمة، وأن يحكم هذه المنطقة بصفة عامة كأمير نائب عن السلطان، بينما يحتفظ بكل إيرادات البلاد لنفسه بصفته حاكمها، وأن يدير شؤون الحكم بدون أي تدخل من جانب الحكومة التركية. لم ترد هذه المرة أية إشارة حتى عن جزية اسمية كما كانت الحال في الاتفاقية السابقة مع الشريف حسين بالنسبة لولاية القصيم، وأكثر من هذا فلم يرد ذكر لتحقيق الأهداف التركية كما أكد طلعت باشا للسفير البريطاني في القسطنطينية. وكان الأتراك في هذه المرحلة يفكرون في وضع الأقاليم الشمالية والجنوبية وسط بلاد العرب تحت أي نوع من أنواع الإشراف غير المباشر، كما كان المزمع أن تخطط الحدود بين المناطق الخاصة بآل

سعود والخاصة بابن الرشيد، وأن يوجد ممثلون للحكومة العثمانية في كل من الرياض وحائل ليراقبوا ويوجهوا نشاط كل من العاهلين المتنافسين. وكان ابن سعود سيعين متصرفاً في ولاية الأحساء. ولكن مع وضع قوات تركية في مرافئها كما كان الوضع من قبل، بينما يقوم موظفون أتراك بجمع الضرائب والرسوم. وقد كلف والي البصرة ببدء المفاوضات مع ابن سعود الذي كان له، كما سبق القول، السبق في اقتراح إجرائها، والذي ما كان يسمح له موقفه بأن يكون عنيداً مع الباب العالي دون ما أمل في عون بريطاني، ولكنه برهن على أنه مفاوض ماهر قوي في المفاوضات التي جرت بعدئذ، إذ تمسك بشدة بموقفه في جميع النقاط الأساسية. وكان أقصى ما أبدى استعداداً لقبوله هو عقد اتفاقية مع الباب العالي تنقذ الموقف على الأسس آنفة الذكر، ورغم أنه لم يعارض في السيادة الاسمية للسلطان وفي رفع العلم التركي، فإنه استمسك بأن يكون هو، بحق الوراثة، الوالي على نجد وقائد جيشها، لا مجرد متصرف في ولاية الأحساء. وقد أبدى استعداده كذلك لأن يجهز بنفسه القوات اللازمة لمرافئ الأحساء والموظفين المدنيين، بدلاً عن القوات التركية والموظفين الأتراك المقترح استخدامهم لهذين الغرضين.وكذلك تمسك بحقه في جباية الضرائب لصالح بلده أولاً. وأنه إذا حدث ما ليس متوقعاً من زيادة الإيرادات على المصروفات، فإنه عندئذ يوافق على إرسال فائض الحساب إلى الحكومة العثمانية. ثم إنه وافق على أن تكون كل علاقاته مع الدول الأجنبية بواسطة الباب العالي، وعلى أن يساعد تركيا إذا اشتبكت في أية حرب.

والواقع أن هذه الاتفاقية كسابقاتها التي عقدت مع السيد طالب باشا النقيب، لم تصل إلى درجة النفاذ والنضوج نظراً لريبة وهواجس خامرت السلطات العثمانية.

وهكذا بقي حكم الأحساء ثابتاً في يد ابن سعود الذي ذكر لشكسبير بعد نشوب الحرب بين تركيا وبريطانيا ببضعة شهور، أنه لم يوافق على إجراء هذه التسوية إلّا بشرط أن تكون حقوق السيادة المعترف بها لتركيا اسمية وغير ذات أثر مادي في البلاد التي يحكمها. ولقد كان، كما ستعرف بعد، بادي الحزم في رفضه التعاون مع تركيا عندما اشتبكت في الحرب.

ولكن ابن سعود لم يهمل خلال هذه السنوات الأخيرة حاجته إلى تدعيم موقفه العسكري في وسط بلاد العرب حيث لم يستطع أن يتجاهل احتمال عودة ابن الرشيد إلى هذه المنطقة. ولقد اتضح أن الشيخ مبارك الصباح أمير الكويت كان قد كون فكرة غير ناضجة عن ابن سعود كقائد حربي وذي كفاية ممتازة في الحركات العسكرية، رغم البراعة التي انجلت في فتحه لمدينة الرياض والهفوف مما يجعل مثل هذه الفكرة غريبة ولا يدع مجالاً للشك في هذا الامتياز العسكري. وعلى أية حال فإن ابن سعود قدر ضعف المجتمع الذي أصبح حاكمه المعترف به، ولم يقصر في اتخاذ الخطوات التي تصلح شأنه وتعالج قصوره من الناحية العسكرية، فأوجد نظاماً لم يعرف عنه إلّا القليل في ذلك الوقت ولو أنه أصبح في السنين الأخيرة ذا شهرة عالمية كأداة لتوسعه وتماسك ملكه فيما بعد. كان هذا النظام هو حركة الإخوان التي أسسها في سنة ١٩١٢ بإقامة مستعمرة صغيرة لجنود يعمر الدين قلوبهم حول آبار الأرطاوية إلى شرقي الزلفى بقليل على الطريق بين القصيم والكويت. ولقد أتيحت لي فرصة مناقشة هذا الحركة في الفصل السابق، ولكي أعود فأشير إليها هنا مرة أخرى **لأن الرحالة الهولندي باركلاي أونكير زار هذه المنطقة في رحلة له من الكويت إلى بريدة قبل إنشاء المستعمرة ببضعة شهور**، ويبدو أنه لم يفطن إلى أصل الفكرة في تحويل منطقة الآبار إلى مستعمرة دينية عسكرية. وبعد مضي فترة ليست طويلة **انحدر رحالة انجيزي شهير هو اليوزباشي**

ج. ي. ليشمان من بغداد عبر بريدة إلى الرياض حيث التقى بابن سعود لقاءً عابراً، ثم أتم رحلته شرقاً إلى الأحساء التي كانت وقتئذ في قبضة تركيا وعلى وشك أن تنتقل إلى العاهل السعودي. وكذلك لم يشعر هذا الرحالة الإنكليزية بالتغيير الذي كان في باكورته وبدايته ليشمل الصحراء كلها نتيجة لحركة الإخوان التي كانت هادئة سلسة في بدايتها. وهكذا أيضاً لم يفطن شكسبير عندما اجتاز بلاد العرب في شتاء ١٩١٣ - ١٩١٤، إلى إمكانيات وكفاية فكرة لم تزل في بدايتها، اصبحت قبائل البدو في الصحراء دولة قوية مكتملة المعالم.

ولكي نعود أدراجنا من هذا الاستطراد، نقول إنه سرعان ما أصبح معروفاً أن تركيا كانت مندفعة في عقد اتفاقية مع ألمانيا، وأن الحكومة البريطانية كانت مضطرة لاتخاذ إجراءات لمواجهة احتمال دخولها في حرب ضد ألمانيا. وعندما راجعت الحكومة البريطانية قيمة أصولها في منطقة الخليج العربي، أصبح احتمال التفاهم مع ابن سعود أو الرغبة في التفاهم معه أمراً لا يمكن تجاهله. ولهذا كلف اليوزباشي شكسبير، الذي كان يقضي اجازته في بريطانيا، بأن يعود فوراً إلى المنطقة لمحاولة الاتصال بابن سعود الذي أرسلت إليه عندئذ رسالة تعرفه ما استجد في أوضاع الأمور، وتعرض عليه مقدماً اعتراف بريطانيا الكامل بمركزه في نجد والأحساء وضماناً بحمايته من أي هجوم تركي يستهدف له في البر أو من البحر، إذا كرس جهوده لخدمة أغراض الدول المتحالفة. لقد تعرض المشهد لتغير كبير منذ شهر نيسان/ أبريل، وكانت الحكومة البريطانية في هذه المرة هي التي تلح وتطلب كما كانت تركيا لا تدع سبيلاً لإثارة زعماء العرب الآخرين وكسبهم لقضيتها إلّا طرقته. وكان على ابن الرشيد أن يعاون في مشروع فتح مصر، بينما كان على ابن سعود أن يساعد بريطانيا في فتح الموصل، ولكنه كان في غضون هذا أكثر عناية وشغلاً بمهاجمة

ابن رشيد، وأقل رغبة في أن يكرس جهوده بأية طريقة للأعمال العسكرية بين الدولتين الكبيرتين. وقد أرسل إليه أنور باشا نقوداً ومخصصات لكي يعد نفسه للتعاون مع القوات التركية، كما أرسل السيد طالب النقيب ليشجعه على السير في الطريق الصحيحة، ولكنه أجاب على كل هذه المغريات بأنه لا يستطيع أن يجهز قوات للتعاون مع تركيا إلّا بعد تصفية حسابه مع ابن الرشيد، بينما كان رده على رسالة بريطانية من طراز آخر، إذ قال إنه كان منذ زمن، وما زال، تواقاً لتوثيق علاقته بها، ولكن ليس من اليسير عليه أن ينحاز إلى جانب الحلفاء إلّا إذا أعطى التوكيد اللازم بأن تغيير السياسة البريطانية هو تغيير مستمر دائم حياله، ثم وافق بعد شيء من التردد على زيارة شكسبير له، وتقابلا فعلاً في المعسكر الحربي عندما كان ابن سعود يقوم بمناورات للقاء ابن رشيد في خفيصة، على بعد نحو عشرين ميلاً جنوبي الأرطاوية.

طلب ابن سعود بصراحة غريبة لا التواء فيها ان تتضمن معاهدة رسمية أي تعهد ببذل المساعدة التي تقدمها له بريطانيا في مقابل خدمته لأغراضها، فوضعت نصوص هذه المعاهدة في الحال. وكان على بريطانيا أن تعترف باستقلاله التام وأن تضمنه وتؤمنه، بينما كان على ابن سعود أن يمتنع عن كل معاملة مع أية دولة أخرى قبل ابلاغ السلطات البريطانية. وتضمنت نصوص أخرى مدى المساعدة المالية والعسكرية التي يمكن أن تمده بها بريطانيا للقيام بعملياته ضد عدوه ابن رشيد الذي كان يتعاون فعلاً مع الحكومة التركية.

أرسل شكسبير هذه الاتفاقية إلى السير بيرسي كوكس وبقي مع ابن سعود في انتظار الرد. ولقد علم شكسبير من مضيفه بوجود اتفاق قائم فعلاً بينه وبين شريف مكة ورؤساء القبائل الشمالية في عنيزة بأن يقفوا جميعاً صفاً واحداً في جانب الحكومة العثمانية بمجرد إعلان الحرب. وكان ابن

سعود في نفس الوقت يقوم ببحث العرض الذي تقدم به إليه أربعة من المبعوثين الأتراك الذين وفدوا عليه ليعجل بتعاونه مع ابن الرشيد في الجهاد ضد المشركين من الأعداء، فوعدهم باتخاذ القرار المناسب فيما بعد. ولكن هؤلاء المبعوثين قد فوجئوا برسالة من ابن سعود تعرفهم بأنه نظراً لاشتغال ابن الرشيد فعلاً بأعمال عدائية ضده، فإن التعاون معه أصبح مؤقتاً و أمراً مستحيلاً. ولكن اقتراح الجهاد عرض مرة ثانية من جهة أخرى أثناء وجود شكسبير في المعسكر، إذ وصل إلى ابن سعود خطاب من مكة المكرمة يوم ١٧ كانون الثاني/ يناير قال فيه الأميرعبد الله، الابن الثاني لشريف مكة، بأن تركيا دعت أباه إلى إعلان الحرب الدينية وأنه تمهل حتى يتحقق من موقف ابن سعود حيال هذا الاقتراح. كان جواب ابن سعود على هذه الرسالة بأنه قد رفض عرض وفد تركي حمل إليه اقتراحاً مماثلاً، وانه تبين ألا فائدة ترجى للعرب من وراء وقوفهم إلى جانب تركيا و معاونتها.

وكانت جنود العدو تحاول خلال ذلك أن تحتل مواقع منيعة، فلم تلبث أن وقعت معركة شديدة ضارية يوم ٢٤ كانون الثاني/ يناير عند منهل جراب في جراب في منتصف المسافة بين الأرطاوية والزالفي. كان ابن رشيد متفوقاً في فرق الفرسان الذين استخدمهم بصفة فعالة في مرحلة دقيقة خلال المعركة، بينما لاح النصر للمشاة الوهابيين بالوصول إلى معسكر العدو الذي أخذوا ينهبون ما فيه، وفقاً لتقاليد العرب وضعفهم بدلاً من أن ينصرفو أولاً إلى توكيد النصر وتدعيمه، خاصة وأن قبيلة العجمان، التي كان ولاؤها لابن سعود أمراً يعتوره شك كبير، تركت المعركة بما كسبت من أسلاب، ولهذا لم يصادف الهجوم الفاصل الذي قام به فرسان ابن الرشيد في نهاية اليوم إلّا مقاومة متخاذلة وكان شكسبير، بهيئته الواضحة في اللباس العسكري البريطاني، قد اتخذ له مكاناً بين

شقي الجيش الوهابي وأخذ يوجه نيرانه عندما قام الفرسان بهجومهم. وأثناء فترة الهرب والتقهقر التي تلت هذا الهجوم قتل شكسبير في ظروف لم تعرف وجه التحقيق. وأخيراً فقد انتهت المعركة بما فيه صالح ابن الرشيد، إلّا أن نهب معسكره والخسائر الكبيرة التي حلت به لم تمكنه من الاستمرار في القتال، بينما أدى تمرد جنود البدو المناصرة لابن سعود إلى انسحابه هو الآخر من الميدان. أما بقدر ما كان يعني البريطانيين من هذه المعركة، فإنها أسفرت عن تلاشي أي خطر مباشر يتعرض له جناح القوات البريطانية في الموصل من جراء هجوم يقوم به ابن الرشيد. وفي غضون ذلك تلقى السير بيرسي كوكس تفويضاً من الحكومة البريطانية بوضع معاهدة على الأسس الموضحة في مشروع اتفاقية خفيضة، إلّا أنه يبدو كما لو كان موت شكسبير قد أضعف ثقته في اتخاذ أي عمل مباشر في هذا الموضوع. ولكن ابن سعود من الناحية الاخرى لم يتوان في طلب تعيين ضابط آخر محل شكسبير لإجراء المفاوضات الخاصة بعقد المعاهدة وأبلغ وكيله المحلي في البصرة، عبد اللطيف منديل، أن يكون على اتصال مستمر برئيس القسم السياسي هناك، الذي أجاب بعدم وجود ضابط صالح للخدمة في نجد، واقترح في نفس الوقت أن يوقع آل سعود اتفاقية ابتدائية وفي الأسس التي وضعت في خفيضة، وأن يترك إتمام المعاهدة النهائية وتوقيعها إلى ما بعد. قام ابن سعود بتوقيع مشروع المعاهدة الجديدة وأرفقه بالخطاب وأعاده، ولكن بعد إدخال تعديلات وتحفظات عليه تستلزم إجراء مفاوضات حولها كان من الأفضل أن تدور في مقابلة شخصية بين آل سعود والسير بيرسي كوكس. ولهذا أجل إتمام المعاهدة إلى فرصة مناسبة ولم يجر حتى نهاية السنة أي اتصال بين الفريقين.

شغل ابن سعود في هذه الفترة بالاضطرابات المحلية، ولم يبذل أية محاولة لتجديد العمليات الحربية ضد ابن الرشيد بعد معركة جراب التي لم تكن مرضية للطرفين، ولكن في شهر حزيران/ يونيو قبل العاهلان أن يدفنا العداء بينهما بعد مفاوضات اضطلع بها بعض الوسطاء. ومن الغريب أن ابن الرشيد أذعن لكل المطالب الإقليمية التي تقدم بها ابن سعود، ولكنه رفض الاعتراف بدعواه فيما يتصل بسيادته على جبل شمّر الذي كان يجب أن تكون الحدود الصحيحة بينه وبين نجد خطاً ممتداً عبر كهفة على الحدود الشمالية لإقليم القصيم. وكذلك وافق ابن الرشيد على أن يعدل سياسته الخارجية بحيث تنسق مع سياسة ابن سعود، خاصة وأنه قبل أن يقلع عن الاشتراك في الدسائس التركية. ورغم ذلك فإن هذه الاتفاقية لم تمنع ابن الرشيد عن محاولة غزو القصيم قبل نهاية العام نفسه، عندما كان ابن سعود مشغولاً بكل قوته في إخماد ثورة خطيرة نشبت ضده في الأحساء، إذ ثارت قبيلة العجمان بمساعدة أدعياء الملك من نسل بعض أعضاء الفرع الأكبر من بيت آل سعود. وكان ابن سعود في هذا الوقت يعاني موقفاً نضبت فيه موارده المالية والعسكرية، ولم يكن ليستطيع في مثل هذا الوضع المتأزم أن يقوم، كما أراد، بعمليات حربية بعيدة عن معسكره الرئيسي في الهفوف، ولكن السلطات البريطانية في البحرين استجابت إلى طلبه في سرعة إمداده بالسلاح والذخيرة، فاستطاع في الوقت المناسب أن يواجه تحدي قبيلة العجمان، وتمكن، بمساعدة قوة أرسلها لعونه الشيخ مبارك الصباح من الكويت، من استئصال شافة هذه القبيلة الثائرة التي اضطرت لأن تلتجئ إلى الكويت في شهر أيلول/ سبتمبر. ولقد انجلت له نوايا بريطانيا الطيبة نحوه بإمداده بألف بندقية وبقرض مقداره عشرون ألف جنيه ليتمكن من إخضاع هذه القبائل المتمردة على حكمه. وأخيرا تمت هذه المقابلة،

التي طال تأجيلها، بينه وبين السير بيرسي كوكس في القطيف حيث وقعت المعاهدة وبصمت. وقد أشير في هذه المعاهدة لابن سعود بصفته الحاكم على نجد والأحساء والقطيف وجبيل والمدن والمرافئ التابعة لها. ونص البند الأول على اعتراف بريطانيا به، «حاكماً مستقلاً لهذه الاقاليم ورئيساً مطلقاً لقبائلها»، وعلى حق أبنائه ونسله في وراثته بشرط أن لا يكون خلفه معادياً لبريطانيا أو خصماً لها، وكذلك نص في هذه المادة على مناقشة وتحديد العلاقات والأقاليم التي يحكمها الزعيم الوهابي في الفرصة المناسبة. وتعهدت بريطانيا في المادة الثانية ببذل العون الملائم إذا تعرض لأي عمل عدائي من جانب دولة أجنبية، أما المادة الثالثة فقد تعهد ابن سعود بموجبها أن يتجنب إقامة أي نوع من العلاقات مع دول أجنبية أخرى، أما المادة الرابعة فنصت على منعه دون موافقة بريطانيا، عن التنازل عن أي جزء من أرضه وبأية طريقة، وعلى عدم منح امتيازات لأية دولة أجنبية أو لمواطني أية دولة أجنبية. وتعهد ابن سعود في المادة التالية بأن يبقى طريق الحج مفتوحاً إلى الحجاز وبأن يقوم بحماية ضيوف الرحمن فيها، بينما تعهد بموجب المادة السادسة بعدم التدخل مطلقاً في



بيرسي كوكس

أقاليم الكويت والبحرين وقطر وساحل عُمان التي هي تحت حماية الحكومة البريطانية والتي تربطها بهذه الحكومة علاقات تقوم على معاهدات: وقد ترك تخطيط حدود هذه الأقاليم لكي يتم فيما بعد.

وبينما كان السير بيرسي كوكس يعاني صعاباً جمة لحماية كل أقاليم الخليج العربي التي تعهدت بريطانيا بحمايتها من أي أعمال عدائية متوقعة من جانب ابن سعود، فإنه يبدو غريباً أن الطرفين المتعاقدين لم يتعرضا مطلقاً بكلمة واحدة عن التزاماتهما بالنسبة للحدود الغربية للأقاليم الوهابية. ويجوز أن تفسر المادة الثانية بأنها أخذت في الاعتبار الاحتمال غير المتوقع من دخول القوات التركية آتية من الحجاز الذي كانت الحكومة العثمانية تحتله حتى هذه الفترة. ولكن السبب الحقيقي لعدم وجود أية إشارة إلى الحدود الغربية في المعاهدة، هو لا شك تقدم المفاوضات التي كانت قائمة بين السير هنري مكمهون والشريف حسين أمير مكة لتسوية المشاكل العربية تسوية شاملة على أساس تبادل المنافع ولإثارة الشريف ضد تركيا.

ولهذا لم ير السير بيرسي كوكس أنه من الضروري أو من المناسب أن يعرف ابن سعود حقيقة أو طبيعة هذه المفاوضات التي ربما أثارت في نفسه من القلق بالنسبة لمطامع الشريف الماضية فيما وراء الحجاز، ما لا يثيره هجوم تركي غير متوقع على حدوده الغربية. والواقع أن العلاقات بين الشريف حسين وابن سعود كانت منذ نشوب الحرب طيبة مستقيمة لدرجة تكفي لمواجهة عدو مشترك لم يكن أحدهما راغباً في أن يرى الآخر على علاقات طيبة معه. ولكن المعاهدة الممتازة التي حظى بها الشريف حسين مقارنة بهذه المعاهدة العرجاء التي كان ابن سعود متحفزاً لتوقيعها، إلى جانب المطالع بعيدة المدى التي كان يعلنها الشريف في غير مواربة، قد أحدثا تغيراً كبيراً في سلوك ابن سعود. وعندما أخبره السير بيرسي كوكس

في حزيران/ يونيو سنة ١٩١٦ بثورة الشريف ضد الأتراك أولى نتائجها كانت في مكة المكرمة وفي المدينة، فإنه قدم تهنئته بفشل العدو وهزيمته، وأبان أيضاً عما يساوره من قلق إذ قد تخلق دعوة الشريف حسين في زعامه العرب موقفاً لا يقبله الشك إطلاقاً.

وفي غضون هذا كان الشريف حسين نفسه قد كتب لابن سعود ينبئه بإخراج الترك من مكة المكرمة ويطلب تعاونه. ولقد أجاب على هذه الرسالة بأنه وإن كان على استعداد لأن يقدم للشريف كل ما يملك من عون، إلّا أنه يسره لو أن الشريف بعث إليه ضماناً كتابيًّا بعدم الاعتداء على حقوقه وعدم التدخل في مسائله. وبينما كان ابن سعود يعرف السير بيرسي كوكس أنباء تبادل هذه الرسائل، فإنه تساءل بصفة خاصة عما إذا كانت العلاقات المستقبلية بين نجد والحجاز، من وجهة النظر البريطانية، يجب أن تتم تسويتها بين الطرفين المختصين وحدهما، أو هي مسألة تتصل بالمصالح البريطانية؟ وأنه في هذه الحالة الأخيرة مستعد لأن ينقاد إلى رغباتنا! وكان الشريف حسين قد بعث برده إلى ابن سعود في صراحة نابية، فرد إليه صورة الضمان مشيراً إلى أن مثل هذه الرسالة، لا يمكن أن يكتبها إلّا رجل مجنون أو مخمور، وهكذا كان المسرح قد أعد لنزاع طويل تضافرت كل عوامله ومضاعفاته على ابن سعود. ولكن بصرف النظر عن إرسال صورة من كتاب الشريف إلى البصرة للتعريف والإيضاح، فإنه لم يركب رأسه ولم يطع هواه فأبى أن يميل إلى جانب العدو عندما وصله في نفس الوقت كتاب من الشريف علي حيدر الذي عينته تركيا وقتئذ أميراً لمكة المكرمة كي يخمد ثورة الشريف حسين، والذي كان قد وصل إلى جدة ليباشر مهام منصبه.

أما من وجهة النظر البريطانية فإن اتساع الهوة بين الزعيمين العربيين كان أمراً مثيراً للأسف، ولكن بالنسبة للاحتمال الأكبر والرغبة في إجراء

فعّال لتدعيم الأعمال العسكرية البريطانية الجارية في غرب بلاد العرب، فإن السياسة البريطانية مالت منذ هذه الفترة لأن تتركز في تشجيع الشريف حسين بأي ثمن. ولهذا فوض السير بيرسي كوكس في أن يشكل سياسته بحيث يبقى ابن سعود قائماً بدوره عن طريق الصلات الودية والوعود الطيبة وتوكيد الضمانات له. ولهذا فإنه كتب لابن سعود في أواخر تشرين الأول/ أكتوبر مستعرضاً في إسهاب تطور الأمور في بلاد الحجاز ومشيراً إلى الحاجة الملحة لتعاون كل زعماء العرب في هذه المسائل الحيوية بالنسبة لأهداف العرب أنفسهم، هذه الأهداف التي ظفرت بالعون التام من جانب الحكومة البريطانية. وقد حاول في نفس الوقت أن يمحو القلق والريبة من نفس آل سعود فأكد له أن الشريف حسين لا يكن لنجد نوايا عدوانية، كما أن الضرورة تحتم عليه الاعتراف بمعاهدة القطيف التي تضمن استقلال ابن سعود بالأقاليم التي يحكمها.

ولكن كيفما كانت نتيجة هذه المحاولات، فالواقع أن جهود آل سعود في المشروع الذي تقدم به نفسه في القطيف، لمفاجأة ابن الرشيد والقضاء عليه، قد تراخت وتضاءلت لدرجة أنها اقتصرت على غزوتين صغيرتين عديميتي الأثر على جبل شمّر في صيف وخريف سنة ١٩١٦م وقد برر هذا التواني في الهجوم على ابن الرشيد بالنشاط الثوري البادي في قبيلتي العجمان ومرة. والحقيقة أن ابن سعود كانت لديه مبررات للشكوى، لا بسبب ما حاز الشريف من تقدم جلي عليه في الاعتبار فحسب، بل وبسبب تساهل بريطانيا في توطين قبيلة العجمان على حدود العراق ومنح زعمائها إعانات شخصية بشرط أن يكون سلوكهم طيباً مرضيًّا. ولا بد أن يكون قد بدا له أن الاعتراف باستقلاله أصبح عرضة للانتقاص منه بواسطة تحفظات وقيود توضع على أشياء ذات أهمية حيوية له، بما في ذلك فرض ضرائب في الكويت على كثير من السلع

التي تعبر الميناء إلى نجد. ولا شك في أن النفور المتزايد بين نجد والكويت كان يبدو كمصدر للقلق بالنسبة للسلطات البريطانية. ولقد كان الشيخ مبارك الصباح نفسه، الذي توفي في ديسمبر سنة ١٩١٥، في أخر أيامه كثير النقد لابن سعود والغيرة منه، أما ابنه وخلفه الشيخ جابر، ولو أنه كان أكثر ميلاً للود والمسالمة، إلّا أن قصر مدة حكمه التي لم تزد عن سنة إلّا قليلاً، لم تيسر له عمل أي شيء من شأنه أن يقلل من حدة التوتر، بينما كان أخوه وخلفه سالم يكن عداوة صريحة لابن سعود.

وفي أثناء ذلك كانت تركيا، وقد حفزتها ثورة الحجاز إلى العمل مقدمة على محاولة جريئة لكسب بلاد العرب الوسطى، إذ زارت حائل بعثة تركية، اشتملت على بعض الضباط الألمان، حملت هدايا من البنادق والذخيرة والسلاح، بينما أرسلت بعثة أخرى أقل أهمية ومظهراً إلى مملكة ابن سعود لتشتري إبلاً، فقبض على أعضاءها وصودرت الإبل التي اشترتها وعددها سبعماية جمل، ثم سلم أعضائها بعد ذلك إلى السلطات البريطانية في الكويت ولا ريب بعدئذ أن ابن سعود عاد يحاول قدر استطاعته أن يتفاهم تفاهماً حقيقيًّا مع بريطانيا، رغم أن هذه المحاولات لم تلق إلّا تشجيعاً قليلاً. ثم إنه كتب في سنة ١٩١٦ للسير بيرسي كوكس طالباً أن يقابله شخصيًّا لمناقشة الطرق والوسائل التي يتم بها التعاون مع الشريف حسين، ولإتمام الاستعداد للحملة المزمعة ضد ابن الرشيد. ولما لم يصله رد على رسالته في الشهر التالي كتب مكرراً طلبه هذا في إلحاح. ولكن السير بيرسي كوكس كان قليل الرغبة في هذه المقابلة. إلّا أنه رغم هذا توجه إلى العقير في تشرين الثاني/ نوفمبر لتتم المقابلة المقترحة التي أكد فيها ابن سعود الخسائر التي تكبدها في قتاله لابن الرشيد والمتاعب والاضطرابات التي تثيرها القبائل - وخاصة العجمان ومرة - لسخطها الشديد على سياسته التعاونية مع دولة المشركين وعلى أساس منعهم من

الظفر بالميزات التي يحققها الاتجار مع الأتراك الذين كانوا يدفعون أسعاراً عالية لكل ما يستطيعون شراءه، وكان لا بد له كذلك من أن يطالب بمعرفة حقيقة مرامي السياسة البريطانية حيال الشريف. ولكن السير بيرسي كوكس لم يستطع ان يتحدث بصراحة كافية عن هذا الموضوع بالذات، إذ كان يعرف ما يجهله مضيفه من أن الشريف قد «تُوّج» منذ فترة وجيزة وفي ظروف بررت اعتباره نفسه، وبموافقة بريطانيا، الحاكم الشرعي للعرب جميعاً. وحتى هذه الظروف المثيرة للاضطرابات لم تكن موضع الحديث في مقابلة العقير، إلّا أن السير بيرسي كوكس أكد لابن سعود أن ليس هناك ما يخيفه من شك أو ريبة، لأن الشريف قد أعطى تأكيدات رسمية بأن ليس له مطامع في استقلال أمراء العرب أو سلامة أراضيهم.



الشيخ خزعل بن جابر أمير المحمّرة

وفي هذه الاثناء اتخذت إجراءات لإقامة حفل في الكويت في يوم ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر يقلد فيه كلاًّ من ابن سعود والشيخ جابر الصباح الأوسمة المهداة لهما من بريطانيا. وقد شرّف الحفل الشيخ خزعل أمير المحمرة وكثير من زعماء البدو في داخل البلاد، ثم إن السير

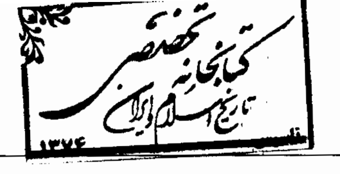
بيرسي كوكس، وهو يقدم هذه الأوسمة كدليل على تقدير بريطانيا لخدمات زعماء العرب الذين يكرمهم، تحدث مهنئاً الحاضرين منهم على ما يلوح في الأفق من جلي إمارات الوحدة والاتفاق بين العرب لمعاونة وتدعيم الجهود الحربية البريطانية. وكذلك تحدث ابن سعود معبراً عن بعض الأحاسيس والعواطف الكريمة، ومنوها بتقديره لجهود الشريف في ثورته ضد تركيا، وواعداً جميع العرب للتعاون مع بريطانيا ومع الشريف في كل ما هو في الواقع هدف مشترك بينهم جميعاً. كانت هذه الحفلة مرضية للغاية! ثم إن ابن سعود قصد بعد ذلك في أول رحلة بحرية له إلى المحمرة **حيث نزل ضيفاً على الشيخ خزعل**. وقد أتاحت له هذه الرحلة زيارة أخرى إلى البصرة يوم ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر، قابل ابن سعود أثناءها معظم زعماء البدو المجاورين، كما مكن له السير بيرسي كوكس من أن يشاهد كثيراً من تشكيلات وتنظيم الجيش البريطاني ومعداته في الميدان بما فيها القوة الجوية التي لم يرها من قبل. ولقد أرسل له السير ستانلي مود قائد عام القوات البريطانية رسالة ترحيب وسيفا تكريماً له من الميدان الذي كان يستعد فيه، بعد صيف طويل في نيسان/ أبريل، لمواصلة القتال الذي حمل انتصاراته إلى بغداد بعد نحو ثلاثة شهور من هذا التاريخ. ولعل أشدها بذاكرة هذا العاهل العربي من رحلته بين أرجاء بيئة غريبة هي في الحقيقة الماثلة أمامه في أن رفاقه الذين لزموا جانبه في مختلف زياراته للمؤسسات العسكرية، كانت امرأة مدعية وثيقة العلم بكل شيء في محيطها، وكانت ملاحظاتها تثير في نفسه شيئاً من الضيق والامتعاض. **هذه المرأة كانت المس «غجيرترود بل»** التي كانت تشرف على كل الاجتماعات، سواء كانت مؤتمرات تعقد لمناقشة أوضاع السياسة العربية أم لدراسة المسائل الاجتماعية التي كانت تهدف لصالحه. أنه لم يكن يميل إليها قطعاً! ورغم أنها كانت في الواقع صاحبة النفوذ

الرسمي، لا عليه وحده، بل وعلى جميع الرؤوساء البريطانيين مدنيين وعسكريين، إلّا أن هذه الحقيقة بدت له غير متسقة ولا قمينة بكرامة الرجال وهيبتهم! وكم أثار من المرح البالغ في غضون اجتماعات كثيرة في نجد بتقليده لصوتها **الحاد ومشيتها العجلة محاكياً قولها: «عبد العزيز! عبد العزيز! انظر إلى هذا، وماذا تظن في هذا؟.. وهكذا.** ولا شك في أنه لم



المس «بيل» صانعة الملوك

يكن مما يرضيه، بل وكان مما تنقطع له أنفاس حاشيته عجباً ودهشة، أن يروا هذا الرجل العظيم تقوده إلى هنا وهناك امرأة مسترجلة! وكان لهذا الشهر الذي انقضى معظمه في محادثات بين ابن سعود من ناحية وبين السير بيرسي كوكس وكبار رجاله العسكريين وزعماء الموصل من ناحية أخرى، أثر كبير في أن يزول من نفس زعيم الوهابيين ما خيل إليه من أن محاولاته المتصلة خلال اثنتي عشرة سنة لتحقيق تفاهم صادق سليم مع بريطانيا، قد أثارت من القلق والحرج أكثر مما لقيت من قبول وترحيب بصفة عامة، نظراً لالتزاماتها المتشعبة في جهات أخرى. ويجب أن لا ننسى في نفس الوقت أن تبادل عبارات الثناء والمديح والحديث الدمث المنمق الذي لا معنى له في مثل هذه المناسبات، لا تمثل أية محاولة من



الجانبين لجلاء غوامض الأمور المختلف عليها وبلوغ أصولها. لقد كان تحت مظاهر الود هذه تيار من الريبة وسوء التفاهم: وخاصة بالنسبة لالتزامات بريطانيا للشريف حسين، ثم بالنسبة للتطورات الأخيرة التي لم يسمح الموقف للسير بيرسي كوكس بمناقشتها، ولا ريب في أنه كان في نفس الوقت تواقاً لأن يحول نظر ابن سعود واهتمامه عن مثل هذه المغامرات بتأكيد تعاونه معه في اتجاه ذي أثر مناسب لإتمام حملة الشريف في الغرب. ولهذا قامت سياسته على تشجيع ابن سعود وحفزه على مهاجمة ابن الرشيد الذي كان وقتئذ في موقف يعتبر مصدر إزعاج وخطر على جناح القوات البريطانية المتقدمة في الموصل، وكان في استطاعته، تحقيقاً لهذا الغرض، أن يمد آل سعود بمساعدة مالية وعسكرية كبيرة مقابل نشاطه المرموق في هذا الاتجاه. ونتيجة لهذا أمكن الوصول إلى عقد معاهدة في خلال الشهر نفسه التزم بموجبها ابن سعود بالاحتفاظ بقوة في الميدان قوامها (٤٠٠٠) مقاتل، وباستمرار الضغط على منافسه: بما في ذلك شن هجوم على حائل، بينما التزمت بريطاينا بمده بمساعدة مالية مقدارها خمسة آلاف جنيه في الشهر، وبأربعة مدافع آلية «متراليوز» وبثلاث آلاف بندقية وبكميات كبيرة من الذخيرة.

كانت هذه هي أهم النتائج العملية التي انحسرت عنها المقابلات والمحادثات في غضون شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، ولكن السير بيرسي كوكس كان يبدو مسرفاً في تفاؤله مغالياً في تقديره للنتائج السياسية التي حققها. والواقع أن كل زعماء العرب كانوا جد تواقين للتعاون مع بريطانيا في كفاحهم ضد الترك. ولكن اتضح من تطور الأمور فيما بعد، أن هذا الطلاء الظاهر البراق من الوفاق والود بين زعماء العرب، كان يخفي وراءه البغض والشحناء، كما ظلت الغيرة والعداء مستحكمين كما كانا من قبل. وبهذا لم يكن صحيحاً قط مازعمه السير بيرسي كوكس من أن «زعماء

الشرق والغالب من بلاد العرب قد اتحدوا تلبية لرغبة الحكومة البريطانية!» وأقل من هذا صدقاً كان حلم «الوحدة العربية» الذي شغل خيال الأحرار في دمشق خلال السنين السابقة لنشوب الحرب، إذ لم يقترب هذا الحلم من الحقيقة إلّا بقدر ما تقترب الأحلام عادة من الواقع! ولم تنقض هذه السنة حتى أطلقت النار في معارك بين الشرق والغرب مؤذنة بفشل سياسة هؤلاء الغرباء في «هوايتهول» العزيزة.

الفصل الرابع

ويلات الحرب وما بعدها

إن الحرب العظمى وإن لم تنشب في سنة ١٩١٣، إلّا أن نذرها بدت واضحة جلية حتى لهؤلاء الذين كان يرقبون البحر من شواطئ بلاد العرب. وكان ابن سعود وقتئذ يحتل مسافة طويلة من شاطئ الخليج العربي، مما جعله بطبيعة الحال ولأول مرة عرضة لمواجهة العاصفة في إبانها إذا ما قدر لها أن تهب، وما زال لديه الكثير مما يجب أن يعمله ليرتب بيته قبل وقوع مثل هذا الحدث المنتظر. وكان لزاماً عليه أن يقيم فترة طويلة في ولاية الأحساء التي حررها حديثاً، ومكث فيها حتى نهاية آب/ أغسطس، لكي يشرف بنفسه على إعادة تنظيم شؤون الحكم فيها، كما استدعى ابن عمه عبدالله بن جلوي ليكون حاكمها، وحل محله حاكماً للقصيم فهد بن معمّر الذي كان قبل ذلك حاكماً لولاية الخرج، بينما بقي عبد الرحمن بن سويلم حاكماً للقطيف التي زارها ابن سعود في نهاية شهر حزيران/ يونيو ليتقبل من أهلها الولاء والطاعة، وليجمع المؤونة ممن يقدرون من أهلها على تزويده بحاجاته التي لم تكن مسرفة ولا باهظة، والتي تعطينا صورة جلية عن اقتصاديات البلاد في تلك الأيام. لقد كان مجموع ما قدمته المدينة لا يزيد على (١٥٠) رأساً من الغنم، و(١٥٠) شوالاً من الأرز، و(١٠٠) صفيحة من الزبد الخالص سعة أربعة غالونات لأغراض الطهي،

بينما نجد في سنة ١٩٤٨، بمناسبة زيارة سمو ولى العهد لشاطئ الأحساء ليقابل ويرحب بمقدم حاملة الطائرات، «فالي فورج» إن الضيوف جلسوا إلى خوان احتوى على ثلاثمائة رأس من الغنم فوق ثلاثمائة قصعة من الأرز! ونذكر بهذه المناسبة أن الإعانات التي جمعت من سكان الأحساء في الاحتفال بتحريرها بلغت تكاليفها ٤٠,٠٠٠ الف ريالاً من عملة «ماريا تريزيا» أو نحو من ٤٠٠٠ جنيه (ذهباً في تلك الأيام)، وهو ما يعادل الآن ربع الدخل اليومي من رسوم البترول! وكان في استطاعة ابن سعود في تلك الأيام القديمة الطيبة أن يحمل كل أرصدة الدولة معه في خرج بعيره، وبعبارة أخرى فإنه كان وقتئذ أغنى نسبيا مما هو الآن، **بينما ظل عظيم كرمه وسخائه يساير ظروف دخله.** وحتى في أيام أبعد من تلك كثيراً فإن «وزير المالية» كان يستعمل عادة حجرة نومه كخزينة للدولة، حتى ساوره القلق بالنسبة لكبر المبلغ الذي يحتفي به: كان هذا المبلغ هو عشرة آلاف جنيه ذهبا! وبديهي أن كل هذا قد تغير اليوم.

عاد ابن سعود إلى الرياض في نهاية سنة ١٩١٣ ليقضي فصل الشتاء فيها منذ أن بدأ نشاطه حتى هذا الوقت. ولقد عطلت أنباء نشوب الحرب بين بريطانيا وألمانيا فترة الهدوء العادية أثناء الصيف التالي. وبينما كانت الدبلوماسية البريطانية تبذل قصارى جهدها في إسطنبول كي تبقى على الحياد التام، فإن الذي كان متوقعاً بصفة عامة في بلاد العرب أنها سوف تدخل الحرب في الفرصة المناسبة منحازة لجانب ألمانيا ولقد تحقق لجميع العناصر في الصحراء أن الحياد التام أمر غير ممكن في مثل هذه الأحداث، بينما كان من المؤكد منذ البداية أن ابن الرشيد على استعداد لبذل صادق مع الدولة صاحبة السيادة، وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى «عجمي السعدون» وأتباعه من حلف المنتفك، بينما كان اتجاه الشريف حسين في الغرب غامضاً ومتوقفاً كليًّا على مجرى الحوادث، أما الشيخ

مبارك الصباح أمير الكويت فكان شديد التشبث بالبريطانيين وبالتعاون معهم إذ كان هذا هو أمله الوحيد في المحافظة على استقلال بلاده، والأمر الوحيد الذي كان في ريب وشك منه، هو هل يمده البريطانيون بالمساعدة الكافية في الوقت المناسب ليصد هجوماً تركيًّا لا بد أنه واقع للاستيلاء على إمارته؟

وهكذا وجد ابن سعود نفسه في عزلة، إلّا انه كان حراً في اختيار طريقه بين هذه الأخطارالمحدقة المعلقة فوق الرؤوس. إنه كان يعرف جيداً ماذا يريد، ولكنه لم يكن بأية حال على ثقة من إمكان تحقيقه نظراً للسياسة البريطانية المترددة حياله، والتي ظلت في الواقع معلقة من الاختيار بين طريقين، حتى لم يدع دخول تركيا الحرب بديلاً عن الاتفاق مع ابن سعود، اتفاقاً لا يتعارض، قدر الطاقة، مع تعهدات بريطانيا وخططها في جهات أخرى.

لقد تحدثنا في الفصل السابق عن الفترات المبكرة من هذه الحرب حديثاً كافياً لأن يبلغ بنا نهاية سنة ١٩١٥ ، أما فيما يتصل بالموقف في بلاد العرب، فكان يبدو أن كل شيء يطرد على أحسن حال. لقد قدم أصدقاء بريطانيا من العرب خدمة ظاهرية للهدف الأمثل من اتحاد العرب وتعاونهم ولو أنها كانت مشوبة بالحذر الشديد بتحفظات بالنسبة للمستقبل. وفي هذه الحالة كأنما رأت السلطات البريطانية في وجوههم وكلماتهم معياراً أكبر للطاعة ووسيلة أقوى للخدمة وموافقة أكمل في كل ما يتصل برغبات بريطانيا، مما كانوا يزمعون أن يرتضوا أو يتحملوا في هذا السبيل. ولقد خرج ابن سعود خاصة بربح ملحوظ من هذه الصفقات، تمثل في خمسة آلاف جنيه ذهباً وبإعانة شهرية، وبكمية كبيرة من المؤن والسلاح والذخيرة. وكان من المتوقع أنه في مقابل هذا سوف يقوم بضغط ملحوظ على ابن الرشيد ليحول دون أي نشاط عسكري من هذه الناحية

ضد العراق وليمنع تهريب السلع إلى تركيا من أسواق العراق بواسطة قبيلة شمّر. وبديهي أن هذا الواجب الأخير كان محلا للإيضاح والتفاهم تبعا للظروف والأحوال، بينما كان تحديد مهمته في المنطقة العربية الخاصة كسباً كبيراً وميزة مهمة. ولم يكن حتى هذه اللحظة قد فكر في إعلان الحرب على تركيا، وأقل من هذا على ألمانيا، وحتى لم يصدر عنه أي تصريح مناسب يعلن تعاونه مع بريطانيا وحلفائها. ولقد أبدى في مفاوضات شهر تشرين الثاني/ نوفمبر شعوراً طيباً جدًّا نحو بريطانيا، كما انه استطاع بمهارة أن يقطع الطريق على أي اقتراح يزيد من التزاماته، وظل محتفظاً بموقفه هذا حتى نهاية الحرب، رغم أنه كان في فترات متقطعة على اتصال دائم وودي مع القائد التركي في المدينة، «**فخري باشا**» الذي كان يقاوم في جد ونجاح، محاولات الشريف الذي انحاز إلى جانب بريطانيا، هذه المحاولات التي كانت ترمي إلى انتصار الحلفاء في حملتهم على الحجاز. هذا وكان الواقع في أنه قد يضطر إلى الدفاع عن مملكته ضد هؤلاء الحلفاء أنفسهم سبباً كافياً لتباطؤ عملياته ضد عدوه القديم، وبدأ تقاعسه عن مهاجمته جليًّا في أحيان كثيرة وعندما كان صالحه البحث يقضي بمثل هذا الهجوم. ولا شك في أنه كان من الواضح لديه أن بقاء ابن الرشيد لفترة ما بعد الحرب كعامل حيوي في سياسة الصحراء أمر خطير بالنسبة له، ولكن نصب عينيه كانتا دائماً مصوبتين إلى الخطر الأكبر في أن يترك وحيداً بدون أصدقاء ليواجه بمفرده مطامع الشريف حسين في أن يكون ملكاً على العرب، هذه المطامع التي تظاهرها بريطانيا بكل الوسائل المعنوية والمادية. إنه كان في حاجة ملحة إلى مساعدة طالما سعى إلى تحقيقها، وهي الحصول على ضمان بريطاني يكفل له الوقاية من مثل هذا التطور المتوقع، ولكن هذا المطلب كان أكثر مما كانت الحكومة البريطانية تريد أن تعطيه ولا يستطيع أحد أن

ينكر أن الحوادث التالية قد برهنت على أنه كان محقاً في مخاوفه هذه. كان عليه أن يواجه هذا الخطر وحده، بل وفي وجود عدو قوي يهدد جناحه، هو ابن الرشيد. وليس هناك من يستحق الشكر أو من يرجع إليه الفضل في خروجه سالماً من هذه الورطة إلّا هو نفسه وحسن تدبيره! لقد كان في بعد نظره لتقدير الموقف والإجراءات التي اتخذها لمواجهته، **أقطع الدليل على عبقريته البارزة كقائد سياسي وعسكري.**



ب. س. لورنس

في أوائل سنة ١٩١٧ كانت المرحلة الأولى من الثورة العربية قد انتهت إلى فترة من التوقف مشوبة التشاؤم والحذر الشديد، إذ بدا وقتئذ أن قيام الترك بعمل حاسم وحركة قوية أصبح امرأً متوقعاً إلى حد كبير، فذهب **اليوزباشي ب. س. لورنس** إلى جدة لينعش من روح الشريف الذي دب فيه التخاذل والتواطؤ وسرعان ما نظمت حركته ودعمت قواعدها وتم تسليح قواته لزحف طويل صوب الشمال ابتدأ من رابع يوم ٢٣ كانون الثاني/ يناير وانتهى عند العقبة في شهر آب/ أغسطس. وفي غضون هذا كان موقف آل سعود ومصالح بريطانيا تعانيان نكسة في الجانب الآخر من

بلاد العرب أو في الكويت، حيث ولي الأمارة في سنة ١٩١٦ الشيخ سالم مبارك الصباح الذي بدأ حكمه مسالماً ليناً لدرجة كافية. ثم أخذ يبين عن لونه الحقيقي وموقفه بسلوك عدائي عام إزاء ابن سعود وبعطف جلي على أهداف تركيا استبان في تشجيعه، إن لم يكن بتنظيمه، لأساليب التهريب من الكويت إلى سوريا عبر الأقاليم الخاضعة لابن الرشيد.

إن خديعة الحصار البريطاني على الموصل - ويجب أن نذكر أن تجار القصيم قاموا بدور هام فيها - مضاف إليها الحاجة الملحة لعمل كل ما يمكن لتحويل نظر ابن سعود عن الغرب حيث كانت تتقدم عمليات تتوقف على نجاحها أشياء هامة، قد ساعدا على تركيز الأنظار والانتباه فوق الصحراء العربية حيث لم يحقق ابن سعود النشاط المرجو من اعماله العدائية ضد منافسه في الشمال. وفي خلال هذا كان حظ بريطانيا على ضفاف دجلة آخذاً في الصعود مرة أخرى، وجاء احتلال بغداد يوم ١١ آذار/ مارس فخفف عن السير بيرسي كوكس أعباء رعاية الجيش والحركات العسكرية في الغرب، إنه كان مثقلاً بما يكفيه من المشاكل السياسية والإدارية القريبة من مستقره ولكنه كان دائماً لين العريكة نحو بلاد العرب. ولهذا فإن الضغط من جانب السير ريجنالد وينجيت والمكتب العربي في القاهرة للقيام بعمل سريع يحول دون قيام ابن سعود، مدفوعاً بالغيرة، بأعمال عدائية على حدود الحجاز من شأنها ان تضر بالعمليات الحربية في هذا الميدان: لقد اضطره هذا الضغط الشديد. لأن يعيد النظر من جديد في إمكان قيام تعاون أوثق وأصدق مع ابن سعود. ولهذا وصل **المستر رونالد ستورز** - الذي كان فيما بعد السكرتير الشرقي للمندوب السامي البريطاني في مصر - على رأس بعثة للمفاوضة إلى بغداد لكي تجلي وجهة نظر المكتب العربي للسير بيرسي كوكس، ولم ينقض وقت طويل حتى اتخذ قرار يقضي بالانتفاع بكفاية

رئيس هذه البعثة ومعلوماته الخاصة عن المشاكل التي درست في زيارة يقوم بها لابن سعود وكان عليه أن يذهب بصفته نائباً عن السير بيرسي كوكس، ولكن من الناحية الأخرى ربما مكنت له حقيقة وجوده في الصحراء من أن يتكلم بلسان واحد نيابة عن ناحيتين كثيراً ما اختلفت مصالحهما. وكانت هذه المقابلة توحي بأنها ستكون مقابلة مثالية في نتائجها، ولكن ثبت أن حرارة الصحراء كانت أقسى مما يحتمل السفير، الذي كان عليه أن يعود مسرعاً إلى الكويت مصاباً بضربة شمس شديدة. ولقد كان لهذه العادية أثر من التراخي والتشاؤم في بغداد، كما كان لسابقتها بسبب موت شكسبير أثناء قيامه بعمله قبل ذلك، ولكن هذا لم يثبط من عزم السير بيرسي كوكس. وعندما حضر البوكباشي ر. س. هاملتون - لورد بلهافن وستينتون فيما بعد المندوب السياسي في الكويت من شهر تموز/ يوليو ليناقش مسائل تتصل بالحصار، وقع عليه الاختيار ليرأس بعثة بريطانية سياسية عسكرية قامت بزيارة ابن سعود كان هاملتون جنديًّا صعب المراس محباً للمغامرة وخشونة العيش، وكان يبدو ان كل شيء قد أعد بما يكفل عودة نشاط العلاقات مع العاهل الوهابي الذي كان يقاسي نحس الطالع في خيامه، بينما كانت شمس السعد تسطع حول منافسة الطموح في الغرب.

أجل هاملتون اختيار معداته ورفاقه الذي تتألف منهم بعثته إلى الرياض وعاد إلى الكويت لكي ينفذ القرارات التي اتخذت بالنسبة لإدارة الشؤون المحلية هناك، وبينما كان منهمكاً في عمله هذا بلغته أنباء عن عمليات تهريب تجري صوب القصيم، ورغم ما كان عليه من قلق وعجلة للسفر مع بعثته، فإنه أخذ تواً في مطاردة المهربين واتخذ سبيله من بريدة إلى الرياض حيث قنع بانتظار وصول بقية أعضاء البعثة هناك، ولكنه لسوء الحظ لم يكن مزوداً بالمعلومات الكافية قبل مبارحته بغداد.

ولقد تبودلت مراسلات سرية خطيرة بين القاهرة والموصل بعد سفره استمرت بضعة أسابيع، ومن بين أشياء كثيرة أخرى فقد تقرر أن يرافق هذه البعثة المستر رونالد ستورز قادماً من جدة عبر البلاد إلى الرياض، بينما كان تقرر كذلك أن تتضمن البعثة عضواً من هيئة القيادة وطبيباً، وربما أعضاء آخرين. وكان السير بيرسي كوكس كان تواقاً بصفة خاصة لن تكون أعمال هذه البعثة، التي بذل في تكوينها كثيراً من الوقت والتفكير، تحت اشرافه المباشر، وفي نفس الوقت، لأن يكون هدفها الأول هو بذل كل حماية معقولة لمصالح ابن سعود الذي كان يشعر قبله بشيء من المسؤولية الشخصية.ولقد رأى السير بيرسي كوكس في ضوء هذه الظروف، ونظراً للحقيقة في أن كل عضو من أعضاء هذه البعثة، ما عدا الطبيب، يمثل بصفة خاصة بعض المصالح المحلية، أن يكون رئيس هذه البعثة ممثلاً خاصاً له ذا رأي معلوم ولا حكم سابق في الموضوع: وقد وقع اختياره عليّ!

كنت أعمل طوال الشهور السابقة سكرتيراً خاصاً له، أضرب بين أكداس الأوراق باحثاً عن كل موضوع قد يسترعي اهتمامه الشخصي، بما في هذا كل المكاتبات والمسائل المتصلة بالمشاكل التي تدور حولها مهمة هذه البعثة، إلى جانب اعتبارات أخرى غير كبيرة الأهمية، وبينما كان البكباشي!. ت. ويلسون نائبه في البصرة وقتئذ في طريقه إلى بغداد ليتسلم العمل الذي كنت قائماً به، كان عليّ أن استعد للمهمة الجديدة دون وقوع أي اضطراب بين هيئة موظفي القسم السياسي الرئيسي. ولست في حاجة للقول بأنني مرتاح جدًّا للذهاب! وهكذا أتيحت لي الفرصة لأن أبدأ في الصحراء ما قدر لي من تجوال يكاد يبلغ اليوم أربعين سنة. وسرعان ما كنت في طريقي إلى بلاد العرب يصحبني البكباشي كلنليف أوين ممثل قيادة الجيش وتابعه، وكان لي شرف مقابلة ابن سعود في

الرياض لأول مرة يوم ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر. لقد مرت خلال العشرة الأيام الأولى التي قضيتها في الرياض قبل أن أتم رحلتي إلى الحجاز، تجارب لا تنسى. كانت مهمتي أن أتحدث إلى ابن سعود في: (أ) القيام بعمل سريع من جانبه ضد ابن الرشيد وقاية من محاولته احباط أعمال الشريف في الغرب، ثم وضع حد لتهريب السلع عبر إقليمه إلى الترك: (ب) تصفية الجو وتحسين العلاقات بين العاهل الوهابي وجاريه الشريف حسين الذي أصبح ملك الحجاز ومطالباً بأن يكون ملك العرب جميعاً، والشيخ سالم الصباح أمير الكويت (ج) وضع حل دائم لمشكلةالعجمان المزمنة (د) لأناقش ابن سعود في المشروع الخاص بإصدار عملة نحاسية لنجد، (هـ) ثم لأتحدث إليه عن رغبته في تعيين مندوب سياسي بريطاني بصفة مستديمة لديه. وكان الموضوعان الأخيران البارزان على شيء من الصبغة العلمية، كما أن الحديث دار حولهما في مدى مستقبل غير محدود.

أما الموضوعات الثلاثة الأخرى فقد كان الحديث حولها مباشراً وعمليًّا ومن الفترة (١٣٢) ساعة الأولى لوصولي قضيت لا أقل من (٣٤) ساعة في محادثات خاصة مع ابن سعود فضلاً عن محادثات عارضة ذات صبغة إعدادية مع ابن عمه أحمد بن ثنيان، وكان آنئذ ساعده الأيمن في الناحية السياسية الذي سبق ذكره في الكلام عن مشكلة الأحساء، **وأني أدون الآتي من صلب التقرير الرسمي عن أعمال هذه البعثة.**

«وجدت ابن سعود رجل عمل لا يكل ولا يمل، وبصرف النظر عن ميل يخرج به أحياناً عن موضوع حديثه مدفوعاً بموجات بلاغته القرآنية، فهو رجل ذو مواهب عملية، وذو إلمام طيب بشؤون العالم، وعلى علم تام بمشاكل السياسات العربية التي يقف منها موقف المشاهد بالغ الاهتمام،

وهو فوق كل هذا مقتنع عن إدراك ويقين بضرورة التحالف مع بريطانيا بصفته الضمان الوحيد لصيانة مصالح بلاده وبني وطنه في الحاضر والمستقبل»، إن هذا الوصف ينطبق عليه اليوم تماماً! ولعله فقد اليوم شيئاً من بلاغته القديمة إذ تناقصت فرص استخدامها، كما أنه أذن للسيف أن يستريح ويصدأ في غمده، ولكن بين حين وآخر يستطيع المرء أن يرى في جلسة مناسبة أن النار ما زالت كامنة مستكينة هناك، وعلى استعداد لأن تشتعل وتتأجج ثانية من هذه الجمرات الداكنة.ومن المحتمل أيضاً أن الذي حمله طوال هذه السنين قد أصبح أثقل مما يستطيع أن يحمل منكباه الهرمان، إلى جانب التوتر والضغط الحديثين اللذين تمخضت عنهما المشاكل غير العادية في عالم متغير متقلب. أما فيما عدا هذا، وبصرف النظر عن هذا المقعد الذي يعلن استسلامه لضعف جسماني، فإن الصفات العظيمة التي امتاز بها الأمير الصغير الذي خرج يضرب في فيافي الصحراء منقباً عن حظه وسعده منذ نصف قرن مضى، هذه الصفات العظيمة يمكن أن تتعرفها الآن بسهولة في هذا الشيخ، الذي **هو اليوم ملك المملكة العربية السعودية.**

ولكن لندع هذا لنعود إلى تلك الظروف التي سادت منذ ثلاثين عاماً، إذ فشلت مطامع السير بيرسي كوكس بالنسبة لهذه البعثة التي أسندت إليّ رئاستها، لقد رفض الشريف حسين السماح للمستر رونالد ستورز، الذي كان عليه أن يلحق بالبعثة في الرياض، أن يقوم برحلته بالطريق البرية بحجة الخطر الذي كانت تنطوي عليه الحالة في الصحراء وقتئذ: وهكذا كان علينا أن نرحل بخير ما نستطيع وبدون أية مساعدة من مصر. وكان على هاملتون أن يعود إلى الكويت مباشرة بعد البت في المسائل المتعلقة بالشيخ سالم الصباح، وكذلك عاد اليوزباشي كلنليف أوين وتابعه إلى العراق في شهر شباط/ فبراير، بينما لم يحقق الطبيب

شيئاً مما كان يرجى منه كأصل ثمين وأداة قوية في هذه البلاد التي كان على صلة وثيقة بأمراضها وعللها المزمنة وكيفية علاجها. وهكذا كنت من الناحية العملية وحيداً في البلاد العربية الوهابية طوال الفترة التي استلزمها نشاط البعثة الذي لم ينته إلّا بإعلان الحرب، دون أن يكون معي كاتب أو خادم. ورغم هذا فإني أحب دائماً أن أذكر السنة الأولى التي قضيتها بين هؤلاء الرجال العظام الأقوياء المتعصبين وأن أعتبرها خير سنة في حياتي. وعندما عدت إلى هذه البلاد بعد بضع سنين قضيتها في العراق وشرق الأردن وجدت أن عملية التحول قد بدأت فعلاً، وئيدة في بادىء الأمر، ولكن ثابتة الخطى مطردة القوة. لقد كان الوهابيون المتعصبون يأكلون من حلوى المشركين ويسبغونها دون أن يجدوا فيها ما تخيلوا من سوء أو مرارة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ آية قرآنية. كان ابن سعود قبل وصولي إلى بلاد العرب قد قضى الربيع وأوائل الصيف من سنة ١٩٤٧ في معسكر بالقرب من الطرق التي تجتازها قبائل شمّر، متظاهراً بالقيام بالتزاماته في مقابل المساعدة المالية والعسكرية التي تقدمها له بريطانيا ولكنه في أول تموز/ يوليو ترك لابنه تركي قيادة هذه العمليات، وعاد إلى الرياض ليقضي فيها شهر الصوم الذي حل وقتئذ في منتصف الصيف كما حل في سنة الذكرى الذهبية في نفس الميعاد. لم يقع شيء في غضون هذه الحركات، وكان ابن الرشيد نفسه واثقاً من عدم وجود خطر كبير يتهدد عاصمته، ولهذا فإنه تركها تحت إشراف أحد ثقاته من الرقيق، وارتحل كي ينضم إلى الأتراك بالقرب من مدائن صالح على سكة حديد الحجاز. وكان في نفس الوقت قد أرسل مندوبه رُشَيد الليلا الذي حظي بكامل ثقته إلى دمشق لكي يشرح للسلطات التركية حاجات سيده ومطالبه. ومهما كانت الحال فإن الموقف في الصحراء قد أتاح للشريف مبررات واضحة لتجديد شكايته من فتور ابن سعود وتراخيه

جراء الهدف المشترك. وقد عبر المندوب السامي في مصر عن أمله في أن «تسفر جهود البعثة التي أراسها عن هجوم فعال ضد الأتراك من جانب ابن سعود، الأمر الذي قد يبرهن للملك على خطأ سياسته القائمة على الشك والريبة، وعلى أن الحكمة تقضي بقيام الصلح والتفاهم بينه وبين أقرب جار قوي له!».

ولهذا كان هدفنا السياسي هو تدبير ما يلزم لعودة الأعمال العدائية ضد حائل! ولقد وجدنا ابن سعود على استعداد لزيادة الضغط العسكري وبذل جهود أكبر في هذا الاتجاه، على فرض معاونتنا على وضعه في المركز الفعال الذي يمكن له من الاضطلاع بهذه المسؤولية، إلّا أننا صدمنا بعض الشيء إذ وجدنا المدافع الآلية ومعظم الذخيرة التي أرسلت إليه حسب الاتفاقات السابقة في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ما زالت تقريباً كما هي في مخازن باردة بعد مضي سنة من توريدها إليه، كما وجدنا أن ثلاثة من الرجال الأربعة الذين تدربوا على استعمال هذه المدافع في البصرة قد ماتوا، وأن الرابع قد نسي كل ما تعلمه نتيجة لعدم مداومة التمرين والتدريب! ومع هذا فإن ابن سعود قد وضح لنا أن العمليات الجدية ضد حائل تتطلب مزيداً من المال والسلاح، مما جعلنا نتفق على صدق هذه المطالب، إذ كان ابن الرشيد أحسن من منافسه بكثير عدة واستعداداً نظراً لصغر الإقليم الذي يدافع عنه ولوجود مركز حيوي واحد، هو حائل، يستأثر بهذا الدفاع، بينما كان على ابن سعود أن يواجه، لا واجبات الدفاع عن رقعة متسعة من الأرض فحسب، بل والأخطار الملحة كموقف القبائل في الصحراء الشرقية، حيث كانت قبيلة العجمان تبدي تذمراً وانتقاضاً واضحي المعالم.

وبعد دراسة كل المعلومات التي قدمت لنا، قدرنا. «اليوزباشي كلنليف وأنا، القوة الفعالة لابن سعود بحوالي (١٢٠٠٠) رجل مسلحين

ببنادق حديثة ومزودين بذخيرة كافية، فضلاً عن خمسة مدافع تركية للدفاع عن عاصمته التي كانت أسوارها في حالة جيدة، إلّا أننا علمنا فيما بعد بعودة رشيد الليلا من دمشق حاملاً كميات كبيرة من السلاح. وإزاء هذا فإن تقديرنا تضمن حوالي (٨٠٠٠) بندقية حديثة، والمدافع الآلية الأربعة الحديثة، وربما كذلك اثنا عشر مدفعاً تركيا وزن سبعة أرطال، ولو لم يوجد رجال مدربون على استعمالها. وفضلاً عن هذا فقد كان هناك بدون شك بضعة آلاف من البنادق القديمة ومن المؤن والذخيرة زهيدة القيمة، كما كان في يد الإخوان بعض موارد الذخيرة والسلاح وكذلك غيرهم من القوات المحلية. وكان من الجلي أن شيئاً يجب أن يعمل لكي يتم تسليحه على وجه أفضل، إذا كنا نريده حقيقة على، أن يزعج ابن الرشيد ويقض مضجعه. ولكن مسألة تمويل هذه العمليات بصفة مرضية لم تكن أقل أهمية من مسألة السلاح نفسها. أما إيراداته الخاصة فكان يحصل عليها من الرسوم الجمركية في موانئ الأحساء ومن الضرائب على النخيل وعلى الأرض التي تزرع قمحاً، وعلى الماشية. وكانت حصيلة هذه الضرائب لا تزيد على مائة ألف جنيه سنويًّا، فضلاً عن إعانته من بريطانيا ومقدارها ستون ألف جنيه كل عام. وكان عليه أن يقدم إعانات لرؤوساء القبائل وأن ينفق على مستعمرات الاخوان من هذا الدخل، بينما كان الباقي لا يكاد يكفي حاجاته الخاصة وعدداً متواضعاً من الموظفين. وكان واضحاً أنه في حاجة إلى المال لكي يزود نفسه بعدد كاف من إبل النقل اللازمة لمثل هذه العمليات الجدية ولكي يشتري المؤونة اللازمة للجيش، فضلاً عن دفع مرتبات لأسر هؤلاء الذين يقومون بالخدمة في الميدان علاوة على مرتباتهم أنفسهم.

لقد قدرنا أنه يحتاج إلى (٤) مدافع ميدان وكمية مناسبة من الذخيرة ورجال مدربين على استعمالها يختارون من بين أسرى الحرب العرب

الذين أسروا في الموصل وفلسطين وكانوا يعملون في الجيش التركي، (ب) (١٠٠٠٠) بندقية حديثة وكمية مناسبة من ذخيرتها، (ح) مبلغ (٢٠٠٠٠) جنيهاً كمنحة أولية لشراء دواب النقل، ثم مساعدة مقدارها (٥٠٠٠٠) جنيهاً شهريًّا لمدة ثلاثة اشهر قد تتطلبها هذه العمليات لنصل إلى نهاية ناجحة. وبديهي أنه لم يكن هناك وجه للمقارنة بين هذا الاقتراح المتواضع لمساعدة ابن سعود وبين هذا النطاق الكبير في تمويل عمليات الشريف، ولكن من البديهي أيضاً أنه لم يكن هناك كذلك وجه للمقارنة بين النتائج المتوقع تحقيقها في الحالتين. ولكني وجدت من الحكمة، قبل أن أتقدم إلى بغداد بهذه التوصيات أن آخذ تعهداً من ابن سعود بأنه سوف يبدأ جديًّا في الهجوم المرموق على ابن الرشيد، إذا ما قبلت اقتراحاتي ونفذت. والظاهر أن هذه المطالب المتواضعة الهزيلة التي تقدمت بها عليه قد سببت له شيئاً من الكدر وقلق البال، ولكنه أعطانا التعهد المطلوب، فبعثت بمقترحاتي تواً إلى بغداد. وفي أثناء الفترة التي كان لا بد أن تنقضى ليصل الرد إلى الرياض، فإنني ذهبت إلى الحجاز لأبحث الموقف مع الشريف حسين والدكتور د.ج هوغراث الذي حضر إلى جدة للغرض نفسه ممثلاً للمندوب السامي في مصر. لقد بارحت الرياض يوم ٩ ديسمبر مؤملاً العودة إليها في خلال شهر، ولكني لم أعد إلّا في منتصف شهر نيسان/ أبريل لألقى ابن سعود ثانية في معسكر الربيع بناحية الشعب الشوكي.

وكان الموقف العسكري في هذا الوقت قد تغير من جميع نواحيه، ففلسطين قد اغتصبت منذ فترة طويلة، ورغم أن الأتراك كانوا حتى هذا الوقت قابضين على سكة حديد الحجاز في الجزء العربي جنوب المدينة، إلّا أنها كانت قليلة الفائدة لهم بعد التدمير الذي لحق بالقضبان والجسور نتيجة لعمليات النسف التي قام بها لورنس. وهكذا لم تعد لمهاجمة ابن

الرشيد أهمية في حساب الحكومة البريطانية، ولهذا لم يكن غريباً ان تبدو المقترحات المتواضعة المعتدلة التي تقدمت بها في ديسمبر مغالية مسرفة في نيسان/ أبريل. والواقع أن التخفيض قد تناول كل هذه المقترحات رغم محاولات السير بيرسي كوكس لكي ينظر في الأمر. وقد وافقته الحكومة البريطانية على اعتبار القرض الذي منحته لابن سعود قبل مبارحتي الرياض وقدره (١٠٠٠٠) جنيه منحة منها له، كما كانت مستعدة ان تعطيه ألف بندقية ومائة ألف حشوة لها من الذخيرة، أما فيما يتصل بباقي المقترحات فلم تكن راغبة في أكثر من أن تعد ابن سعود بمنحة مالية قدرها خمسون ألف جنيه ورفع إعانته الشهرية إلى عشرة آلاف جنيه إذا ما استولى على حائل بالموارد المتاحة له.

والواقع أنني لم أكن لأسيغ نقل هذه الانباء غير السارة إلى ابن سعود الذي كان لا بد أن يرى فيها نتائج مسعى الشريف حسين ومكره، ولهذا كان من الأرجح أن يلغي هذه العمليات ضد حائل: وربما فعل هذا لكي يقوم بنشاط عسكري بالقرب من حدود الحجاز. والحقيقة أن سلوكه جاء مطابقاً لما كنت أنتظر. لقد سخر من فكرة منحة مشروطة بأداء مهمة لا يستطيع حتى محاولة إنجازها! ثم تحدث متهكماً عن الشريف وأساليبه، أما فيما يتصل بالحكومة البريطانية فإنه لا يستطيع إلّا أن ينحني لقراراتها، آسفاً لعدم استطاعته أداء أية خدمة آخرى لها. وبدا لي أن مهمة بعثتي قد انتهت إلى إخفاق جلي في تحقيق أهم أهدافها وإلى احتمال اضطراب العلاقات بين ابن سعود والشريف حسين اضطراباً سريعاً عنيفاً، بينما كنت مكلفاً بأن أعمل على تحسينها ما أمكن. ولقد قررت، لكي أحول دون وقوع هذه الكارثة الثانية، أن احتفظ بمكاني إلى جوار هذا العاهل المحنك. ولكي يتيسر لي ما أردت، فقد أخذت على عاتقي مسؤولية إقراضه عشرين ألف جنيه من النقود الزائدة التي كانت تحت تصرفي في

الأحساء، بشرط أساسي هو أن يعبئ قواته لهجوم سريع على حائل، فقبل القرض الذي كان في أمس الحاجة إليه، كما قبل الشروط التي يتوقف عليها: ووعد بأن يكون كل شيء على أهبة الاستعداد لتنفيذ هذا الهجوم بعد شهر الصوم. وكان في هذه الفترة كثير الشكوى من الشريف وادعائه لملكية واحة خرمة، ومن قبيلة العجمان وغاراتها المستمرة على ارضه، ومن التجائها إلى الكويت والعراق، ومن الصعاب المتكررة المتصلة بالحصار وما ينجم عنها من أعمال تهريب. وكان جوابي الوحيد على كل هذا هو الحث على القيام بالهجوم على حائل كعلاج لكل أدوائه وأمن من كل مخاوفه. وقد تحقق له أنه لا يستطيع أن يكسب أية مساعدة أخرى إلّا إذا عمل.

ولقد ساعد نشاطه في هذا الاتجاه على أن يشغل عن التفكير فيما بينه وبين الشريف حسين. وفي شهر تموز/ يوليو ارسل ابنه تركي إلى آبار «عجيبة» بالقرب من حدود شمّر لبدء الهجوم الذي انسحبت أمامه مخافر العدو الأمامية حتى لم تعد في متناوله. أما القوات الوهابية الأساسية فقد بارحت الرياض تحت قيادة ابن سعود نفسه في شهر آب/ أغسطس، فوصل بريدة في منتصف أيلول/ سبتمبر الذي كان ابن سعود في نهايته يواجه أسوار حائل، فكان أول عضو من آل سعود يقف أمام حائل كعدو مهاجم. لم يكن من المستطاع مهاجمة المدينة نفسها، كما إن ابن الرشيد انسحب بقواته ليحتمي في البقيع متجنباً مواجهة قوات متفوقة في العراء. أخذ ابن سعود يهاجم شمّر حيثما وجدهم حول حائل منزلاً بهم ضرراً كبيراً وظافراً بغنيمة دسمة اشتملت على (١٥٠٠) من الإبل وحوالي (١٠٠٠٠) حشوة للأسلحة الصغيرة وكثير من أثاث المعسكرات إلى جانب آلاف من الماشية، وعاد بغنيمته إلى قصيبة ثم عن طريق طرفية إلى بريدة حيث وجدت رسالة في انتظاري تحتوي أنباء وتعليمات تفيد بأن مهمتي قد

انتهت. وبالنظر إلى الانهيار الكبير الذي ارتطمت فيه القوات التركية، لم يعد مصير حائل مما يهم الحكومة البريطانية التي كفت عن تقديم أي مال أو سلاح بعد ذلك لمهاجمة ابن الرشيد. وطبيعي أن يهتاج ابن سعود وتأخذه ثورة الغضب، فتحدث في عنف بالغ عن إرسال انذار للحكومة البريطانية. ولقد وصلنا بعد نقاش طويل إلى الاتفاق على ان أعود إلى ساحل البحر لأحاول أن أحمل السلطات البريطانية على إعادة النظر في الموقف .«**قال لي عند سفري: إذا لم تنجح، فليس هناك ما يدعو إلى رجوعك**»، ولقد علمت بمجرد وصولي إلى الكويت بأن الحرب قد انتهت بالنسبة لتركيا، وأن لا داعي لرجوعي بعد الأن. وعندما التقيت به بعد ذلك ببضع سنين[1] لم يكن هذا اللقاء بصفتي موظفاً بريطانيا، بل كنت في هذا مخالفاً لأوامر الحكومة البريطانية!

ويكفي مؤقتاً ما ذكر عن الحملة ضد حائل! وفي غضون الأيام العشرة التي قضيتها في الرياض قبل ذهابي إلى الحجاز استرعى انتباهى في عصر أحد الأيام صوت طلقات نارية في فناء القصر. ولقد أعلنت هذه الطلقات وصول أنباء طيبة، كانت في هذه الحالة أنباء نجاح سكان واحة خرمة في مقاومتهم لأول هجوم قامت به قوات الشريف حسين لاحتلال الواحة. ولقد سمعت خلال الصيف التالي هذه الأصوات المشؤومة مرتين منذرة بوقوع هجمات أخرى في نطاق أوسع، ومنذرة ابن سعود في المرة الثالثة بأنه إذا كان راضياً عن مهاجمة رعاياه دون أن يعمل شيئاً لحمايتهم، فإنهم سوف يتخذون الخطوات اللازمة لحماية أنفسهم وبيوتهم. وقد انتهت رسالة خالد بن لويث مؤكدة بأنه إذا لم يصل إليه تواً رد مقنع يرضيه، فإنه سيرسل عذراء من بنات خرمة سافرة حاسرة الرأس لتستنفر قبائل العرب لحرب الشريف حسين. أما ابن سعود الذي احتج لديّ على

(١) عدا مقابلة قصيرة سنة ١٩٢٠ سيأتى الكلام عنها.

هذا الهجوم في المرتين الأوليين، فإنه حذرني هذه المرة صراحة بأن أي هجوم أخر على خرمة معناه حرب بينه وبين الشريف حسين، وكما أعطى الرسل هذا الوعد المؤكد ليحملوه إلى أهليهم، وأنه مصمم كليًّا على الوفاء بوعده. وكان علينا عندئذ أن نفي بوعودنا التي أعطيناها إياه منذ زمن طويل، وأن نمنع الشريف الذي نحميه، عن أعمال التحرش والاعتداء هذه التي كانت تورثه المتاعب والحرج كان ابن سعود في هذا الوقت يعاني حالة حادة من التبرم والحنق أثارتها في نفسه الحقيقة الواضحة في أن اهتمام بريطانيا بمصالحه لم يقم إلّا على الرغبة في منعه عن الاعتداء على ما اعتبرته سلفاً حقوقاً للشريف حسين.

أما واحة خرمة نفسها فكانت مركزاً قليل الأهمية من الناحيتين الاقتصادية والسياسية، إلّا أنها كانت من الناحية الاستراتيجية تمثل مدخلاً خلفيًّا إلى نجد، أما أهميتها الحقيقية فكانت تبدو في أنها رمز الكفاح من أجل الزعامة العربية التي انتقلت الآن من ساحة القصيم إلى حدود الحجاز. ولا شك في أن صلاتها الاقتصادية كانت تربطها إلى الحجاز، ولو أنها من الناحيتين الجغرافية والسياسية تتبع الصحراء التي كانت قبائلها تتجول حتى وادي حنيفة بجوار الرياض، بينما كانت الأسرة التي تحكم الواحة من الأشراف، أو من نسل النبي ﷺ.

وكيفما كانت الحال فإن السلطات البريطانية اعتبرت إنذار ابن سعود شيئاً جديًّا خطيراً بالنسبة للحاله القائمة، يقضي بمنع الشريف حسين عن أية محاولة أخرى في هذا الاتجاه حتى يتقرر مصير الحرب ويعفيها من كل تبعة إلّا التبعة الأدبية للقضاء على العوامل التي تفرق بين أكبر حليفين لبريطانيا في بلاد العرب. ولقد تقررت في هوايتهول هذه العوامل بعد انتهاء الحرب ببضعة شهور، لا على أساس الوضع القانوني للقضية، ولا على أساس حق تقرير المصير، ولكن وفق التقدير الفني للعوامل التي

يحتمل أن تثير نزاعاً بين الفريقين. وبناء على مشورة الخبراء العسكريين جاء القرار في صالح الشريف حسين، الذي حول حق احتلال المناطق المختلف عليها تصحبه بركات صاحب الجلالة البريطانية، بينما وجه تحذير حازم لابن سعود بأن يكف عن كل عمل من شأنه أن يضر بالعلاقات الودية القائمة بينه وبين بريطانيا العظمى. وعليه خرج ابن الشريف حسين، الشريف عبدالله، على رأس قوة كبيرة لتنفيذ هذا القرار، ولكن ابن سعود بقي محافظاً على عهده لأهل واحة خرمة فعبأ قواته لحماية شرفهم واستقلالهم. وفي غضون شهرين كان السيف قد قوض دعائم قرار هوايتهول ونقض حكمها، إذ مزق جيش الشريف شر ممزق في معركة ترابة وفر قائده الشريف عبدالله وبطانته من الميدان، ولقد انتشر صدى انتصار الوهابيين حتى تردد في جدة ومكة حيث أحدثت أنباء مذبحة هؤلاء الأبرياء اضطراباً ورعباً. ثم عاد خبراء هوايتهول إلى الاجتماع وقد خاب فألهم ليعيدوا النظر في القرار الذي أدى إلى هذه الكارثة، بينما رجع ابن سعود إلى الرياض طلباً للاستجمام وقد أضاف إلى مملكته بحق الفتح واحة ترابة وإقليم البقم التي هي قاعدته. وهكذا انتهت الجولة الأولى في صراع بلغ إبانه بفتح الوهابيين للحجاز بعد ذلك بسنوات. ولقد اعترفت الحكومة البريطانية بالأمر الواقع وحق ابن سعود في ضم خرمة وترابة، واستمرت عن طيب خاطر في دفع الإعانة المالية، التي اتضح أنها كانت عاملاً حيويًّا في حفظ الحجاز مؤقتاً بعيداً عن أعين الوهابيين والتفاتتهم، ثم أرسل الأمير الشاب فيصل آل سعود على رأس بعثة إلى إنجلترا ليقدم التهنئة للحكومة البريطانية لخروجها من الحرب العالمية ظافرة، ولكي يناقش في هذه المناسبة مستقبل مملكة أبيه على ضوء المصالح البريطانية في الشرق الأوسط وبلاد العرب. ولقد نجحت هذه الزيارة نجاحاً بارزاً في جميع نواحيها،

بحيث كان يبدو في ذلك الوقت أن لا شيء يمكن أن يعكر صفو هذه العلاقات الطيبة بين البلدين. ولكن ثورة العراق في سنة ١٩٢٠ وما جاء في أعقابها كان من أولى نتائجها أن وضعت بريطانيا فرعاً من الأسرة الهاشمية في ناحية أخرى على حدود المملكة الوهابية، بينما كان من شأن الحوادث في الشمال أن يتم تطويق ابن سعود بتنصيب شريف آخر، تحت الحماية البريطانية، على شرق الأردن. وقد أجاب ابن سعود على ذلك بطريقة خاصة غريبة تمثلت في سلسلة من الغزوات الخارجية أسفرت عن نجاح سريع مكن له من أن يضم إلى مملكته إقليم عسير في سنة ١٩٢٠، وحائل نفسها في أواخر سنة ١٩٢١، ثم ولاية الجوف ووادي السرحان في سنة ١٩٢٢، فضلاً عن غزوة بعيدة إلى قلب شرق الأردن في صيف سنة ١٩٢٢ لم تردها إلّا قوات السلاح الجوي الملكي البريطاني في عُمان. وهكذا عادت بلاد العرب ثانية إلى حالة الاضطراب، وحولت جموع الوهابيين الثائرة مجرى الدم هذا صوب الغرب.

ولكن كانت هناك أقداح أعدّت لكي تشرب في المستقبل، أما الآن فإن ابن سعود كان يواجه خطراً محليًّا جديًّا من جهة الشرق حيث كانت قبيلة العجمان عقبة كؤود في سبيل حركاته لبقائها على صلات ودية بإمارة الكويت وبالبريطانيين في العراق. لقد قيل من قبل ما فيه الكفاية عن النزاع والمتاعب المستمرة التي سببتها له والتي انتهت بعد فتح الأحساء بدخول هذه القبيلة تحت حكمه. ولقد اشتركت معه فعلاً قوة كبيرة من هذه القبيلة في الحملة ضد ابن الرشيد التي انتهت بمعركة غير حاسمة في جراب خلال كانون الثاني/ يناير سنة ١٩١٥، وأنه عزى فشله في هذه المعركة إلى خداع هذه الفرقة وعصيانها في مرحلة حرجة. ولهذا فإنه خرج في غزوة الأحساء أثناء ربيع سنة ١٩١٦ ليعاقب هذه القبيلة ويصفي معها

الحساب، أما وقد أطبقت على هذه القبيلة القوة المتفوقة فإنها طلبت الصلح، ولقد كان في نبل ابن سعود ما جعله يرتضي المفاوضة لتسوية نهائية في اجتماع يعقد في اليوم التالي. وفي غضون ذلك كان أخوه سعد الذي لم يشهد الموقف قد عاد إلى المعسكر، فغضب لتسامح أخيه ولين جانبه، وتقدم إليه راجياً أن يسمح له بمهاجمة العجمان أثناء الليل، وأخيراً رضخ ابن سعود لإلحاحه. ولقد كان للمفاجأة والتفوق في العدد دهشة حلت بالقبيلة ودفعتها إلى قتال اليأس والبأس الشديد. وتسنّى لها أن ترد أحسن قوات ابن سعود، ودفعت سعد بحياته، كما جرح ابن سعود. وبعدئذ فرت العجمان على عجل لاجئة إلى إمارة الكويت فدخلت بهذا تحت الحماية البريطانية. عاد ابن سعود مؤقتاً إلى الرياض مصمماً على أن يثأر لأخيه في الوقت المناسب، مع علمه بأنه لا يستطيع مهاجة العجمان حيث تقيم دون نزاع ينشب بينه وبين بريطانيا، فاكتفى وقتئذ بالاحتجاج على منح رعاياه المتمردين ملجأ يمكنهم من مواصلة نشاطهم وبعث الاضطراب والخوف في أرضه وبين رعيته. واستمّر الوضع كذلك حتى تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩١٦ حيث طرح الموضوع كله للمناقشة بين السير بيرسي كوكس وشيخ الكويت وابن سعود كجزء من التدابير التي اتخذت محاولة لإيجاد تعاون عام بين أصدقاء بريطانيا من العرب تدعيماً لجهودها الحربية. وانتهى البحث بتثبيت الأمر الواقع والاعتراف به، مقابل تعهد العجمان، بضمان الكويت وبريطانيا، أن تكف عن جميع أعمالها العدائية ضد ابن سعود بينما سحب هذا اعتراضه على إقامتها في الكويت. وكان مقرراً أن تبقى هذه الاتفاقية نافذة حتى نهاية الحرب. ولكن لم تمض فترة طويلة حتى بدأ روح التجوال والترحال الذي لا يهدأ بدفع هذه القبيلة جميعها للزحف إلى الصحراء صوب الغرب، عن محض الصدفة أو العمد، وفي نفس الفترة التي تحرك فيها ابن سعود

صوب الشمال ليداهم ابن الرشيد. وقد كان العجمان على جناح قواته سبباً كافياً ليكف عن تنفيذ خطته، بينما كانت عودة رئيس مشايخ القبيلة الذي نفي بصفة خاصة وفق اتفاقية تشرين الثاني/ نوفمبر نظراً لتردده على الترك بعد حادثة الأحساء، بمثابة إخلال آخر بالاتفاقية المذكورة التي كانت بريطانيا والكويت مسؤولتين عنهما أدبيًّا على الأقل. ولقد قرر، بعد محاولات مختلفة لحل هذه المشكلة المعقدة، أن تنتقل هذه القبيلة لتنزل في مدينة الزبير العراقية الذي تحتله بريطانيا، وأن يحرم عليها بعد ذلك دخول الكويت التي أصبحت شقة حرام بينها وبين نجد. ولم يكن هذا التدبير أوفر نجاحاً من سابقه إذ عادت العجمان إلى شن غاراتها على قبائل نجد والأحساء من مكمنها في الأراضي البريطانية، بحيث كانت تستخدم الكويت كممر لها مستغلة إغضاء الشيخ سالم عن هذه الأعمال **ومتخذة لحركاتها شعاراً هو من حق قبيلة العوازم الكويتية في أن ترعى ماشيتها في الصحراء الشرقية دون التزام بدفع ضريبة الماشية لابن سعود.** وبديهي أن قبائل نجد مثل مطير وغيرهما كانت تقوم بغارات مضادة على إقليم الكويت، وهكذا كانت الصحراء الشرقية مسرحاً للاضطراب طوال المدة التي قضيتها هناك رئيساً للبعثة.

قابل ابن سعود هذا العدوان بتنفيذ حقه في فرض الضرائب على قبيلة العوازم التي غدت الضجة الفعلية لمظاهر العداء المتزايد بين الكويت ونجد. ولقد جعل ابن سعود طرد قبيلة العجمان من الكويت شرطاً أساسيًّا في إعادة النظر في سابق وضع قبيلة العوازم، بينما أكد لنا أنه ارتضى لقاء الشيخ سالم في منتصف الطريق لو أن هذا بعث إليه برسالة ودية يطلب فيها رد الأوضاع القديمة لهذه القبيلة إلى ما كانت عليه. والواقع أن الشرطين لم يتحققا، فابن سعود أبى أن يخلق حقاً من باطلين على حساب فريق ثالث بريء، فحل نفسه المشكل بإيقاف تحصيل

الضرائب من رعاة هذه القبيلة. وأخيراً أخذت الحكومة البريطانية بالاقتراحات التي تقدمت بها البعثة منذ سنة تقريباً، إذ كانت أحرص على تدابير مسالمة ابن سعود، لتنبهه من جفوته وعدائه للشريف حسين، منها على تعرف أصول هذه المشكلة وعلاجها. ولهذا أنذرت قبيلة العجمان بقطع الإعانات عنها وإغلاق أسواق العراق في وجهها إذا استمرت في غاراتها هذه، فضلاً عن إباحة الحرية كاملة لابن سعود في أن يواجهها كما يشاء، طالما كانت سلامة سكة حديد وادي الفرات مكفولة. وجاءت نهاية الحرب حلّاً تلقائيًّا لهذه المشكلة، فقطعت الإعانات البريطانية عن العجمان كما حرمت حماية أحمد بن جابر الذي خلف سالم أميراً على الكويت في سنة ١٩٢١، ولم يبق لها خيار إلّا أن تسكن وتهجع، وأن تتفق مع ابن سعود الذي كان قد قهر ابن الرشيد وأصبح سيد صحراء العرب غير منازع من مشارف سوريا وشرق الأردن حتى أقصى أصقاع الربع الخالي، ومن الخليج العربي حتى البحر الأحمر. ولم يمضي وقت طويل حتى تغير أسلوب الحياة في المجتمع العربي متأثراً تدريجيًّا بالتوجيه الديني والعسكري لحركة الإخوان، وبدا فيه عامل قوي جديد: هو تصنيع الصحراء الشرقية. وحتى هذا اليوم كانت العرب ترعى ماشيتها وقطعانها في مراعي الصحراء، وكانوا يعانون مواسم الجفاف كأسلافهم، ولكن رفاهية بلاد العرب لا تقاس اليوم بمعايير صناعتها القديمة.



الفصل الخامس

مؤتمر العقير

انقطعت الصلات الشخصية بعد اجتماع ١٦ نشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩١٦ بين السير بيرسي كوكس وابن سعود حتى خريف ١٩٢٠. وكان السير بيرسى كوكس يعمل أثناء السنتين السابقتين سفيراً لبريطانيا في طهران من حيث استدعى فجأة إلى إنكلترا في حزيران/ يونيو سنة ١٩٢٠ نظراً لخطورة الموقف الذي نشأ عن ثورة العراق. ولقد أعيد النظر بصفة حاسمة في السياسة البريطانية إزاء العراق، وعين السير بيرسي كوكس مندوباً سامياً لينفذ السياسة التي تم الاتفاق عليها. وكان



الملك فيصل الأول

من حسن طالعي أن اختارني لأكون أحد مساعديه في أداء واجبه هذا. وكان أهم موضوع أخذنا في دراسته جديًّا قبل سفرنا هو: هل نعتبر منذ البداية الأمير فيصل، الابن الثالث للشريف حسين، الذي أنزله الفرنسيون عن عرش سوريا، بمثابة الملك المنتظر للعراق؟ وقد كان أصدقاؤه الأقوياء بزعامة لورنس يستغلون كل نفوذهم لصالح هذه القضية، بينما كنت أشير على المندوب السامي أن لا يذهب بمسائل قد اعدت مقدماً، ودافعت عن هذا الرأي وفقاً للمبدأ العام في سياسة الحكومة الذي مؤداه أن لأهل العراق أنفسهم ان يقرروا شكل الحكم في بلادهم كدولة مستقلة.

ولقد لقي هذا الاقتراح قبولاً طيباً منه، خاصة وأنه لم يكن يميل إلى لورنس الذي كان يعتبر دسائسه لصالح الأمير فيصل عاملاً هاماً في ثورة العراق وفي أثناء السفر إلى الموصل عرج السير برسي كوكس على العقير ليقضي فيها يومين وليتحدث إلى ابن سعود الذي حضر من الرياض لإتمام هذه المقابلة، عن الأوضاع بصفة عامة. وكان طبيعيًّا أن يجد أن أهم ما يشغل تفكير مضيفه هو هذه الإشاعة. بل الحقيقة، كما زعم بعض دعاة الهاشميين. التي انتشرت عن اعتلاء فيصل عرش العراق، الأمر الذي لم يكن يميل إليه قط. وكان كوكس في مركز يسمح له أن يعطيه صادقاً التوكيد الذي طلبه، ومؤداه أن مثل هذه الخطوة لا يتضمنها البرنامج الذي وضع في لندن والذي وكل إليه تنفيذه، وربما كان من الأرجح في هذا الوقت أن كوكس نفسه لم يكن يناصر مثل هذا الإجراء. وقد ارتاح ابن سعود لهذا التوكيد كثيراً، ولكن من المحتمل أنه لم يكن حينئذ مقدراً لدرجة كافية عوامل أخرى معينة أخذت تنساب إلى مسرح السياسة العربية نتيجة لانتهاء الحرب. وكان أهم هذه العوامل هو الدور الذي على ابن الرشيد ان يقوم به في المستقبل، سيما وأن الشريف حسين كان ينظر إليه كعامل للتوازن في وسط بلاد العرب يكفل مصلحته الخاصة، بينما كانت المس غرترود بيل وغيرها من الموظفين البريطانيين في العراق

يرحبون بعودة ابن الرشيد إلى المجال السياسي بما يكفل مصالح بريطانيا بالنسبة لمركزه القديم في صحراء العرب وخدمته لذات الغرض، بصرف النظر عن الدور الذي لعبه أثناء الحرب كحليف لتركيا.

لم أشاطرهم وجهات النظر هذه أبداً، رغم أنني لم أستطع أن أجد تفسيراً لهذا الفتور الواضح من جانب ابن السعود في سبيل القضاء على منافسه هذا عندما طلبنا منه أن يفعل أثناء الحرب صيانة لمصالحنا العسكرية. ربما كان على ريبة من نوايانا وأهدافنا بعد الحرب، وربما كانت لديه أسباب قوية لذلك، كما اتضح من موقفنا إزاء مشكلة واحة خرمة، ولكن رغم هذا فإن مثل هذه الشكوك لم تكن مما يتلاءم مع الموقف في الصحراء حيث كان وجود ابن الرشيد، كقوة ذات اعتبار في السياسة المحلية لا يمكن ان يخدم إلّا أطماع الشريف حسين في هذه الحالة، ومهما كان الأمر، فإنني لم أحجم أثناء عدة اجتماعات، في غضون زيارتنا القصيرة للعقير مع ابن سعود وكبار موظفيه، عن أن أحذرهم من الموقف الذي سوف يتمخض عنه المستقبل القريب، ما لم تتخذ خطوات مباشرة لإبعاد ابن الرشيد كعامل سياسي في بلاد العرب. وقد تلاشت فعلاً أسرة ابن الرشيد في خلال سنة بعد ذلك. وكان ابن سعود بغير منازع يحكم كل صحراء العرب كما حكم أسلافه منذ قرن مضى.

لقد انحسر تتابع حوادث غريبة عن هذه النتيجة. لم ينقض وقت طويل على اجتماعنا في العقير حتى تدخل القدر ليقضي على سعود الأمير الذي كان يحكم من أسرة الرشيد، إذ اغتيل في مؤامرة دبرها أحد أبناء عمومته الذي قتله العبيد الموالون فوراً، والقى بأخيه محمد بن طلال والد إحدى أزواج ابن سعود، والذي يقيم ضيفاً عليه منذ ثلاثين عاماً، في السجن بواسطة عبدالله بن متعب ابن أخ الأمير وخلفه في الحكم الذي كان فتى لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، والذي كان

نقص تجاربه وإدراكه للأمور مما زعزع أركان الاستقرار في البلاد وحفز كثيرين من وجوه سكان حائل لأن يطلبوا تدخلاً فعالاً من جانب ابن سعود. وفي خلال ذلك قرر المستر تشرشل، في مؤتمر خبراء الشرق الأوسط الذي عقد في القاهرة في شهر نيسان/ أبريل سنة ١٩٢١، أن يكون الشريف فيصل هو ملك العراق في آخر الأمر، واستسلم السير بيرسي كوكس لهذا القرار وفي شهر حزيران/ يونيو وصل فيصل إلى العراق كمرشح للعرش ذي حظوة وجاه، ولم يشغل نفسه كثيراً بشؤون جبل شمّر، وفق التقارير التي كانت تصل ابن سعود من ممثليه الذين بعث بهم إلى بغداد ليدرسوا مشكلة الحدود مع العراق والكويت. ولا بد له أن انجلى له عندئذ وجوب العمل بسرعة دون أن يضيع لحظة واحدة. وكان قد أرسل فعلاً في الربيع إلى جبل شمّر قوة تحت قيادة أخيه محمد تدعمها فرق الإخوان بقيادة **فيصل الدويش القائد المعروف**، بينما دعي، توطيداً لمركزه الشخصي في بلاد العرب، وجوه رجال الدين ورؤوساء القبائل إلى اجتماع في الرياض كي ينادوا به سلطاناً على نجد وملحقاتها. وبعد أن تم له ذلك، قصد بنفسه إلى الميدان في شهر تموز/ يوليو حيث أقام معسكراته الأساسية في القصيم، وأخذ في إرسال قوات كبيرة تحت إمرة أخيه محمد وابنه الأكبر سعود لتحاصر حائل ولتكشف الصحراء من ناحيتها الشرقية للقضاء على أية محاولة تقوم بها عناصر شمّر التي ذهبت إلى العراق تطلب العون والمساعدة من فيصل. وفي خلال ذلك انتهزت قبيلة شمّر بقيادة نوري الشعلان حالة الضعف التي تسود حائل واحتلت الجوف ووادي السرحان في ناحية الشمال، ثم إن عبدالله بن متعب[١]، في غمرة يأسه، افرج عن محمد بن طلال وأخرجه من

(١) توفي في الرياض سنة ١٩٤٧.

السجن ليقود قواته في هذا القطاع، ولكن هذا غدر بمن انجاه من السجن واستدار إليه ففر من حائل ليلقي بنفسه تحت رحمة ابن سعود، أما محمد الذي يعتبر آخر حاكم لحائل، فإنه شن هجوماً جريئاً على القوات الوهابية في إقليم البقيع شرقي العاصمة، حيث نشبت معركة رهيبة غير حاسمة في الأسبوع الأول من شهر أيلول/ سبتمبر، عندما وصل ابن سعود نفسه مصحوباً ببضع قطع من المدفعية إلى مكان المعركة بعد انتهائها مباشرة فأرغم العدو على الخروج من الحصون التي التجأ إليها وتبعه حتى أبواب حائل. عندئذ تقدم محمد بعروض للتسليم ولكنها قوبلت برفض حاسم، ولما كان ابن سعود راغباً في أن يجنب سكان المدينة ويلات ضربها بالمدافع، فإنه منحهم مهلة من الوقت ليتدبروا فيها الموقف. وبعد ثلاثة أسابيع أرسل إليهم يعرفهم أن صبره قد نفد، وعندئذ فتحت الأبواب كي يدخل فاتحاً المدينة: إلّا محمد بن طلال وحرسه الخاص فإنهم قد رفضوا التسليم واتخذوا أماكنهم معتصمين بالحصن الكبير ليخوضوا المعركة حتى نهايتها، واستطاعوا أن يقاوموا شهراً قبل أن يستسلموا في يوم ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٢١.

إن تحرير إقليم عسير وعاصمته أبها في صيف سنة ١٩٢٠، وزوال أسرة ابن الرشيد من وسط بلاد العرب بفتح حائل، ثم تحرير منطقة الجوف ووادي السرحان، فضلاً عن الغزوات البعيدة حتى حدود عُمان في صيف سنة ١٩٢٢، قد مكنت كلها لابن سعود من أن يؤكد طابع مقدرته وكفايته، وأن يثبت دربه وقوته التي اثبتها انتصاره السهل على جيش الشريف في موقعة ترابة في ربيع سنة ١٩١٩، وبهذا نضجت وثبتت في أذهان الناس خرافة مؤداها أنه لا يقهر. ولقد بدا أن شخصيته وأعماله قد ميزته ورفعته وجعلت منه رجل الساعة في بلاد العرب، والرجل الذي لا يمكن أن يحكمها سواه، رغم أن أحداً لم يكن ليدرك

أكثر منه مدى الأخطار والصعاب المعلقة فوق رأسه وكان يواجه من ثلاث جهات عداء غير خاف من منافسيه الأشراف على زعامة العرب، الذين كانت تقف وراءهم بريطانيا بموارد عسكرية لم يكن ليتصورها بأية حال، وبمطامع سياسية قد لا يجد عنها عوضاً إذا ما كانت تمس استقلاله. هذا وكانت الحال في الوطن تدعو إلى اليأس الشديد إذ نضبت مخازن مؤونته وخوت خزانة ماليته، وكان في أمس الحاجة إلى المال ليستطيع الإنفاق على معسكرات الإخوان الجديدة، وليمنع البدو من شن الغارات على بعضهم بعضاً بتزويدهم بالطعام واللباس وتوجيههم بالتعليم الديني، وكان بعد هذا في حاجة إلى ذخيرة وسلاح لخدمة أغراضه.

ولم يكن كل دخله من جميع إقليمه الصحراوي ليربى على (١٥٠,٠٠٠) ألف جنيه، وكان ما زال يتقاضى إلى جانبه مبلغ (٦٠,٠٠٠) ألف جنيه من الخزينة البريطانية إعانة سنوية عرضة لأن توقف في أية لحظة حسبما يتراءى للحكومة البريطانية. ولم يكن ليغيب عنه أن العمل على زيادة موارده هو الحل الوحيد الذي يلتقي عنده هذان الطرفان، كما أن هذه الغاية ما كان ليدركها إلّا عن طريقين: الأولى هي هذا الدخل المغري غير المحدود الذي مصدره موسم الحج إلى مكة المكرمة! أما الثانية فهي التنمية الاقتصادية في الأقاليم التي يحكمها، وهي وسيلة لا يمكن أن يعلق عليها آمالاً كباراً. وكانت الحكومة البريطانية تكن عطفاً كثيراً على الوسيلة الثانية، ولكنها لم تكن تعطف على الأولى التي كان من المتوقع أن تقاومها بكل الموارد المتاحة لها. وعلى عكس ما كان يبدو من هذا المشهد الأخير في عمومه، فإن الاجتماع الأخير بين السير بيرسي كوكس وابن سعود قد تم في شتاء سنة ١٩٢٢ و١٩٢٣ في العقير. ولقد تطور هذا الاجتماع إلى مؤتمر بكل معنى الكلمة، بما أبدى فيه من متعارض الأفكار ومختلف المصالح، ومن بروز

الشؤون الأقتصادية والاهتمام بها أكثر من المسائل السياسية. كانت دوائر الأعمال في لندن، ممثلة في شخص الصاغ فرانك هولمز، مهتمة بإمكانيات الكشف عن البترول في بلاد العرب، أما شركة الزيت الإنكليزية الإيرانية، التي تملك الحكومة البريطانية معظمها والتي كان يسندها السير بيرسى كوكس إلى حد كبير في المفاوضات التالية، فكانت كبيرة الاهتمام بالحصول على امتياز، إلّا أن عروضها كانت حذرة غير سخية للريبة التي ساورتها في إمكان وجود البترول في بلاد ابن سعود. أما ابن سعود نفسه فلم يكن مصدقاً لاحتمال وجود البترول ولا راغباً في استغلال أجنبي لبلاده، ولكنه كان في حاجة ملحة إلى نقود سائلة، ولهذا لم يكن معنيًّا إلّا بالمساومة للحصول على أعلى سعر ممكن. إن العرض كان أبعد من أن يكون سخياً! **ولقد ضمن أمين الريحاني، أحد المواطنين الأمريكيين من أصل لبناني، كتابة «ابن سعود أمير بلاد العرب»** حساباً مرحاً ساخراً لهذه المدفوعات التي طالت المفاوضات حولها، بعد أن تتبع ما جرى في المؤتمر أثناء رحلته في بلاد العرب. وكان مركز ابن سعود بين الحكومة البريطانية وشركة بريطانية خاصة يشوبه شيء من الحرج، رغم أن حقه المطلق في منح الامتياز من شاء، لم يكن موضع نقاش أو خلاف. وأخيراً كان الصاغ هولمز هو الفائز في الحصول على الامتياز بشروط بسيطة لو نظرنا إليها في ضوء النمو والتطور الراهنين في صناعة البترول العربية. وقد تضمن الاتفاق شرطين أساسيين هما: أولاً أن يدفع مقدما ريعاً سنويًّا مقداره ألفان من الجنيهات لمساحة من الأرض تكاد تساوي هذه التي تجري فيها الآن عمليات شركة الزيت العربية الأميركية في شرق بلاد العرب، مقابل حقوق الحفر والتنقيب، مع الاحتفاظ بحقه في امتياز يتم الاتفاق على شروطه في حالة الكشف عن آبار للبترول، والثاني يلزم صاحب الامتياز باتخاذ خطوات مباشرة ولتنفيذ

شروطه ولإجراء عمليات الكشف بطريقة فعالة مستمرة في المساحة المقررة. وكذلك نص في الاتفاق على ان الحكومة ليس لها الحق في إلغاء الامتياز إذا تأخر دفع الريع السنوي عن ميعاد الاستحقاق، أو توقفت أعمال الحفر لمدة ثمانية عشر شهراً. وفعلاً دفع الريع عن أول سنة في ميعاده وقضى جيولوجيون بلجيكيون شتاء ١٩١٣-١٩٢٤ في البحث والكشف في صحراء الأحساء، ثم دفع الريع عن السنة الثانية وقضى كذلك رجال الشركة الشتاء التالي في بلاد العرب دون الوصول إلى نتيجة. وبعد ذلك توقف أصحاب الامتياز عن دفع ريع السنة الثالثة ولم يظهر الخبراء البلجيكيون في شتاء تلك السنة، وكان هذا هو نهاية الموضوع رغم المقاصد والأغراض الكثيرة التي كان يستهدفها. ولكن ابن سعود لم يكن مستعجلاً في تنفيذ حقه في إلغاء الامتياز، ولم يتخذ خطوات لإنذار أصحاب الامتياز إلّا في سنة ١٩٢٧ أو سنة ١٩٢٨، بأنه ما لم يدفع الريع المتأخر البالغ قدره ستة آلاف جنيه فوراً مع مواصلة أعمال البحث والكشف، فإنه لن يجد عن إلغاء الامتياز بديلاً. وقنع أصحاب الامتياز بهذا فلم يردوا على الإنذار، وهكذا ألغي عقد الامتياز. وكان الصاغ هولمز في غضون ذلك قد حصل على امتياز مماثل في جزيرة البحرين، كان أوفر حظاً في نتائجه على يد شركة استاندارد كليفورنيا للبترول.

أما فيما يتصل بنتائج مؤتمر العقير، فإن ابن سعود كان من أول الأمر لم يعلق أماله على حل خيالي وهمي لمشاكله المالية، ولعله كان أكثر سروراً للتخلص بمثل هذه السهولة من الأخطار المحدقة التي انطوت عليها أعمال الكشف الأجنبي في بلاده. ولعله تتحقق كذلك من أن استقلال صحراء العرب لم يكن مأمونا إلّا لبعدها عن مطامع الدول الكبرى، ولكن هذا الأمن نفسه لا يمكن أن يحل مشكلته المالية! وإذا

كانت بلاد العرب معدمة في مواردها المعدنية، فإن جزءاً منها يملك مورداً حقيقيًّا للدخل يتمثل في موسم الحج إلى مكة المكرمة. ومن العسير القول إذا ما كان قد كون لنفسه فكرة محددة موضوعية لتحرير الحجاز. والواقع أنه لم يكن في حاجة قط لأن يفعل هذا، لأن الشريف حسين نفسه كان يرتكب كل ما من شأنه ان يدفع به إلى السقوط الذي كان ينتظره. ومهما كان الأمر، فقد انجلى الموقف بسرعة، أن النتائج السياسية لمؤتمر العقير جاءت مخيبة للرجاء كنتائجه المالية تماماً. ولا شك في أن السير بيرسي كوكس، ومن خلفه جلالة الملك فيصل ملك العراق، كان معنيًّا بالوصول إلى اتفاق نافذ فعال بين ابن سعود من ناحية وبين الكويت والعراق من الناحية الاخرى، أكثر من عنايته بمحاولة إيجاد حل للمشكلة العربية الكبرى: النزاع القائم بين ابن سعود والشريف حسين. ولم يكن هذا ولا الحكومة البريطانية ليقبلا حكم السيف في ترابة كقول فصل، ولا احتلال ابن سعود للجوف ووادي السرحان كأمر نهائي قاطع. ولكن الحكومة البريطانية كانت تواقة لإيجاد حل سلمي لهذه المشاكل عن طريق الاتفاق. وبدا أن الفرصة لمثل هذه التسوية قد سنحت، عندما وصلت الحكومة البريطانية، بعد مؤتمر العقير بمدة قصيرة، انباء تفيد بأن ابن سعود قد توفي في الهفوف نتيجة لعدوى أصابته في عينيه. وكانت هذه الأقاويل لا شك كاذبة، ولو أن ابن سعود كان يعاني فعلاً مرضاً خطيراً في إحدى عينيه، ولكن الظاهر أن الحكومة البريطانية صدقت تلك الأنباء كما هي، فكتبت إلى موظفيها فوراً لتعرف وتقدير الموقف الذي نشأ عن انتقال السلطان إلى جوار ربه وقد كنت أحد هؤلاء الموظفين، إذ كنت في ذلك الوقت الممثل البريطاني الأول لدى الشريف عبدالله أمير شرق الأردن، وكان جوابي للحكومة، أنه ما دام ابن سعود مملوءاً حياة وصحة كما أعلم، فليس هناك إذا ما يدعو إلى دراسة

النتائج المترتبة على وفاته. والواقع أنني تسلمت رسالة من الهفوف تضمنت أخبار مؤتمر العقير، فكانت قاطعة في أنه كان حيًّا في تاريخ لاحق لتاريخ استعلام الحكومة البريطانية.

وهكذا وبدون أن يضطرب السلم فعلاً ازداد الموقف توتراً مع شهور السنة حتى الخريف، إذ بدأت الحكومة البريطانية تعمل مدفوعة من ناحية بالرغبة في محو أسباب الاحتكاك والنزاع، ومن ناحية أخرى بالحاجة إلى وقف الإعانات الحربية لمختلف زعماء العرب، فقررت أن تقوم بمحاولة أخيرة لإيجاد تسوية مرضية في بلاد العرب. وكان المقترح لتحقيق هذه الغاية أن يجتمع ممثلو جميع الدول العربية على هيئة مؤتمر يرأسه بريطاني ويعقد في الكويت في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، لكي يناقشوا ويبحثوا كل الفوارق ومظاهر النزاع القائمة، وليصلوا إلى اتفاق بينهم وتسوية لجميع المسائل المعلقة. ووقع اختيار الحكومة البريطانية على **الكولونيل كنوكس** رئيساً لهذا المؤتمر، وكان على وشك التقاعد من منصبه كاول ضابط قضائي في العراق، كما كان بارعاً في الشؤون العربية، وكان قبل ذلك وكيلاً سياسيًّا لبريطانيا في الكويت، ولقد اتفقت الدول العربية بما فيها ابن سعود على أن تتعاون في ذلك. وفعلاً تم انعقاد المؤتمر، وأصبح مستقبل بلاد العرب معلقاً على نتائج المشاورات والمفاوضات التي دارت فيه. وكانت هناك مبررات لتفاؤل متئد بالنسبة للنتائج المرجوة منه، على شريطة أن تترك هذه الدول لتجهد حرة بنفسها في إيجاد قواعد للتعامل والعيش دون أي تدخل من جانب الدولة التي دعت لهذا المؤتمر. ولكن هذا لسوء الحظ كان أكثر مما يرجى أو يتعلق به الأمل، كما سيتضح لاحقاً في الفصل التالي.

الفصل السادس

فتح الحجاز

لقد أحيط الرئيس البريطاني المختار لمؤتمر الكويت علماً بكل تفاصيل التسوية التي كان يرجى أن تضم حولها شمل هذه الجماعات المتفرقة المتنازعة. ولكي يعلم كل من يعنيه الأمر أن الحكومة البريطانية لا تعتزم الاستمرار في السياسة السابقة من منحهم إعانات إلى ما لا نهاية إبقاء على السلام بينهم، فقد أعلن أن كل الإعانات القائمة سوف تبطل جميعها يوم ٣١ آذار/ مارس سنة ١٩٢٤ : وصرفت فوراً دفعة واحدة مبالغ تمثل جميع الاستحقاقات حتى هذا التاريخ كتسوية نهائية لكل المطالب من هذا النوع من قبل الخزينة البريطانية. ولكن الحكومة البريطانية، كخطوة تمهيدية للتثبت من صحة التعليمات التي وضعت في لندن كي يتبعها رئيس المؤتمر، أرسلت لكل موظفيها الذين على علم بوضع الأمور تطلب منهم توضيح وجهات نظرهم بالنسبة للنتائج المرجوة التي قد يسفر عنها المؤتمر وفق هذه القواعد. وأعتقد أن جميع الضباط الذين استشيروا قد عبروا عن قبول عام لهذه القواعد المقترحة، لأنها ستتطبق في الوقت المناسب، إلّا أنا، فقد كتبت تقريراً يختلف كثيراً عن ذلك.. ولقد أشرت بصفة خاصة إلى الاقتراح الذي يرمي إلى التمسك بأن يرد ابن سعود إقليمي خرمة وترابة إلى الشريف حسين في مقابل

اعتراف الحكومة البريطانية باحتلاله لمناطق وادي السرحان، وقلت إنه وحده كاف للحكم على فشل المؤتمر سلفاً! وحسب رأيي فإن ابن سعود لا يرتضي إرجاع الإقليمين المذكورين فحسب، بل وكان في موقف يمكنه من احتلال قريات الملح متى وأنى شاء بموافقة بريطانيا أو بدون رضاها. ولقد أكدت رأيي بصفة قاطعة، بان الضغط لتنفيذ هذا الاقتراح يؤدي حتماً إلى فشل المؤتمر، وفي هذه الحالة فإن ابن سعود، وقد قطعت عنه الإعانة التي يعتبرها بديلاً عن نشاطه الحربي، قد يعبئ قواته للزحف على الحجاز في خلال ستة شهور بعد فشل المؤتمر.

وربما كان من حسن الطالع أن تحذيري هذا قد صادف آذاناً صماء. وهكذا أخذ المؤتمر يجتمع ويحاول جهده في بضعة الشهور التالية دون أن يصل إلى أية تسوية حقيقية، ثم وقع حادث في شباط/ فبراير سنة ١٩٢٤ فتح الباب على مصراعيه لنزاع جديد، لا في بلاد العرب فحسب، بل وفي العالم الإسلامي كله. لقد اعلن مصطفى كمال أتاتورك إلغاء الخلافة العثمانية، فاندفع الشريف حسين في جشع ولهفة متشبثأ برداء النبوة: مواجهاً ابن سعود والإسلام والعالم كله في شكل بارز من التحدي لا يمكن أن يكون محلا للتناسي أو التغاضي عنه. وربما كان في عودة الخلافة في ظروف أخرى إلى رجل من بيت الرسول ﷺ ما ينشرح له صدر المسلمين، ولكن الشريف حسين كان يناصب معظم البلاد الإسلامية العداء بأوهامه وأخيلته الكبيرة وبمعاملته المتكبرة والمتعجرفة المتغرطسة للحجاج، ولهذا فلم يلق أنصاراً إلّا في شرق الأردن وسوريا والعراق حيث استطاع أبناؤه أن يجمعوا بعض المؤيدين لدعواه وبعض من ارتضوا أن يبايعوه. ولندع هذا لنذكر أن الخليفة المزعوم وصل إلى عُمان في زيارة رسمية لشرق الأردن في كانون الثاني/ يناير استمرت حتى منتصف آذار/ مارس، أوضح في خلالها بما لا يحتمل تأويلاً أنه يعتبر

عبدالله وفيصل نائبين عنه لا حاكمين مستقلين أو منفصلين عنه. أما فيما يتصل بابن سعود فإنه أشار إليه في كرم وعطف أبوي أثناء حديثه معي، معرضا عن الخوض في مشكلة الحدود بينما بهذه العبارة: «ستكون وكيلي مطلق التصرف لتحل هذه المسألة مع صديقك!» إنه كان لا شك في أحسن حالاته المعنوية ناعماً بخلال منصبه الجديد الذي أبلغت رسميًّا تقلده إياه يوم ٦ آذار/ مارس بواسطة الأمير عبدالله والذي أعلن حسب التقاليد في القصر الملكي بعُمان في اجتماع يوم الجمعة الموافق ١٤ من هذا الشهر المذكور، والذي سبق إعلانه في المسجد الكبير بدمشق قبل ذلك بأسبوع. ولكن هذا المظهر البارز من الكرم وحسن النية، لم يبد منه شيء في الحجج والبراهين التي أدلى بها مندوبه في الكويت حيث كانت المفاوضات تتعثر دون الوصول إلى نتيجة، حتى قررت الحكومة البريطانية فض هذا المؤتمر في أوائل شهر نيسان/ أبريل. وقد أحدثت حرارة الصيف أثرها المعتاد من هدوء النشاط العسكري .**إنه كان الهدوء الذي يسبق العاصفة!**

وفي شهر آب/ أغسطس قام الإخوان بغارة بعيدة أخرى حتى سكة الحديد عند «زيزا»، إلى الجنوب قليلاً من عُمان، وقتل الغزاة سكان قرية أم العمد قبل أن يطردوا من شرق الأردن برصاص القوات البريطانية ومصفحاتها كما حدث في سنة ١٩٢٢، وفي نفس الوقت ظهرت قوة كبيرة من الإخوان بقيادة فيصل الدويش على حدود العراق. ولكنها أنسحبت بعد أن تنبهت اليها السلطات العراقية ولكن الضربة الحقيقية وقعت في مفاجأة مدبرة يوم ٣ أيلول/ سبتمبر، إذ ظهرت قوة وهابية كبيرة بقيادة «سلطان بن بجاد» في ضواحي الطائف عاصمة الحجاز الصيفية، فانسحب الأمير علي، أكبر أبناء الملك، بجيشه إلى حافة المنحدر الكبير على طريق مكة مخلفاً الطائف لأقدارها، فسلمت

المدينة بدون مقاومة، بينما لحق الوهابيون بأهلها الذين حاولوا الفرار إلى مكة وذبحوهم في الطريق. إن الذين قتلوا في الطائف وفي ضواحيها لا يزيد عددهم على ثلاثمائة قتيل، ورغم ذلك فسرعان ما وصلت إلى الصحافة الأوروبية أرقام خيالية عن مذبحة الطائف. وبعدئذ لم يجد سلطان بن بجاد صعوبة كبيرة في الالتحام مع الأمير علي وجيشه في معركة طاحنة فتقهقر هؤلاء صوب مكة المكرمة وجدة مشتتين مولين الأدبار يتبعهم اللاجئون المدنيون من الطائف.



الشريف علي بن الحسين

وسرعان ما وصلت أنباء هذه الحوادث إلى ابن سعود في الرياض، فدهش بل وفزع لهذا النجاح السريع والباهر الذي تحقق في الاختبار الأول لإمكانيات الدفاع عن الحجاز، وانصرفت عنايته للحيلولة دون وقوع معركة أمام مكة المكرمة، وللحد من غلواء ضابطه وتعصبه ومن غلواء جنده الأشد تعصباً. ولهذا أرسلت أوامر عاجلة إلى الميدان تمنع اتخاذ أية محاولة لتحرير مكة المكرمة بالقوة، وتلزم الوهابيين بالهدوء التام حتى يصل ابن سعود نفسه إلى الميدان. والواقع أن عليا كان قد اجتاز مكة المكرمة في فراره قاصداً جدة، كما كان الشريف حسين برماً من سوء تطور الأمور فقرر أن يخلي العاصمة تجنباً لفضيحة القتال في شوارعها.

وهكذا أتيح لسلطان بن بجاد شرف تحرير مكة المكرمة بدون مقاومة، وبدون اعتداء على أهلها، ولو أن بعض المقابر ذات القباب في قرافة الملأ قد دمرت، وكذلك بعض الآثار والهياكل القديمة، كما وقع شيء من السلب على أملاك الشريف.

وفي جدة نزل الشريف حسين على إرادة الرأي العام الذي كان يطالب بتنازله عن العرش لابنه علي وأبحر هو وأسرته وماله إلى العقبة، التي كان قد نزل فيها قبل ذلك بسبعة شهور ليتلقى على عجل قبول شرق الأردن وترحيبه بتبوئه الخلافة. وفي هذه الأثناء كان الأمير علي يواجه واجباً أكبر واثقل من أن يكون سهلاً هيّناً، هو تنظيم الدفاع عن جدة ضد الهجوم الوهابي المنتظر. والحقيقة إن ابن سعود، وقد خشى تدخلاً أجنبيًّا إذا ما حدث أو سلب أي أوروبي أثناء الهجوم على المدينة، فقد أمر سلطان بن بجاد نهائيًّا بأن لا يتقدم وراء مكة المكرمة، حتى يصل شخصيًّا، وهو ما لم يتحقق إلّا في ديسمبر عندما وصل إلى جدة بناء على تدبير نائب الملك علي في لندن، احمل فكرة غير ناضجة عن عمل كل ما كان مستطاعاً لمساعدة الطرفين المتنازعين على إيجاد تسوية ترضيهما. وكان بين من حضروا إلى جدة لنفس الغرض الكاتب أمين الريحاني والسيد طالب باشا النقيب، رغم أنه كان معروفاً منذ البداية أن الموقف العسكري لعلي كان ميؤوساً منه تماماً. وقد نصحت له في صراحة بأن أحسن طريق يسلكه هو الذهاب إلى مكة لمقابلة ابن سعود عند وصوله وضع نفسه تحت رحمته، إلّا أن مستشاريه العسكريين ألحوا عليه بالاستمرار في القتال واثقين من أن تدريبهم العسكري العالي وكفايتهم في القتال كفيلة بأن تدفع بالوهابيين إلى صحرائهم في غضون بضعة شهور، وذلك بمجرد وصول المتطوعين من سوريا وشرق الأردن وتدريبهم وتزويدهم بمعدات القتال. وتبعاً لهذا أرسلت بعض الفرق

لتتظاهر حول مكة في يوم وصول ابن سعود الذي رد على هذا بطلب استسلام الحجاز بدون قيد ولا شرط. ولقد اضطررت للأسف لأن أغادر جدة إلى عدن في يوم ٢ كانون الثاني/ يناير، وهكذا لم يتح لي أن اشهد ضرب المدفعية الوهابية لهذه المدينة في اليوم التالي. أما الأعمال التي تمت بعد ذلك فلم تكن ذات صبغة حاسمة، فرفع الحصار عن جدة لفترة الراحة الصيفية المعتادة، بينما أخذ كل من الطرفين في الاستعداد لاستئناف النشاط العدائي في أواخر الخريف أو الشتاء.

لم أعد إلى جدة إلّا في شهر تشرين الأول/ أكتوبر لأشهد المراحل الأخيرة لانهيار المملكة الأردنية الهاشمية في الحجاز. ولكن كان هناك رجل إنكليزي آخر هو ألدون رتر قضى فصلي الصيف والخريف من سنة ١٩٢٥ حاجاً في مكة المكرمة وأخرج فيما بعد كتاباً يثير الإعجاب عن مشاهداته خلال السنة الأولى التي حكم فيها ابن سعود الجزء الأكبر من الحجاز. إن الصورة التي رسمها لهذا الأمير العربي المديد القامة متين البنيان في عباءة مصفارة وجلباب من التيل، تكسو هامته كوفية مرقطة بالأبيض والأحمر يعلوها عقال من صوف أسود وهو جالس بين أنصاره على الأرض حافي القدمين، قائماً بين آونة وأخرى ليستقبل كل جماعة من الزائرين تدخل خيمته الكبيرة لتقديم التهاني بهذه النهاية الناجحة العظيمة لمحافل الحج التي جرت لأول مرة تحت رعايته وعنايته، هذه الصورة لا بد تحمل الإنسان يملؤه الشعور بالحنين إلى تلك الأيام القديمة الطيبة قبل أن تدخل الأساليب الملتوية والأفكار الزائفة وغيرها من أنواع التعقيد إلى أساليب الاجتماعات ونظم الاحتفالات في المجتمع العربي. ولا مفر من أن نرد هذا الفضل إلى أهله في هذه المناسبة فنقول **بأن هذا البطل وحده قد حفظ أساليب البساطة القديمة واستمسك بكل أصولها، فكادت تتلاشى من حوله مظاهر العظمة وبريق**

السلطان! وحتى في ذلك الوقت، كما أدرك ألدون رتر[١]، فإنه لم يتغير إذ ظلت الإنسانية والكتمان والحذر أبرز صفات ابن سعود بعد حكم مطلق عمره نصف قرن. أما فيما يتصل بالحكم فكان شعار حكمه الطويل: «احكموا بين أنفسكم، فإذا اتفقتم فحبا وكرامة، أما إذا لم يرتضوا الاتفاق معكم، فلتكن ثقتكم في الله واعتمدوا عليه، وأعملوا أفضل ما يتراءى لكم!».

إن الفتوحات التي سبقت أول رمضان قضاه ابن سعود في المدينة المقدسة ثم إنه أول موسم حج في حكمة حيث أخذت جماعات صغيرة من الحجاج تصل من وراء البحار في باكورة الصيف إلى مختلف الموانئ الوهابية، إلى جانب الاستعداد العسكري لحملة الخريف التي كان يرجى من ورائها فتح جدة والمدينة وتحرير على ما بقي من أرض الحجاز، كانت جميعاً تتقاسم فيما بينهما جهوده وتدبيره. وقد تحقق لبريطانيا في خلال ذلك أن وجود ملك الحجاز السابق الشريف «حسين» في العقبة، كان لا شك سيدفع بالجيش الوهابي إلى حدود شرق الأردن وفلسطين، ولهذا فإنها اتخذت الاجراءات اللازمة لنقل الملك اللاجئ إلى قبرص ولاحتلال العقبة نفسها بفرقة من العربات المصفحة. وإزاء هذه الخطوة تقدم ابن سعود ببعض ملاحظات شديدة اللهجة إلى إلدون رتر، نشأ بسببها خلاف إنكليزي عربي سنستعرضه في الفصل التالي: وكان من حكم المصادفة أن أرافق في رحلة عودتي إلى جدة بعثة إيرانية موفدة لتعرف مدى الخسارة التي حلت بالمقابر وبغيرها من الآثار، والتي أتهم

---

(١) «إن مطامعه الشخصية لا حدود لها، ولكن يخفف منها كتمان شديد وحذر بالغ، إنه عدو لا تلين له قناة ما استمرّ الدفاع وبقيت المقاومة، ولكنه في ساعة النصر والظفر أكثر العرب إنسانية ورحمة في التاريخ كله. أما فيما يتصل بنظام حكمه... فإن حكمه حتى بين أهله وأقاربه: حكم مطلق في أصوله!».

الوهابيون بإحداثها، ثم لتقديم تقارير عنها، فاستطعت أن أبعث برسالة إلى ابن سعود بواسطة أحد اعضاء هذه البعثة، كان من شأنها أن وصلت إليّ دعوة في الوقت المناسب لمقابلة السلطان خارج مكة المكرمة في الطريق إلى ميناء رابغ التي كانت في قبضة الوهابيين عندئذ. التقينا في شميسى على حدود المنطقة المقدسة بعد استئناف الأعمال العدائية بفترة قصيرة. وقد ألقت إحدى الطائرات قنبلة على رابغ أثناء وجودي فيها، ومرة أخرى مستكشفة فوق الخيمة التي كنت أجلس فيها مع ابن سعود نناقش الموقف وكان في انتظار وصول نجله فيصل على رأس قواته الأساسية من نجد قبل الزحف إلى جدة، وكان في استطاعتي أن أؤكد له أن توقعه مقاومة جدية الآن لم يعد له في الغالب مبرر، لأن معظم سكان جدة الذين عانوا الكثير من ويلات الجوع والمرض لا يتوقون الآن إلّا إلى نهاية عاجلة لهذه الحرب. ثم عدت إلى رابغ لأرى جيش الأمير محمد، ثالث أبناء السلطان في طريقه إلى المدينة حيث كانت فصائل الإخوان بقيادة فيصل الدويش تهدد المدافعين تهديداً خطيراً لدرجة أنهم عرضوا التسليم بشرط أن يمتنع الإخوان أنفسهم عن دخول المدينة. وكان لهذا السبب إن أمر ابن سعود ابنه بالمحافظة على الأماكن المقدسة وحسن معاملة السكان، ولهذا لم يمض وقت طويل بعد وصول محمد حتى استسلمت المدينة يوم ٥ كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٢٥. وفي هذه الأثناء كنت قد أبحرت من رابغ إلى بور سودان التي أقمت فيها إلى ما بعد سقوط جدة يوم ٢٣ كانون الأول/ ديسمبر دون مقاومة أو نشوب قتال بفضل الخدمات الطيبة التي قام بها المندوب السياسي البريطاني، وبعد ارتحال الملك علي وأتباعه في اليوم السابق وفق ما تم الاتفاق عليه من قبل.

لم يكن ابن سعود في حاجة إلى وقت طويل ليعلم أهل الحجاز، بواسطة علاج عادل حاسم لحالة أو «لحالتين اختبارتين، أنه قد عقد العزم

على أن يكون السيد في بلاده، وأن ليس المواطنون الموالين ما يخافونه، لا من جانبه ولا من جانب غيره من الوهابيين الذين يخشونهم. ولقد تحدت قبيلة حرب النظام الجديد في مناطق التلال «يوسفان» وسرعان ما قوبل هذا التحدي وانحسر عن أوخم العواقب والكوراث للثائرين. وقد انتفض قسم آخر من هذه القبيلة في المنطقة جنوبي جدة فاتضح على عجل من هو سيد هذه البلاد! أما في جدة نفسها فقد أبان السلطان عن جانب آخر من أخلاقه وصفاته ربما بعث الدهشة والعجب في نفوس كثيرين ممن كانوا قد وطدوا النفس على مواجهة فترة ذات رد فعل متطرف. لقد حضر إليه وفد من تجار التبغ المحليين ليحتج على الحظر الجديد على بيع التبغ، وكان لهم من السداد ما جعلهم يقتصرون على الإشارة إلى الخسارة المالية التي يصبحون من ضحاياها لو نفذ هذا النظام فوراً، إذ أبانوا عن أن قيمة التبغ في المدينة لا تقل كثيراً عن مائة ألف جنيه، وأن كل الذي يطلبونه هو مهلة من الوقت حتى يتمكنوا من بيع أرصدة هذه السلعة التي في حوزتهم. ولقد دهش ابن سعود حقاً من هذا الكشف عما في جدة من خبائث، ولكن لم يكن من طبعه أن يظلم مروجي هذه السلعة الممنوعة وقد اعترفوا على أنفسهم. لم يضن عليهم بالمهلة المطلوبة بشرط تحريم عرض التبغ والسجاير حتى لا يقع عليها نظر الجمهور وكانت هذه المهلة تتجدد من تلقاء نفسها إلى ما لا نهاية دون أن يدور حولها حديث، حتى إلى مدى استمرار الاستيراد ودفع رسوم جمركية للحكومة على التبغ الوارد، حتى اختفى تحريم التدخين من قائمة الممنوعات الوهابية.

ولأول مرة خفق العلم الوهابي بين أعلام الأمم الاخرى فوق دور الحكومة في جدة. وكانت الجاليات الأجنبية تتوقع حكماً رجعيًّا، إن لم يكن حكماً إرهابيًّا، ولكن اتضح منذ البداية أن هذه المخاوف كانت خيالية ولم يكن لها أي مبرر. وأخذت الشركات الأجنبية التي تعمل في جدة

تتسلم طلبات لتوريد السيارات والآلات وغيرها من اختراعات الشيطان. ولم يلبث أن ذاع وانتشر بين الناس أن الحكومة الجديدة مصممة على عمل كل ما تستطيع لتوفير الأمن ووسائل الراحة للحجاج بما في ذلك تشجيع النقل بالسيارات بغض النظر عن الاحتجاجات المريرة من جماعات البدو مالكة الإبل على هذا النهج الذي يحرمها من أهم وسائل عيشها. وقد كانت هذه الاحتجاجات سقيمة ضعيفة، كما أثبت المستقبل. ولقد أوضحت الحكومة في جلاء أن راحة ضيوف الرحمن وزائري النبي في الأرض المقدسة يجب أن تكون لها الأسبقية على ما عداها من الاعتبارات.

وكان رد الفعل الأول الناشئ عن مواجهة الحكومة الوهابية لمسؤولياتها مما خلق فعلاً شعوراً طيباً وكان ذا أثر كبير في تلاشي المخاوف التي سبقت انتصارها. ولكن سقوط الشريف حسين وزوال حكمه الذي كرهه الشعب بعث في الواقع موجة عالية من المضاربة في معظم البلاد الإسلامية وخاصة في الهند ومصر عن إمكان وجود سلطة من ممثلي الدول الإسلامية توخياً لقيام حكم سليم في المناطق المقدسة، وجاء هذا من جانب هذه البلاد الإسلامية التي طال تلقينها راغمة لمبادئ ومثل الديموقراطية الأوروبية، بمثابة أكبر بواعث الخوف في نفس ابن سعود من تدخل مباشر أو غير مباشر يأتي متعللاً بمصلحة الحجاج ولهذا فقد بادر من قبل إلى إعلان برنامجه لراحة الحجاج في الحدود التي تستطيع أن تتحملها إمكانيات الدولة من الناحيتين المالية والاقتصادية. ولكن أهم اعتبار كان يعنى به في ذلك الوقت هو توفير سلام وأمن شامل للبلاد، وكان موقنا بأن عليه وحده أن يحمل عبء ذلك. ولقد استجاب لهذه الرغبة بطريقة غريبة، إذ دعا ممثلين لجميع البلاد الإسلامية التي سبق أن أمطرته بالنصائح عن الكيفية التي يجب ان يحكم بها الحجاز، ليلتقوا به في مؤتمر يعقد في الصيف التالي

(عام ١٩٢٦) قبل موسم الحج. وفي خلال ذلك، ولكي يبين للعالم أنه لا يزمع التخلي عن أي جزء من مسؤلياته الخاصة، فإنه دعى إلى اجتماع من أهم عيون سكان مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة ورؤساء القبائل لينادوا به ملكاً على الحجاز كخلف طبيعي للأسرة الهاشمية. وقد تم عقد هذا الاجتماع في احتفال أقيم في المسجد الحرام بمكة المكرمة بعد صلاة الجمعة يوم ٢٦ كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٢٦، وبعد مدة تزيد قليلاً على أسبوعين من تاريخ تحرير جدة. وكان لألدون رتر الشرف وحسن الطالع في أن يكون شاهد عيان لهذه المناسبة الكبيرة، التي يطابق عيدها الفضي تقريباً الذكرى الذهبية القمرية لحكم الملك الملك عبد العزيز آل سعود لبلاد العرب.



الملك عبد العزيز مع أفراد عائلتي آل سعود والصباح في الكويت، عام ١٣٢٨هـ، وقد التقط شكسبير هذه الصورة التي تعتبر أول صورة معروفة للملك عبد العزيز.



الفصل السابع

صعاب متزايدة

ربما كان من السخف الادعاء بان الحكم الجديد استقرت أوضاعه وسلس القيادة في الحجاز منذ البداية، لأن هذا يبدو أكثر مما كان متوقعاً في تلك الظروف، ولو أن ابن سعود لم يخيب آمال أصدقائه في أية ناحية، إذا أوضح في أول الأمر بما لا يحتمل شكاً أن تهديد الناس في أنفسهم وأموالهم لن يسمح به في أي وقت وبأية حال. ولقد أبعد البدو عن نوازع الإغراء بتحريم ضرب خيامهم بالقرب من الطرق المهمة التي يعبرها المشاة غير مسلحين أفراداً أو في جماعات صغيرة. ومن الصعب جدًّا أن نذكر حادثة سطو أو سلب واحدة وقعت على عابري طرق الحجاز في خلال ربع القرن الماضي. ولهذا يجب أن يرد الفضل في هذا إلى صاحبه: إلى ابن سعود وحده! ولا شك في أن هذا الأمن الشامل لم يكن راجعاً إلى اتخاذ احتياطات خاصة للحد من نشاط المجرمين، بل بالعكس، فقد كان من النادر في تلك الأيام أن ترى شرطيًّا أو غيره من حراس الأمن في هذه الطرق الرئيسية، فضلاً عن أن مخافر الطرق العديدة اثناء حكم الاتراك والأشراف لم تخل من رجالها في الحكم الجديد فحسب، بل تركت لتتصدع أو لتستعمل حجارتها في تعبيد طرق جديدة.

أما الحقيقة البسيطة فهي أن ابن سعود دخل هذه البلاد وقد سبقه إليها صيت ورفعة ذكر لم يجرأ أحد أن يضعهما موضع التجربة والاختبار لثقته

بنفسه ومن سمعته هذه، فقد كان في مقدوره أن يعفي الإخوان المرهوبي الجانب وأن يتصرف في توزيعهم، وقد أعادهم فعلاً إلى الصحراء بعد انتهاء مهمتهم في الحجاز، أو استخدمهم في بعض الحملات العسكرية التي نظمت لكي ترهب اليمن من القيام بأي عمل عدائي، ولتحتل وتصلح اقاليم الحجاز الجنوبية حتى ميناء جيزان ومناطق الحدود، حيث اعترفت إمارة عسير بسيادة ابن سعود واحتفظت بنوع من الاستقلال الداخلي أو الأسمى ثم ضمت نهائيًّا إلى المملكة السعودية بعد بضع سنين. وكذلك شغلت فرق الإخوان التي كانت تعمل في نطاق المدينة المنورة بغزوات في الأقاليم الشمالية، انتهت دون إراقة شيء من الدماء، إلى احتلال مينائي ينبع والوجه والمناطق المجاورة حتى الحدود بين العقبة ومعان.

وبينما كان النجاح يصحب نشاط العاهل الوهابي فيما يتصل ببسط سيادته على مختلف أصقاع الحجاز وتوطيد أركان الأمن والسلام بين شعوب لم تألف مثل هذا الترف من قبل، إلّا أنه أخذ يواجه في حكمه الجديد مشاكل ذات طابع جديد لم يكن سابق تجاربه ليجد كثيراً في حلها. فقد كان من اليسير عليه في الصحراء أن يوفق. أو يكاد يوفق، بين طرفي دخله وإنفاقه بواسطة الاقتراض القانوني بضمان شرفه من التجار والموالين له ليدفع المرتبات والإعانات الدورية وغيرها من المدفوعات عن أية خدمة تؤدى له بوسيلة أو بأخرى، على أساس إيراد سنوي لا يتجاوز مائة وخمسين ألف جنيه. أما اللعب بهذه الملايين في بلد أتقن كل أساليب الاحتيال والاختلاس، وخاصة إذا كان هذا تحت سمع وبصر العالم ممثلاً في مندوبيه الكثيرين الموجودين في جدة، وكل منهم منتقد وكثير لا يكن له كبير ود، هذا اللعب بالملايين والقيام عليها كان شيئاً جد مختلف عما عرفه من الشؤون المالية. ولم يعد ممكناً أن يظل ابن سعود وزير المالية في دولته ولا أن يشرف شخصيًّا أو يدير بنفسه مختلف مصالح الدولة الأخرى كما يتطلب الحكم في دولة حديثة وكان

في حاجة ملحة لعدد قليل من الرجال ذوي الكفاية ليعاونوه في القيام بهذا الواجب، ولكن لم يكن هناك رجل واحد من هؤلاء، لأن معظم الموظفين الأكفاء الذين خدموا الحكم السابق لم يكن مؤثوقاً في ولائهم للحكم الجديد، ولهذا عزلوا من وظائفهم، بينما كان الرجال الجدد الذي جاؤوا مع الفاتح، ومعظمهم من لاجئي البلاد العربية الواقعة تحت الانتدابين الفرنسي والإنجليزي، غير متصفين في الغالب بالكفاية المطلوبة لهذه الأعمال المهمة الذي وكلت إليهم في الشهور الأولى، للحكم الجديد.

وكان في هذا تشجيع لميل ابن سعود الفطري لأن يركز في شخصه الإشراف الإداري. لم يكن هناك شيء يدق على ملاحظته الشخصية أو على إدراكه، كما كان يمكنه نشاطه الذي لا يعرف الكلل من الاشتغال، وفق أسلوب انتهازي اجتهادي، بكثير من الأعمال التفصيلية التي كان يحسن تركها لمرؤوسين يعملون وفق برنامج عام متناسق. ولهذا لم يتيسر أن تبدو من بين هذه الأسس المضطربة بعض معايير لوسائل العمل ونظمه إلّا تدريجاً وفي مراحل بطيئة، رغم أنه ما زال من الأرجح حتى اليوم، أن توزيع السلطة كما تم خلال العشرين سنة الخيرة، وخاصة في الشؤون المالية والاقتصادية، إنما يرجع إلى ضعف البدن، لا إلى رغبة هذا الروح، الذي لا يقهر ولا يكل عن العمل. وكان أن تمخض الضغط المتزايد لأحجام دائبة التضخم من العمل الملح غير ذي الصبغة العادية عن الحاجة لوضع صمام أمان، كما كان من ابن سعود طالع الملك أن وجد الرجل اللائق لهذا العمل في الوقت الملائم، ليحمل عنه كثيراً من أعباء هذه السنين بالغة الحرج: رجل اجتمع له إلى جانب النبوغ الفطري والكفاية لهذا العمل، التمتع بثقة الملك كاملة.

كان هو عبدالله السليمان الحمدان من أهل عنيزة بالقصيم مشتغلاً بالأعمال ككثيرين من مواطنيه، وقضى في الهند بضع سنين جمع خلالها

المعلومات والتجارب التي أفاد منها كثيراً عندئذ. وكان أخوه الأكبر محمد قد التحق بخدمة الملك في المسائل الدينية وعمل لعدة سنين، بل حتى مماته، سكرتيرا خاصاً لجلالته. وهكذا وبهذه الصفة كان أخوه الأصغر من أتباع ابن سعود أثناء حملته على الحجاز ومكث ثلاث او أربع سنين حتى ثبتت كفايته التي رفعته إلى منصب وزير المالية الذي ما زال يشغله حتى الآن ولأكثر من عشرين سنة والذي لعب فيه نفس الدور الذي لعبه جعفر البرمكي لدى الخليفة هارون الرشيد. إن التوافق في أسس الحكم ملحوظ واضح بين هاتين الدولتين اللتين يفصل بينهما أحد عشر قرناً ونيف، ولو أنه من المرجح أن أحداً من بطلي الحكم الوهابي لم يدر بخلده أن درويهما قد مثلاً منذ فترة طويلة وبنفس المهارة والحذق على مسرح بغداد. لقد أقام عبدالله السليمان كخلفه الشهير الإدارة المالية في الدولة على قواعد عريضة من اقتصاديات الأسرة، وذات شعب وفروع متصلة بكل ناحية في حياة الشعب، كما كان دائماً كخلفه، الخادم المخلص لسيده، وكان بعده، غير منازع، المسؤول عن مصير بلاده. ولا محل للجدل، بصفة عامة، في أن البلاد قد تقدمت في ظل إشرافه وقيادته، رغم أن وسائله الإدارية ربما كانت عرضة للنقد من الناحية التفصيلية.

إني أتوقع نجاحاً ونمواً كانا في طيات المستقبل خلال الأيام الأولى من حكم الوهابيين للحجاز. هذا بينما كان الغرض الأساسي لابن سعود هو أن يقيم في هذه الناحية نظاماً إداريًّا يستطيع أن يضطلع بأعباء المسؤولية الجديدة الناشئة عن الفتح. وبصرف النظر عن زيارات قصيرة لجدة في بعض المناسبات، فقد كان عليه أن يمضي أغلب وقته في مكة المكرمة، حيث كانت الحاجة ماسة إلى وضع نظم جديدة لموسم الحج القادم، فضلاً عن إعادة تشكيل إدارة الحكومة المركزية وتنظيمها، ثم الأعمال التحضيرية اللازمة للمؤتمر الإسلامي في الصيف. ولهذا، ورغم أن الملك أبقى على القائمقام أو الحاكم المحلي لجدة الحاج عبدالله علي

رضا - وهو من أثرياء تجارها ووجهانها المحترمين - ليشرف على الشؤون الإدارية العادية، فإن جلالته وجد من الضروري أن يمثل في هذه المدينة بصفة شخصية فعالة لكي يظل على اتصال بالبعثات القنصلية الأجنبية وبالهيئات التجارية فيها. وكان الرجل الذي اختاره للقيام بهذا الواجب الدقيق نوعاً ما، هو **الدكتور عبدالله الدملوجى من أهل الموصل بالعراق** الذي دخل خدمة جلالته في باكورة الحرب العالمية الأولى: أولاً بصفته طبيباً للأسرة ثم مستشاراً سياسيًّا عاماً. وكان الدملوجى رجلاً ذا قطنة



د. عبدالله الدملوجي

وابتكار وكفاية كبيرة، ولكن تبعاً لعدم وصف وتحديد اختصاصاته على وجه دقيق نشب الخلاف بينه وبين الحاكم الاسمي لجدة، فكانت النتيجة هي خمود وارتباك لم يساعدا على حل المشاكل الاقتصادية في فترة الانتقال، فضلاً عن أنهما فتحا الباب لكثير من نقد مقنع، ولو أنه ليس أقل مرارة، في أنحاء كثيرة، وخاصة بين العاطلين من موظفي الحكم السابق الذين كانوا ينظرون في كثير من الحقد الطبيعي إلى مرؤوسيهم السابقين والقائمين على إدارة الجمارك وغيرها من المصالح التي تذكرهم بالربح والكسب. ولكن رغم هذا الارتباك العام فهناك أشياء كانت تعمل فعلاً. فقد عقد اتفاق مع دار لصك النقود بلندن لتزود البلاد

ببضعة ملايين من العملة الشيكلية لمواجهة الطلب الشديد على المبادلات الصغيرة بين الطبقات الفقيرة. وكذلك عقد اتفاق آخر مع مصر لطبع طوابع بريد جديدة للحكومة الوهابية، كما أجريت مفاوضات لشراء مرشحات جديدة لمياه البحر توخياً لزيادة كميات المياه الصالحة للشرب لشعب كابد آلام الظمأ أثناء حصار جدة.

وكذلك بدأت السيارات ترد إلى البلاد في أعداد متزايدة للحكومة ولهؤلاء المضاربين الذين استغلوا الرغبة في توفير الراحة للحجاج وفق سياسة الحكم الجديد. وكلفت شركة «ماركوني» ببناء محطة لاسلكية في ميناء قنفذة للاتصال بالقوات التي عهد إليها باحتلال عسير تهامة وبمراقبة حدود اليمن. وفي نفس الوقت اتخذت كل الإجراءات الكفيلة بعودة الذين هاجروا بأسرهم من جدة ومكة إلى السودان وأسمرة والهند وغيرها تجنباً للمتاعب والأخطار أثناء نشوب القتال في الحجاز. وقد تنازلت الحكومة تشجيعاً لهم عن رسوم الدخول المقررة، ولم يمض وقت طويل حتى عادوا جميعهم، وهم حوالى خمسة آلاف لاجئ، إلى بلادهم وبيوتهم تحدوهم أحسن الآمال والأماني للحكم الجديد.

أما فيما يتصل ببريطانيا العظمى، فإن الوضع الدبلوماسي بالنسبة للحدود بين المملكة الوهابية والبلاد التي تهتم بها بريطانية خاصة - العراق وشرق الأردن - كان قد سوي من قبل سقوط جدة باتفاقيتي بحرة وجدة على التوالي: بعد مفاوضات بين ابن سعود وبعثة بريطاينة برئاسة السير جلبرت كلايتون. ولكن هاتين المعاهدتين كانتا ذا صبغة مؤقتة، إذ شهد حكم الوهابيين للحجاز في سنته الأولى والثانية مفاوضات أخرى بينه وبين هاتين الدولتين في محاولة ودية من الطرفين لكي توضع العلاقات بينهما في شكل نهائي وعلى أساس من الود والتعاون. وفي خلال ذلك كان ابن سعود كثير الوجل والتوجس لاحتلال بريطانيا إقليمي العقبة ومعان في

سنة ١٩٢٥ صيانة لمصالح شرق الأردن الذي كان تحت الانتداب البريطاني. إن ابن سعود لم يكن ليستطيع الاعتراف بضم هذين الإقليمين، اللذين كانا لا شك جزءاً من الحجاز في ذلك الوقت، ولم يزل هذا المشكل قائماً حتى اليوم، كما تقطع الحقيقة الواقعة في عدم اعتراف الحكومة العربية السعودية رسميًّا حتى الآن بالحدود الجنوبية لشرق الأردن التي وضعتها بريطانيا من جانبها وحدها.

ومع هذا فلم يسمح ابن سعود أبداً لهذا المشكل المعقد أن يسمم علاقاته بحكومة كان يعتبرها طوال حياته صديقاً قديماً للعرب. ولكن بقيت بعد هذا أشياء أقل أهمية هي بقايا الامتيازات الأجنبية من العهد السابق الذي لم يعترف به ابن سعود قط مما كان سبباً لاحتكاك استمرّ فترة من الزمن بين القنصل البريطاني قليل التجارب وبين السلطات الوهابية. وكان ابن سعود في الغالب يتذرع بمزيج من الأناة والإصرار مكّنه من المقاومة على حقوق حكومته في مسائل كالرقابة على تجارة الرقيق وتنظيم شؤون الحج، فضلاً عن تطبيق القانون الأهلي على جميع المقيمين في البلاد من سكانها وزائريها على حد سواء: وخاصة تنفيذ القوانين الشرعية في جميع الأحوال على المسلمين.

وقد وافق الملك أثناء زيارته للمدينة المنورة في نهاية سنة ١٩٢٦ على إجراء محادثات مع الحكومة البريطانية هدفت من وراءها إلى وضع تسوية نهائية لجميع المسائل التي تهم الحكومتين معاً. وقد وقع الاختيار على المستر س. ر. جوردان ليجري هذه المفاوضة باسم حكومته، وتمت المقابلة بينه وبين ابن سعود خارج حدود المنطقة المقدسة. ولكن سرعان ما اتضح أن التعليمات التي لدى المفاوض البريطاني لا تدع إلّا أملاً ضعيفاً في نجاح هذه المفاوضات، التي أجلت بعدئذ إلى أجل غير مسمى، بحيث لم تستأنف إلّا في صيف سنة ١٩٢٧ عندما زار جدة السير جلبرت

كلايتون، وحتى في هذه المرة أيضاً انحسرت المفاوضات عن خلق مشكلة جديدة، ولو أنها كانت عارضة، أمكن حلها فيما بعد بتغير أساسي في موقف بريطانيا كان نتيجة لزيارة قصيرة قام بها السير جلبرت كلايتون لبلاده قدم في خلالها تقريراً عن محادثاته مع الملك الذي كان قد وطد نفسه على نبذ المفاوضات وعقد معاهدة وعلى إصدار كتاب أخضر ضخم ليبين تفصيلاً الأسباب التي تجعله غير قادر على قبول بعض المطالب البريطانية المتطرفة. ولكن اتضح لحسن الحظ ألا داعي لإصدار هذه الوثيقة، إذ عاد السير جلبرت كلايتون في الخريف يحمل اقتراحات معقولة جديدة يسرت إمكان عقد معاهدة جدة التي سويت بواسطتها العلاقات بين الدولتين نهائيًّا.

لنرجع أدراجنا إلى باكورة حكم ابن سعود للحجاز فنذكر أن قراره عقد مؤتمر إسلامي لمناقشة مستقبل هذا البلد، لم يكن من شأنه أن يخلق جواً من الود والوئام بينه وبين الدول الإسلامية، رغم أن هذا القرار قد يسر تأجيل الخلاف الأصيل الذي انطوى عليه الموضوع الذي كان سيعرض للبحث والنقاش. ورغم أن تقرير البعثة الإيرانية سالفة الذكر لم يكن شديد الحاجة ولا غير ودي في مجموعه، إلّا أنه لم يستطع أن يخفي الحقيقة في أن عدداً من الأضرحة ومقامات الأولياء قد دمرت وأزيلت لأنها تخالف تعاليم الوهابيين. أما الخلاف الكبير الذي نشأ بسبب أوضاع المحمل المصري الذي زاده تعقيداً ما عرف عن مطامع الملك فؤاد في الخلافة، بما أضفى على العلاقات بين البلدين ظلالاً معتمة كثيفة. ولكن لعل أقوى سبب لهذه المتاعب كان سلوك الهند الإسلامية، التي كانت، ويا للعجب، تفور حماساً للنظام البرلماني البريطاني الديمقراطي كأفضل وأرقى نظام يوضع لحكم البلاد الإسلامية المقدسة! ولقد فزع هذا القسم من الإسلام أما خوف لظفر ابن سعود بلقب «ملك» الأمر الذي بدا كأنه زلزل الأرض تحت أقدام أبطال الديموقراطية. وكانت

بعثة جمعية الخلافة الهندية إلى الحجاز هي بلا شك أهم ممثل لوجهة النظر هذه، وقد تركت لتفتر حماستها وتبرد نارها إذ ووجهت بالدليل. أن تنصيب ابن سعود ملكاً على الحجاز كان من الناحية الشكلية على الأقل، وفق مبدأ تقرير المصير الذي وعد به الملك الجديد أهل الحجاز عندما فتحه، وكانت الفترة القصيرة التي قضاها أعضاء هذه البعثة (ظفر علي خان صاحب جريدة زامندار، وشعيب قريشي، ومولانا عرفان) قبل وخلال سقوط جدة كافية لاقتنائهم بأنه «لا يعني عن أن يكون آل سعود على رأس حكومة الحجاز المقبلة! «ولكن لكي نكون أكثر دقة، فإنهم اعتبروه الحاكم الأعلى للحجاز بالنسبة للسياسة الخارجية والاقتصادية والدفاعية، ولكن يجب أن يكون الحكم الداخلي تحت إشرافه العام عن طريق هيئة ديموقراطية تمثل فيها جميع الدول والمجتمعات الإسلامية.

كان هذا قبل حظوه باللقب الملكي، بينما شجع بطء تقدم أساليب الحكم صوب الاستقرار النقد الذي لم يكن منه مفر والذي عبر عن الحاجة إلى إصلاح جدي في حكومة البلاد المقدسة. وكان من الطبيعي أن يستغل الهنود هذه الفرصة إلى أقصى الحدود، بينما كان ابن سعود يناقشهم بصبر جميل وإصرار ويفند مزاعمهم! مصرّاً على حفاظه الديني، ومؤكداً له عزمه على صيانة استقلال الحجاز من كل نفوذ أو إشراف خارجي اقتصاديًّا كان أم سياسيًّا.وأخيراً ارتحلت البعثة الهندية إلى بلادها في كانون الثاني/ يناير غير مقتنعة تمام الاقتناع بأن مستقبل الحجاز في أيد أمينة خيرة. وحل محل هذه البعثة مباشرة بعثة أخرى تمثل جمعية «خدام المدينتين المقدستين» وكانت تحمل معها ٢٦٠,٠٠٠ ألف روبية هندية للترفية عن «ضحايا» المدينة! وكان سلوك هذه البعثة عدائيًّا واضحاً منذ البداية، ولم يمض وقت طويل حتى اضطر ابن سعود، بعد أن ناقشهم واحتمل تحرشهم قدر المستطاع في جلد وأناة وصبر، إلى ان يطلب إليهم مغادرة البلاد! ولكي يضمن ترحيلهم على وجه السرعة فإنهم

أرسلوا في حراسة البوليس من مكة إلى جدة، حيث وضعوا في سفينة اقلعت بهم إلى السويس، بعد أن قضوا شهراً في الحجاز. وقد تركز انتقادهم لحكم الحجاز في معظمه حول مسائل غير ناضجة تزعم رضوخ ابن سعود لنفوذ بريطانيا أو تبعيته لسياستها كما تثبت اتفاقيتا جدة وبحرة اللتان طلبوا الإطلاع على أصليهما الموقعين من ابن سعود والحكومة البريطانية، لأنهم توقعوا اشتمالها على مواد سرية، وكان الأمر الثاني في اتهامهم للحكم الوهابي هو الفظائع التي ارتكبت في الطائف والمدينة وفي أماكن أخرى، والتي طلبوا تقديم تفسير عنها. وكانت ثالثة الأثافي معارضتهم الشديدة لخروج ابن سعود عن طاعة الرأي العام الإسلامي والمناداة بنفسه ملكاً!

ورغماً عن أن الملك كان تواقاً لمصالحة العالم، وخاصة العالم الإسلامي وشعور المسلمين، إلّا أنه لم يكن الرجل الذي يحتمل مثل هذه الدعاوى أو توقفه مثل هذه الموانع. واخيراً انتهت فكرة عقد المؤتمر الإسلامي في سنة ١٩٢٦، ولم يحاول العالم الإسلامي بعد ذلك مرة واحدة أن يؤثر في تطور الحكم في الحجاز وفق القواعد التي كانت تنحسر عنها التجارب سنة تلو أخرى بالنسبة لحاجات الحج وراحة ضيوف الرحمن، ولقد شهدت السنوات الأربع التي تلت سنة ١٩٢٦ أعداداً ضخمة من الحجاج كانت تنساب من أرجاء المعمورة، وكان ينيف عددها سنويًّا على مائة ألف زائر، أما السنين العشر من سنة ١٩٣٠ التي تميزت بنقص عدد الحجاج، فلم يكن هذا من جراء تقصير الحكومة السعودية، بل كان لأسباب خارجة عن إرادتها ولا تملك لها درءاً، فكانت أولاً الأزمة الاقتصادية الشديدة في فجر هذه الحقبة التي طحنت العالم بين شقيها، ثم الحرب العالمية الثانية وويلاتها حيث كان الوصول إلى الموانئ الحجازية متوقفاً على أمور لم تكن الحكومة الحجازية تملك حيالها شيئاً.

لم يكن من المستطاع توقع مثل هذا الكساد أو التنبؤ به وسط وفرة الثراء الذي انساب إلى بلاد العرب في باكورة حكم الوهابيين. إن الثراء المفاجئ قد دفع إلى بدعة الإسراف التي لم يعمل الملك نفسه شيئاً لإيقافها لما كانت عليه نفسه من التمسك بالتقاليد القديمة المتصلة بالكرم والإحسان كانت النقود تتدفق إلى بيت المال، الذي كان يديره أحد أتباع دولة الأشراف وهو الشريف شرف رضا، ليخرج من بين يديه ثانية. وألفت لجنة حسب ظروف ذلك الوقت لتختار موظفين للحكومة فعملت كل ما تستطيع لتنفيذ الرغبات الملكية بخصوص المرتبات اللائقة بهؤلاء الموظفين. وكذلك ألفت لجنة للميزانية بذلت غاية جهودها لتنسيق الميزانية وتوازنها، بينما بقيت مصالح أخرى تحت إشراف الملك المباشر مثل الدفاع والأمن العام، وكان عليها دائماً أن تذكر أن هذه البلاد فتحها الملك بقوة السيف ولهذا يجب أن يكون مرهفاً مصلتاً يؤتي أثره في السلام والاحتفاظ به وكذلك ألف مجلساً يشبه البرلمان يضم ممثلين صالحين من المدن الثلاث الكبيرة كان يعقد اجتماعاته في مكة، ولكن لم يكن له ذكر في الواقع، ولو أنه مهد لتأسيس مجلس الشوري الذي قام في خلال السنين الأخيرة بكثير من الأعمال النافعة والخيّرة وإن لم تكن كبيرة الأهمية في معظمها، كما عمل كصمام أمان لمنع العجلة في التشريع بالنسبة للمسائل الهامة، وتجنب ما قد يكون لهذا من عواقب وخيمة. وبصرف النظر عن الواقع البارز في أن توجيه الأمور كان مركزاً لدرجة كبيرة في شخص الملك، فقد كان من الصعب جدًّا في هذه الأيام المبكرة أن يكوّن المرء فكرة عن ماهية الأشياء التي قد تنحسر عنها التجارب الدستورية. أما هذه التجارب نفسها فلم تكن بأية حال مجرد مظاهر لخديعة الناقدين، ولكنها كانت محاولة صادقة لاختبار وتدريب العناصر المحلية المتاحة لخلق أداة حكم ذات كفاية.

ولكن النتيجة جاءت مخيبة للآمال، وبدأ الهمس في كثير من الأماكن بألا أمل في المستقبل بدون إرشاد وخبرة أجنبية. واتجهت أفكار البعض يدفعهم الحنين إلى حكم العثمانيين الذي كان مضطرباً ولكن ذا كفاية ومقدرة، وذكر البعض أن حكم الأشراف لم يكن سيئاً بقدر ما تخيلوا، وقليل كان هؤلاء الذين استطاعوا أن يمتدحوا بإخلاص حكم الوهابيين القائم، فيما عدا السلام والأمن بفضل الملك نفسه. وفي هذه الأثناء استطاع التجار أن يفسحوا دائرة أعمالهم مع الحكومة، كما أثرى سريعاً المضاربون في وسائل النقل الآلي، ولكنهم كذلك سرعان ما أفلسوا إذ كان يعوزهم وجود قطع الغيار وأعمال الصيانة المناسبة. عرف موظفوا الحكومة كيف يكوّنون لأنفسهم ثروات تقيهم الأوقات العصيبة دون أن يرتكبوا خيانة.

وفجأة وبدون إنذار مسبق بدأت سنين الكساد! وبينما كان موسم الحج في سنة ١٩٢٩ موسماً قياسيًّا في كثرة عدد الزائرين من العمّار والحجاج، فإن الموسم الذي تلاه كان من أعجف المواسم على الإطلاق! وهكذا صدم الانهيار الاقتصادي البلاد صدمة مفاجئة قاسية، واستمرت الحال العجاف كذلك عدة سنين. ولكن ثبت أنها كانت نعمة وبركة من الله.

الفصل الثامن

تذمّر وتمرّد

في غضون فتح الحجاز وبعده مباشرة شَعرَ الملك عبد العزيز آل سعود بالضرورة التي تواجهه وتتطلب إعادة النظر في موقفه وتدبيره كزعيم للمؤمنين ضد المشركين: وهؤلاء في لغة الوهابيين لا يقصرون على الأمم غير الإسلامية، ولكن تدخل ضمنهم المجتمعات الإسلامية التي لا تتبع تعاليمهم الدينية.

ولقد عرفنا من قبل كيف أن مذبحة المنافقين في الطائف دفعته لأن يستعمل كل سلطته ضد تمادي مثل هذا الحاقد المتعصب، سلطان بن بجاد، الذي أصدر إليه أمراً حازماً بعدم مهاجمة مكة المكرمة بأية حال، وكذلك فإن خطر قيام مشاكل مع القوات الأوروبية اضطره لأن يأمر بتأجيل الهجوم على جدة حتى يستطيع نفسه أن يقود العمليات العسكرية ضد هذه المدينة. وهكذا أيضاً فإنه أمر فيصل الدويش وأتباعه من المتطرفين بالامتناع عن مهاجمة المدينة التي ضرب حولها الحصار في الوقت المناسب وبطريقة مثلى بواسطة جيش الأمير محمد. ولكن رغم هذا الحرص كله فقد تعرضت بعض الأماكن المقدسة في المدينتين لشيء من التخريب والتدمير أثار حفيظة إيران وغيرها من البلاد الإسلامية. ولقد ظل ضريح جدتنا حواء، رغم الشك والريبة في صحة هذا الأمر، قائماً في جدة

لبضع سنين، حتى سمح المتعلقون بهذا الضريح، بعد نقاش واقتناع، بتدميره في سنة ١٩٢٨ ودون أن يبعث هذا امتعاضاً في الرأي العام.

وهكذا أبان ابن سعود، لا عن كفايته في القبض على زمام أنصاره المتعصبين فحسب، بل وعن صفات الرجل السياسي الذي يرضى مقابلة الجهل والخرافات الدينية في منتصف الطريق لصالح حكم جديد يهدف إلى توطيده في البلاد التي دخلت بالفتح في طاعته وتحت سلطانه ووصايته. ولقد كان في كريم عطفه وتسامحه مع تجار التبغ في البلاد المقدسة خير مثل على استعداده لأن يساير الشر لغايات دنيوية مؤقتة. وكان سلوكه في نفس الوقت موطداً وديًّا نحو الدول الأجنبية التي أصبحت علاقاتها به على نطاق واسع. وقد أوضح ألا شأن له بالامتيازات الأجنبية للعهد التركي الذي ولى، وأبان بما لا يحتمل الشك تأويلاً منذ البداية، وبصرف النظر عن بعض نقاط الخلاف التي بدت في هذه الناحية، أن حكومته ومحاكمه هي المختصة وحدها بكل ما يتصل بمسائل تجارة الرقيق وتنفيذ القانون الجنائي بغض النظر عن جنسية المتهم. ومن الناحية الأخرى فإن سلوكه نحو التجار الاجانب كان وديًّا مشجعاً للغاية. وكان واضحاً من بادىء الأمر أن مرحلة جديدة من ازدهار التجارة قد بدأت، على نقيض التدخل والرقابة الوضيعة التي ميزت كابوس حكم الأشراف القصير. وأخيراً فقد كان في معاملاته للبلاد والمجتمعات الإسلامية الأجنبية، ثابت القدمين في إصراره على وجوب مراعاة قواعد الشرع من جانب مواطني هذه الديار المجمعة المقيمة في البلاد المقدسة أو الذين يقدمون لزيارتها. ولم يكن يسمح بأي تدخل أجنبي في تنفيذه للقانون، بينما كان مستعداً دائماً لأن يناقش المسائل التي تتصل بتقديم وتحسن الأحوال في الحجاز توخياً لصالح الحجاج وراحتهم. أما سلوكه حيال زيادة هذه البعثات الهندية المتطرفة في نقدها فقد سبق الحديث عنه. وكان ما حدث بينه وبين مصر من خلاف حول

إرسال الكسوة الشريفة بمثابة اختبار وتجربة لمدى قوته وتماسكه. فقد كان لمصر منذ سنين طويلة شرف إعداد كسوةٍ للكعبة الشريفة، كما اعتادت أن ترسل منحتها المالية السنوية للحجاز مصحوبة بكثير من مظاهر العظمة والحفاوة. وكان من بين هذه المظاهر اختيار جمل قوى ليحمل «المحمل»، الذي كان في الحقيقة أثراً من أثار السيادة المصرية، من جدة إلى مكة المكرمة ثم إلى عرفات التي اعتبرت محطة خاصة تعرض فيها الكسوة الشريفة ليراها الحجاج، سيما وكان الواجب يقضي بأن يكون هذا في مكة المكرمة. وكانت تصحب هذا الجمل وما يحمل قوة عسكرية مصرية بموسيقاها لتحرسه في أسفاره. فماذا كان على الملك أن يفعل إذاً، مظاهر العظمة والفخار هذه في أجل احتفال ديني في السنة الإسلامية؟ الحقيقة أنه نهج نهجاً بارعاً من عدم المبالاة. كان المحمل قد قطع رحلته المعتادة إلى ساحة الحج لآخر مرة. وفي أثناء العطلة التقليدية كان منظر المحمل الفخم في محيطه المصري أكثر مما تحتمل الفئة الأكثر تعصباً من حجاج الوهابيين القادمين من نجد، الذين شنوا عليه هجوماً أدى إلى معركة قتل فيها البعض وجرح آخرون قبل أن يتدخل الملك نفسه ليفض المعركة ويفصل بين المقاتلين. وانتهت المفاوضات الدبلوماسية بين الدولتين بعد ذلك إلى منع الوهابيين المحمل من السير إلى ما وراء حدود جدة، هذه المدينة التي ليست مقدسة، وأدى هذا بدوره إلى منع وإيقاف إرسال الهبات المصرية، وأتبع ذلك قطيعة سياسية واضطراب العلاقات بين الدولتين لفترة طويلة: استمرت حتى وفاة الملك فؤاد في سنة ١٩٣٦، وتأليف وزارة برئاسة مصطفى النحاس الذي أجرى المفاوضات لإعادة العلاقات الدبلوماسية بين المملكتين، واحتفل لهذه المناسبة بإرسال المحمل حتى جدة كدلالة على توطيد الصداقة الجديدة. ومنذ ذلك الوقت والهبات المصرية ترسل إلى الحجاز بطريقة أقل مظاهر

وبهرجة. ويجب أن نلاحظ أن الكسوة الشريفة كانت تحاك في مكة المكرمة بواسطة الصناع المحليين تحت اشراف إخصائيين من الهند، خلال فترة انقطاع العلاقات بين البلدين.

لقد ذكرنا ما يكفي لنبين كيف استطاع ابن سعود في ظل هذه الاتصالات بين الحجاز والدول، الغربية وبما جبل عليه من أناة وجلد فطريين أن يلطف هذه الرياح الهوج التي انطوت عليها تعاليم الوهابيين ويوفق بينها وبين هذا الحمل الوديع الممثل في الحجاز الذي كان يعتمد إلى حد كبير على نشاطه التجاري وغيره من أنواع النشاط الأخرى، في الحصول على الضرائب اللازمة الملحة لخزينته. ولهذا لم يتوان في إرسال الوهابيين بمجرد الانتهاء من واجباتهم إلى بلادهم ليفكروا فيما انطوى عليه العالم أجمع من آثام، ولينتظروا دعوتهم التالية ليقوموا بمثل هذا العمل كما يأمرهم الله أن يعملوا. وربما خامرت الريبة نفوس بعض قادتهم فيما إذا ما كان هذا الزعيم الذي خدموه مخلصين قد أخذت تتراخى حميته في خدمة الله والجهاد في سبيله! بينما كانوا يتحرقون شوقاً ليلقنوا العراق وسوريا نفس الدرس الذي علموه لأهل الحجاز. ولا ريب في أنهم أنفسهم قد تراخوا قليلاً أما قصاع اللحم في المناطق المقدسة. ولكن هذا لم يكن أكثر من انحراف موقت عن سبيل الفضيلة. أما الآن وقد اشتد الإغراء بالارتداد حتى لا تمكن مقاومته، فقد كان في استطاعتهم أن يوجهوا حنقهم وحفيظتهم إلى أتباعهم الذين ما زالوا يجففون الكلأ في أشعة الشمس. وكان يبدو لهم كأن شيئاً خاطئاً قد جرى في دنياهم! وهكذا لم يضيع أتقياء الرياض ورجالها المتعصبون، فضلاً عن البسطاء من مستعمرات الإخوان، وقتاً طويلاً ليناقشوا ويلعنوا هذه النظرة الجديدة إلى الأمور والأشياء، وهم الذي علمهم وجهزهم ابن سعود لنصرة الله والجهاد في سبيله.

وكان لزاماً على ابن سعود في هذه الأثناء أن يكرس جزءاً كبيراً من وقته لشؤون الحجاز، ولو أنه لم يكن بأية حال غافلاً عما يساور القلوب في نجد أثناء غيابه عنها. وكان أبوه، الإمام عبد الرحمن، لم يزل حيًّا في ذلك الوقت (**انتقل إلى رحمة الله في ١٩٢٨ وهو في السابعة والثمانين من عمره**) ولا شك في أنه قد جعل ابنه على صلة مستمرة بتطور الأمور ومجرياتها في وطنه، وفي صيف عام ١٩٢٧ أبانت المفاوضات مع السير جلبرت كلايتون عن إمارات توحي بوجوب بقاء الملك في الحجاز وقتاً غير محدود، ولكن فشل هذه المحادثات في مناسبات حتمت سفر السيركلايتون إلى لندن ليشاور حكومته، مكنت لابن سعود من القيام بزيارة قصيرة إلى قلب بلاد العرب، وكان موقناً بأنه سيطالب بتفسير بعض الأمور الغامضة من سياسته الراهنة حيال المشركين ومخترعاتهم. لهذا فإنه لم يتردد أن يقبض على الثور من قرنيه إذ دعا كل الزعماء روحانيين ودنيويين في مملكته، إلى مؤتمر عقد في العاصمة. ولقد وجد نفسه لأول مرة في حياته وفي فجر نصر عظيم في مواجهة تذمر وارتياب من ناحية أتباعه وأنصاره الذي وقفوا إلى جانبه في عزم وإقدام في ساعة الحرج والامتحان. ولكنه كان على علم بما طبعت عليه نفوسهم الجشعة من حب الكسب الرخيص الذي اغراهم بخوض المعارك ضد أعداء الله. ولعله كما قال إرميا من قبل: «لأنهم من صغيرهم إلى كبيرهم مطبوعون على الإثارة والجشع، وجميعهم مخادعون» إنه على الأقل قد حضر إليهم مزوداً بأرصدة كبيرة من الإقليم الذي فتحه، لكي يوزعها منحا لائقة بالمخلصين الموالين من أنصاره، إن الأدلة كانت على درجة كافية من القوة، ولكن أقوى البراهين والحجج كان في قبضة يده، ولهذا لم يكن من الصعب أن تنساب هذه المشاكل في مسالك العقم. ولقد كرس المؤتمر جزءاً كبيراً من وقته لمناقشة مدى توافق الترفيه مع قواعد الدين لمثل هذه

الآلة البسيطة التي تيسر سهولة الاتصال والتخاطب. وقد كان الراديو بعد ذلك ببضع سنين هدفاً لمثل هذا النقاش، إلّا أنه كان أقل حدة ثم انتهى الأمر إلى إباحة استعماله لأنه في صالح البلاد إذ يمكن بواسطته أن يسمع الناس تلاوة القرآن الكريم من كبار قراء مصر والأزهر الشريف وغيرها من البلاد الإسلامية. وبما ان النقد المتطرف الذي وجه إلى النظام الجديد انتهى بهذه الطريقة، فإن المؤتمر انتقل إلى مسائل سياسية أكثر أهمية. ولقد تم الاتفاق على ألا خلاف بين موقف الملك وأنصاره فيما يتصل بمزاعم العراق الطائشة: ولكن الملك (حتى هذا الوقت لم يكن ملكاً لنجد، ولكن سلطاناً) استطاع هنا أن يصر على أن يترك حل هذه المسألة المليئة بالمزالق والحبائل، إلى تصرفه وإرادته، لاتصالها بموقف دولة أجنبية معينة، بشرط أن يعهد للإخوان في الوقت المناسب بشرف إرجاع هذه الأمة الضالة إلى شرع الله. ويجب في خلال ذلك أن يشتد ساعد السلطان في مساوماته مع المشركين الذين بدا اهتمامهم بالظفر بميزات سلبية. أن الوردة تحت أي اسم آخر لا تقل رائحتها عبقاً، ورغم هذا فإن لقب «السلطان» كان يعتبر في بعض الأنحاء أقل وضعاً من لقب «الملك». وعلى اية حال فإن الإنكليز قد نصبوا فيصل الأول ملكاً على العراق كأبيه الشريف حسين من قبله، وكانت الوسيلة الوحيدة لوضع الأمور في نصابها، هي بطبيعة الحال أن ينصب آل سعود ملكاً. وفعلاً تم ذلك. وبعد ان سوى الملك الجديد لنجد وملحقاتها حساباته مع رعاياه، استطاع أن يعود إلى الحجاز ليستأنف المفاوضات التي قطعت مع السير جلبرت كلايتون.

وقد تركزت محادثاتهما إلى حد كبير حول موقف ابن سعود مستقبلاً من الدولتين اللتين تحت الحماية البريطانية وهما العراق وشرق الأردن وحول تخطيط الحدود أما بالاتفاق أو حسب الأمر الواقع بين المملكة

العربية السعودية وهاتين الدولتين: وهو أمر لم يبت في تحديده إلّا بعد بضع سنين. وقد قرر آل سعود بصفة عامة أن لا يعارض في مركز بريطانيا هناك وتعهد باحترام الحدود المذكورة، كما اتفق على أن تحل جميع المشاكل التي تتصل بخرق هذه الحدود بالطرق السلمية بين الحكومتين المختصتين.

وهكذا تيسر حقيقة الوصول إلى اتفاق يرضي الجانبين، ولكنه كان اتفاقاً خطيًّا لا أكثر ولا أقل. ولكن ما شأن المهربين والرعاة واللاجئين والفارين من وجه العدالة، ثم الغزوات في بعض الأحيان، وكل هؤلاء الذين قد يعبرون الحدود الطويلة إلى هذه الناحية أو تلك؟ ولهذا كان لا مفر من أن تكون حوادث الحدود كثيرة عند هذه التخوم غير الواضحة. ورغم هذا فقد أمكن تسوية هذا المشكل دون كبير احتكاك بصفة عامة، بواسطة لجنة الحدود التي تكونت من الدول صاحبة المصلحة. ولم تمض سنة أو أكثر قليلاً حتى وقع حادث هدد هذا السلام المزعزع بصفة جدية، فقد كان من النقط المتفق عليها أن لا يقيم أي فريق بناءً أو حصوناً مستديمة على مسافة معينة من الحدود. ولكن بينما كانت قبيلة مطير ترعى كالعادة في منطقة الحدود، اتضح أن قوة الحدود العراقية قائمة ببناء حصن عند آبار بُسية داخل المنطقة المحرمة. وكان هذا أكثر مما يحتمل فيصل الدويش الذي كان بلا ريب شديد السخط على الموانع التي فرضتها الاتفاقية لتقييد رَوحه العسكرية في مواجهة المشركين العراقيين. وعليه، وبدون أن يحاول تبليغ هذا الاعتداء إلى سيده البعيد عنه، فإنه قام بهجوم مباشر على هذا الحصن العدائي، ولكن القوات الجوية البريطانية ردته على أعقابه ودفعته إلى مراعي الصحراء، وأخذت تضرب معسكر مطير في المنطقة السعودية، مما حفز الدويش على جمع أنصاره وعشيرته ليتأثر لهذه الخسائر التي تكبدها، لهذا اضطر آل سعود لاتخاذ عمل

حاسم شديد ليوقف القبيلة عن اعتدائها، بينما احتج لدى السلطات البريطانية على الأعمال العدائية التي اتخذت ضد بلاده. لم يحصل على ترضية من جانب الحكومة البريطانية لأن بدء الهجوم جاء من قبيلة مطير، وأصرت إن خطأ أو صواباً، على ان بناء حصن بُسّية لم يكن خرقاً لمعاهدة الحدود. وكان مثل هذا الحادث سرعان ما يكتنفه النسيان في الظروف العادية، ولكن الواقع أن الأحوال لم تكن طبيعية في ذلك الوقت. والحق أن فيصل الدويش وغيره من زعماء الإخوان كانوا يعملون منذ عقد مؤتمر الرياض في سنة ١٩٢٧ بروح الامتصاص والمرارة نظراً للسياسة الحرة التي كان يتبعها الملك، ثم لانقياده بصفة عامة للمصالح البريطانية. ولهذا اعتبروا أنفسهم الأداة المختارة من لدن الواحد القهار لمقاومة الميل الآخذ في الزيادة لتغليب الأغراض الدنيوية في البلاد. وفوق هذا كله فإنهم كانوا متذمرين من هذه القيود التي شلت ولعهم الطبيعي بالقتال والغزو كوسيلة لتحسين مركزهم الاقتصادي، بينما كانت الأغراض التي يرمون إليها باعتدائهم سهلة دانية بين الأمم المشركة وراء حدود المملكة الوهابية.

وكان من أثر حادث بسية أن أذكى خابي التذمر فاشتعل عصياناً بينا نشطاً. ولقد شهدت السنتان التاليتان ابن سعود وقد شغل بقتال مضن لتثبيت سلطانه بأي ثمن على العصاة الذين كان يقودهم فيصل الدويش نفسه وسلطان بن بجاد فاتح الطائف ومكة المكرمة، ورئيس مستعمرة الإخوان الشهيرة في الغطغط. وبعد انقضاء شهور في مناورات حرب الصحراء المعتادة تقابل الطرفان أخيراً في معركة عند سبلة بين الأرطاوية وزلفى في ربيع سنة ١٩٢٩، ولم تجد كثيراً شجاعة الإخوان الملتهبة في مواجهة الحركات الرزينة والقوة العسكرية المتفوقة التي كانت تحت إمرة آل سعود، وأصيب فيصل نفسه بجروح خطيرة ثم أُسر. ولقد أحضر أمام

الملك على محفة بدت كأنها فراش موته، ولكنه نال عفواً كريماً وسمح له بأن يعود حراً على خيام قبيلته، حيث قامت بتمريضه النساء من عشيرته حتى تم له الشفاء: ولكن لا لشيء إلّا ليعود إلى الميدان محارباً سيده، رغم أنه كان جليًّا أن لا أمل للثائرين في الظفر، وقتل ابنه البكر عبد العزيز في معركة في الصحراء أما الرجل الشيخ نفسه وقد انتهى دوره فقد ثأر من الملك بأن التجأ إلى العراق لدى الملك فيصل. وفي أثناء ذلك كان الملك قد أرسل أخاه الأصغر الأمير عبدالله على رأس قوة كبيرة ليواجه سلطان بن بجاد ورجال من الإخوان ذائعة الصيت في الغطغط، وانتهى الأمر بأسر سلطان حيا وأرسل ليقضي بقية حياته في سجن المصمك بالرياض، بينما اجتثت مستعمرة الإخوان من فوق الأرض لتصبح ركاماً مكدساً حتى اليوم. أما غير هؤلاء من الثوار بما فيهم فرحان بن مشهور فقد فروا إلى العراق طلباً للنجاة، بينما استسلم غيرهم للملك.

وكان على الملك بعد ذلك أن يعالج الموقف الذي انحسر عنه فرار فيصل الدويش إلى العراق حيث كان يمثل أصلاً سياسيًّا هاماً ولقد احتج ابن سعود لدى السلطات البريطانية على منحه ملجأ في العراق، لأن الأمر الذي اضطر إلى أن يعاقبه عليه، إنما كان بسبب أعمال عسكرة ضد الأراضي العراقية لم يكلف بها. ومن الناحية الأخرى فإن قواعد الحرب في بلاد العرب وتقاليدها لا تبيح لفيصل تسليم لاجئ بدون قيد ولا شرط كما يطلب ابن سعود. ولقد أمكن الوصول إلى حل وسط في هذه الظروف، اتفق بموجبه فيصل والسلطات البريطانية على تسليم فيصل الدويش بدون شرط، بينما صرح ابن سعود من ناحيته بأنه لن يقتله. وهكذا تم تسليم الدويش وفق هذا في معسكر دبدبة في الصحراء الذي حملته إليه طائرة بريطانية فأرسل فوراً إلى الرياض ليقيم في سجن المصمك مع ابن بجاد الذي توفي في سجنه، أما فيصل فقد أفرج عنه

استجابة لتوسل وضراعة نساء عشيرته ومات في خيامه وبين أهله. وهكذا اختفى اثنان من أبطال الوهابية في وقت نشر فيه لواؤها وعلا نجم صعودها، وفي لحظة بدا فيها جليًّا أن الحركة التي كرسا لها كل نشاطهما بدأت تفقد الحرارة التي مكنتها في بضع عشر سنين من أن تنشئ إمبراطورية لرجل لم تكن غيرته وحماسه الديني محل شك أو تساؤل، إلّا أن هذه الغيرة كان يلطف منها بعد نظره السياسي المطبوع وبصيرته.

وإذا عدنا أدراجنا إلى الأيام البعيدة من سنة ١٩١٢، عندما أخذ الشاب ابن سعود يحبك أعواد الحطب الأولى لتكون نواة هذه البلدة الكبيرة «الأرطاوية» الأنموذج الأول لنحو من عشر مستعمرات للإخوان، والتي كان من شأنها أن امتد الاقتصاد التقليدي لبلاد العرب إلى أصوله ومصادره، وأن مهد السبيل، ولو عرضا، لقام دولة حديثة ليس فيها قط مكان للتعصب الديني ولا للمغامرات العسكرية التي ألفتها الصحراء. ورغم هذا فإن حركة الإخوان وليدة القرن العشرين، وفي قالبها الأخير، هي من ابتداع ابن سعود بل لعلها أكبر من أي شيء آخر ابتدعه أو حققه! هذه الحركة لا يمكن اعتبارها فشلاً إذ اضطرت بحكم الظروف لأن تنسق وتساير في النهاية حكماً يعنى كثيراً بمسائل الدنيا. ولقد تعلم ابن سعود من التاريخ، أن عرب الصحراء وإن أمكن جذبهم إلى النشاط العسكري بين فترة وأخرى بمغناطيس الغيرة الدينية، أو جمعهم وتوحيدهم للفتح تحت شخصية كبيرة، فإن اختفاء هذه الشخصية أو انطفاء الوازع الديني الذي يلهيه معلم متحمس غيور، يؤدي بهم إلى عكس المطلوب وإلى عودة الميول التي تتميز بها حياة الصحراء. ولهذا فقد شرع ابن سعود، اتقاءً لهذا الخطر، في إحياءالشعور الديني لكي يقضي وئيداً على النظام القبلي في الصحراء وليحل محله الشعور بالترابط والتضامن الوطني للعمل في

سبيل الله. ولهذا أيضاً فقد كانت أبرز سمات مستعمرات الإخوان التي أسسها هو توطن عناصر البدو وإقامتهم في مواضع معينة من الأرض، لا في جماعات قبلية، ولكن في جماعات مختلطة من قبائل مختلفة يربط بينهم شعور بالأخوة في الدين. وقد غدت هذه المستعمرات المختلطة، بما توفر لها من مصلحة خاصة فوق أرض زراعية ومن أرزاق ثابتة كفرق محلية في جيش أهلي قائم، في مركز قوي مكن لها من منع القبائل المختلفة التي تنتمي إليها عن أن تغزو بعضها بعضاً. وفضلاً عن هذا فقد كان من المنتظر أن يؤتي تعصبهم الديني ثماره من فرض شيء مما يتفق مع مثلهم الدينية العليا السمحاء على العناصر البدوية في قبائلهم التي لم تهمل الحكومة شأنها في التعليم الديني. وكان لزاماً أن تمنع الحروب القبلية والغزوات منعاً باتاً بعد ذلك. ويمكن القول في هذا الصدد بأن السلام والوئام سادا الجزيرة العربية وبلاد العرب كلها منذ سنة ١٩٣٠ وأصبحت الغزوات منذ هذا التاريخ في ذمة الماضي، أما في مناطق الحدود التي تتصل عندها ببلاد أجنبية أو بقبائل تابعة لدولة أخرى، فإن الاضطراب لم ينقطع، بل وما زال مستمراً حتى يومنا هذا ولو في نطاق أضيق، ولكن هذه مسألة أخرى لا تعنينا مباشرة في مجال الحديث عن جلائل الأعمال التي اضطلع بها ابن سعود.

إن أكبر خطأ وقع فيه معظم من قام بدراسة الشؤون العربية، بما فيهم الدكتور ج. د. هوغراث، منذ باكورة أيام الحرب العالمية الأولى وما تلاها، هو افتراضهم أنه لا يمكن قياس مدى نمو البلاد وتقدمها الحاضر إلّا على ضوء معرفة تاريخها الماضي. فقد قامت إمبراطورات أخرى في الصحراء وانتهت آخر الأمر إلى هباء وانحلال، ولهذا فإن التاريخ سيعيد نفسه. وإذا كان ابن سعود قد فرض رقابة فعالة على رعاياه المشاغبين المضطربين، فإن هذا أمر عارض موقت، كما فعل بعض

أسلافه من قبل، ولكن الصحراء تغلبت دائماً عليهم في النهاية وعادت إلى أسلوب حياتها الذي لا تنساه أبداً، وهكذا ستكون الحال بعد موت ابن سعود، كما زعموا. لقد كان الشبه أكبر من أن يمكن تجاهله! أما فيما يتصل ببريطانيا فقد كانت هناك حالة لا تجد عنها جواباً، تمثلت في قبول حكم أسرة الأشراف ذي الأسلوب الحديث نسبيًّا، بصفتهم الأرجح كفة كسادة على أقدار بلاد العرب تحت إرشاد بريطانيا، وبما لهم من مركز موطد في الأرض الإسلامية المقدسة، وسيادة غير مستقرة فيما وراء ذلك من بلاد العرب المضطربة القلقة.

إن الجواب كان على درجة كافية من الوضوح. وبصرف النظر عن أن النقاد أخفقوا في إدراك الصفة الحقيقية لأعمال ابن سعود وجهوده، وأخطأوا في تقدير قوته، فإن العاهل الوهابي كانت ملؤه الحياة واليقظة، فلم يكن هناك ما يبرز افتراض فشله في تحقيق المقاييس الطبيعية في الحياة الآدمية، وفضلاً عن هذا فإنه لو استمرّ لعشرين سنة أو ما يقاربها، فلم يكن من الشطط الزعم بأنه سوف لا يوسع رقعة نفوذه الفعال فحسب، بل وأنه سيعيد تنظيم البلاد كلها، وخاصة في ناحية فرض الإشراف وتوطيد السلام بين القبائل، بحيث لا يحتاج خلفه الذي قد لا تكون له نفس الكفاية والمقدرة، إلّا إلى متاعب وجهود أقل نسبيًّا للاحتفاظ بسلطانه، وبحيث لا يخشى كثيراً من الانتكاس إلى حياة البداوة وما تتصف به من اضطراب وشغب.

لقد مرت ثلاثون سنة منذ طرحت هذه المسائل للنقاش في هوايتهول وفي غيرها، وما زال ابن سعود متربعاً دست الحكم، كما أن بلاده قد أعيد تنظيمها تنظيماً جديراً بالاعتبار. كذلك لم يعد لمشكلة البدو أثر يذكر في المملكة العربية السعودية، وقد حُلت الوحدة الانكشارية المحفورة بين مستعمرات الإخوان لأسباب عملية متنوعة، بينما استبدل أبناؤهم

المحاريث بالسيوف. وقد أبعدت بعض المستعمرات إلى قلب الواحات حيث كانت تقوم جباية ضرائبها من المتطوعين بين وقت وآخر. ولم يعد اسم الغطغط الرهيب يدوي في البلاد. ولقد مات معظم الأبطال القدامى لهذه الحركة مثل خالد بن لؤي وفيصل بن حشر، فضلاً عن فيصل الدويش وسلطان بن بجاد. وبين هؤلاء الذين ذهبوا يجب أن يذكر أب الملك الإمام عبد الرحمن الذي لعب دوراً رئيساً غير صاخب في تكوين حياة ابنه وتوجيهه، وكذلك عبدالله بن جلوي الذي كان مرهوب الجانب وأحد الذين ساهموا في الغزوة الجريئة منذ نصف قرن مضى. ولم يبق على قيد الحياة من هذه الفئة القليلة إلّا أربعة رجال ليقاسموا زعيمهم الاحتفاء به بهذه المناسبة السعيدة. ويجب أن لا نغفل من قائمة الشرف هذه سيدة لقيت حتفها قبل أسبوع واحد من تاريخ هذه الذكرى الذهبية، كانت تسمع أنباء هذه الانتصارات في الكويت: **هي السيدة نورة شقيقة الملك وخدنه الدائم: كانت ملكة نجد غير المتوجة في كل شيء لمدة نصف قرن.**

لقد اختفت هذه العنجهية القديمة، ومن المرجح إلى الأبد، من مسرح الصحراء، كما أن جموع الأجانب التي تدفقت إلى أرض الوعد الحق من أنحاء كثيرة، من أوروبا وأميركا، ومن مصر والشرق قد اندمجت في الكتلة العربية تلطف خشونتها وتروض صرامتها وتحولها إلى أذواقها الغربية وضعفها الديني. إن هذا الأثر الذي لا مفر منه في مثل هذه الظروف. لم يكن خيراً في عمومه، إذ تحول في سهولة ويسر كثير منا كان يعجب ويطرب من التعصب القديم إلى نقائص المدنية الحديثة، ولقد قام نظام الذهب ورسخت قدماه في الدولة الموحدة الجديدة، مشتقاً من النظريات الاقتصادية الغربية.

وعلى أية حال فقد ضاقت الفروق بين بلاد العرب وبقية العالم عما كانت من قبل، واصبح مستقبلها مضموناً على أسس مطابقة لغيرها وشائعة

في العالم طراً. وسوف يرث الرجال الذين يقومون على توجيه مستقبلها واجباً سهلاً ميسراً باقتفاء آثار جبابرة جيل آخذ في الانقراض. ولقد انتشرت اليوم وسائل النقل والمواصلات على نطاق لم يحلم به أحد، فأنشئت طرق السيارات، وكاد يتم بناء سكة حديدية، وتوجد خدمة جوية تبعث الإعجاب فضلاً عن محطات لاسلكية. والراديو الذي يلتقط الأخبار من أقصى أجزاء المعمورة. ولقد كشف عن كل الموارد الاقتصادية في البلاد واستغلت إلى مستوى مرتفع من الكمال،وتم وضع برنامج للتوسع الزراعي على نطاق واسع.وقد انتصبت المدارس والمستشفيات في مواضع لم تشهدها من قبل كما امتدت عمليات البناء شاملة إلى القرى والمدن، وبذلت محاولة لتنظيم الجيش على نسق أوروبي، ولو أن الجهود في هذه الناحية كانت مرتجلة حتى ليصعب القول بأنها حققت نتائج ذات قيمة حتى اليوم. إنه ليساورنا الشك في أن الميل لتقليد الأساليب الأوروبية جزافاً قد تجاوز النطاق اللازم في هذه المسألة وغيرها من المسائل، وكانت النتيجة أنه لم يبق في سجل قوات الدفاع الوطنية إلّا قليل اعتبار لزهرة الفروسية العربية التي كانت مورد القوة البشرية التي وقفت وراء كل ما حققه ابن سعود من جليل الأعمال.

ويمكن أن نزعم في غير إسراف ونحن بصدد إجمال الأعمال التي انجزت في حكم ابن سعود، أنه أفحم ناقديه الأولين إذا أقام نهضة بلاده على أسس متسقة مع ما كانوا يعتبرونه من لوازم «المدنية». وإذا كان من المستطاع توجيه النقد إلى أعماله،رغم الظروف التي صاحبت بلوغه مكانة الزعامة، فإن حكم التاريخ عليه قد يكون: أنه بينما نجح في أداء هذا الواجب الذي كان يبدو مستحيلاً والذي تمثل في السير بشعبه من العالم القديم إلى حدود العالم الحديث، إلّا أنه لم يبدُ قط كأنه يدرك حقيقة ضرورة تزويده بالأداة الإدارية اللازمة لقيادته بين مزالق المستقبل.

ونستطيع في النهاية ومع بعض تحفظات قليلة الاهمية القول بأن هيكل الحكم في بلاد العرب قد بقي حكماً فرديًّا، كما كان، ومتوقفاً على قوة ابتكار الحاكم عند خاتمة المطاف، بحيث لا يبقى على خلفه إلّا أن يزينوه بكل جميل في الديموقراطية، وهذا واجب متناول الواقع المادي، وسوف يزيد من إمكانياتهم إلى أقصى الحدود، كما أنه كان أسهل وأيسر لو أن هذه التجربة أجريت تحت إشراف يد أقوى وأشد حزماً!



التقط شكسبير هذه الصورة للملك عبد العزيز وأفراد عائلة آل سعود في مسيرة في ثاج عام ١٣٢٩هـ.



الفصل التاسع

يوم في بلاط الملك عبد العزيز

إنّ يوماً في بلاط الملك عبد العزيز آل سعود يشبه ألف يوم! هذه حقيقة في أرض المملكة العربية السعودية، فيوم يمر ويوم يأتي، ولكن الأسلوب واحد والنهج لا يتغير: وهذا مافرضه على نفسه بنفسه محتذياً تقاليد الديموقراطية العربية الأصيلة القديمة في ظروف تمت بشبه اجماع إلى أوضاع الحكمين الفردي والإقطاعي معاً، اللذين مارسهما سلفه.

إنه لم يحد قط عن اقتناعه بأن واجب الملك هو أن يكون دائماً قريباً من الناس مفتوح الباب لرعيته، وإلا فقد يحيق ظلم بفرد لعدم قدرته على الوصول إلى صاحب السلطة العليا، أو قد ينجو من العدالة لظلمه آخر منع عن المثول أمام هذه السلطة. إنه طوال حكمه لم يغفل أو يهمل العمل بمنتهى الحذر والحرص في هذه الناحية، وإلا أساء خدام الملك والمقربون إليه استعمال امتيازاتهم وحاولوا أن يصبحوا هم سادة الشعب، **أو كما قال الملك نفسه في مناسبة عارضة أثناء الفترة التي كتب فيها هذا الفصل: «إن الحاكم المطلق الذي يحكم بإرادة الشعب ليس له ما يخافه أما الذي يحكم بنفسه رغم إرادة الشعب، فإن الرعب يكتنفه أبداً»**.

وعموماً فلا ريب في أن تغيراً أساسيًّا قد أدخل على أساليب القصور وطقوسها منذ فترة طويلة. ومن الخرق ان نخال النظام البسيط الذي ساد

منذ ثلاثين عاماً، عندما أتيحت لي الفرصة الطيبة لأول مرة لمقابلة ابن سعود، كان كفواً لمواجهة مستلزمات اليوم وهي أكثر تعقيداً. ومع ذلك فإن المبادئ الأصيلة لسهولة اتصال الملك بشعبه وعنايته الشخصية بحاجات الناس وشكواهم لم تتغير مطلقاً، كما أن النظام الواقعي للقصور ما زال حتى اليوم محتفظاً بشيء من الأسلوب القديم الممل الذي يعتبر صفة بارزة دهشت لها، رغم أن هذا النظام كان عرضة للتغيير تدريجاً وبين فترة وأخرى وفقاً لتغير الظروف والأحوال في العالم حوله. إن ابن سعود رجل نظام وتقاليد وبصرف النظر عن بعض فترات مرض عارضة كانت نادرة لحسن الحظ أو بعد جهود مضنية، فإنه كان دائماً يراقب بنفسه في دقة بالغة وحرص كبير تنفيذ القوانين التي كان على الحاشية والموظفين والشرطة والأتباع أن يطبقوها في خدمة ملكهم. وكثيراً ما كان يتملكني العجب، كيف كان، ولا واجب يملى عليه إلّا إرادته الخاصة، يستطيع أن يتحمل، يوماً بعد يوم وليلة أثر ليلة، وجوده بين جماعة من الناس مستديمة لا تتغير، دون أن يدخل عليها وجه جديد، إلّا في مناسبات قليلة، ليشيع النشاط في مثل هذه المجالس.ولكن هذا بالذات هو الذي يفضله! ولم يوجد صديق أكثر ولاء له من هؤلاء الذين جميعهم حوله واحتفظ بهم طوال السنين، بعضهم من أعدائه القدامى الذي شملهم عطفه، وبعضهم من اللاجئين العرب الذين تمردوا على الاستعمار الذي أخذ يزحف من ناحية الأحلاف السابقة، وغير هؤلاء جميعاً الرفاق المخلصون الذين شاطروه كفاحه ضد الأقدار في عجاف السنين وعوادي الحوادث.

إنها كانت مجالس غريبة تسترعي الانتباه، ولعلها لم تكن في أية فترة طوال حكم الملك أبرز مما كانت في صيف سنة ١٩٣٠ في قصر الطائف، عندما أصبحت، بعد إسلامي، عضواً منتظماً فيها لأظل كذلك

حتى الآن. وكان الملك نفسه آنئذ في أوج حياته وفي تمام صحته وقوته، وما زال محباً لبيته شغوفاً بأهله، ولعله كان هكذا في هذه الفترة كما لم يكن في أي وقت آخر عندما كان منصرفاً إلى معالجة أمور خطيرة تكتنفه من جهات عدة. وما زال كما هو أبداً عميق التقوى لا يحيد عن أوامر الشريعة قيد أنملة، ممتلئاً بالمرح والدعابة، سريع الغضب سريع الصفح والرضى. وكانت حرب اليمن وشيكة قد امتد شبحها إلى الأمام، إلّا انه كان من الممكن معرفة نتائجها مقدماً، ولو أنه كان من الصعب التنبؤ بأنها لن تنحسر عن اتساع رقعة المملكة الوهابية، بينما كان من المحتمل أن تحيل آخر عدو لابن سعود إلى أحد اصدقاء العمر كله. وفي خلال ذلك لم يكن هناك إلّا ظباء وادي رَقَبَة لتشغل نشاط هذا الجسم القوى متين البناء. وهكذا كنا نذهب أحياناً لنقضي ليلتين أو ثلاثاً حول آبار صموده نجوب الصحراء من الفجر حتى الغسق بحثاً عن صيد أباده إسراف الأمراء في القنص. وقد كان الركوب في عربة الملك في هذه المناسبات تجربة لا يمكن أن تنسى: كان على عجلة القيادة سائق هندي شيطاني الجرأة، يجلس جلالته إلى يمينه، بينما يجلس أحد زعماء البدو إلى جانبي في المقعدين المتحركين خلفهما حاملاً البنادق الاحتياطية (ذات الخمس طلقات عيار ١) لكي يحشوها ويسلمها للملك عندما يفرغ مخزن البندقية التي في يده. وكان يجلس في المقعد الأخير من سيارة المرسيدس - بنز ذات السبعة مقاعد الطبيب الخاص بمعداته ولوازم الإسعاف ومعه بعض الموظفين. وكان من الفخر أن تكون أول من يرى ظبيًّا على مسافة بعيدة، وحتى إذا ما لاح أحدها، اندفعنا في اقصى سرعة بين الغياض والأدغال دون ما اعتبار لطبيعة الأرض أو المكان، وكان الويل للسائق إذا ما تمهل لكي يخبر كومة من الرمل أو صخرة في الطريق! كان عمله أن يبقي عينيه على الصيد المطارد، وكانت تذكره بواجبه هذا ضربة على رأسه من اليد

الملكية. أذكر ذات مرة بينما كانت السيارة تنهب بنا الأرض تشق طريقها بين أدغال الطلح الشوكي إذ أطاح سقف السيارة بفرع شجرة منها فاندفع إلى اعلى ثم سقط على رأسي كأنه مطرقة حادة كبيرة. ولا بد ان أصابني من جراء الصدمة بعض الدوار، لكنني لم أشعر بشيء مطلقاً، رغم أن رأسي ووجهي قد اصبحا كوسادة الإبر. وبعدئذ التفت جلالة الملك إليّ على أثر صرخة الذعر التي انبعثت من رئيس المجلس، فأمر جلالته بوقف السيارة فوراً، فقلت وقد عرّاني الخجل: «لا شيء إنني لا اشعر بألم حقيقة» فقال الملك: «ولكن الدم يسيل منك، وهو دم غير نظيف». وطبيعي إن لم يكن هناك ما ينقض هذا الواقع! وتوقف موقتاً ركب الصيد وأخذوا ينزعون الشوك من وجهي وأحضروا ماء لكي أغتسل به واستعيد نظافتي، وفي مرة أخرى نفر سرب من الغزلان يبلغ عدده ثلاثة عشر أو أربعة عشر كانت راقدة بين الأدغال في مواجهة غروب الشمس، فقفزت وانتشرت في مختلف النواحي، واندفعنا نطاردها، وأخذ الملك يصيدها واحدة إثر أخرى تاركاً سيارة ثانية لتجمع ما قتل منها. ولقد قمت برصد الوقت الذي تطلبته هذه العملية بساعتي، فوجدت أنها لم تستغرق أكثر من ربع ساعة حصدنا فيها السرب كله. وقد ثبت أن غزلان وادي رَقبة هذه من نوع جديد سماه المتحف البريطاني «**غزال سعودي**» نتيجة لفحص مجموعة من الرؤوس والجلود أرسلتها إليه. ولا بد أن وجد منها الآلاف في سالف الأيام قبل دخول السيارة وارتيادها لهذه المناطق. ولكن من النادر اليوم أن يراها الإنسان في أجزاء الصحراء الغربية سهلة الاجتياز، لأنها انسحبت إلى الجهات الصخرية المرتفعة أو إلى مناطق كثبان الرمال في الربع الخالي وغيرها من المناطق المماثلة. ومن المصادفات أن النعام الذي انقرض منذ فترة طويلة من جنوب بلاد العرب، اختفى خلال هذه السنين من شمالها أيضاً نتيجة لكثرة المطاردة والصيد بالسيارات. وهذا

ينطبق على الوضيحي أيضاً في الشمال ولو أنه ما زال موجوداً في أعداد كبيرة في الربع الخالي ومرتفعاته. إنه لمؤسف حقاً أن تعاني بلاد العرب هذه الخسارة في ثروتها الحيوانية وأن تنقرض هذه الحيوانات من صحرائها بسبب تقدم المدنية ووسائل المواصلات، ولكن ليس هناك ما يدعو للاعتقاد بأن بلاد العرب تعاني وحدها مثل هذه الخسارة. هذا وقد أخذت بعض البلاد أخيراً في إصدار التشريع اللازم للإبقاء على الحيوانات المحلية، بل ولحمايتها والعمل على تكاثرها. ومما يزيد الأسف أن البلاد السعودية لم تتخذ شيئاً مماثلاً!

وتحسب الأيام في الطائف، وفي غيرها من المملكة العربية السعودية، من غروب الشمس حتى الغروب التالي، وينتج عن هذا تفاوت في التوقيت المحلي بين بقعة في بلاد العرب وبين بقعة أخرى، وأن كل يوم يزيد أو ينقص دقيقة (أو جزءاً من دقيقة) وفق الفصل من السنة، وهذا باستثناء عشرين يوماً في شهري حزيران/ يونيو وتموز/ يوليو، وعشرة أيام في نهاية شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عندما يكون اليوم أربعة وعشرين ساعة بالضبط. وتوجد الأيام الأطول من بداية شهر ديسمبر حتى منتصف شهر حزيران/ يونيو، بينما تكون الأيام الأقصر في النصف الثاني من السنة مع وجود تفاوت بسيط في هذه الفترات وفقاً لخطوط العرض. ولهذه النقطة أهمية خاصة لأن واجب تحديد اللحظة التي يبتدئ فيها اليوم (غروب الشمس) متروك في كل منطقة للسكان أنفسهم الذين قد يكون لمنطقتهم أفق متسع او افق ضيق تبعاً لصفات المنطقة ذاتها. وإلى حدود علمي فإن الساعات لم تستعمل حتى اليوم لكي توجد التوافق وتقضى على التفاوت بين الأيام العربية التي أهم مميزاتها الغروب الثابت ميعاده والقمر المتفاوت ظهوره. وقد بدت في الأيام التي كنت أكتب فيها هذا الكتاب، مشكلة ذات أهمية دينية، إذ

أذن بصلاة المغرب في جماعة من بدو نجد وفي الأفق الفسيح كانت تقيم بالقرب من القصر الملكي في الطائف عندما اختفت الشمس وراء حواشي الجبال المحيطة بالمنطقة وقبل أن تبلغ الأفق الصادق بأكثر من خمس دقائق! ولقد ازدادت المشكلة تعقيداً عندما أذنوا بصلاة العشاء، في براءة تامة إذ ليس لديهم ساعات يهتدون بها، قبل ميعادها الصحيح بأكثر من نصف ساعة، مع العلم بأن هذا الميعاد يحل بعد ساعة ونصف الساعة من غروب الشمس. ولقد سمع جلالة الملك الأذانين في غير ميعاديهما الصحيحين، فقلق جلالته حقيقة لذلك، لا لأنهم أخطأوا الميعاد، ولكن لإدراكه أن هذه الصلاة باطلة. وهكذا عرض جلالته الأمر في الجلسة العامة، ثم أرسل أحد رجال الدين في القصر إلى هذا المعسكر لكي يعلم من فيه الطريقة الصحيحة لتحديد مواقيت الصلاة. ورغم ما يبدو من أن الناس أصبحوا أقل تدقيقاً في مثل هذه الأمور اليوم، فإن دقة ضبط المواعيد التي تؤدي فيها فريضة الصلاة، كانت في تلك الأيام شرطاً لا بد منه لصحتها وفق أسلوب الوهابية وتعاليمها، مما حدا بالملك إلى اعتبار مشكلة ضبط مواعيد الصلاة من أهم واجباته المشتركة مع رجال الدين والفقهاء. ولهذا أخذ على عاتقه في الأمس القريب عبء دراسة وإصدار مجموعة من النظم والأوامر تلزم جميع الحوانيت والمقاهي وغيرهما من محال التسلية والرياضة بغلق أبوابها عند سماع الأذان. بينما عمل أعضاء جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما كانت قديماً، على دفع المترددين والمتقاعسين إلى المساجد وإلى غيرها من أماكن العبادة المعروفة. إن الحاجة إلى إصدار مثل هذه الأوامر واتخاذ مثل هذا التدبير هو في حد ذاته مقياس للتساهل والتراخي اللذين عادا فتسللا إلى الحياة العادية في المجتمع، عندما خفت صرامة الحكم الوهابي نتيجة لتحسن الأوضاع الاقتصادية وظروف العيش في هذه

البلاد. وحتى في الرياض، التي هي أنموذج للحفاظ والنظام، فإن التشدد قد تناقص والضغط قد تراخى نوعاً ما، فترى اليوم الناس مزدحمين في الشوارع والمحال التجارية في أوقات الصلاة على نقيض غير متعمد للتقاليد القديمة من حشدهم في المساجد بواسطة رجال الدين والمتحمسين. والواقع أن العناصر الأجنبية في عاصمة الصحراء المزدحمة بالسكان تعتبر من عوامل هذا التغير، بينما يقول النقاد والمستريبون مؤكدين أن أساليب الحياة القديمة ما زالت متبعة قائمة في مدن القصيم وغيرها من الولايات دون أن تشوبها أو تؤثر فيها العوامل الأجنبية.

وربما كان الملك وحده هو الذي لم يتراخ أو يتساهل في تمسكه الشديد بالمسائل الدينية وأداء الفروض في مواعيدها الصحيحة. وكان جلالته في معظم أيام زيارته للطائف في صيف تلك السنة، يستقل السيارة مع بعض أفراد حاشيته وحرسه في نزهة قبيل الغروب إلى أحد الوديان المجاورة حيث تفرش السجاجيد ويجلس الجميع للسمر والحديث حول أي موضوع كان، بينما كان الخدم يدورون بأقداح القهوة دورة إثر أخرى، ثم يقدمون مجموعة من فواكه الموسم (كالعنب والرمان والتين الشوكي والسفرجل وغيرها) قبل هذه الساعة السحرية بقليل. وكان لا بد من مراقبة الشمس وهي تنحدر صوب الجبال لتتوارى وراءها، بينما يقف المؤذن أو أحد غيره من ذوي الصوت القوي العذب ممسكاً بالساعة في يده، حتى إذا ما انقضت فترة كافية لأن تختفي الشمس وراء الأفق البعيد، أذن بصلاة المغرب. وكان علينا أن نقف للصلاة في صفين أو أكثر على حسب عدد الموجودين، بحيث يتخذ جلالته مكانه وسط الصف الأول وراء الإمام، الذي اعتاد أن يتلفت ذات اليمين وذات اليسار قائلاً: «**عدلوا الصفوف، عدلوا الصفوف**»!

ثم يأخذ في أداء الصلاة وهو يؤم الحاضرين. وإذا ما انتهت صلاة الفرض، أخذ جلالته في أداء صلاته الخاصة وحذا حذوه الباقون، أو أخذوا بالأحرى في أداء ركعات السنة، إذ كان من محاسن عادات النبي ﷺ أن يصلى لله ركعتين أو أكثر بعد اداء الفريضة. وكانت تطول صلاة الملك عادة وكنا في خلال ذلك نتفرق جماعات صغيرة تأخذ في الحديث عن المسائل الجارية حتى ينتهى جلالته من الصلاة، وبعدئذ تحملنا السيارات قافلين إلى القصر حيث كان جلالة الملك يتجه فوراً إلى جناحه الخاص، بينما نقصد نحن إلى الأماكن المخصصة لنا أو نذهب إلى مساكننا الخاصة لنقضي فيها ساعة أو ساعتين للاستجمام قبل بدء عمل آخر من أعمال اليوم.

ويجب أن نعود إلى القصر في الساعة الثالثة بالتوقيت العربي (أو الساعة التاسعة مساء) لنشهد الجلسة المسائية العامة في نفس حجرة الاستقبال في الطابق الأول. وبهذه المناسبة نذكر أن **قصر «شبرا»** الذي نزل فيه الملك في ذلك الوقت، كان قطعة فنية فخمة من بناء الرخام شيد خاصة للشريف علي الذي خلفه مباشرة الشريف حسين بن علي اميراً على مكة المكرمة من قبل تركيا. فأحضروا مهندسين وعمال إيطاليين لبناء هذا القصر أثناء الفترة التي نفي فيها خارج بلاده. وكان هذا القصر مكوناً من ثلاث طبقات على شكل صليب، حيث كانت أذرع الصليب الأربعة ممرات فسيحة تتقاطع مع بعضها في زوايا قائمة كانت كل زاوية منها مكوّنة من حجرة واسعة وبضع حجرات صغيرة أخرى: وكان كل جناح يكون مسكناً كاملاً ليواجه حاجات من يعيشون في زيجات متعددة.

وكان الطابق الأعلى والسطح تشغلهما السيدات اللاتي يقمن على تدبير شؤون القصر، بينما كان ديوان جلالة الملك ومصالح الحكومة

الأخرى تشغل الطابق الأول كله، وكان الطابق الأرضي قائماً على قاعدة مرتفعة وله سلالم من الرخام تصل بينه وبين الطريق، وكان معداً لسكن الخدم والحرس الخاص، أما المطبخ وبعض المصالح الثانوية فكانت في بناء منفصل أقل رونقاً في الحديقة المسورة التابعة للقصر. وكان في مواجهة باب الديوان نافذة في خلوة مفروشة بالسجاد ومزودة بالوسائد تطل على حديقة القصر يتوسطها مسند يجعل منها مقعدين وثيرين، اعتاد الملك أن يجلس على احدهما وبجواره التليفون والناقوس، بينما يبقى النصف الثاني من العرش شاغراً ليجلس فيه أحد الضيوف من ذوي المكانة الممتازة الخاصة أو المنزلة الدينية الرفيعة، الذين يفدون لحضور الجلسة أو للتحدث إلى الملك في شأن من الشؤون. وكان أحد هؤلاء الذين اذكرهم جيداً هو الشيخ الضرير عبدالله الأنقاري(١) الذي كان وقتئذ في نحو الستين من عمره وما زال على قيد الحياة ينعم بصحة جيدة، وكذلك عبدالله بن بليهد الذي أتى للزيارة من حائل والذي كان، على نقيض ما يبدو من خشونة مظهره، من أرق خلق الله قلباً، ولقد لبى نداء ربه منذ فترة طويلة، ثم عبدالله بن حسن أكبر قضاة مكة المكرمة، الذي حضر في زيارة قصيرة واشترك كثيراً خلالها في جلسات الملك، وكان رجلاً نحيف الجسم يبدو عليه المرض وتقدم السن، ولكنه ما زال حيًّا قائماً بوظيفته. كل هؤلاء كانوا من الرجال المبرزين والقادة المشهورين في النهضة الوهابية تحت قيادة الملك، والذين نذكر من بينهم الشيخ سعد بن عتيق الذي توفي في الرياض هذا الخريف وقد بلغ الثمانين من عمره والذي صلى عليه في مسجد ابن عباس بعد فريضة الجمعة في جمع حافل من الكبراء وعلى رأسهم جلالة الملك. وعلى جانبي العرش وعلى طول ثلثي الجدران في الناحية المقابلة صفت مقاعد طويلة زودت المساند

---

(١) عُيِّنَ في سنة ١٩٠٢ في الوظيفة التي ما زال يشغلها حتى الآن وهي قاضي سدير.

واكتست بالديباج والحرير. وكانت الكراسي العادية تملأ الجزء الباقي من امتداد الجدران في الناحيتين، بينما أعد الجدار الخلفي على جانبي الباب لرجال الحرس الخاص يجلسون فيه على الأرض في كامل سلاحهم. ولم يكن أبناء الملك في هذه الفترة ولا أبناء عمومته وغيرهم من ذوي القربى صغار السن قد منحوا حق التقدم على غيرهم في الجلسات كما هي الحال اليوم، ولهذا كانوا يتخذون أماكنهم على الكراسي العادية، بينما كانت المقاعد الأخرى معدة حسب هذه التقاليد للأعضاء الكبار من الأسرة المالكة وكبار الموظفين والزائرين.

وكانت جلسات المساء تبدأ دائماً، وكما تبدأ اليوم، بقراءة من الإمام يتلوها من كتب ذات (صبغة) دينية مثل كتب السنة والتفسير والتاريخ وأمثالها. وكان يقرأ عادة فصلين (أو أجزاء من فصول) في كتب مختلفة بحيث كانت تنتهي القراءة بلفته من الملك كأن يقول جلالته «بارك الله فيك» فكانت تعادل في مغزاها: «يكفي هذا الآن!» وكان الضيوف الذين يدخلون أثناء القراءة لا يحيون جلالة الملك بل يتخذون أماكنهم في هدوء ولكنهم كانوا يهبون للتشرف بالتحية بعد انتهاء الجزء الذي كان يتلى أثناء دخولهم. وكانت القهوة تقدم للحاضرين في الفترات التي تتخلل القراءة ولكن ليس أثناء القراءة، كما كانت تقوم على ضغط الملك على الناقوس الذي بجواره والذي كان في حد ذاته تجديداً حديثاً بالنسبة لتلك الأيام عندما كان جلالته يطلب المرطبات منادياً، فكانت تردد هذا النداء أصوات الحرس قوية خشنة حتى يبلغ مقصف القهوة وكان الإمام يجمع كتبه وينصرف بعد القراءة، بينما كان الملك عادة يتحدث عن بعض الشؤون ذات الأهمية التي تعرض لجلالته حسبما اتفق. وكانت المحادثة في الغالب شبه محاضرة يضطلع فيها جلالته وحده بالحديث، الذي كان يقابل بعبارات القبول والاستحسان من الحاضرين بين فترة وأخرى. بينما كانت الجلسة تنتهي بسرعة أو تطول وفقاً لاهتمام الملك بالموضوعات

التي يدور الحديث حولها، ثم ينصرف الضيوف عادة إلى منازلهم. ولكن الجلسة لم تكن لتنتهي عند هذا، إذ كان كبار الموظفين وغيرهم من الخاصة ذوي الامتياز يتبعون الملك إلى حجرة أصغر، حيث كانت تستمر المحادثات حتى ساعة متأخرة من الليل يقدم للحضور أثناءها عشاء من الفاكهة.

وكان الملك ينصرف بعد ذلك ليأخذ قسطه من النوم والراحة، ولو أنه لم يكن ينام كثيراً، إذ كان يستيقظ غالباً قبل الفجر نشطاً معافى يقطع الوقت في قراءة كتاب اعتاد أن يسميه جلالته، «الكتاب المجاور للسرير» يتضمن عادة مجموعات مختارة من الحكم والأمثال التي قد تحصن بها نفسه وعواطفه ضد أحداث اليوم الطالع والتي كان يجد فيها أحياناً مخارج للمشاكل والمناسبات التي تعرض عليه. وكان يعرف هذا الكتاب باسم «**الورد**» وهو يشبه الكتب المقدسة التي كان يقرؤها حكماء القرون الوسطى في أوروبا. وكان جلالته يشترك مع مديري شؤون القصر في أداء صلاة الفجر، ثم يستريح ساعة أخرى، قد يستقبل بعدها الوزراء في مشاورات خاصة حول المسائل الهامة التي تعرض على جلالته، ثم يستحم ويرتدي ملابسه لمواجهة الأعمال اليومية العادية.

واعتاد جلالته أن يتوجه في الساعة التاسعة قبل الظهر إلى قاعة الاستقبال حيث يقضي بضع ساعات يستقبل خلالها أصحاب الشكاوى ومقدمي الالتماسات أو غيرها من الشؤون حتى المسائل الشخصية الخاصة.

وكانت تنظر أحياناً قضية من القضايا فتمتلئ القاعة بالطرفين المتخاصمين وشهودهم الذين قد يأخذون جميعاً في النقاش والحديث معاً، أحياناً غاضبين صاخبين، وأحياناً مقدمين أدلة قوية مفحمة، بينما يكون الملك قد تبيّن الحقيقة ووضحت له على عجل، فيردهم بقرار يتخذه في الموضوع. أو بنصيحة لمحاولة أخرى يتم فيها اتفاق يرضي

الطرفين، أو بإشارة بتحويل القضية إلى المحكمة الشرعية، إذا كانت هناك نقطة قانونية يدور حولها خلاف وتستدعى الحال البحث عن حل لها في كتب القانون ومصنفاته.

وكان الملك يبدو في أمثال هذه المناسبات، وخاصة التي تتصل بالبدو، في أحسن أحواله وأوقاته، بينما كانت بين عباراته القوية الحازمة في معظم الحالات عن الضوء الخفي والإيمان القوى اللذين طالما اهتدى بهما في حل مثل هذه المشاكل **.ولقد قال الملك مرة موجهاً ملاحظاته إلى أحد كبار شيوخ عتيبة، عمر بن عبد الرحمن بن ربيعان**: «إن طبيعة البدو لم تتغير ابداً، ولكني أخذت على نفسي أن أستعمل معهم وسيلة لم يعرفها حكام بلاد العرب قبلي، لقد جعلت غايتي أن أكون صبوراً معهم ومع غيرهم من الرجال. لتكن صابراً مع ربك، ولتكن صبوراً مع كل عنيد مشاكس، لأن هؤلاء اما أن يتوبوا ويبرأوا مما بهم، وإما أن يظهروا على حقيقتهم أمام الناس، وعندئذ يمكن أن توجه إليهم ضربة قاضية لا قيامة لهم بعدها». ثم استطرد الملك قائلاً: «**هناك شيئان لا أحب أن أبيحهما**: الأول الثورة والثاني الولاء الزائف من أشخاص هم في داخليتهم ضدي ومن عدوي». وفي مناسبة أخرى خاصة بالاضطرابات في قبيلة بني شهر جنوبي الطائف، التي كانت تزعج الأمن وتهدده لبضع سنين ماضية، حيث عقد اجتماع شهده ثمانية من شيوخ هذه القبيلة في حضرة الملك لكي يسمعوا حكمه المطاع في بعض المسائل التي طلبوها، قال الملك لهؤلاء الشيوخ: «إنكم تقولون بأن القبيلة أجمعها تقف وراء هذه المطالب! حسن جدًّا، وعليه فإني اقترح لصالحكم الآتي. وعليكم أن تجمعوا رجال القبيلة كلها ليقبلوا هذه المقترحات، وعندئذ تصبح الأمور على أحسن ما يكون، أما إذا رفضوا ولجأوا إلى المقاومة فإني على أتم استعداد طالما تحققت إنه من الضروري أن أقلم أظافركم، وهذا هو ما

سأعمله حقاً! ومع هذا فإني قدمت هذه المقترحات لخيركم أنتم، وعليكم أنتم كذلك أن تتدبروها وتعرفوا أين مصلحتكم!

إني أحكم القبائل من وادي السرحان حتى حدود اليمن، ومن الخليج العربي حتى البحر الأحمر، ولهذا فليس لقبيلتكم أن تنتظر معاملة غير هذه التي تعامل بها هذه القبائل جميعاً». ولقد تدخل عبدالله ابن عسكر حاكم أبها الذي كان في زيارة للطائف مقترحاً أن يحاول حمل القبيلة على قبول الشروط المقدمة، ولكن الملك رفض شيئاً كهذا قائلاً: «الأفضل أن يقبلوها بمحض اختيارهم ويقدموا لي وثيقة القبول ممهورة بتوقيع جميع مشايخ القبيلة، او يرفضوها، وعليهم أن يتحملوا مسؤليات عنادهم». ومن المصادفة أن أرسل اثنان من زعماء المشاغبين إلى الرياض كإجراء احتياطي وقائي، فنظر جلالته إليهما وقال مبتسماً: «لحسن الحظ أن يوجد الآن ضيوف من جميع أنحاء البلاد: من آل الرشيد مثلاً، والأشراف وبني عيض وغيرهم!».

وربما ذهب الملك بعد المقابلة العامة الصباحية إلى إدارة الشؤون الخارجية التي يرأسها الشيخ يوسف ياسين ليمضي نصف ساعة أو أكثر قبل أن يأوي إلى جناحه الخاص للراحة ظهراً. وكان يتصرف في هذه الإدارة في جميع الأوراق التي تنتظر أوامره أو توقيعة بإملاء بعض الرسائل وبمعالجة الأعمال العامة، بينما كان يكرس وقتاً طويلاً للحديث بصفة عامة في موضوعات مختلفة تتفاوت بين مشروعات لتحسين وسائل المواصلات أو إنشاء قوة جوية أو مشروعات للترفيه وهكذا. وكانت أمثال هذه الاجتماعات مباحة للخاصة من أعضاء مجلس الملك، ولكن الغرفة كانت تخلى من الضيوف إذا كان الحديث يدور حول مسائل هامة يجب التصرف فيها، بحيث كان الملك في مثل هذه الحالة يدلي عادة برغباته قائلاً: «إني أريد كذا - وكذا».

وكانت المملكة في تلك الأيام صغيرة حديثة تمد ذراعيها في قوة وعزم نحو المستقبل، يحدوها تفاؤل مستمد من كبير الاعمال التي تحققت في الماضي، والتي لم تكن العاصفة الاقتصادية قد أبلت جدتها أو أطفأت بريقها. وكان قد تمت الترتيبات اللازمة بواسطة الحكومة البريطانية لشراء أربع طائرات (ء. هـ. ٩) يقودها ويعمل على صيانتها طيارون بريطانيون، وهبطت هذه الطائرات في جدة حوالى منتصف شهر أيلول/ سبتمبر - وفي يوم ١٨ أيلول/ سبتمبر وقف الملك والأمراء وجمع غفير من الشعب بجوار مطار الطائف ليشهدوا وصول الطائرات إلى هذه المدينة، لتكون هي الأولى التي هبطت فيها منذ سنة ١٩٢٤ حيث هبط باربوف الطيار الروسي الأبيض سيء الحظ الذي كان في خدمة الشريف حسين، والذي أرسل ليكشف حركات الغزاة الوهابيين، فقتل بالرصاص بمجرد خروجه من الطائرة بعد هبوطها إذ كانت المدينة قد وقعت في أيدي الغزاة فعلاً. وكان هبوط الطيارين الثلاثة البريطانيين في هذه المناسبة بارعاً، رغم شكواهم من ضيق وعدم جودة تعبيد أرض المطار الذي بني خلفه مطار آخر حديث في مكان أوسع في الضواحي على مسافة سبعة عشر ميلاً شمالي المدينة. وقد استقبلهم جلالة الملك استقبالاً حاشداً في الحفل الذي أقيم لهذه المناسبة، ثم تشرفوا بالمثول بين يديه مرة أخرى في استقبال خاص في القصر قبل عودتهم إلى جدة بعد ذلك بيومين، بينما تشرفوا بصحبة الأمراء في رحلات قصيرة في هذه الطائرات. ولقد كان لزيارتهم تلك أثر قوي في العناية بالطيران الذي أصبح اليوم سمة بارزة من سمات هذه البلاد. ولقد اتخذت وقتئذ مباشرة إجراءات لفتح اكتتاب عام لزيادة القوة الجوية وتدعيمها في المملكة العربية السعودية.

وكان الملك قبل هذا ببضعة أسابيع قد قام بزيارة إلى جدة ليستقبل سفينة بولندية حملت شحنة من البنادق والمدافع مرسلة من وارسو طلبتها الحكومة السعودية بواسطة خالد القرقاني، وهو لاجئ من طرابلس،

وحسن وفقي أحد أشراف سوريا الذي قام بزيارة لبولندة بناء على اتفاق عقد في جدة مع أحد مبعوثي بولندة الرسميين وهو الكونت راكتسنسكي ومفتي الجالية الإسلامية في بولندة في الشتاء السابق. وقرر الملك أن يمضي بضعة أيام في جدة ليشرف على تجربة هذه الأسلحة، ولكنه عاد إلى الطائف بعد ستين ساعة من مبارحتها، إذ هبت على جدة موجة شديدة من الحرارة المشبعة بالرطوبة التي اشتهرت بها في ذلك الوقت من السنة، ولهذا أسرع الملك بالعودة إلى جفاف جو الجبال، وقنع من هذه الرحلة بالتفتيش الرسمي السريع على الأسلحة. ولقد سار الملك وصحبه أثناء عودتهم إلى خزان الماء في ضاحية الشهداء بمكة طلبا لشيء من البرودة والترويح عن أنفسهم من وطأة الحر، وعندما سألته عن حقيقة درجة الحرارة أثناء زيارته للوديان أجاب ولا بد انها كانت تبلغ ٦٠ درجة! والواقع أنه كان يكره مثل هذه المناسبات، ولكنه كثيراً ما اشتكى من أن جو الطائف الذي لا يلائمه أيضاً. ومن الأرجح أن تكون هذه الظاهرة متصلة بارتفاع المكان، وهو ذو أثر عجيب سيء على هؤلاء الذين لم يعتادوا الحياة في المناطق الجبلية. وعندما يسافر جلالته بالطائرة كما يحدث دائماً الآن، فإن لدى الطيار تعليمات بأن لا يرتفع لأكثر مما يتطلبه داعي الأمن، ومن الناحية الأخرى فإن السفر بالطائرة أصبح لدى الأمراء عادة موروثة رغم أن بعضهم، كأغلب الأميرات، يكرهون السفر جواً وثمة مشروع آخر كنت مهتماً به شخصيًّا، بناء على طلب شركة ماركوني التي كانت تمثلها الشركة الشرقية التي أنتمي إليها هو مشروع إنشاء شبكة لاسلكية في البلاد ذات محطتين كبيرتين في مكة المكرمة والرياض وقواعد أصغر في جميع عواصم الأقاليم، ثم بعض المحطات المتحركة ليستعملها الملك وغيره من الأمراء والشخصيات الكبيرة عندما يكونون في المعسكرات. ثم قدم مشروع منافس بواسطة بعض كبار

الموظفين، كان أغلى من مشروعنا بكثير، واستمرت المفاوضات زمناً طويلاً، وأخيراً رسا العطاء علينا، وتم في غضون السنتين التاليتين إنشاء كل المحطات والتركيبات المطلوبة التي ما زالت مستعملة وفي حالة جيدة، رغم أن الشبكة الأصلية قد اتسعت لدرجة كبيرة، وخاصة بمعاونة الأميركيين أثناء الحرب العالمية الثانية.

إن مثل هذه المشروعات كانت بعض المسائل المهمة الكثيرة التي استرعت اهتمام الملك وشغلته أثناء هذه الفترة في الاجتماعات العامة والمجالس الخاصة على حد سواء. وكان النقاش في هذه المشروعات يمتزج عادة باحاديث عن موضوعات أسهل وأدنى خطراً، وفق مزاج الملك. وكان أحبها وأدناها إلينا موضوع المرأة من كل نواحيه وبكل ما يكتنفها من غموض. ولا بد لنا من أن نذكر أن شيوخ اليوم كانوا وقتئذ شباناً يجوبون بطبيعتهم وحكم سليقتهم كل ميادين الغزل والفروسية، ولهذا فإن أحاديثهم وإن مالت لأن تكون مكشوفة، إلّا أن سلوكهم كان بريئاً البراءة كلها فلم يتجاوز بحال الحدود النبيلة الشريفة للشرع الإسلامي الإنساني.

أما العلاقة غير الزوجية فكانت محرمة قطعاً وتعرض مرتكبيها أنفسهم لشديد العقاب، أما الأنواع الأخرى من الشذوذ الجنسي فكان ينظر إليها بالاشمئزار والاحتقار. ولا شك في أن المرأة وضعت في مكانها الصحيح، ولكنها منحت حقوقاً مناسبة لما بها من ضعف وقصور. وقد قال الملك مرة: «لا مانع من أن تقرأ المرأة (والمقصود حقيقة أن تصغي للقراءة) القرآن الكريم وآداب الدين، ولكن مجرد القراءة العادية، أما الكتابة بصفة خاصة، فهي مما لا يصلح للمرأة، ولو أنها غير محظورة ولا ممنوعة» ومرة أخرى فليس هناك ما يمنع، من الناحية الدينية، أن تأكل المرأة مع زوجها أو مع رجال آخرين من محارمها، ولكن الملك قرر بأنه لم يحدث قط أن أكلت امرأة في

حضرته، حتى ولم تتناول رشفة واحدة من القهوة أو الشاي، رغم أنه عادة كان يقابل كل سيدات الأسرة المالكة في المكان المعد للجلسات العامة في الطابق الأول من القصر. إنه كان مما يخجل مثله في الاحتشام والبعد عن النساء أن يجلس ليستقبل السيدات، ولو أنه نهنه من حفاظه هذا فيما يتصل بسيدات السلك السياسي الديبلوماسي والقنصلي والسياسي والزوار الممتازين من الأجانب لمملكته. ولكني اعتقد أن الأميرة أليس، أميرة أثلون في إيرلندة، هي السيدة الوحيدة والأولى التي حازت شرف الاشتراك في مأدبة رسمية في المملكة العربية السعودية التي زارتها مع زوجها في ربيع سنة ١٩٣٨، حيث حظيت بهذا التكريم الذي لم تظفر به قبلها إلّا زوجتي والسيدة رندل عندما عبرتا بلاد العرب من البحر إلى البحر.

إن التعاليم الإسلامية الصحيحة، على أية حال كما تفسرها وتعمل بها الوهابية، توجب على الرجل الذي يتخذ له أكثر من زوجة أن يعدل بين أزواجه عدلاً تاماً ويعاملهن جميعاً بالمساواة المطلقة، وخاصة أن يقسم وقته بينهن بالتساوي. والملك نفسه لا يحيد عن هذا الواجب، ولو أنه كما عمل النبي ﷺ من قبل، قد سمح لنفسه بشيء من التجاوز عن صرامة القواعد في هذه الأمور. إنه لم يتخذ لنفسه أكثر من أربع زوجات وهو الحد الشرعي الذي لم يتجاوزه قط، ولكن لكل من هذه الزوجات منزل خاص بها تتوفر لها فيه جميع وسائل الراحة ورغد العيش من خدم وعبيد وأتباع ولتستقبل فيه زياراته في دورها على التوالي، كما أن لجلالته منزلاً خاصاً به - هو قصر شبرا - تديره له أربع جواري من المحظيات اللاتي يتمتعن بمركز لا يكاد يختلف عن مركز الأزواج المعقود له عليهن. وله بعد هذا أربع أبكار من الجواري يبلغ بهن عدد نسائه اثنتي عشرة امرأة، فضلاً عن حقه في أن يختار كما يشاء من بين الآنسات والوصيفات الكثيرات

اللاتي رهن أمره. وكان يتحدث إلينا في صراحة تامة عن أمثال هذه الأمور كلما كان في حالة طيبة من التبسط والانشراح. وإذا كان الرأي العام الأوروبي قد ينفر ويجزع من مثل هذا الوضع الذي هو لا شك قاصر على الأغنياء، فإن النفور والفزع ليس في جانب واحد، لأن ابن سعود كثير النقد لنقص الخلق الأوروبي وضعفه لما في نظام حياتهم من كثرة العلاقات الجنسية غير الشرعية، والفاحشة العلنية، وتعانق الرجال والنساء علناً في الرقص وغير ذلك من العادات والتقاليد المحرمة في بلاد العرب والتي لا يبيحها الإسلام. ويبدو بعد كل هذا أن الخيار هو بين نظام سمح يطبق حقيقة في الحياة العملية وبين قواعد دينية لا يعمل بها ولا يقام لها وزن في الواقع. إن الطبيعة الإنسانية لا تكاد تختلف في جميع أنحاء الدنيا، فكل مجتمع يعمل ليحقق لنفسه وضعاً وسطاً مناسباً بين ما يشتهيه الإنسان وما يسمح له به، ولو أن مثل هذا الوضع قد يثير نقد جيرانه يبعث حقدهم. ولقد بدا ميل في البلاد العربية المجاورة منذ سنين قليلة لاتباع نظام الزوجة الواحدة نظراً لأسباب اقتصادية، ولكن العرب، وفي المملكة العربية خاصة، لا يخجلون من جهودهم لحل المشكلة الإنسانية، ولا من أن يكونوا قساة على الرذيلة غلاظاً في حربها، إلّا أن التيار الأجنبي المنساب إلى الصحراء سوف يكون له في الوقت المناسب على سكانها نفس الأثر الذي كان له على إخوانهم قرب الحدود الأوروبية. وليس لزاماً أن يكون هذا التطور ذا فائدة للبلاد، إلّا أنه قد يعتبر في بعض الأحيان بمثابة خطوة تقربها من «المدنية».

إن هذه الأمور كانت على أية حال موضوعاً للمضاربة حتى في دوائر القصر خلال الثلاثين سنة الأولى من هذا القرن عندما كانت النظم القديمة مطبقة في الحكم السائد، رغم أن صور الزيت والذهب كانت تبدو جلية واضحة في أفق البلاد. وكان الملك قد قرر خلال هذه الأيام من الخريف

التي كان يقضيها في الطائف، أن يستقبل المستر تشارلس كرين عند زيارته لجدة في باكورة السنة الجديدة لكي يتحدث هو ووزراؤه إليه في مسائل اقتصادية، ولكن لندع هذه المقابلة التي تمت في أوائل آذار/ مارس سنة ١٩٣١ لنتحدث عنها في فصل لاحق **(الفصل الرابع عشر)**.

ولكي نواصل قصة الحياة في الطائف خلال ذلك الخريف، نقول إن المرأة وسياسة العالم اقتسمتا الوقت كموضوعين أساسيين للحديث في مجالس الملك الخاصة. وذات يوم وصلتُ أثناء انعقاد أحد هذه المجالس في الإدارة السياسية فوجدت عبدالله بن عسكر حاكم عسير يتحدث عن جمال النساء في اليمن، وعندئذ اقترح سعود، ابن عم جلالة الملك الذي تزوج إحدى عشرة امرأة حتى ذلك التاريخ، أن يبحث له ابن عسكر في ولايته عن بعض حسان العذارى كي يتزوجهن دفعة واحدة. وعندئذ اعترف الملك بأنه قد تزوج لا أقل من (١٣٥) من العذارى، فضلاً عن مائة امرأة أخرى، بينما قرر أن يكتفي في المستقبل بزوجتين جديدتين كل سنة ومعنى هذا تسريح اثنتين من نسائه القدامى في أي وقت لكي يفسح مجالاً لزوجتين جديدتين. وقد اعتاد الملك أن يتناول وجبات طعامه المنتظمة في قصره الخاص، لا في منازل ازواجه، إلّا كضيف الشرف في بعض المناسبات. وذات مرة قص علينا قصة مؤداها أنه أثناء زيارته لإحدى أزواجه وجد عندها عنباً أجود بكثير مما اعتاد أن يجده في قصره الخاص! وعندما سأل عن مصدر هذا العنب أخبرته أن الخدم يحضرونه من مزرعة خاصة يعرفونها، وعندئذ قال الملك: «أخبريني من أي بستان يحضرون هذا العنب، لأني اريد أن أشتريه! فأجابت: «إنك لا تستطيع ذلك، لان اصحابه لا يبيعونه أبداً!» وأخيراً اضطرها لان تصف له هذا البستان فقالت: «حسناً، إنه بستان في مكان كذا، وإنه من بساتينك!».

وجرى الحديث في مناسبة أخرى أكثر خطراً حول الميل البادي لتأجيل سن زواج الشبان نتيجة للعبء الاقتصادي الثقيل الذي يتراءى عادة في المهر الذي يطلبه أهل العروس. وعندما سمع الملك هذه المسألة وثبتت لديه أمر جلالته رئيس المجلس وهو من أبناء نجد الذين أقاموا فترة طويلة في الحجاز، بأن يتعرف كل ما يتصل بنفقات الزواج في الأرض المقدسة، وأن يدرس هذه المشكلة ويعمل على حلها، وأن يبحث إمكان إرغام الشبان على الزواج وقف ما يتطلبه واجب مكافحة الرذيلة. وقد كانت هذه المناسبة في جلسة خاصة ذات مساء بعد جلسة القراءة الدينية العامة، إذ **قال الملك**: «أليس من دواعي المرح والحبور ولو أمكن إحضار ثماني بنات حسان لنا نحن الثمانية ليدخلوا علينا البهجة والسرور، بشرط أن تكون أزواجنا حاضرات وشهوداً من وراء ستار أو نافذة لكي ترقبن سلوكنا وتصرفاتنا؟ **لن يكون هناك ما يخافه فيلبي أو فؤاد لبعد زوجتيهما عن هذا المكان**، ولكن البقية منا، ويل لهم! سوف تنتظرهم متاعب جمة عندما يعودون إلى بيوتهم!» إن هذه الأمثال القليلة لا بد كافية لتصوير هذا الخليط من يسير المسائل وخطيرها التي كان يدور حولها الحديث وتعرض للبحث والدراسة في قصر الطائف خلال تلك الأيام. وكان الملك عادة، بعد صلاة الظهر التي كان على كل الذكور البالغين المقيمين بجوار القصر والخدم والأتباع وأمثالهم أن يشتركوا فيها إلى جانب الوزراء وكبار الموظفين وغيرهم، ينصرف عن نسائه لتناول الغداء وما يتبعه من فترة الراحة والاستجمام بينما نتفرق نحن إلى منازلنا. وكانت العادة أيضاً أن تتبع صلاة العصر، وميعادها منتصف الوقت بين الظهيرة وغروب الشمس، جلسة عامة كان في مقدور أي شخص أن يحضرها. وبعد انصراف هؤلاء الضيوف كانت تقدم، لمن يريد وجبة العشاء وفق تقاليد نجد، بينما كان الملك ينصرف إلى

مخدعه الخاص ليتناول وجبته ثم ليتوضأ استعداداً لصلاة المغرب. وأحياناً كنا نحن بصفتنا الحاشية الخاصة، نتناول مع جلالته وجبة الطعام هذه، مقدمة لنزهة نقوم بها بعد العصر إلى بعض الوديان الحبيبة عليه حيث كنا نجلس على البسط حتى نحتسي القهوة ونتحدث في مختلف المواضيع، ونرقب أبناء جلالته الذين كان لا بد من وجود بعضهم في مثل هذه المناسبات. وبينما كان الصغار منهم يلعبون حولنا كان الكبار يشتركون في الحديث. وكان جلالته يضع دائماً إلى جواره كيساً من النقود استعداداً لمن يلقاهم في سبيله من الفقراء وأبناء السبيل، وكانت يد جلالته تمتد بين الفينة والفينة لتلقي بقبضة من العملة الفضية على البسط، فينقض عليها جميع الحاضرين ليتخاطفوها وكان لا بد من المحافظة على النظام دائماً، ولهذا كان يمد مفرش فوق السجادة توضع فوقه أطباق مملوءة بأنواع فاكهة الموسم لإنعاش النفس، وتظل كذلك حتى تغرب الشمس وتختفي وراء ستار الجبال، وعندئذ يبدأ يوم جديد ويؤذن المؤذن أو غيره من أصحاب الصوت القوي بصلات المغرب. وكان يصطف على جانبي الطريق عندما يعود موكب السيارات إلى القصر وقت الغسق، نساء تقنعن بحجاب أسود وأطفال وشيوخ وذوو عاهات هرعوا من المدينة المجاورة ومن القرى يدفعهم الأمل في سخاء الملك وعطفه. وكان أحد الحارسين وهما من الرقيق، اللذين يتبعان الملك في رحلاته ونزهته والذي يقف على سلم السيارة، يقفز إلى الأرض بمجرد أن تهدأ من سرعتها ليأخذ كيس النقود الفضية من يد الملك ويوزع ما بقي فيه على السائلين المنتظرين عطف سيدهم، بينما يتحرك الموكب إلى سلم القصر. لقد بدأ يوم جديد بالصلاة والإحسان، وهما الدعامتان الكبيرتان في المجتمع الإسلامي! وكما كانت الحال في البداية فيجب أن تبقى كذلك حتى النهاية، لأن العمل اليومي لا يختلف

إلّا في تفاصيله، أما النوع فكان ثابتاً على أساس قوي من المملكة العربية الإسلامية التي ظلت نشطة عاملة قوية طوال خمسين عاماً في عالم تكتنفه الشكوك والمخاوف. هذا هو المقياس العادل للرسالة التي اضطلع بتحقيقها هذا الرجل العظيم!

الفصل العاشر

القصر الملكي في مكة

كثيراً ما توصف الطائف **بأنها «سويسرا الصحراء»**، رغم أن القياس هنا مع الفارق الكبير. وقد يبدو هذا صحيحاً بالنسبة لأهل تهامة عندما يهرعون إلى عاصمة الحجاز الصيفية طلباً لتغيير الهواء وفراراً من الجو الحار الرطب المضني على ساحل البحر الأحمر. وأذكر أن السيد حسن الإدريسي قال لي مرة، بعد ضم عسير إلى المملكة العربية السعودية وأثناء وجوده في زيارة للطائف ضيفاً على الملك، كيف أنه كان تواقاً للابتعاد عن قارس البرد في بلاده والحضور إلى جو الصيف المعتدل في مكة المكرمة، رغم أن درجة الحرارة تتراوح فيها بين ١١٠-١٢٠ درجة في الظل! والواقع أن وادي الطائف يربى في محاسنه على أن يكون مجرد واحة في الصحراء، لأنه يرتفع حوالى ٥٥٠٠ ألف قدم على سطح البحر. ويشعر أهل نجد عند وجودهم هناك بأنهم في ديارهم نظراً لحرارة نهاره وبرودة لياليه. ولكن الملك لم يرقه هذا المكان أبداً لارتفاعه الكبير، ولهذا عدل منذ مدة طويلة عن عادته القديمة في قضاء جزء من الصيف فيه، واستبدله بقرية الحوية عن سفوح التلال التي يقل ارتفاعها عن ألف قدم، والتي يقيم فيها عندما يكون على مقربة من الحجاز. وقد وقع الاختيار على هذا المكان لبناء مطار جديد يبعد

حوالى (١٧) ميلاً عن الطائف عندما اتضح أن أرضها غير صالحة لهبوط الطائرات الحديثة. ومن بين المشروعات الجديدة الجاري تنفيذها تشييد قصر في الحوية، يستريح فيه جلالته وأسرته، وفي موضع مجاور لمكان معسكر الخيام الذي قنعوا به حتى اليوم للراحة من وعثاء السفر أثناء زيارتهم لهذه المنطقة في طريقهم للحج الضارب تدريجاً إلى إبان الصيف. وعلى أية حال فإن المكان البديل للإقامة في الطائف لم يكن قد اكتشف في سنة ١٩٣٠، بينما كانت الحرارة في مكة المكرمة - وكانت تصل إلى الملك عنها تقارير تليفونية يومية - تعطل الانتقال المبكر إلى الوديان والسهول. وهكذا ظلت الطائف العاصمة الصيفية التي يمكث فيها الملك والبلاط حتى نهاية شهر تشرين الأول/ أكتوبر تقريباً: رغم شكاية الملك في أحيان كثيرة من أنه لا يشعر بتمام صحته وأنه غير مرتاح إلى هذا المكان. وأخيراً وفي يوم ٢٤ تشرين الأول/ أكتوبر ابتدأ القصر في فض المعسكر الصيفي بارتحال الأمير سعود وحاشيته الكبيرة إلى الرياض، بينما ارتحل الملك في موكبه بالسيارات إلى مكة المكرمة في اليوم التالي. وقد انتهزت هذه الفرصة للسفر عبر الريف إلي مكة المكرمة مخترقاً الممر «الجرع» الجبلي البديع، وعندما وصلت في مساء اليوم التالي وجدت المجلس قد انعقد مبكراً من ميعاده المعتاد وفق توقيت العاصمة وفي بهو أكثر اتساعاً في قصر «المعابدة». وكان الملك قد عقد الجلسة وعليها وسائد ثمينة. وكان يزين الركن الذي جلس فيه الملك قائم عليه مصباح ومروحة كهربائية، وآلة التليفون التي لا تبرح جانبه، بينما جلس المقرئ في مواجهة جلالته بانحراف بسيط يتلو القطع الدينية التي وقع عليها الاختيار للقراءة المسائية. وكان جمع كبير من الوجهاء ومن الموظفين قد اتخذوا أماكنهم في صفوف فوق هذه المقاعد، وكانت تفصل فجوة كبيرة بين الملك وبين أقرب الجالسين إلى

جانبي العرش، بينما انتشر رجال الحرس الخاص على الأرض في الجانب المفتوح من هذا المربع. وكانت القهوة تقدم بين فترة وأخرى كلما دق جلالته الناقوس. وانفض الجمع بعد أن انتهت القراءة وتبادل الحاضرون بعض الملاحظات والعبارات التقليدية.

وعندما كنت أتهيأ لأتبع الجمع إلى أسفل القصر أمسك بي أحد أفراد السكرتارية وقادني إلى المكتب حيث مكثت بضع دقائق دعيت بعدها للصعود إلى السطح ثانية لأشترك مع المقربين في الجلسة الخاصة: وكان عدد الحاضرين صغيراً لا يتجاوز ستة رجال بما فيهم جلالة الملك، وقدم إلينا عشاء من الرمان والبطيخ، ذهب بعده الملك إلى جناحه الخاص، بينما انصرف الباقون إلى منازلهم.

وكانت الجلسة العامة تعقد في نفس بهو الاستقبال الذي يبين عن تناسق جميل. وكانت تدعمه في خط مستقيم اسفل المحور الأساسي للحجرة ثلاثة أعمدة من صغير الحجارة مطلية بطبقة كثيفة من المصيص رسمت فوقها خطوط وتجاعيد لتضفي عليها مظهر الرخام أو الغرانيت، وصفت في البهو من ثلاثة جوانب مقاعد مكسوة بالحرير. وكان العرش في أحد الأركان كالعادة وإلى جواره لوازمه بينما كان الجانب الرابع مفروشاً بالسجاد العجمي الغالي الحديث، ومعداً لجلوس الحرس الخاص. وفضلاً عن هذا كان في الطابق الأرضي حجرة أخرى صغيرة مغطاة بستائر وردية اللون، كثيراً ما كان الملك يستعملها للجلسات شبه الخاصة، إذا استلزمت الحال ذلك أثناء الجلسة العامة. وأحياناً كان جلالته يستخدم الادارة السياسية برئاسة الشيخ يوسف ياسين، لدارسة بعض الشؤون الرسمية السرية الهامة. وكانت حياة القصر هنا كبيرة الشبه بمثيلتها في الطائف، ولكن مشاكل العاصمة الكثيرة كانت تعرض على الملك مباشرة،

ولهذا كانت تشغل من وقته نصيباً أوفر وتتطلب من حاشيته ساعات عمل أطول.

وكان الملك أحياناً يستبقي بعضنا للغداء مع جلالته بمقصورته الخاصة في البناء المعروف ببيت «السقاف» (نسبة إلى ملكه الأول من الحضارمة). وكان يدار كقصر شبرا تماماً، كما كان بمثابة نواة لقصر دائب الاتساع. وكان المسكن الملكي الخاص عبارة عن جناح قائم بذاته من المساكن العامة، يوصل إليه ممر طويل يتميز بأبواب الغرف الكثيرة المقفلة. وكانت مساكن السيدات خلف هذا الجناح الذي كان مكتظاً بالأثاث دون مراعاة للطراز أو النسق، بينما كان السجاد ثميناً وفي حالة جيدة، وكانت الوسائد كما يجب أن تكون من جميع النواحي. وكانت به منضدة لزينة السيدات مزودة بمرآة في الوسط والجانبين وخليط من أدوات الزينة، فكانت هذه المنضدة عنصراً شاذاً غير متناسق، بينما بدت المقاعد زاهية الألوان والمكسوة بالمخمل والقطيفة وذات اللون الأرجواني أو المحمار غير متسقة مع حجم الغرفة. وكان الطعام يقدم على الارض محمولاً من غرفة مجاورة، وكان يشترك معنا عادة بعض أبناء الملك، وكثير منهم كانوا صبية على قدر كبير من الأخلاق قد تهيأوا الآن يصبحوا فتيان يتسمون الشهامة وصباحة الوجه. وبعد الانتهاء من الطعام كنا نغمس أيدينا في ماء الورد، ثم نفترق بعد دور أو دورين من القهوة. وكان من عادة الملك أن يخرج للنزهة عصراً بعد انتهاء الجلسة العامة.

فكانت قلة منا تجلس في عربة الملك على رأس الموكب الطويل. وقد ذهبنا في إحدى هذه الرحلات الأولى عبر منى وساحة الحج في عرفات إلى نقطة على قناة الملكة زبيدة، حيث كانت الاعمال جارية لتطهير هذه القناة تحت الأرضية التي هي المورد الرئيسي لتزويد مكة المكرمة بالماء، والتي تأتي من الينابيع الموجودة عند سفوح الجبال

العالية غربي الطائف. ولا شك في أن تاريخ هذه القناة يرجع إلى العصور القديمة إذ كان لموارد مائها الفياضة الفضل في نمو مكة المكرمة وازدهارها حتى أصبحت من أعظم وأهم المراكز التجارية والدينية في بلاد العرب الوثنية. هذا بينما يرجع شكلها الحالي وبناؤها وما فيها من منافذ متباعدة لتسهيل عمليات التطهير، إلى الملكة زبيدة زوجة هارون الرشيد، وفق ما هو شائع. ولقد اتضح بعد قيام الحكم الوهابي أن إهمال تطهيرها لعدة سنوات قد أدى إلى ميل لتناقص تيار الماء فيها وما ينطوي عليه هذا الوضع من نتائج خطيرة بالنسبة لموارد الماء في هذه المدينة وعرفات حيث تبرز القناة السفلى إلى سطح الأرض ولهذا أصدر الملك أمراً بتطهير مجرى القناة كله من مكة المكرمة. وكان العمل في هذا الوقت قد بلغ منتصف المسافة تقريباً حتى وادي نعمان. ووجدنا عند النقطة حيث توقف الركب الملكي أن العمال قد حفروا حفرة عمقها مائة قدم بدت عند قاعها قمة أحد المنافذ القديمة الأصيلة. وعلى ذلك ففي مدة ألف سنة ونيف تكونت طبقة من رواسب الفيضان سمكها مائة قدم. أي بمتوسط عشرة أقدام في كل قرن. ولهذا كان من العسير متابعة المجرى حتى منابعه. وبقدر ما اتصل بعلمي فإنه لم تبذل محاولات لتسجيل أعمال الغطاسين أثناء عمليات التطهير هذه. وهكذا أطرد هذا العمل الشاق والحفر العميق للكشف عن المنافذ الأصيلة التي كلما عثر على واحد منها أكمل بناؤه حتى سطح الأرض أو ما فوقه. وكان ينظف ويطهر كل قسم من القناة واقع بين اثنين من هذه المنافذ. وهكذا زادت إلى حد كبير كميات الماء المتدفقة على مكة المكرمة، ولكن رغم هذا فإن كمية الماء في الوقت الحاضر، لا تكاد تكفي السكان وضيوفهم من حجاج بيت الله الحرام نظراً للتوسع الكبير في زراعة البساتين في الضواحي خارج هذه المدينة، وكذلك ثم تطهير قناة قديمة لتزداد كمية الماء في المدينة. وقد أقيمت بمناسبة هذه الزيارة الملكية وليمة كبيرة في

خيمة فسيحة الأرجاء على الطراز النجدي قدم فيها من اللحم والأرز ما يكفي لإطعام فرقة كاملة.

وبعد ذلك ببضعة أيام أقام جلالة الملك وليمة كبيرة، وفق الطراز الحجازي المحلي المعروف بالسماط، تكريماً لزيارة حمود أحمد السديري والشيخ عبدالله بن بليهد قاضي قضاة حائل الذي كان فضلاً عن هذا من أول من مهدوا انتشار النقل الآلي في الأيام المبكرة، كما كان أحد المبرزين في تشجيع الري الآلي كذلك. ولقد مدت لهذا الغرض في البهو المعد للجلسات العامة ثلاث موائد طويلة على شكل مربع غير مكتمل، صفت على جوانبها الخارجية كراسي تكفي لمائة ونيف من الضيوف. بينما شغلت الفسحة بين الموائد بالخدم القائمين على خدمة الضيوف وتنفيذ رغباتهم، فضلاً عن تقطيع الحملان المسجاة فوق أكوام الأرز بين فترة وأخرى. وكثيراً ما كانت مظاهر الإسراف في مثل هذه الولائم الكبيرة موضعاً للنقد من جانب الأوربيين الذي اعتادوا أن يكون الطعام في ولائمهم، مهما كانت سخية، بقدر حاجة المدعويين وحدهم. ولكن الأمور في بلاد العرب لا تختلف عن هذا إذ تجري أيضاً على بصيرة وحساب، لأن الضيوف المدعويين الذين لا يأبهون في الغالب لهذه الكميات الضخمة من الطعام التي توضع أمامهم، هم عادة أقلية ضئيلة بالنسبة للجموع التي تخلفهم على الموائد. أو التي تنتظر - رجالاً ونساء وأطفالاً - عند أبواب القصر لتحمل إلى منازلها فضلات هذه الموائد حتى آخر حبة من الأرز.

ان الملك نفسه لم يكن أكولاً حتى في شبابه، ثم إن شهيته للأكل أطردت في التناقص على مر السنين حتى يعجب الإنسان كيف يمكن أن يكون هذا الطعام القليل يكفي لجسم جلالته الفارع المتين؟ وفي المناسبات التي تقام لها قبل هذه الولائم، يقنع جلالته بقطعة من

الخبز الجاف يغمسها في المرق بينما تجول منه عين المضيف الساهرة بين أنحاء المائدة ليرى كيف يأكل ضيوفه، حتى إذا ما أقتنع أنهم جميعاً قد بلغوا غايتهم من الطعام يغسل يديه وفمه بواسطة خادم يقف دائماً وراء مقعد جلالته مستعداً بالطست والابريق والصابون والمنشفة أما إذا حضر أحد الضيوف متأخراً أحياناً، فليس من المعقول ولا من المنتظر أن يطيل الملك جلسته إلى المائدة من أجله وحده وعندئذ يأمره الملك بأن يبقى عن المائدة حتى يتم أكله، وفي أحيان كثيرة يأمر أحد رجال الحاشية بالجلوس إلى المائدة مع هذا الضيف ليأكل كما يجب. وكيفما نتصور سلوكه في هذه المناسبات، فقد كان من الجلي أن الصوم شيء حبيب إلى نفسه، وكأنما كان يخيل لجلالته أن التكفير واجب عن مثل هذه المآدب، فكان يعلن أنه سوف يصوم الأيام الأربعة التالية، ثم أربعة مثلها بعد فترة قصيرة لينقض مجموع دينه، وهو تسعة عشر يوماً أفطرها في رمضان المنصرم عندما كان طوال الوقت في الميدان يحارب فيصل الدويش وفريقه من المتمردين. هذا والصوم ليس واجباً فرضاً في السفر أو في القتال، ولكن على الذي يفطر لأحد هذه الأسباب أن يعوض أيام إفطاره حسبما يوافقه قبل أن يحل شهر الصوم التالي، الذي وافق أول أيامه يوم ٢١ كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٣١، أي بعد أقل من ثلاثة شهور وقتئذ.

وذات صباح وجدتُ الملك يعالج حادث قتل شنيع مع ثلاثة من المشايخ يعاونهم العراقي مهدي بك المدير العام للشرطة الذي التحق بخدمة الحكومة السعودية منذ سنتين كما كان من أكفأ موظفيها. وقد وقع هذا الحادث يوم خميس، ولم يحل يوم الأحد التالي حتى أبلغ أهل القتيل الشرطة نبأ غيبته.

وكان مهدي بك قد اهتدى بسرعة إلى جماعة من الأصدقاء كان

القتيل يجتمع بهم، كما عرف أن أحد أصحابه، وهو شاب في الثامنة عشرة من عمره، سافر في عمل إلى جدة، فألقى القبض عليه هناك وأحضر أمام مهدي بك للتحقيق، فوقف منه على الحكاية كاملة، وألقى القبض على بقية زملائه، بينما كانت الجثة قد استخرجت من حفرة في أرض غرفة بمنزل مجاور. استمع الملك إلى تفاصيل الحادث وأصدر حكمه في يوم الخميس التالي لارتكاب الجريمة، ونفذَّ الإعدام علناً في الجناة الثلاثة بعد صلاة الجمعة، أي بعد ارتكاب جريمتهم بثمانية أيام بالضبط. إنها كانت حالة شذوذ جنسي قديمة بين الرجال الثلاثة وبين هذا الغلام ونفذّ، وكانوا يتقابلون في فترات ليشربوا الخمر ويظفروا بمتعتهم الأثيمة. وذات يوم وقع بينهم شجار انتهى إلى تآمر الرجال الثلاثة على التخلّص من هذا الشريك المشاكس بعد إغرائه بكثرة تناول الكحول. كانت الحالة واضحة كالشمس، ولهذا لم يكن هناك إلّا حكم واحد.

وبعد أن استمع الملك لظروف الحادث قال: «اضربوا أعناقهم للجريمة المثلثة وهي السكر واللواط والقتل، إنهم يستحقون الحرق أحياء لتضرب رؤوسهم غداً علناً أمام الحميدية (المعسكرات الحكومية) بعد صلاة الجمعة، ثم عليكم أن تعلنوا في أوسع دائرة ممكنة، أن الذي يعلم بمثل هذه الخبائث ويصمت عنها يعرض نفسه لأقصى العقوبة! وأنت يا مهدي مسؤول شخصيًّا عن القضاء على مثل هذه الحوادث بكل عنف وشدة!». والواقع أن هذا لم يكن ممن يحتاجون إلى مثل هذه التعليمات. وإني لأذكر انه قال لي بعد بضع سنوات أنه لم يقع في دائرة اختصاصه إلّا ثلاث وعشرون جريمة قتل في سبع سنين، وقد قبض على الجناة في جميع الحالات، إلّا حالتين، وأعدموا. أما في هذه الحالة فقد فوض الملك ابنه فيصل نائبه في الحجاز للإشراف على تنفيذ الحكم. وبعد انتهاء صلاة الجمعة ومبارحة الموكب الملكي المسجد الحرام اتخذ

الأمير مكانه عند إحدى النوافذ في بهو الاستقبال الكبير بالطابق الاول من الحميدية ومعه جمع من كبار الموظفين والأعيان. وكان الشارع الضيق بين هذا المبنى والحرم قد اكتظ بجموع النظارة وكذلك أسطح المنازل وأعمدة المسجد، وأخلي مكان أمام مدخل الحميدية احاطت به قوة من الشرطة. وبعد فترة قصيرة وصل الرجال الثلاثة المحكوم عليهم، حاسري الرؤوس قد شدت أيديهم إلى ظهورهم، ثم أمروا بأن يركعوا على مسافات من بعضهم في صف واحد مواجهين حائط المسجد. لقد بدا عليهم شيء من الذهول، ولكن لم يبد عليهم ما يبين عند الفزع من هول ما ينتظرهم إذ رفضوا في حزم قبل مبارحتهم السجن أن يدلوا للشرطة بأية معلومات عن غيرهم ممن قد يكون لهم يد في هذه الجريمة أو ممن يرتكبون مثل هذا الإثم الذي دفعهم إلى هذا المصير المحتوم. وما هي إلّا ثوانٍ قليلة بعد ركوعهم حتى سقط الرأس الأول متدحرجاً في التراب، بينما سقط الجسم إلى الأمام يتدفق دمه من العنق، أما الثاني فإنه أدار رأسه في حركة لا إرادية ليقابل الضربة القادمة فكانت النتيجة أن أخفق السيف في فصل الرأس عن الجزع عندما انقلب الجسم في قوة، ثم خطا الجلاد بضع خطوات سريعة ولم يلبث أن سقط الرأس الثالث بضربة ماهرة قوية لدرجة أن ظل الجسم في وضعه على الركبتين والدم ينبجس منه. وبعد انتهاء عمليات التنفيذ مباشرة أسرع رجال الشرطة فربطوا كل رأس إلى جانب جسمه إلى سياج الحميدية حيث بقيت الجثث حتى غروب الشمس تحت أعين الدنيا وليراها الناس جميعاً ليكونوا لمن تسوّل له نفس بعمل. ولقد تمت عملية التنفيذ في سرعة وحذق ودون ما هرج أو صخب، ولم تحدث إلّا ضوضاء قليلة بسبب تزاحم الناس وتدافعهم لرؤية هذا المشهد المثير. وظل الأمير فيصل في جلسته بضع دقائق بعد انتهاء كل شيء،

حتى أتى الجلاد، وهو عبده الخاص، وفي يده سيفه الرهيب يقطر دماً، وأبلغ سموه انتهاء واجبه، فرد عليه الامير قائلاً: «بارك الله فيك!» ثم التفت إليّ الامير قائلاً: «لا بد أيضاً أن نطريهم لقيامهم بواجباتهم، لكي يحسنوا أداءها في المناسبات القادمة!».

ومهما كان رأي بلاد أخرى في عقوبة الإعدام والتنفيذ العلني، فإن أثرهما الوقائي المهيب أمر لا يعتوره شك في بلاد العرب. إن قانون الثأر **(العين بالعين والسن بالسن)** راسخ في طبيعة العرب وتقاليدهم وهم متمسكون به، فإذا كان لا بد من أن يقوم صرح العدالة على هذا الأساس، فلا بد كذلك من أن تجرى عجلة بما لا يشجع دوافع الثأر الشخصي. إذا كان الأصل في منع الجريمة هو بلا ريب سرعة الكشف عن المجرمين وعقابهم، فإن المملكة العربية السعودية تستطيع في هذه الناحية أن تلقن درساً قيماً لبلاد كثيرة انغمست في نظم معقدة مطولة ونفرت من علانية التنفيذ: وهو ما ينتهي غالباً إلى بعث الشعور بالعطف والإعجاب على بعض الدجالين. ومهما كان الأمر فإن الحجاز، منذ سنين عديدة ومنذ تقاعد مهدي بك عن إدارة الشرطة لاسباب صحية، لم يعد مجالاً مريحاً لطبقة المجرمين، ولا بلداً ترجى فيه رحمة للمستهترين الذين يقودون سياراتهم دون ما اعتبار لواجبات القيادة في الطرق وبما يعرض الناس للخطر. وكانت النتيجة أن أصبحت حالة المرور والحوادث في طرق الحجاز في هذه الفترة أكثر من أن تكون حسنة مناسبة لو قورنت بمثيلاتها في البلاد المتمدنة من العالم. هذا وكانت حوادث القتل بسبب السيارات نادرة جدًّا لسبب بسيط هو أن لأسرة الضحية الحق في اختيار نوع العقاب الذي يوقع على السائق المعتدي الذي يصبح عرضة لعقوبة الإعدام، إلّا إذا قبل أقرباء القتيل تعويضاً في النطاق الرسمي الكامل. وقد يبدو هذا قاسياً شديداً في نظر بعض الهيئات الأوروبية، ولكن غرض البوليس السعودي إنما كان العمل على تجنب الحوادث وقد حقق نتائج باهرة في

هذه الناحية. وقد يخيل إلى البعض أن مشكلة المرور في الحجاز ليست صعبة معقدة كمثيلاتها في البلاد الأخرى، ولكن على الذين يظنون ذلك أن يحاولوا قيادة سياراتهم في مكة بين حشود الحجاج المتجولين في طرقها الضيقة دون ما مبالاة للأخطار الكبيرة التي تهددهم: فهم يعتقدون بغريزتهم أنهم بصرف النظرعن الحوادث العادية، آمنون تماماً من كل ضرر وإزعاج في طرقات العاصمة كحمام الحرم تماماً. إن المستوى العالي الذي بلغته إدارة الشرطة على يدي مهدي بك، الذي تمتع بثقة الملك التامة وعونه الكامل، قد انخفض حقيقة بعض الشيء منذ تقاعده، ولكن الطرق والمناطق العامرة في الحجاز ما زالت آمنة نسبيًّا، بالنسبة لاستهتار المشاة وصغار التلاميذ، بينما تحقق المجرمون المحترفون أن صناعتهم هذه قد غدت بائرة غير مجزية. إننا لا نزعم أن هذه البلاد قد أصبحت جنة لا تعرف الجريمة، ولكن ذئاب الإجرام قد ارتدوا جلود الشياة احتراماً للقانون، وخوفاً من الاصطدام بالقواعد والأصول الشرعية وما تنوي عليه من صارم الجزاء.

وقد انبعث في أول تشرين الثاني/ نوفمبر اهتمام ملحوظ لإعلان وثيقة جديدة للسياسة البريطانية خاصة بفلسطين جاءت نتيجة لتقرير لجنة «شو» عن حادث المبكى في السنة الماضية. ولم تذهب هذه الوثيقة إلى حد إنشاء حكومة فلسطينية مسؤولة بحيث ضيعت آخر فرصة فعالة للاحتفاظ بوحدة هذا البلد، ولكنها منحت كلا من العرب واليهود حقوقاً متساوية تحت الإشراف العالي البريطاني في مجلس تشريعي ينتخب نصف أعضائه ويعين النصف الآخر منهم. أما اليهود فإنهم أعلنوا معارضتهم لهذا الاقتراح، واستقال الدكتور ويزمان من الهيئة الصهيونية التنفيذية احتجاجاً على طريقة من شأنها أن تقضى على برنامج «الوطني الاهلي» توخيا لإيجاد توازن عربي يهودي، أما العرب فكانوا قد لزموا الصمت، ولكن في انتظار يشوبه الشك في مزايا هذا المشروع. والظاهر أن ابن سعود

قد عراه الارتباك والحيرة حيال هذا الموقف، ولكني في حديث معه حفزته وألحت عليه بصفته أحد زعماء العرب البارزين، على أن ينصح لعرب فلسطين بقبول هذا الوضع، فكان رده على هذا معبراً عن السلوك الذي بدأه ولزمه حتى اليوم، والذي فوت عليه فرصاً متاحة للقبض على أزمة الشؤون العربية وتوجيهها وساعد على خلق الموقف الراهن. وقد دفعت رغبته عن اتخاذ خطة حاسمة لحسابه الخاص في المشاكل العربية العامة خارج نطاق نفوذه بالمملكة العربية السعودية إلى مكانة غير ملحوظة كعضو عادي في جامعة الدول العربية، أو مجرد معسكر من معسكراتها المتفاوتة في الرأي والنهج .**ولقد قال في هذه المناسبة** إن سياسته قامت على عدم التدخل في أي مشكل سياسي بين الشعوب التي تحت الانتداب والدول المنتدبة، وأن أقصى ما يستطيع عمله في هذه الظروف هو أن ينتظر دعوة من الحكومة البريطانية لكي يستخدم نفوذه ومركزه في حفز عرب فلسطين إلى قبول حل كان أقصى ما تملك بريطانيا كدولة منتدبة، وكان في الواقع بمثابة تقدم كبير نحو شيء يمنح سلفاً. بهذه الوسيلة وحدها كان في مقدوره أن يتدخل في المسألة. وكان لا بد أن يتقلص نفوذه السياسي والعسكري في مثل هذه المرحلة من حياته العامة. وكان يبدو ميله لان يكون من الزعماء المعتدلين الراغبين عن عداء بريطانيا وغيرها من الدول الكبيرة، وعن إثارة النقد حول نفسه في الصحف العربية أو الرأي العربي العام. وكانت أزمة اليمن لم تنشأ بعد، حيث اضطر حقيقة لأن يلجأ إلى أساليب القوة، ولكنه عموماً لم يرتض أن يبدد قواه محاولاً القبض على الظلال. وهكذا فاتت الفرصة التي أتيحت له لكي يقوم بدور إيجابي فعال في توجيه أقدار فلسطين. ولكنه كان في الواقع حانقاً على الحكومة البريطانية لتقصيرها في دعوته للتدخل والتعاون معه على حل المشكلة.

وكان في خلال ذلك قائماً بمفاوضات مع ممثلي الحكومة الألمانية لعقد معاهدة صداقة مع ألمانيا. وقد أسر إليّ في اليوم السابق لنشر هذه

المعاهدة في صحيفة أم القرى - وهي صحيفة أسبوعية يحررها رسميًّا فلسطيني يدعى رشدي ملحس تحت إشراف الشيخ يوسف ياسين - أنه ممتعض ودهش من سلوك بريطانيا الرسمي حياله. ولقد قال إنه في كل ميدان قد راعى إحساس بريطانيا ووضع مصلحتها في الاعتبار: في مسقط والكويت والبحرين فضلاً عن مشكلتي الحدود العراقية وشرق الأردن. ورغم هذا فإنه شعر بأن بريطانيا تبدي نحوه شيئاً من البرود وعدم الاهتمام. وكان يعجب إذا ما كانت حقيقة ومن قلبها تسر عداء أو معارضة لمصالحه! فقد رأى في الصحف مثلاً، ولو أنه لا يملك دليلاً رسميًّا على ذلك، بعض توصيات لمؤتمر الحجر الصحي في باريس توحي على الأقل، بأن بريطانيا وغيرها من الدول تهدف إلي منع الحجيج بطريقة غير مباشرة هي أن تقيم في سبيله العراقيل وتجعله عملية مضنية شاقة بقدر ما تستطيع. ولكني طالما أخبرته، وفي هذه المرة بشكل أكثر إلحاحاً، أن الذنب في هذا واقع عليه نفسه، لأنه لم يعن أبداً بأن يتمسك بمركزه وآماله وآرائه أمام العالم، وخاصة قبل بريطانيا العظمى. وكان المفروض في ذلك الوقت أن يقيم **فؤاد حمزة** في جدة بصفته ممثلًا لوزير الخارجية، ولكن تركز السياسة في يد الملك حتى المسائل الصغيرة أدى إلى وجود فؤاد حمزة في مكة باستمرار تقريباً، مما جعل تهكم السير أندرو ريان (أول وزير مفوض بريطاني أرسل للمملكة السعودية في سنة ١٩٣٠) بأن جميع الأمم ممثلة في جدة، إلّا المملكة العربية السعودية، تهكماً كثير من الحقيقة. لقد زود اقتراب ميعاد الانتخابات في العراق ومصر الجلسات بمادة للتفكير والحديث، إذ كان المتفق عليه بصفة عامة أن الأمور سوف تنظم وتعد في العراق بحيث تسفر الانتخابات عن برلمان ذي أغلبية تقر المعاهدة الإنكليزية العراقية، بينما كان الرأي بالنسبة لمصر أن الوفد سوف يقاطع قانون الانتخاب ذا الدرجتين بحيث تكون النتيجة تعطيل آمال

بريطانيا في عقد معاهدة دفاعية بين مصر وانكلترا، وفق المبادئ المقترحة، من شأنها أن تصون المصالح البريطانية في مصر «المستقلة» وفعلاً تحققت هاتان النبوءتان: ففي سنة ١٩٢٣ تحقق للعراق استقلاله في نطاق الحدود التي رسمتها المعاهدة وأصبح بذلك أهلاً لعضوية عصبة الأمم، أما مصر فكان عليها أن تنتظر حتى سنة ١٩٣٦ ليكفل لها الوفد معاهدة أجلها عشرون سنة قيدت الاستقلال والآمال الوطنية بالامتيازات البريطانية، وكانت بعد عشر سنين مصدراً لخلاف مستحكم الحلقات بين بريطانيا وحكومة الوفد نفسها التي عادت إلى الحكم بعد فترة قضتها في كفاح مرير. وفي خلال ذلك ظل الاحتلال الإنكليزي في مصر جاثماً، ولكن هذه الحقيقة لم تكن بأية حال مما يسيء إلى ابن سعود الذي كان تمسكه الشديد باستقلاله لا يعادله إلّا عدم اكتراثه بكفاح جيرانه من الامم العربية لتحقيق مثل هذا الاستقلال. ولم يكن موقفه هذا مستغرباً بالنسبة لمصر نظراً للفتور الذي اعترى العلاقات بين البلدين نتيجة لحوادث المحمل في سنة ١٩٢٦، ثم لمطامع الملك فؤاد في تبوؤ مركز الخلافة الشاغر. ولم يقدر لسوء التفاهم هذا أن ينتهي إلّا في سنة ١٩٣٦ برجوع وزارة الوفد إلى الحكم، عندما بدأت فترة جديدة من الصداقة وتوثقت عرى العلاقات الاقتصادية والسياسية والتعاون الوثيق بين البلدين في مختلف النواحي، هذا التعاون الذي استمرّ حتى اليوم كعامل أساسي جديد في السياسة العربية الجديدة يناقض ويعارض خطط الهاشميين في مشروعي «سوريا الكبرى» و«الهلال الخصيب».

وثمة أمر كان أقرب إلى عناية ابن سعود واهتمامه، وهو مشكلة الحدود الجنوبية لشرق الأردن التي لم تخطط بعد، وتسوية مزاعم الطرفين بالنسبة لغزوات القبائل في مناطق هذه الحدود من الجانبين في الزمن الماضي. وبمجرد رجوع الملك من الطائف إلى مكة المكرمة، زاره

وفد من زعماء قبائل الحويطات من جنوب شرق الأردن على رأسه عودة بن زأل وهو ابن عم الزعيم الشهير عودة أبو طي. وكان زعيم الوفد رجلاً حسن المنظر والبهية داكن اللون تشع عيناه ببريق غريب، وذا أنف كبير أقنى وابتسامة تبين عن ميل شديد للقسوة الشديدة. تحدث الملك إليه في شؤون عامة مختلفة، وكان إلى جانبه فؤاد حمزة ليشرح له تفاصيل المكاتبات الحديثة مع السلطات البريطانية بخصوص هذا الموضوع، بينما جلس عند قدميه كاتب أملى عليه أثناء الاجتماع كتابين: أحدهما من الملك إلى ضيفه، والثاني من الضيف إلى الملك، ثم وقع الطرفان الكتابين تأكيداً لموافقتهما على ما جاء بهما. ثم قال الملك إنه، فيما يتصل بكل المسائل القديمة، فإنه فوض الحكومة البريطانية في أن تفصل في كل المطالب والشكاوى الخاصة بها، وسيان عنده أقضت له أم قضت عليه، وأنه يقبل الحكم بدون أي شرط. أما بالنسبة للمستقبل فإنه لا يطلب من الحويطات إلّا أن تكف عن إزعاج القبائل التابعة له بغزواتها عبر الحدود، كما أنه عرفهم في نفس الوقت أنهم إذا جابوا إقليمه ليرعوا أو لأي سبب آخر مشروع، فإنهم يكونون خاضعين لقوانين مملكته وعليهم أن يدفعوا ضريبة المراعي وغيرها من الضرائب المقررة. وطالما كانوا يحرصون على العمل بهذه المبادئ ويرعونها فحباً وكرامة! وعليهم أن يذكروا أنهم لو نقضوا هذه المبادئ في المستقبل، فعندئذ لن تكون الحكومة البريطانية هي المختصة بالحكم بينهم، ولكن الله والسيف! وبعد النهاية الموفقة لهذا الاجتماع، ارتد الملك إلى مكتب يوسف ياسين حيث قبل، فيما يشبه الجلسة الخاصة، أن يقوم بفحصه أربعة من الأطباء ليكشفوا عن أسباب ما يشعر به من تعب بسيط في المدة الأخيرة. وقد أعلن بهذه المناسبة أنه اتخذ الاستعداد اللازم لإجراء عملية فصد بواسطة الحجام تبعاً لعادته في أن تجري له هذه الحجامة مرتين في السنة.

وتتمثل عملية الفصد هذه في أن يحدث الحاجم شرطاً بالجلد في مؤخر الرأس والعقب ثم يأخذ في مص الدم الذي ينبثق من هذين الجرحين.

وللرجل العربي المتوسط شغف بالعناية الطبية، ولم يشذ الملك عن هذه القاعدة. وقد كان أحياناً يستدعي الطبيب وهو في جلسة عامة، لكي يصف له جرعة من دواء للصداع أو لزيادة إفراز الصفراء التي كان دائم الشكاية منها، أو ليغسل له عينيه أو أذنيه، وكان بعد هذه العملية يجفف الأجزاء المصابة بقطع من القطن ثم يلقي بها إلى الأرض خلف العرش. وكان من المناظر العادية أن يرى جلالته وهو يعالج بالكهرباء، ممسكاً بمقبض مولّد كهربائي متحرك، أو وهو ينعم برعدة بسيطة يبعثها تيار كهربائي يمر بجسمه.

وكان أحياناً، عندما يتحرك فيه روح المرح والدعابة، يستدعي شخصاً بريئاً، والأفضل شيخاً بدويًّا، ثم يطلب منه أن يمسك المقبضين حتى يتكلم في التليفون. وكانت صيحة الفزع والاضطراب التي تصدر عنه ساعتئذ تجعل الحضور يضجون بالضحك عندما يحاول الرجل أن يتخلص من التيار. وكان يلجأ إلى مثل هذا الأيام الأولى من دخول الكهرباء إلى بلاد العرب، فكثيراً ما كان يلقي بضعة ريالات في ماء متصل بالتيار ويغري بعض الأبرياء بأخذها.

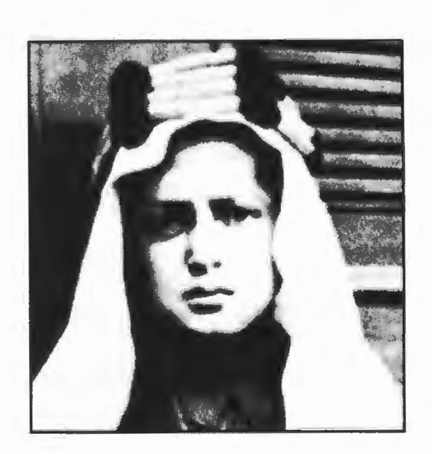
وكان الملك في الفترات التي يقضيها في مكة المكرمة يزور المسجد الحرام أحياناً بعد الظهر للطواف به قبل صلاة المغرب. وكان يخلع نعليه عند المدخل ثم يعبر عتبة المسجد يتقدمه حرسه الخاص مسلحاً بالسيوف والبنادق، متئدين في السير خلال الممر الموصل إلى باب السلام والكعبة الشريفة. وكان يقابله في منتصف الطريق جمع من الأغوات (خصِّي الحرم) الذين يضعون في قدميه نعلين ويتقدمونه في

طريق الطواف الذي تكون الشرطة قد اخلته للملك وصحبه من الزائرين، ثم يتقدم ليقبل الحجر الأسود ويبدأ طوافه: سائراً في خطوات متمهلة ومتوقفاً ليمر بيديه على الركن اليماني وليقبل الحجر الأسود كلما مرّ بهما. وبعد انتهاء الدورات السبع اللازمة يتوجه إلى مقام سيدنا إبراهيم ليصلي هناك الركعتين التقليديتين، ثم يتخذ مكانه عنده مواجها الكعبة ومنتظراً الآذان لآداء فريضة المغرب التي كان يقف أثناءها خلف الإمام مباشرة. وكان يقدم إليه بعدئذ بعض ماء زمزم في كوب زجاجي، ثم يعمل الحرس والعبيد والأغوات كل ما يلزم ليعود جلالته إلى سيارته. وكان الملك يدعى في مثل هذه المناسبة إلى حفلة عشاء يقيمها حاكم مكة المكرمة الذي كان وقتئذ الشيخ يوسف قطان كبير أسرة شهيرة من التجار. وكانت السيارة الملكية تشق سبيلها في هذه الطرق الضيقة المظلمة على ضوء مصابيح مزينة بشرابات مدلاة يحملها غلمان، كما كانوا يحملون مباخر تنفث سحباً من عطر البخور المحترق. وكانت الدار الكبيرة القديمة التي هي المقر الرسمي للحاكم مزدحمة بالمدعويين الذين جاؤوا لمقابلة الملك، ولكن لحسن الحظ قدم العشاء في الهواء الطلق فوق سطح فسيح معد لاستقبال الضيوف. وكانت الوليمة على الطراز التقليدي للحجاز وهو (السماط): وصفت الموائد على شكل إهليلجي مفتوح وقف الخدم في وسطه للقيام على خدمة الضيوف الذين لم يأكلوا كثيراً من فاخر الطعام الذي وضع أمامهم. وبعد العشاء قدمت القهوة في حجرة استقبال كبيرة وأنشد أحمد الغزاوي شاعر القصر، الذي قد يكون في مرتبة «كولي سيبر» قصيدة أعدها لهذه المناسبة، وأعقبه ثلاثة من التلاميذ أجادوا إلقاء قطعة جميلة من نثر مقفى تدور حول تبعات السيف والقلم: كانت بلاد العرب الفتاة تتحدث إلى بلاد العرب القديمة، مفصحة في وضوح وجلاء عن أنها تنتظر اليوم تحقيق نصر

وفتح في الميدانين الاجتماعي والعمراني بدلاً من الانتصارات العسكرية التي كانت حتى الساعة تحتكر استحسان جموع الشعب وإعجابها! والواقع أن هؤلاء الأولاد أجادوا وأتقنوا لحد كبير مما بعث السرور والارتياح في نفوس الحاضرين، وكذلك كان قد أحسن تدريب فريق من التلاميذ على نشيد استقبلوا به الملك عند وصوله إلى الدار تكريماً له وترحيباً به، فأجاد هؤلاء واستحقوا المديح والإعجاب. ولكن الملك بصفة عامة لم يسر كثيراً ولم يعجب برعاياه من أهل مكة المكرمة، إذ قال الملك بعد مبارحة الحرم الشريف وعندما كان يجتاز طريق مكة المكرمة: «إن أهل مكة لا يتذوقون النظام وحسن التنسيق! وكان في هذه العبارة القصيرة متنفس لما عاناه من ضيق في هذه الطرق المكتظة بالناس والمزدحمة بالمقاهي والحوانيت على الجانبين. والحق أن أخلاق أهل هذه المدينة الطاهرة وسلوكهم ليس مما يرغب الناس فيهم بصفة عامة. يكرسون حياتهم كلها لجمع المال من ساذج الناس وسليمي الطوية، وخاصة الحجاج، بوسائل متقنة هي مزيج من المداهنة والتملق والدعة والتذلل وعلى نقيض هذا أهل المدينة المنورة الذين تتسع حياتهم لأكثر من هذه الماديات، وتبدو عليهم سيماء الورع والنبل التي يتميز بها اهل نجد.

وكان لا بد للملك في تلك الفترة من أن يكرس جزءاً كبيراً من وقته لدراسة الوسائل وبحث الإجراءات التي تكفل تحسين شؤون الحج وتنظيم موسمه: وخاصة فيما يتصل بوصول الحجاج إلى جدة من وراء البحار، ونقلهم إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة بأسرع ما يمكن، ثم إبحارهم من جدة وينبع إلى اوطانهم. وبديهي أن كانت عناية المطوفين في مكة المكرمة (وهم بمثابة وكلاء السياحة) منصرفة إلى الكسب أكثر مما تنصرف إلى توفير الراحة للحجاج الذين كانوا يدفعون بهم إلى هنا

وهناك كأنهم من السوائم، وفقاً لرغبات شركات النقل أو اصحاب الجمال، لا وفقاً لرغباتهم أو كما تقتضيه راحتهم. وكان لا مفر عندئذ من تدخل الحكومة لتحد من شراهتهم وطمعهم وتنهنه من تسلطهم وقسوتهم وتجعل هذا كله في الحدود المعقولة. وسرعان ما تألفت «لجنة الحجاج» من مختلف الموظفين وخاصة الأعيان، لتنظر في كل شكوى تقدم من الحجاج، ثم لتعمل بصفة عامة على تيسير شؤون الحج وتسهيلها. وكان في اهتمام الملك الشخصي بجميع هذه الأمور أقوى ضمان لحسن سير العمل واطراده بأعلى مستوى ممكن من الكفاية والضبط. ولقد سمعت الملك في أول موسم للحج وهو يشبه نفسه في جلسته المؤقتة في المعسكر الرئيسي وآلة التليفون إلى جواره يوجه بها مختلف المصالح المختصة، كقائد يوجه العمليات الحربية: يتسلم تقارير من كل قسم في الميدان ويصدر أوامره لمواجهة كل موقف يجد في المعركة.



الأمير فيصل بن عبد العزيز في طفولته

وكان اهتمام الملك كبيراً بفكرة عقد تحالف بين فرنسا وألمانيا، يؤيدها اقتراح أميركي بإيقاف دفع التعويضات حتى تستطيع ألمانيا أن

تستعيد توازنها الاقتصادي الداخلي. وكذلك بدا اهتمامه بالشؤون الخارجية في القرار الذي اتخذه وهو إرسال ابنه الأمير فيصل لزيارة أوروبا في صيف سنة ١٩٣١، أولاً للعناية بصحته التي لم تكن على ما يرام وقتئذ، ثم لسبب أهم هو مفاوضة انكلترا وفرنسا في مسائل سياسية مختلفة وليقف بعد هذا على حقيقة الرأي العام الأوروبي إزاء المسائل الشرقية في هذين البلدين وفي غيرهما بما في ذلك روسيا وتركيا. وكانت هناك مفاوضات تدور حول الاستعداد لإرسال فريق من المرشحين اللائقين إلى المركز الرئيسي لشركة ماركوني في سيلمزفور للتدريب هناك لكي يعملوا مستقبلاً في محطة اللاسلكي، هذا بينما كان وزير المالية في مشاورات مستمرة مع الملك خاصة بالمعدات والمخازن ودواب الحمل اللازمة لقوة نجدية قوامها أربعمائة رجل يجب أن تذهب بعد فترة قصيرة إلى إقليم عسير لتنظم قواعد الحكم على نسق الحكم في الحجاز. فمنذ سنة ١٩٢٦ كان هذا الإقليم يتمتع بحماية اسمية تحت حكم الإدريسيين ولكن تم الاتفاق بعد ذلك مع السيد حسن الأدريسي رأس هذه الأسرة على وجوب تغيير نظام الحكم إلى نظام أكثر كفاية وخاصة فيما يتصل بالرقابة على الموانئ وبجباية الضرائب والرسوم التي خفضت تحت الحكم الإدريسي إلى نسبة ٨٪ من القيمة المسموح بها شرعاً، في مواجهة نسبة ٢٠٪ (أو أكثر في حالة التبغ وبعض أنواع خاصة من السلع) التي كانت مفروضة في جدة. وكان انخفاض نسبة الرسوم الجمركية في عسير مقروناً بصعوبة حراسة الحدود قد أدى إلى تهريب كثير من السلع إلى داخل الحجاز وقد استدعى مدير مالية عسير وهو مواطن ممتاز من أهل خميس ومشيط يدعى عبد الوهاب أبو ملحة، إلى مكة المكرمة لكي يعده ويدربه الشيخ عبدالله السليمان للقيام بواجبه الجديد ويبصره بمسؤليته المقبلة ولقد كان من المتفق عليه أن أية محاولة لرفع الرسوم الجمركية في

عسير إلى مستواها في جدة لا بد وأن تؤدي إلى تحويل نشاط المهربين إلى حدود اليمن. ولهذا حددت نسبة ٩٪ من قيمة السلع كمعدل عام للرسم الجمركي في موانئ عسير، بشرط أن يحصل على السلع التي يعاد تصديرها من هذه الموانئ إلى الحجاز فرق الرسم الجمركي في جدة وهو ١١٪. وكانت مهمة عبد الوهاب أن يدبر الوسائل العملية التي تكفل تنفيذ هذا الاتفاق تنفيذاً فعالاً.

وكان لا بد لنا من المكث في القصر عندما يكون الملك صائماً لكي نؤدي جماعة صلاة المغرب التي كان من المعتاد أن نأكل معه بعدها في صالونه الخاص برفقة كثير من أبنائه، مما كان يتيح لنا فرصة سعيدة إذ كان الملك أباً ممتازاً في صفاته، سيان هذا في حياته الخاصة والعامة، فكان دائماً على أحسن ما يكون مع الصغار من أعضاء أسرته ومن أبناء رعيته. وكان يدخل أحياناً أثناء انعقاد جلسة رسمية عامة صغير حبيب يخترق البهو دون ما أثر من خجل أو انزعاج، إما ليتلقى رسالة خاصة لوالدته، أو لمجرد أن يرتقي المقعد المجاور للعرش ويأخذ في اللعب بآلة التلفون أو بمقبض الناقوس أو بأي شيء آخر في جواره. وأحياناً كنا نمكث لنشهد الجلسة المسائية العادية للقراءة وما يتبعها من الحديث الخاص وعشاء من الفاكهة.

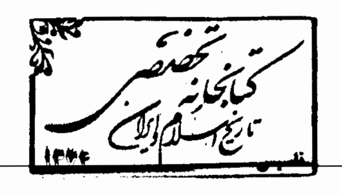
وعندما قدم الموز في إحدى المناسبات للملك قال إنه لم يذقه في حياته: ولكنه بعد توصية بإجماع الحاضرين، أخذ واحدة مقشورة وتذوق منها قطعة ثم ألقى بها إلى مكانها في امتعاض قائلاً متسائلاً دون أن يقصد شيئاً بذاته في الغالب: «هل صحيح أنه من المعتاد في أوروبا أن يعض العاشقون بعضهم بعضاً؟» وعندئذ لاحظ الملك إمارات الشك والحيرة على وجه أحد أطبائه، فظن أنه انزلق إلى تجارب غريبة ليس لها ذكر في تقاليد الحب العربية! ولكن ليس من المعقول أن تكون مثل هذه الأشياء

غريبة على الحجاز بحكم شعبه المدني الخليط من أجناس العالم، وبحكم المدة الطويلة التي عاشها تحت الحكم التركي، بينما كانت نجد في تلك الأيام بلاداً شديدة الحفاظ مبرأة من هذه الشوائب، كما كان تساؤل الملك مجرد تعبير بريء عن مدى دهشة واستغراب شعب يعيش في عزلة عما يجري في عالم ملحد من عادات وتقاليد.

وكان برنامج القصر يختلف أحياناً بالخروج في رحلات تتجاوز حدود النزهة العادية قبل غروب الشمس. ولقد بلغنا في إحدى هذه الرحلات بئر جعرانة التي تعتبر مع بئر التنعيم الأقرب إلى مكة المكرمة، مبدأ العمرة (أو الحج الصغير)، وإليها كان الحجاج وأهالي مكة يهرعون على الدواب (أو السيارات عندما اصبحت وسيلة الانتقال العادية) للاستحمام في البئر ثم يرتدون ملابس الإحرام قبل عودتهم للطواف والسعي.

وقد اشتهرت هذه البئر بصلاحية مائها للشرب إذ يجري بين رمال الجرانيت في الوادي. وكان الملك بصفته خبيراً ممتازاً في أنواع المياه، لا يشرب غير مائها أثناء زيارته للحجاز، فكانت تملأ منها يوميًّا صهاريج تكفي حاجات قصره، كما كان في نجد لا يشرب إلّا من بئر واحدة هي بئر حصى في وادي حنيفة على بعد بضعة أميال من الرياض، حيث كان الماء يأتي خلال طبقة صخور رملية محتوية على عناصر جيرية مستمدة من الصخور الجيرية التي تتكون منها الطبقة العليا. وهكذا نجد أن البئرين المفضلتين لديه لم يكن بينهما تماثل ملحوظ فيما يتصل بنوع المياه، رغم أنه كان يقرر دائماً أنهما وحدهما في بلاد العرب كليًّا تحتويان على ماء موافق لصحته.

كان الملك يزعم أنه يكاد يكون خبيراً في الشؤون الصحية العامة، بينما كان يصرح بأن أباه الذي توفي في سنة ١٩٢٨، كان عالماً في فن



الطب اليوناني، الذي لم يكن أدنى مستوى من فن الطب الأوروبي - **كما كان من الأسرة الملكية طبيب آخر شهير هو تركي بن سعود جد الملك الأكبر**، الذي قسم الإنسان بالنسبة لتكوينه إلى أربعة أقسام: الدموي، والسودوي، والبلغمي، والصفراوي، وكان يضع نفسه بين الفئة الأخيرة. ووجد بالتجارب أن الصبر (خلاصة قشور بعض الأشجار) دواء عظيم لجميع الأدواء الداخلية، وكذلك هو فعال للاستعمال من الظاهر لتطهير الجروح القذرة أو المتقيحة. هذا وقد سبق أن تحدثنا عن استسلامه للحجامة مرتين في السنة، كما كانت الأيام المفضلة لهذه العملية هي أيام ٢٥، ٢٧، ٢٩ من الشهر الهجري، لأن أشعة القمر تؤثر على مجرى الدم في الإنسان بنفس الكيفية التي تحكم بها المد والجزر في البحار. هذا ولا أستطيع أن أذكر حالة واحدة قبل فيها الملك أن تجرى له عملية الكي بالنار، رغم أنها كانت طريقة عامة معروفة للعلاج في بلاد العرب، وفي نجد خاصة. وكذلك كانت تتبع في العلاج طريقة أخرى هي قراءة بعض الآيات القرآنية على المرضى والمصابين بواسطة رجال أخصائيين، وكثيراً ما سمعت الملك يعبر عن اقتناعه بأنها وسيلة فعالة من وسائل العلاج. ومع هذا، ورغم حب الملك لهذه الوسائل القديمة لمكافحة الأمراض وعلاجها، فإننا لا نغالى إذا قلنا إن القصر الملكي يحتوي على كنز ذهبي من الطب والصيدلة في أحدث اشكالهما الأوروبية. وفي ذلك الوقت كانت ميزانية مصلحة الصحة، خلاف إدارة الحجر الصحي، نحوا من ٢٤,٠٠٠ جنيه (ذهب)، وكان الأطباء عشرين طبيباً سمح لهم بالعمل الخارجي. وقد اختص مستشفى مكة المكرمة بخمسة منهم، فضلاً عن طبيبة لتعالج المرضى من النساء. وبديهي أن عدد الاطباء هذا قد بلغ اليوم ثلاثة أو أربعة أمثاله، وانهم انتشروا بين أنحاء المملكة، ورغم هذا فما زالت هناك مناطق واسعة لم يصل إليها

العون الطبي بعد، كما أن هناك ميلا ملحوظاً بين الأطباء السوريين والمصريين، الذي يكوّنون الغالبية منهم، إلى تفضيل العمل في المدن توخياً لخدمة عياداتهم الخاصة ولقدر أكبر من الراحة والمتعة.

وفي رحلة أخرى كانت أبعد شقة بلغنا المضيق أو وادي الليمون، كما يسمى في أحيان كثيرة نظراً لكثرة بساتين الليمون فيه، وهو من أجمل وديان الحجاز. بدأن الرحلة مبكرة في الصباح، وكان الملك جم النشاط مبتهجاً لتخلصه من العمل اليومي ونمط الحياة في المدينة ولو لليلة واحدة كانت أكثر ما يستطيع أن يقتطع من وقته. وكان مضيفاً الملك في هذه الزيارة هما عبدالله أبو يابس وعلي بن حسين من أشراف الحارث وقد خرجا على الشريف حسين وآزرا الفتح الوهابي مؤازرة جدية في سنتي ١٩٢٤، ١٩٢٥، ولهذا كان لهما مركز ممتاز في القصر. وكانت العادة أن تقضي مثل هذه الزيارات في الجلوس، ولكن هذه الجلسات الجميلة التي كنا نرتشف فيها القهوة قبل أن نلتئم حول مائدة الطعام المعدة لنا لم تكن أقل جمالاً من أن تبعث الإعجاب في نفس الملك، بينما كان الأكثر نشاطاً منا يقضون اليوم بين أدغال النخيل وغياض الليمون، أو يزورون عين البردان التي يعتمد عليها كل هذا الزرع النضير. وبعد زيارتي السابقة لهذه البقعة في سنة ١٩١٧ فإن مضيفينا الكريمين قد شيدوا منازل فسيحة حسنة المنظر بدل المنازل القديمة التي كانت تشبه الأكواخ. وكانت حجرة الاستقبال في دار عبدالله أبي يابس ذات مشربية كبيرة تطل على منظر جميل من الوادي، ومقسمة إلى قسمين يعلو أحدهما الآخر بنحو ١٨ بوصة ويفصل بينهما قوس عريض من طراز مكي أصيل، ولكن أجمل ما كان في هذا البناء هو الشرفة الفسيحة البارزة من جانب الدار المواجه للوادي وقائمة على جزء منبسط من قمة التل .

وكان الملك يجلس عصراً في هذه الشرفة ليعقد الجلسة كالمعتاد

ويستقبل زائرية المحليين إلى ما بعد غروب الشمس، حتى إذ أدى صلاة المغرب ذهب سيراً على الأقدام بين حرسه الخاص إلى منزل علي بن حسين القائم على رأس تل مجاور حيث كان جلالته يتناول العشاء ويقضي الليل وكان العشاء يقدم في الشرفة الكبيرة عند مقدمة الدار، بينما كانت القهوة تقدم داخل الدار في حجرة فسيحة مريحة الأثاث. وكان الحضور يتصرفون تدريجاً حتى لا يبقى مع جلالته إلّا أربعة منا. وقد حدث أن انهمر مطر غزيز (٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر) أثناء الغداء، كما تساقط المطر مرة أخرى في الليل، بينما كانت السحب الداكنة تطوق التلال المجاورة مؤذنة ببداية طيبة لفصل الشتاء وأشجار ليمونه الخضر الداكنة، حتى احتجب وراء حواجز التلال. بدأ الملك يتحدث عن النساء اللاتي عرف وأحب! ولست أدري هل كان الدافع إلى هذه الحالة الوجدانية هو الجمال الماثل في الطبيعة حولنا. أو الجو المنعش النقي إثر المطر، أو مجرد شعوره بغيبة أزواجه ومحظياته؟ وقال الملك إن المسلم الكامل قد يجزي بسبعين من الحور العين في الجنة، كما يسمح له بأن يختار واحدة من أزواجه في الدنيا لكي تصحبه في الخلد! ولكن نظراً لحياة جلالته غير العادية، فقد كان هناك ست من أزواجه يرجو أن يبيح له ربه الرحيم صحبتهن والاحتفاظ بهن فيما وراء الحياة. وكان قد أعد قائمة بأسمائهن جاءت في أولها زوجه الجميلة الأولى بنت الفكري التي توفيت بعد ستة شهور من زواجهما منذ خمسة وستين عاماً دون أن ينساها قط: وهذا ما تظفر به امرأة في بلاد العرب! وجاءت بعدها بنت الشيخ ووالدة الأمير فيصل، وهي من أصل وهابي ولحقت كذلك بربها منذ مدة طويلة، وكانت الثالثة هي جوهرة بنت مسيعد التي توفيت في سنة ١٩١٩، وهي سنة الرحمة، عندما انتشر بين أرجاء البلاد وباء الحمى الأسبانية الذي ذهب بثلاثة من أبناء الملك منهم تركي ولي عهده وقتئذ. وكانت هذه

الزوجة من الأسرة المالكة وبنت عم الملك، بينما كان أخوها، حاكم حائل الآن، أحد من رافقوا الملك في الغزوة التي استرد بها الرياض منذ نصف قرن. وكانت الرابعة هي حصة بنت سديري التي ما زالت في عصمته حتى اليوم كأخصب زوجاته جميعاً: وهي أم لسبعة من أبنائه ومثلهم من بناته، كما أنها نفسها من بيت امتاز بتزويد أمراء بني سعود بزوجاتهم، بينما لا تتزوج بنات هؤلاء الأمراء إلّا من الاسرة المالكة. أما الخامسة فقد نسيت اسمها عندما أردت تدوين حوادث هذا المساء، بينما السادسة لم يذكر عنها شيئاً قط، وذلك على الأرجح لأن الوقت كان متأخراً والنوم قد غلب الملك. وقد سمعت مصادفة بعد ذلك وفي السنين الخيرة من الملك نفسه وصفاً آخر لوضع الأمور في الجنة يختلف بعض الشيء عما سلف، إذ يكون وفقاً لهذا، عدد أزواج الدنيا اللاتي يسمح للمسلم الصالح بصحبتهن أربع أزواج لا واحدة، ولكن كيفما كانت هذه الأوضاع، فإن الذي أدهشني كشيء بارز شاذ في ذلك الوقت أن هذه الجماعة الصغيرة من الأصدقاء الذين امتازوا بسماع هذا الحديث الوجداني من رجل ناجح سعيد بأزواجه العديدات، لم يكن لكل منهم إلّا زوجة واحدة شديدة الغيرة تستطيع الدفاع عن حقوقها الاحتكارية! وكان الملك أبعد ما يكون عن تقديم أي مبرر لنظام حياته، لأنه كان مقتنعاً بأنه نظام، لا مرغوب فيه فحسب، بل وممكن تطبيقه بسهولة مستشهداً على صحة قوله بما يسود بيته من توافق ووئام، دون أن يضمن نظام تعدد الزوجات العوامل الاقتصادية التي لم يدخلها في حسابه! وكان من السهل على الملكات الزوجات اللاتي تقيم كل منهن في قصرها الخاص أن تتزاورن وأن تقوم علاقات ودية بينهن، بل وأن تقوم هذه العلاقات الطيبة بين أولئكن الأزواج بين المحظيات اللائي تشاطرهن عطف الملك ورعايته، ولكن هذا عكس ما يكون في منازل الطبقة

المتوسطة التي تحشر فيها أزواج عدة يضيق بهن المكان نظراً لضغط ظروف الحياة دون أن تظفر واحدة منهن بإشباع كامل في أية ناحية. أما الملك فإنه سلم في شيء من السرور بأن حديثه مع أزواجه، باستثناء الحديث القصير عن الحياة الزوجية الخاصة، لم يزد عن الأحاديث العادية في أية ناحية، ولم يكن من الصعب تصور المنظر من وراء ستار، على نسق ما يجرى كل يوم في ضوء هذا المسرح حيث يقوم الملك بتمثيل جميع الأدوار الرئيسية مع فريق يقابل عواطفه وخلجاته برضا مستمر مشفوع بالاستحسان والشكر. ولقد كانت حياة الملك العامة والخاصة منظمة تنظيماً دقيقاً يشمل أصغر الأمور، كما كان من الثابت أن الأسلوب النمطي الذي اختاره لنفسه فيه ما يرضيه تماماً، رغم ما فيه أيضاً مما يقيد حرية حاكم مطلق. إنه كان يرتبط بشيء حتى يتخلص من كل الحفلات المنزلية التي تستلزمها المناسبات العادية كالزواج والميلاد، وكان عادة ينتقل إلى المعسكرات ليبتعد عن الطريق قبيل حلول هذه المناسبات التي كانت لا شك كثيرة لدرجة تبعث على الدهشة في أسرة كبيرة كأسرته. وكان غيابه بطبيعة الحال مزيداً من الحرية لهؤلاء الذين يعنون بمثل هذه الحفلات التي كانت تنطوي على كثير من دق الطبول والغناء والرقص وغيره مما كان ينفر منه شخصيًّا. وكان حتى في حالة الميلاد، لا يرى الوليد إلّا بعد أن يبلغ عمره بضعة أيام، بينما كان يزور زوجته أحياناً ليستفسر عن صحتها وحاجاتها.

وبعد هذه الملاحظات المنزلية التي ذكرها جلالة الملك بنفسه طواعية واختياراً في هذه الأمسية التي قضيناها في جلسة خيالية في وادي الليمون، فإني أود أن ينتهى هذا الفصل عند هذه الزيارة التي قام بها الملك لمكة المكرمة والتي كانت وقتئذ تقارب نهايتها، وكان على الملك أن يقضي شهر رمضان والفترة التي بينه وبين موسم الحج التالي في الأرض

المقدسة، ولكن كانت هناك فسحة من الوقت للقيام بزيارة قصيرة إلى نجد لتبين مدى تقدم الاستقرار والأمن في الصحراء منذ الضجة والفزع الذين تعرضت لهما بسبب ثورة فيصل الدويش في السنة الماضية. ولقد استطاعت مصلحة المالية في شيء من الصعوبة أن تعد الوسائل المالية ووسائل الانتقال لهذه الرحلة. وفي يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٣٠ بارح الركب الملكي مكة المكرمة في قافلة متجهاً صوب الرياض.

الفصل الحادي عشر

الرحلة إلى الرياض

كانت الرحلة إلى الرياض رحلة رجل أعزب، إذ قرر جلالته أن يسافر خفيفاً سريعاً وأن يترك السيدات في مكة المكرمة ينتظرن عوده. وقد استغرق السفر ذهاباً وإياباً نحواً من أسبوع: وهو يعتبر سفراً سريعاً بالنسبة لتلك الأيام، ولو أنه ليس قياسيًّا في سرعته بأية حال، إذ كان من المعلوم أن السيارة تقطع هذه المسافة حوالي ٩٠٠ كيلومتراً في ٢٦ ساعة إذا سارت ليل نهار. وقد استمرت الإقامة في الرياض اربعة أسابيع وكان الملك في نهاية هذه المدة تواقاً للرجوع إلى أهله وأسرته لأنه لم يحذو حذو أخيه عبدالله في زيادة عدد أزواجه. كان عبدالله قد تزوج فتاة في الرابعة عشر من عمرها هي بنت سعود بن الرشيد، الذي قتله ابن عم له في سنة ١٩٢٠، ولو أنه أعلن عن عزمه في أن لا يصحبها إلى مكة خشية المشاكل التي لا بد ناشبة بينه وبين زوجه الأولى البالغة من العمر أربع وعشرون سنة والتي ولدت يتيمة إذ قتل أبوها متعب بن الرشيد في معركة حائل التي جاءت في أعقاب موت أبيه عبد العزيز في معركة روضة مهنا سنة ١٩٠٦. وكان عبدالله قد أتم بهذه الزيجة الجديدة عدد الأزواج اللاتي يبيحهن له الشرع، إذ كان له زوجان أخريان: إمرأة من بريدة هي بنت من أسرة أبي الخليل التي كانت ذات سطوة وحول من قبل، وامرأة أخرى من

بنات مطير (قبيلة الشبلان). وبديهي أن كان له غير اولئك جوار ومحظيات في القصر، كان في استطاعة الملك أن يجد بينهن سلوة عن وحدته لو لم يكن قد لزم أسلوب الحياة الزوجية وحياة الأسرة المنتظمة الرتيبة منذ تقاعده عن الحياة العسكرية العاملة، الذي يرجع إلى تاريخ فتح الحجاز عندما اضطلع نفسه بقيادة الجيش لآخرة مرة.

وكان الصيد قد اصبح إلى حد ما بديلاً لحياة المعسكرات القديمة، بحيث كان المعتاد أن نخرج كل يوم في هذا الشهر الشاتي متجولين في البقاع المجاورة لصيد الطيور كالحبارى والقطا وغيرهما كالأرنب مصفارة اللون. وإني لا أذكر أنني رأيت غزالاً واحداً خلال المرات العديدة التي خرجنا فيها للصيد، ولكن على المرء أن يسير إلى ما وراء هذا بكثير كي يجدها في رمال الدهناء وعلى جانبي الصحراء. ولم تكن رحلات الصيد هذه في عمومها باعثة على السرور والارتياح، خاصة إذا راعينا أن المرء كان يجلس بين سبعة أفراد في عربة ذات سبعة مقاعد قد رفع سقفها وشدت ستائرها الجانبية وقاية من البرد القارس. أما أنا فكنت أنتقل إلى سيارة الأمير عبدالله المفتوحة بحيث كان من المستطاع أحياناً أن نضرب طائراً يسبح في جوف الهواء، الأمر الذي كان يختلف عن طريقة الملك إذ كان يحمل بندقية قصيرة ذات مشط معبأ بخرطوش رقم ١، وتظل السيارة في سيرها حتى يبدو الصيد فنتوقف ويبدأ الملك في إطلاق بندقيته على الطير وهو واقع على الأرض. وكان عنصر التسلية الوحيد في هذه الرحلات هو هذه الصقور التي نحملها إلى البقعة المعلومة ثم نخرجها فكانت تنثر ريشها وتنفخ أوداجها في شكل من العظمة كأنما تريد أن تنازل العدو تواً، ولكنها كثيراً ما كانت تولي ظهورها متلكئة فلا تطير إلّا في آخر لحظة، وعندئذ تبدأ السيارة تتعقب الصقور في سرعة بالغة خطرة فوق طرق غير ممهدة حتى تتخذ الفريسة لها ملجأ من مطارديها وراء جذع شجرة لتجد بندقية موجهة إليها من داخل سيارة واقفة لها بالمرصاد. ولم

تكن هناك فرصة للبزاة لكي تبدي سرعتها وحذقها، ولهذا فكثيراً ما كانت تطير لتقع على صخرة نائية برمة غاضبة بحيث كان يتعين على المدربين عندئذ أن يحاولوا إغرائها بالعودة إلى أيديهم بالتلويح لها بجناح أو ورك حباري يحملونه معهم - وذات مرة كنت أصحب الأمير عبدالله فأطلق بازيا ليطارد حباريًّا وطالت المطاردة حتى اختفى البازي والفريسة وراء رمال التي لا تستطيع السيارة السير فوقها، ولم يسفر البحث الطويل عن كشف مقر البازي واعتبر في حكم المفقود، ولكن في اليوم التالي عندما كنا نتجول في المنطقة ذاتها رأينا قافلة صغيرة في طريقها من الأرطاوية إلى الرياض ولم يلبث أن اندفع أحد رجالها مسرعاً يعدو نحو الأمير عبدالله رأساً صائحاً: «أنباء طيبة عن طائرك!» وقد نال هذا الرجل مكافأة حسنة وسر الأمير كثيراً لمعرفة مقر طائر الثمين الذي كانت شهرته كافية لأن يعرفه الأجانب في الطريق. وثمة طائر آخر للصيد يسمى «الهر» وهو شهير معروف في نجد. هذا ولم أشهد صيد الغزلان بواسطة البزاة ولم أسمع عنه، ولم أر بزاة تدرب لهذا الغرض، رغم أن هذه الرياضة كانت شائعة في البلاد المجاورة للصحراء العربية. وقد أصدرت الحكومة العراقية قانوناً يمنع الصيد بالسيارات، ولكن الملك كان مسموحاً له، رغم أنه كان من الواضح لديه ولدى كل المراقبين، أن البلاد لا بد من أن تتعرض لانقراض ثروتها الحيوانية في غيبة الرقابة وعدم وضع حدود على مشروعات صيد هذه الحيوانات. ولقد وقع المحظور بحيث لا بد من أن يتجول المرء مسافة واسعة وراء المناطق المطروقة لكي يظفر برؤية الغزلان، بينما انقرض نوع الوضيحي السنين الأخيرة من المناطق الشمالية، كما اختفت النعامة الكبيرة من بلاد العرب كلها. ورغم هذا فليس هناك من يعني بهذا المأساة أو يأبه لها!

هذا وقد ذهبت عبثاً كل الجهود التي بذلت للقضاء على الجراد: ابتداء من الوسيلة البدائية التي تتمثل في أكلها إلى الوسائل الحديثة التي

تستخدمها لجنة مكافحة الجراد الدولية التي تعمل في بلاد العرب منذ السنين الأخيرة.

ولقد سمعت كمبرر لوجود هذه اللجنة أن عملياتها أسفرت حقيقة عن إبادة كميات ضخمة من هذه الحشرة، هذه حقيقة لا شك فيها، ولكنها لا تختلف في طبيعتها عن حقيقة أخرى تتمثل في أنني أقتل كل يوم في الرياض مئات من الذباب، دون أن يكون لهذا أثر حقيقي في عدد الذباب الذي يبقى بعد ذلك مصدر أذى ومضايقة لي ولغيري من الناس. ويعتقد العرب أن الجراد يخرج من فم السمك، تبعاً لقول بعض الفقهاء، وأني أعتقد أن في هذا القول شيئاً من الحقيقة لو فسر تفسيراً صحيحاً، لأن الجراد يأتي من الجنوب من «فم الحوت». والعرب يعرفون بيض الجراد وفقسه، وهو النطاط، ثم مجنحاته وتسمى «الخيفان» عندما تكون الحشرة نحيفة هزيلة غير صالحة للأكل. والمعتقد أن الحشرة في هذه الدرجة تكون قصيرة العمر وغير قادرة على التكاثر، رغم أنها تكون نهمة تأكل كل شيء تصادفه قبل أن تبارح منازل الناس وتختفي عن عيونهم لتنمو إلى الجراد الصالح للأكل الذي يتلف المحاصيل الزراعية ويضع البيض لدورة تالية. **ويقول المثل العربي: «إننا نأكل الجراد، والجراد يأكلنا!»**. وذات مرة كنا نصطاد عصراً في الصحراء فدهمتنا عاصفة ونحن بصدد التفكير في تناول الطعام بعد الظهر مباشرة، إذ أخذت سحب زرقاء داكنة، بقدر ما يستطيع المرء أن يتخيل هذا اللون، ترتفع متوعدة بعيدة فوق الأفق من الناحية الشمالية الغربية لتتحرك دانية منا في تؤدة وجلاء.

وعندئذ قرر الملك أن نرجع بسرعة إلى ناحية «خشم العن» المجاورة. ولكن لم تسعفنا السرعة اللازمة، وآثار عاصف الرياح رمال الوادي حوالينا ثم بدأ المطر رذاذاً قويًّا ولم يلبث أن أنهمر غزيراً كثيفاً لمدة ساعة صيرت الصحراء جنة ذات جداول وأنهار: كان منظراً رائعاً

يشرح الصدر. وكانت بعض السيارات قد اتجهت إلى مرتفعات وادي السلى عندما لاحت إمارات العاصفة، بينما عاد البعض الآخر إلى القصر من أقصر الطرق عندما كان العود مستطاعاً، ثم اتضح لسوء الحظ أن سيارة المطعم كانت من هذا الفريق وقد أقلعت السماء فجأة كما صبت ماؤها بحيث لم يبق لنا إلّا نعود جائعين. وكانت كل الوديان الصغيرة التي تتخلل الطرق مملوءة بالماء فغاصت سيارة الملك مرتين وغمرها الماء حتى آلتها، بينما لم تنج السيارات الأخرى من مثل هذا. وكانت مهمة الرجال والحرس أن يخلصوا السيارات من هذه الورطة. وطبيعي أن تكون سيارة الملك هي التي سحبت أولاً حتى إذا ما تم لها العبور وقفت لتنتظر خلاص السيارات الاخرى قبل أن تستأنف السير. وكان لا بد من أمثال هذه الأزمات للكشف عن النشاط الكامن في جنس قد تأثر فعلاً باتصاله بالحجاز وغذائه من دسم اللحوم، وكان بذلك يقترب من حافة الضعف الذي سيبدو قريباً في الجيل الثاني، ومع ذلك فهناك رجال معسكرات الصحراء الذين ما زالت ذكراهم قوية باقية منذ ربع قرن. هؤلاء الرجال من الطراز القديم يستطيعون أن يبعثوا هذا الجنس الأصيل من جديد إذا لزم الأمر. وعندما وصل الركب الرياض وجد قناة باثة قد فاضت وبعثت بماء دافق يتلاطم على أسوار المدينة. وكذلك وصلت تقارير تفيد بأن وادي حنيفة نفسه قد امتلأ بالماء.

كانت الرياض وقتئذ كما عهدتها منذ رأيتها للمرة الأولى، مع فارق واحد هو بناء حي جديد به حظيرة واسعة للسيارات مكان الركن الجنوبي الشرقي القديم الذي اجتث نخيله لتحل محله المساكن اللازمة. وكان الملك يسكن القصر القديم في وسط المدينة مشرفاً على السوق ومسجده الكبير، بينما كان هناك بناء قديم بين نخيل الباطن يستخدم كمنزل ريفي يخرج إليه الملك أحياناً بعد الظهر. وكان عدد سكان

عاصمة الصحراء يبلغ حوالي ثلاثين ألف نسمة ولم يكن هناك احتمال كبير لأن تتحول في بضع سنين إلى مثل هذه المدينة الكبيرة. كانت الرياض دائماً سوقاً للبدو منذ قديم الزمن، رغم أن السيارات تختلط اليوم بالإبل في ساحة القصر .**وقد قال الملك مرة ذات مساء**: «طالما كان القرآن بين أيدينا، فلا خطر على ديننا، وطالما كانت الإبل لدينا فلا خطر على شرفنا!» أما الذي جال بخاطره ساعتئذ، فأمر تصعب معرفته! فهل كان مدركاً لهذا الضعف الخفي الذي أخذ يتسلل إلى قواعد الأخلاق، إدراكنا جميعاً لاقتراب الإبل من مصيرها المحتم؟ إن الكفاءة في الميدانين لم يكن متكافئاً بين وازع الفضيلة وعامل الراحة والدعة، ولم يكن ثمة أي ريب في مصير المعركة، رغم أنها لم تنته بعد، ولكن الفضيلة أصبحت في مركز دفاعي لا يتفق في شيء مع ما كان لها من وسائل الهجوم في أوقات كانت أشد حرجاً، ولم تكد تنصرم سنة كاملة بعد أن تحطم في قسوة وعنف آخر هجوم قامت به.

وفي خلال ذلك كانت سيارة «المطعم» البطيئة قد عادت تبحث عنا بعد توقف هطول المطر، ولم تلبث أن تناولنا ما بها من طعام العشاء قبل انتهاء الرحلة إلى الرياض. ولقد شعر الملك بقارص البرد رغم ملابسه الثقيلة، وكانت افكاره تطوف حول الفراش ودفئه، بحيث ارتجل في هذه المناسبة وعن الموضوع بضعة أبيات من الشعر أشاعت المرح في نفوسنا. وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي رأيته فيها يقوم بدور الشاعر، ولكنه نفض عنه كلمات الاستحسان التي قوبلت بها أبياته قائلاً إنها من نبت الصحراء ومن طبيعة البدو. وقد لقي اقتراحي بمحاولة جمع الشعر والقصائد التي هي من وحي الصحراء قبولاً فاتراً، رغم أنني اكتشفت أن الدكتور أحمد ياسين طبيب مستشفى الرياض كان يقوم بكتابة قصائد غزلية بدوية كثيرة، وكان يدعى أحياناً ليلقي منها مختارات

مناسبة وخاصة عندما يفتر الحماس في الجلسات التي كان يعقدها الملك. ولم تكن هذه القصائد سهلة الفهم نظراً لأسلوبها العربي المحلي، كما أنها لم تكن صالحة للطبع في أية لغة.

وكان الأمير سعود في هذه المناسبة يرتدي سترة فخمة مبطنة بالفراء ومحاكة على الطراز الأوروبي لتقيه البرد، فتفضل بسؤالي عن رأيي فيها! ولم يكن لي إلّا أن أبدي إعجابي بها لأنها كانت حقيقة سترة جيدة غالية، ولكني لم أكد أنتهي من قولي حتى كان الأمير قد خلعها وناولني إياها قائلاً» «خذها، إنها لك، عندي سترة مثلها في البيت!» وهكذا أصبحت هذه السترة لي» وكانت ذات قيمة كبيرة في الأيام التالية الشديدة البرد مع العلم بأن درجة الحرارة الدنيا في هذا اليوم لم تنقض عن ٤٦، ولكن برودة الرياح القارصه في الصحراء لا يمكن أن يعرف حقيقتها إلّا من يكابدها، لأن مجرد قراءة مقياس الحرارة في الظل لا تعكس قط صحيح أثر هذا النوع من البرد على جسم الإنسان. ولقد اخبرنا الملك في جلسة المساء أن أول من حياه متلهفاً مستفسراً عن صحته بعد هذه الرحلة وما صادفه فيها من قسوة الأحوال الجوية كانت عمته طرفة إحدى البنتين الباقيتين في قيد الحياة من أبناء الامام فيصل بن سعود الكبير الذي توفي سنة ١٨٦٥، والثانية أخت لها تصغرها قليلاً توفيت سنة ١٩٣١، كما توفي زوج طرفة المسن وهو ابن عمها نصر بن فرحان في سنة ١٩٣٩. ولقد سجلت في ذلك الوقت بناء على معلومات الملك الذي يعتبر ثقة في هذا الموضوع، أن طرفة قد بلغت في سنة ١٩٣١ الخامسة والثمانين من عمرها، ولكني غيرت هذا الرأي نتيجة الأبحاث التي قمت بها بعد ذلك، إذ اتضح أنها انها تصغر ببضع سنين والد الملك وهو الامام عبد الرحمن ابن فيصل الذي ولد في سنة ١٨٥٠، وحيث أنها ما زالت تبين بحيوية ونشاط فإن عمرها لم يزد عن التاسعة والستين، أو أنها كانت تكبر

الملك بخمس وعشرين سنة، ولم يكن في قيد الحياة فرد من الأسرة المالكة في سن بين سنيهما. وكان لها ولدان[١] كما كانت تتمتع باحترام وإجلال ملحوظين كسيدة مثقفة وكأحد حماة الدين الأقوياء المتعصبين.

ولقد قال الملك: «إن الغرض الأول لحضوري إلى الرياض في هذا الوقت هو أن أراها!» وعندما سئلت بعد ذلك بعشرين سنة إذا ما كانت تزمع السفر إلى مكة المكرمة للحج، أجابت، كما يقال: «لا شك أنني سأذهب إذا ذهب عبد العزيز!» وقد استطرد الملك من مديح هذه السيدة العجوز وإطرائها إلى ذكريات الحب والنسائيات، وأخذ يقول: «إني أحب أسرتي حباً جماً، ولكني لا أدعهم يشعرونه بذلك دائماً! ولكن ماذا تفهمون أنتم من الحب؟ أنتم الذين تتزوجون امراة واحدة وتنامون على فُرش متعددة! إن ليل الشتاء الطويل قد يكون قصيراً أحياناً!» ولكني أعرف عكس ذلك عن الملك إذ كثيراً ما سمعته في الشتاء يشكو طول الليل الذي ينتهي بالنسبة لجلالته عند مطلع الفجر أو قبل ذلك بقليل. ولقد كان متوسط عدد الساعات التي ينامها في الأربع والعشرين ساعة يتفاوت بين خمس وست ساعات ونصف موزعة على ثلاث فترات: ساعتين بعد منتصف الليل، وساعة بعد صلاة الفجر، وساعتين بعد الظهر، ويزداد مقدار كل منها نسبيًّا في كل حالة لتبلغ المتوسط الأعلى. وكان جلالته يقول إن النوم سنة من الموت تنساب إلى الحياة، فلماذا نستزيد منها؟ والجواب على ذلك أن جلالته لا يستطيع، حتى لو أراد، أن يجاري من هم أكثر حظاً إذ يستمتعون بمزيد من النوم دون أن يشعروا بتعب أو خطيئة. إنه كذلك يعترف بهذا ويعزو عدم قدرته هذه إلى العادات التي لزمها منذ شبابه الذي قضاه في المغامرات العسكرية.

---

(١) محمد بن ناصر ما زال حيًّا، والأخر عبدالله وقد توفي.

وانتهت هذه الأمسية باقتراح تقدم به يوسف ياسين، يحفزنا إلى عمل ما هو أكبر وأكثر مشقة بين حين وآخر كالسير إلى وادي السلى حيث كنا بعد ظهر اليوم نفسه. وقد ردّ الملك على هذا الاقتراح بقوله: «حسن جدًّا، إني أمنحك مائتي جنيه (ذهبا بالطبع) إذ ذهبت إلى هناك ورجعت في الفترة ما بين الآن وبزوغ الشمس!» وكان في تحديد الوقت ما جعل المشروع أمراً مستحيلاً، ولكن الملك عاد إلى التحدي في شكل آخر **قائلاً: «إني أعطيك ثلاثمائة جنيه إذ ذهبت الآن تواً وقضيت الليل في مغارة أبي مخروق!»**. وكانت هذه المغارة عبارة عن تلال تبعد حوالى ثلاثة أميال عن المدينة وتفصل بين مفاوزها فواصل تجعل منها ما يشبه حجراً متسعاً لدرجة تكفي لمرور السيارات، وكانت مكاناً محبوباً للنزهة وتناول الطعام في وضح النهار، ولكنها كانت مشهورة بأنها مباءة للجن والأرواح الشريرة في الليل بحيث لم يكن أحد يجسر على المرور منها أو النزول بجوارها أثناء الليل، بله المكث أو المبيت فيها. ولكن يوسف لم تكن تعوزه الشجاعة، فقبل التحدي بشروط قائلاً. «إني مستعد لأن أفعل، لو سمح لي بأن آخذ معي ثقاباً ووقوداً للتدفئة وفراشاً للنوم، وبأن أصحب رفيقاً!» قال الملك: «حسن اني أعطيك جارية قوية جميلة لتذهب معك، ولتحتفظ بها لمثل هذه المناسبات، ثم التفت جلالته إلينا وقال. «أما من ناحيتي فإني لا أرضى بالذهاب والمبيت هناك مقابل مائة ألف جنيه!» عندئذ قلت متسائلاً. «لماذا»؟ فأجاب جلالته منكراً مستغرباً. «لماذا! خوفاً من الجن والأرواح الشريرة!» ولم يكن هناك ما يثير الشك في أن جلالته كان جاداً في قوله! ولسبب ما ترك الموضوع مؤقتاً، ولكن لكي يعود حوله الحديث أكثر حرارة في المساء التالي إذ تمسك يوسف بعرضه ولم يتراجع، وعندما بدأت اللعبة، ووقع الاختيار عليّ وعلى الدكتور محمود لكي نصحب يوسف إلى باب القصر حيث وقفت سيارة فورد على استعداد للسير وقد

وضعت فيها لفة ضخمة تحتوي على لوازم النوم، بينما كان غشام، احد رقيق الملك، يضع القيود الحديدية حول قدمي فتاة تعسة، هي جارية سوداء جميلة، كتب عليها أن تصاحب يوسف في محنته. وكان المعتقد أنها سوف تصاب بجنون. والواقع أنها كانت في حالة فزع ورعب لا حد لها، إذ ظنت أنها إنما تؤخذ لتقتل، هذه الفكرة التي لم يحاول غشام أن يبعدها عنها عندما وضع حبلاً حول عنقها ودفعها إلى داخل السيارة بجوار لفة الفراش. وقد حاول يوسف جهده أن يطمئنها ثم اتخذ مكانه إلى جوار السائق وهو يرجوها أن تجفف دمعها. وقد كنت موقنا بأن يوسف سيكسب الرهان، ولو أن الملك كان واثقاً أيضاً بأنه سيعود بعد فترة لن تطول، ولهذا أمر أن تبقي سيارة قريبة من المكان بقدر ما يجرؤ قائدها على الاقتراب منه، لتكون تحت تصرف يوسف إذا ما نكث ولكن الملك لم يكن محايداً في لعبته هذه إذ بعث ببعض أتباعه لكي يمثلوا الشياطين والأرواح الشريرة بقذف الحجارة وغيرها من الاعمال قرب المغارة. وكان اليوم التالي هو العيد الخامس لجلوس ابن سعود على عرش الحجاز، ولو أن الاحتفال بمثل هذه المناسبات لم يكن مباحاً في الرياض. ولكن الملك كان على أحسن حال في هذا اليوم، إذ كسب الرهان! إني لم أكد أصدق أذني عندما علمت أن يوسف قد رجع مع جاريته إلى المدينة بعد منتصف الليل في سيارة النجاة التي أعدت لهذا الاحتـ ل. وبناء على روايته عن هذه المغامرة فإن فشله يعزى إلى هذه اللفة الكبيرة من لوازم الفراش إذ حملها يوسف نحو المغارة التي لم يكن يعرف موقعها بالضبط في حالك الظلام. ولهذا قرر أن يعرف أولاً أين المغارة ثم يعود بعد ذلك ليحمل الفراش إليها. ولكنه بعد أن نجح في تنفيذ الشق الأول من قراره لم يستطع أن يعثر على الفراش المحزوم حيث تركه. وهكذا عادا إلى الكهف وقد عقدا العزم على أن يدفئا بعضهما بعضاً قدر

المستطاع بدون الفراش. لم تعوزهما الإرادة ولكن الليل كان حالكاً بارداً، والأصوات صاخبة مزعجة، وفشل الجسمان في أن يوفر كل منها للآخر الدفء اللازم. وكانت الحرارة قد دبت في بدن يوسف إثر الجهد الذي بذله في حمل لفة الفراش. ولكنه لم يلبث أن شعر ببرودة شديدة مصحوبة بألم خفيف في الكليتين عندما مرت بهما سيارة النجاة وكأنه كان معها على ميعاد، فاستوقفها وطلب إلى قائدها أن يساعده في البحث عن الفراش، أما وقد رفض قائد السيارة بذل هذا العون المطلوب، فقد طلب إليه يوسف أن يحمله وصاحبته في سيارته ويعود بهما إلى المدينة، وعندئذ كان قد خسر وكسب الرهان في آن واحد. أما بالنسبة لصاحبته جميلة، فكان كل شيء لديها حسناً طيباً ما دامت نهايته حسنة طيبة. وقد وجدت في كنف يوسف حياة سعيدة بعد ذلك، أو في بعض الأوقات على الأقل، لأنه لم يستطع أن يأخذها معه إلى مكة المكرمة خشية ما ينشأ عن ذلك من مشكلات في بيته هناك. ولكن العذاب الذي تعرضت له هذه الجارية قد أزعجني لما فيه من قسوة لا مبرر لها، بينما ابان يوسف بعمله هذا عن هلع وخوف شديدين. وكذلك لم يأل الملك جهداً في أن يخسر يوسف الرهان، إذ بعث بأتباعه إلى المغارة، رغم أنها خدعة كان في مقدور أي طفل أن يكشف عنها النقاب، ولعل جلالته خشي وقوع حدث يعكر الصفو مما دعاه إلى إرسال سيارة النجاة. وهو ما كان يجب أن يتلف لعبته.

هكذا كانت الناحية السهلة الخفيفة من الحياة في الرياض. وكان يبدو أن مهام الملك والقيام عليه لم تكن تثقل عاتق الملك. وكان واجب كل فرد في القصر أن يؤدي صلاة الفجر مع جلالته في حجرة صغيرة واقعة مباشرة فوق مسجد القصر الذي كان الإمام يؤم المصلين فيه، أما صلاة الجمعة فكان جلالته عادة يؤديها في المسجد الكبير، فيبارح جناحه بالقصر في حرسه الخاص إلى المكان المعد لجلالته فوق الجزء الغربي من

المسجد الذي كان يصل إليه بواسطة جسر مرتفع يربط بين جزئي المسجد عبر السوق. وكان هذا المكان ممتداً بقدر اتساع المسجد.

ولكنه لم يكن يتسع لأكثر من صفين طويلين من المصلين كانا يتكونان من أعضاء الأسرة المالكة والاتباع والخدم. وكان الإمام يؤم المصلين هنا أيضاً من المسجد أسفل هذا المكان، بحيث تظل النوافذ مفتوحة لكي يسمع المصلون صوت الإمام، أما القبلة فكانت ترتفع من المسجد إلى الطابق الأعلى، وليس هناك ضرر في أن تكون بعض صفوف المصلين في مستوى أعلى من مكان الإمام، ولكن قد لا يجوز أن يكون الإمام في مستوى يعلو هذا الذي يقف فيه أي فريق من المصلين. وكان من عادة الملك أن يطيل صلاته بعد أداء فريضة الجمعة، بينما كانت تجلس بقية المصلين بعد صلاة ركعتي السنة مستندة إلى الجدران في انتظار انتهاء جلالته من صلاته، وكذلك يقف أحد الأتباع أو العبيد ممسكاً بحذاء جلالته وعصاته عندما يهم بالانصراف. وكان جلالته شديد المحافظة على مواعيد الصلاة وكل المواعيد المتصلة بالمسائل الدينية، ولكن كان من النادر جدًّا أن يؤم جلالته المصلين، ولهذا كان يصحب دائماً إمام القصر إلى المعسكرات وفي كل رحلات الصيد وفي كل أسفاره ونزهته. وبهذه المناسبة فليس هناك من الناحية العملية قاعدة معمول بها فيما يتصل بخلع الأحذية أو عدم خلعها عند دخول المساجد، إنما هذه الأشياء اتفاقية تقليدية. فإذا كان الإنسان يلبس صندلاً، فالعادة أن يقذف به من قدمه على عتبة المسجد، إلّا إذا كانت أرض المسجد من الحصباء الخشنة كما هي الحال في مساجد الرياض، بل ومساجد نجد عموماً، فمن المباح أن يبقى الحذاء في القدمين. ومن الناحية الأخرى فلم يكن هناك حظر على لبس الحذاء الطويل أو القصير في ساحة المسجد نظراً لصعوبة خلعه ولبسه ثانية، الامر الذي شاع بعد أن اعتاد الجيل الجديد ارتداء أحذية من طراز أوربي .**أما جلالة الملك فكان يلبس النعال «الصندل»** في هذه الفترة

وكان يخلعه دائماً على باب المسجد، وعندما اضطر جلالته لارتداء الجوارب نظراً لآلام قدميه، فإنه كان يرتدي فوقها نعلاً منزليًّا (شبشب) كان يخلعه عند دخوله المسجد أو دخول قاعة الاستقبال.

وذات يوم تحوّل الحديث إلى شرق الأردن وثورة عدوان في سنة ١٩٢٣، فقال يوسف ياسين، الذي كان في عُمان في ذلك الوقت، بأن اللواء العربي، في غيبة بيك باشا، كان على استعداد للانضمام إلى الثوار إذا ما لاحت له فرص مناسبة. ولقد عارضت هذا الرأي الذي بدا لي لا أساس له، بينما أخذ الدكتور محمود يكيل المديح لضباط هذا اللواء، مثل فؤاد سليم وغيره، الذين كانوا يظهرون الولاء للأمير عبدالله وللإنكليز ويأخذون منهم مرتباتهم، بينما كانوا في الواقع يقضون كل وقتهم في العمل ضدهم وفي حفز جنودهم على التمرّد والعصيان. وعندئذ تدخل الملك بعبارة تبين عن شديد استنكاره لمثل هذا السلوك، ولكن محموداً أصرّ على رأيه مصرحاً بأنه لا يحجم عن مثل هذا العمل. ولا يعنيه أن يزج به في جهنم من أجل ذلك وعندئذ نهره الملك في شدة لمثل هذه الخطيئة وأمره منكراً غاضباً ان يستغفر الله، ففعل متأففاً بعد نقاش دل على عقلية هذا الطبيب الذي انقلب سياسيًّا.

واتفق أن كان الشريف حسين وقتئذ في عُمان وعرف مما نشرته صحف بغداد وعزمه على زيارة العراق. وقد نشرت إحداها ثلاث مقالات كتبها نفسه في العقبة منذ ست سنين مضت، اشتملت على هجوم عنيف على ابن سعود والإنكليز. ولقد قرئت هذه المقالات كلها على الملك أثناء جلسة قصيرة في مقصورته الخاصة، فحملته على كثير من الضحك والسرور. ولكن لم يكن من صالح العراق بقاء الرأي العام قويًّا والروح المعنوية عالية في نجد رغم التجارب التي مرت بفيصل الدويش وأتباعه. وذات يوم. التقيت بكل من ماجد بن ختيك ومطلق بن زيد، وهما من

جماعة الإخوان الذين عفا عنهم الملك، فتحدثا إليّ في هذا الموضوع قائلين: «لماذا لا يسمح لنا هذا الرجل (يعنيان آل سعود) بالذهاب إلى المشركين يعنيان العراق والبريطانيين»؟ «فقلت لهما: «وماذا يعود عليكم من هذا؟ إنهم سوف يسحقونكم بمدافعهم الآلية وطائراتهم!» وكان ردهما: «ولكن الجنة ستكون مأوانا بعد ذلك!» ولم أستطع إلّا أن أقول: «وماذا يحدث لهؤلاء بذهابكم إلى الجنة جميعاً؟» وبغض النظر عن رأي الملك فقد كان الاستياء تجييش صدور سكان الصحراء من جراء هذه القيود المفروضة على نشاط الإخوان وحماستهم في خدمة الدين، وكان لا بد من تحقيق قدر متزايد من الرخاء لكي ينهنه من تطرفهم ويلطف من وقدة شعورهم حيال هذه الأشياء أو غيرها. ومن العسير القول بأن هذا كان خطأهم أنفسهم! لم يكن هذا خطأ الرجل البدوي الجاهل الأمين الذي ظل لاكثر من ربع قرن يلقن في كل وقت وكل مكان، إن أكرم الرجال وأفضلهم هم الذين يقتلون أكبر عدد من المشركين، ثم يقال له بعد ذلك ولغير ما سبب واضح معقول أن يكف عن قتل المشركين! لقد وعدهم الدرس الأول الجنة بعد الموت، بينما عرفوا من الدرس الثاني كم كان يسيراً عليهم أن ينعموا في الحياة بجزء من نصيبهم في الجنة! والواقع أنه لو كان لمثل هذين الرجلين اللذين تحدثا إليَّ اختيار، لاختارا قطعاً الوسيلة الأولى ولاتبعا ما وعياه من الدرس الأول! وكثيراً ما كنت أعجب وأتساءل عن تصحيح عقيدة قدماء الأبطال، مثل فيصل بن حشر من قبيلة قحطان الذي لزم جانب الملك في الرياض في تلك الأيام، وعن حقيقة آرائهم في النظام الجديد؟ ولقد اشتهر هذا الرجل بأنه قتل مائة رجل في معركة واحدة، مثله في ذلك صاحبه فيصل الدويش الذي كان وقتئذ يعاني مرارة السجن على بعد رمية حجر من القصر. ولقد اتبع ابن حشر طول حياته نظاماً صارماً لكي يبقى على ألفته واعتياده للحياة القاسية الخشنة،

كما أخبرني أنه ما زال لا يشرب الماء عادة إلّا مرة واحدة كل ستة شهور، ولكنه كان يشرب لبن الإبل والغنم إذا شعر بحاجة بدنه إلى السوائل.

وكان من بين هؤلاء الأبطال خالد بن لؤي الذي كان أسعد حظاً إذ كان يعمل في الخدمة العسكرية على الحدود اليمنية الكثيرة الاضطراب، حيث انتقل إلى جوار ربه هناك بعد بضع سنين على أثر إصابته بالحمى في أحد معسكرات تهامة ومناطقها غير الصحية. ولا شك أن سياسة ابن سعود المتساهلة اللينة إزاء المشركين كانت مما لا يمكن أن يسيغه أصلاً ممثلوا أحد عصور البطولة البارزة في التاريخ العربي. ولا شك كذلك في أن خضوع هؤلاء الأبطال للنظام الجديد وسيرهم في صف منتظم مع الأمة، هو من أبرز الدلائل وأقطع الحجج على عظمة ابن سعود وقوة عزيمته وشخصيته.

لقد مرت الأيام ولم يؤخر ارتحالنا عن الرياض إلّا عجز مصلحة المالية عن إرسال كميات البترول والزيت اللازمة لمثل هذه الرحلة الطويلة، واخذنا في غضون ذلك نستنفد كل ما كان معداً هناك لرحلات الصيد الملكية. أما فيما يتصل بشخصي فإن تأجيل السفر لم يكن ذا أهمية كبيرة، لأن برنامجي لم يشمل العودة إلى الحجاز في الركاب الملكي، إذ عرفني الملك قبل مبارحة مكة المكرمة بأنه سيأمر باتخاذ الإجراءات اللازمة لكي أقوم بزيارة الربع الخالي في الشتاء المقبل. ولهذا فإني كنت، بالاشتراك مع الشيخ يوسف ياسين، في شغل بإعداد كل ما يلزم لهذه الرحلة، وبتجهيز الأشياء الأولية التي تضمنت اتفاقيتين مهمتين: نصت الأولى على انتفاء كل حق لأسرتي في مطالبة الحكومة بتعويض لو قضيت نحبي في هذه المحاولة، ونصت الثانية على أن جنسيتي الإنكليزية ليس من شأنها أن تبيح للحكومة البريطانية أي حق في ضم المناطق التي اكتشفها والتي أضع لها خرائط. ولم تكن هناك صعوبة في الاتفاق على هذه الشروط، بينما اقترحت بالنسبة للاتفاق الثاني أن يرأس هذه البعثة من

الناحية الشكلية مواطن نجدي بدلاً عني. وكان كل شيء قد جهز وفق رغباتنا، كما كان من المفهوم أن أبدأ رحلتي بعد سفر الملك إلى مكة المكرمة. وكان من المتوقع أن أعود إلى مكة في الوقت المناسب للحج، ولكن كان المستطاع تأجيل الحج إلى السنة التالية، بينما لم يكن هناك وقت يسمح بتأجيل الكشف عن مناطق الربع الخالي خاصة وقد بلغني أن برتران توماس، الذي كان يعمل في مسقط حينئذ، قد اتخذ أهبته للقيام بنفس الرحلة في الاتجاه المضاد، ولو تم كل شيء كما كنا نود لتقابلنا في الغالب في المنطقة التي سماها الدكتور هوغارت «أكبر الأصقاع في بلاد مجهولة تماماً للعالم خارج المناطق القطبية». ولكن لم يحدث شيء من هذا، إذ استدعاني الملك قبل الميعاد المحدد لسفره الى مكة المكرمة بأسبوع، وقال إن لديه أخباراً سيئة لي: كانت قبيلة مرة مشتبكة في الصحراء مع قبيلة الدعكي على حدود عُمان المتاخمة، وأن الغزوات من الجانبين سوف تجعل الربع الخالي منطقة خطرة، ولهذا يجب أن تؤجل رحلتي. كانت هذه مفاجأة محزنة أتاحت لتوماس، الذي لم يعرف شيئاً عن اضطراب الأحوال في الصحراء، الشرف والفخار في أن يكون أول أوروبي اخترق الصحراء الجنوبية الكبرى لبلاد العرب، بدون إذن الملك أو علمه.

وهكذا قضينا بضعة أيام في الصيد، وبضع ليال في الحديث والسمر، حتى حل يوم ١٧ كانون الثاني/ يناير حيث تحرك المركب الملكي قاصداً مكة المكرمة، فقطع في اليوم الأخير ٣٩٠ كيلومتراً في سرعة كبيرة، ووصل إلى مكة المكرمة بعد ساعة من غروب الشمس يوم ٢٠ من الشهر، وهو اليوم السابق لحلول شهر رمضان. ولقد تمت الرحلة في سرعة أكبر بكثير مما تتطلبه الراحة أو السرور، ولم تزد من متعتها هذه العواصف الرملية المتلفة، ولا سحب الغبار التي كانت تثيرها سيارة الملك المندفعة في المقدمة.

الفصل الثاني عشر

الصوم والحج

عندما بلغ الركب «السيل الكبير»، وهو المكان الذي يجب على القادمين من نجد أن يستبدلوا بملابسهم فيه أردية الحج «وهو الإحرام» قبل دخول مكة المكرمة، خلعنا جميعاً ملابسنا التي علاها غبار السفر الطويل من الرياض وبدأنا نغتسل في الاكواخ الحجرية المعدة لهذا الغرض. ثم ارتدينا ملابس الإحرام للعمرة، أو الحج الصغير، قبل أن نستأنف المسير. أما وقد وصلنا قصر المعبدة فإني وجدت ابن سعود هناك، وكان قد توقف ليجدد وضوءه استعداداً للاشتراك في المراسم الدينية، فاستأنفت السير مع آخرين لنكون في استقبال جلالته عند الحرم الشريف. وهكذا أتيحت لي الفرصة للمرة الأولى أن أشهد هذه المراسم في ركاب جلالته: ولقد رأس جلالته الطواف حول الكعبة الشريفة وإلى جانبه الشيخ عبدالله بن حسن قاضي قضاة مكة المكرمة. أما فيما يتصل بالسعي سبع مرات بين الصفا والمروة والمسافة بينهما تبلغ ٣٨٠ ياردة تقريباً (اي أن مجموع المسافة التي تقطع في السعي يزيد قليلاً عن ميل ونصف ميل) فإن الملك أجاز السعي بالسيارة من قبل، ولهذا فإنه ركب سيارة وإلى جانبه الشيخ عبدالله تحركت بهما على مهل بحيث تسنى لنا أن نتبعها ونسير إلى جانبها، بينما كان راكباها يترجلان كل مرة عند الصفا

وعند المروة ليدعوا بالدعاء المعروف المقرر عند سلم البناء الذي يشبه المعبد والذي يميز التلتين اللتين يسعى الناس بينهما في المكان التقليدي حيث كانت هاجر تبحث عن الماء في يأس وقنوط (للطفل) إسماعيل. وبعد انتهاء مراسم الحج عدنا إلى القصر حيث أقيمت وليمة لمائتين من الضيوف، لم يحضرها إلّا ثلاثون منا إذ انصرفت بقية حاشية الملك وأتباعه إلى منازلهم. ولم ينصرف الضيوف إلّا بعد الظهر وعندئذ سنحت للملك فرصة الاتصال بسيدات القصر.

أما أنا فقد ذهبت إلى بيتي الصغير في الجرول واستسلمت لنوم منعش عميق صحوت منه الساعة الثالثة صباحاً لأصحب وزير المالية ورفاقه عبر الطريق لتناول وجبة السحور في أول يوم صمته: ولم يكن الصوم شاقاً نظراً لبرودة الجو وقصر النهار في شهر كانون الثاني/ يناير. وعلى أية حال فقد صحوت بعد الظهر على رنين ناقوس الهاتف لأحدث الملك ولاستمع إلى تفضل جلالته بالسؤال عني ودعوتي لتناول إفطار معه، وكان عبارة عن قليل من التمر وقدح من الماء وبضعة أقداح من القهوة قبل صلاة المغرب، التي توجهنا بعدها إلى المقصورات الخاصة للعشاء. وكانت هذه اجراءات، إلى جانب جلسة مسائية قصيرة تستمرحتى منتصف الساعة الحادية عشرة ثم الجلستين العاديتين في الصباح وبعد الظهر، هي الوسائل التي نقضي بها الأيام العادية من شهر رمضان: ولكن هذا البرنامج كان يدخل عليه تغير يتمثل في قيام الملك بزيارة الحرم لاداء فريضة العشاء هناك، ثم صلاة التراويح والوتر، ثم ينصرف سكان مكة وجدة إلى أعمالهم العادية، بحيث ينقلب الليل نهاراً، فيأخذون في البيع والشراء ويزورون بعضهم بعضاً، ويتجولون في الأسواق حتى ميعاد السحور، ثم يأوون إلى مضاجعهم بعد صلاة الفجر لنوم طويل كما يشتهون. وطبيعي أن هذه الاحتفالات لم تكن في النطاق الذي نعهده في المدن الإسلامية الكبيرة مثل القاهرة واسطنبول: ولكنها

كانت تختلف كثيراً عما يجري في نجد وفي دوائر القصر التي لم يختلف برنامجها اليومي عنه في الشهور الأخرى. ولقد تاخر يوسف ياسين مرة عن حضور جلسة الصباح، فأرسل في طلبه ليلقى جزاء تراخيه، وحكم عليه فعلاً بالعمل طوال اليوم لمدة أسبوع في القصر! ولقد عدل عن هذا الحكم بناء على التماس يوسف نفسه ووعده بأن لا يتخلف بعد ذلك. وكان العنصر غير النجدي وهو الغالب في الدوائر الحكومية، كغيره من موظفي العالم لم يألف هذه الحال، ولهذا كان الموظفون يقضون معظم النهار في النوم استعداداً لنشاطهم الليلي. وكثيراً ما قضيت الليل كله ساهراً كي أستفيد من الهدوء الشامل في أداء عملي.



غلوب باشا

وكنت وقتئذ آخذاً في الاشتراك تدريجاً، ولكن دائماً بطريقة غير رسمية، اشتراكاً فعالاً فيما يصح اعتباره بحق مجلس الملك الخاص الذي كان يناقش كل الاجراءات الأولية في مختلف الشؤون الحكومية توخياً لاتخاذ خطوات مناسبة تتفق مع قرارات الملك، مثال ذلك أن جلالته طلب مني أن أتحدث إلى يوسف ياسين في الطرق والوسائل التي تكفل زيادة إدراك الصحافة البريطانية لمشاكل البلاد واتخاذها موقفاً وديًّا من الحكومة الوهابية حيال الخلاف القائم بينها وبين حكومتي العراق

وشرق الأردن: وخاصة السياسة التي اتبعها الصاغ غلوب (غلوب باشا الآن) على حدودها منذ فترة وكان من شأنها أن تقوض ولاء القبائل المقيمة على الحدود وأن تسبب متاعب جمة لحاكم ولاية الجوف وقتئذ وهو تركي السديري. ولم يكن من العسير إغراء البدو من القبائل واجتذابهم طول الحياة بواسطة سياسة سخية تقوم على المصروفات السرية والإعانات، لأن هؤلاء كانوا يعيشون دائماً تحت خط الفقر على حافة الموت جوعاً وليس لهم مورد رزق خاص يعتمدون عليه في قوام حياتهم. ورغم أن الحدود قد وضعت على الخرائط بعد الاتفاق عليها،عدا أن هذه الخرائط لم تكن تحمل تاريخاً معيناً، وكانت هناك مشاكل حول الآبار وغيرها من البقاع التي لم تكن في الواقع على جانبي خط الحدود المبين بخطوط الطول والعرض والذي كان المعتقد أنها تقع على جانبيه. وطلب إليّ الملك أن أضع خريطة عربية لهذه المنطقة استعداداً لحضور البعثة العراقية برئاسة نوري باشا السعيد، رئيس الوزراء، الذي وافق جلالته على حضورها تلبية لبرقية من الملك فيصل.



نورى باشا السعيد

ولم تكن هذه المفاوضات لتبدأ إلّا بعد انتهاء شهر رمضان، وكان وقتئذ أهم موضوع انصرف إليه الاهتمام من الناحية السياسية هو المحادثات الجارية لوضع مشروع معاهدة صداقة مع إيطاليا، كان يرجى أن يوقعها في روما الأمير فيصل أثناء رحلته المزمعة إلى أوروبا في الصيف. وقد تم وضع المشروع على نسق القواعد العادية لمثل هذه المعاهدات، ولو أن سابقة المعاهدة البريطانية التي عقدت في جدة سنة ١٩٢٧ كانت تهدد ببعث صعوبات خاصة، مثال ذلك أن هذه المعاهدة قررت اعتبار النص الإنكليزي للمعاهدة هو المرجع الذي يعتمد عليه في فض أي خلاف ينشأ حول تفسير أحد موادها، إذ أصرّ السير جلبرت كلايتون على هذا الشرط ونجح في تحقيقه، ولكن الحكومة السعودية قررت أن لا تقبل شرطاً كهذا في أية معاهدة تالية تعقد مع أية دولة أخرى، ولم يتمسك السنيور سولازو المندوب الإيطالي، وأول وزير ايطالي لدى البلاط السعودي بعد ذلك، بهذه النقطة وسلم بأن يكون النص ايطالي والنص العربي على قدم المساواة مرجعاً لتفسير النصوص.

وثمة عقبة أخرى تمثلت في طلبه معاملة إيطاليا بصفتها، «أولى الدول بالرعاية»، وهو ما لم يكن مستطاعاً بالنسبة لبعض الامتيازات الخاصة الممنوحة لبريطانيا تحت ما يسمى «القوة القاهرة» وخاصة في مسألة الرقيق وكان أقصى ما يمكن منحه للسفير الإيطالي في جدة هو الامتيازات والأوضاع المعروفة في القانون الدولي العام على سبيل التبادل. وقد اقترح المندوب الإيطالي وضع فقرة ينص فيها على التعاون بين الدولتين لمكافحة تجارة الرقيق، ولكن هذا الطلب لم يلق قبولاً، وعندئذ اقترح أن يتم على الأقل تبادل خطابات تتضمن هذا الطلب من ناحية ورفضه من الناحية الأخرى وكان من الجلي أن الحكومة الإيطالية إنما رمت من وراء إقحام هذا الموضوع في أي شكل كان، إلى أن تبين

للعالم أنها لم تقصر في الاهتمام به. ولكنها اضطرت آسفة إلى قبول وجهة نظر الحكومة العربية في رفض طلبها، إذ كان يوسف أكثر ذكاء وحذراً من أن يقيد نفسه بمثل هذه المشكلة، وأقنع السنيور سولازو بأن حكومته لن تسمح، بأي ثمن وفي أية معاهدة تعقد في المستقبل، لأية دولة أجنبية بأن تتدخل في هذه المسألة، وعندئذ بذل سولازو محاولة أخرى مشيراً إلى أن معاهدة جدة سوف يعاد النظر فيها بعد بضع سنين، ومؤكداً ليوسف انه لو قبلت الحكومة البريطانية حذف هذه الفقرة من المعاهدة عندئذ، فإن إيطاليا سوف تحذو حذوها بكل سرور، إذا ما وافقت الحكومة العربية على وضع مثل هذه الفقرة في المعاهدة الجارية المفاوضات بشأنها. ولكن يوسف لم يوافق على شيء من هذا، وكانت النتيجة أنه لم يرد ذكر لمشكلة الرقيق في المعاهدة ولا في أحد ملحقاتها. وهكذا انتصرت وجهة النظر العربية. هذا وكانت إدارة الشؤون الخارجية قد اعدت على هذا النسق مشروع اتفاقية مع فرنسا كي يوقعها الأمير فيصل في باريس أثناء رحلته الصيفية. وكان الأمير فيصل نفسه أثناء غياب أبيه في الرياض وخلال شهر الصوم قد أجهد قواه لأكثر مما تحتمل فأصيب بمرض الحمى الذي ذهب بمجرد شفائه منه إلى رحلة صيد في وادي رقبة. وكذلك كان نائب الملك في جدة، فؤاد حمزه، الذي وقع على عاتقه إعداد معظم مشروع الاتفاقية، يعاني وقتئذ مرضاً في الكبد، اضطره لمغادرة بلاد العرب في رحلة للاستشفاء إلى لبنان: وكان على يوسف ياسين أن يقوم بأعماله التي ضمها إلى الإدارة السياسية التي يشرف عليها بمكة.

وكانت هناك بعد ذلك مشكلة خطرة تمثلت في انخفاض مستمر في قيمة العملة الفضية الرسمية، وكانت كل الأحوال تبين عن احتمال تعرض سعر صرف الريال لانخفاض كبير أثناء موسم الحج يصيب منه الصيارفة والتجار أكبر ربح على حساب الحجاج وتكبدهم الخسائر، ما لم تتخذ

إجراءات حازمة وصارمة للحيلولة دون ذلك. والواقع أن الريال السعودي قد أصدر قبل ذلك ببضع سنين بقيمة تعادلية بينه وبين الجنيه الإنكليزي الذهب تساوي نسبتها ١ : ١٠ وكان الريال السعودي في أول أمره يساوي الريال المجيدي التركي في حجمه وفي وزن الفضة التي يحتوي عليها، ثم تغير حجمه بعد ذلك فأصبح مساوياً لحجم الروبية الهندية الفضية في كل النواحي رغم أن هذه قد خفضت قيمتها أخيراً. وكانت قيمة الريال قد انخفضت عندئذ بحيث أصبح الجنيه الذهبي يساوي ثلاثة عشر ريالاً سعوديًّا. وعند عودتي من زيارة قصيرة لجدة طلب إليّ الملك ان اشترك في لجنة برئاسته لاتخاذ الإجراءات الكفيلة بحماية العملة من التعرض لانخفاض أكبر. وكانت مقدمة الإجراءات التي انحسرت عنها دراستنا للمشكلة تبين في جلاء عن أن الأزمة النقدية ليست إلّا نتيجة للحيل والخداع، فأخذنا في تقرير عقوبات على جميع الصيارفة والشركات التجارية (بما فيها الشركات الأوربية) وأصحاب المحال التجارية الصغيرة في حالة رفضهم قبول الريال وأجزائه (الريال يساوي ٢٢ قرشاً سعوديًّا) بقيمته المعدنية. وكان يبدو لي أن التهديد بالعقوبات لن يكون ذا أثر كبير، وأن السبيل الوحيد لخفض قيمة الذهب إلى مستواها القانوني، هو فرض الحظر على إصداره. ولكن هذا الاقتراح لم يلقَ قبولاً! مع ملاحظة أن اثنين على الأقل من أعضاء اللجنة كانا من مصدري الذهب بدافع من ضرورة تمويل وارداتهم من الهند وغيرها.

وكان إصدار العملة وشحنها في السفن تقليداً عاديًّا في تلك الأيام بين تجار الحجاز الذين كانوا يحاولون بذلك تجنب الدفع بواسطة الوسائل المصرفية أو تمويل تجارتهم بواسطة الكمبيالات الخارجية. وكما كان المتوقع فإن القانون الجديد ولد ميتاً وبلغت الأزمة درجة خطيرة في موسم الحج التالي إذ انخفضت قيمة الريال بنسبة كبيرة مما

أدى إلى قيام كثير من الصعوبات وإلى مر الشكوى. وكان هذا التطور نتيجة حتمية لضعف أساس في الإدارة السعودية تمثل في أن كثيرين من موظفي الحكومة كانوا في نفس الوقت تجاراً لحسابهم الخاص، ولهذا كان لا معنى من أن تكون نظرتهم ودراستهم للمقترحات وسائل الإصلاح قائمة على دافع من المصلحة الخاصة وفي ضوئها.

وكانت تبذل في هذا الوقت محاولات صادقة لتهدئة المياه المضطربة بين مصر والمملكة العربية السعودية، وكان حسن بك الأشموني نائب القنصل المصري في جدة دائم التنقل بين البلدين يحمل اقتراحات غير رسمية من الجانبين لتسوية الخلاف القائم بينهما توخياً لعدم إحراج أحدهما، ولكن المطامع الكبيرة التي جاشت بصدر الملك فؤاد قامت عقبة كؤودا في سبيل التفاهم حتى أن زيارة الشيخ مصطفى المراغي، شيخ الجامع الأزهر، لم تسفر عن أي تحسن، رغم الاجتماعات السياسية والمحادثات الودّية المتعددة بينه وبين ابن سعود.

ولكن الشيخ بعد عودته إلى مصر أعلن تصريحاً عزاه لجلالة الملك مؤداه أنه لا يعارض مطلقاً في تنصيب الملك فؤاد خليفة للمسلمين! والواقع أن مثل هذا التصريح لم يصدر ابداً عن آل سعود، ولكن الذي قاله جلالته أنه شخصيًّا على استعداد لقبول الملك فؤاد أو شخص غيره كخليفة متى كان ذا كفاية وأهلية لمنصب الخلافة! وهذا شيء يختلف تماماً عما قاله شيخ الجامع الأزهر! وقد وقع حادث قبيل انتهاء شهر رمضان كان من أثره أن ازداد سوء التفاهم السائد تعقداً، إذ وصلت السفينة المصرية «عايدة» إلى ميناء جدة دون ما إشارة من الحكومة المصرية، والغالب أنها وفدت في مهمة تعيين مواضع للعلامات والأضواء. والواقع أنني سمعت قبل ذلك ببضعة أسابيع عن زيارة هذه السفينة من زوج القبطان الانكليزية التي كانت ستصحبه في هذه الرحلة

مع أميرال بريطاني في خدمة الحكومة المصرية وابنته، وقمت من ناحيتي بنقل هذا الخبر لجلالة الملك، وكنت أسأل جلالته بين آن وآخر عن الموعد الصحيح لوصول هذه السفينة. وفي يوم ٧ شباط/ فبراير وصلت إليَّ إشارة تليفونية من جدة تنبئ بوصول الباخرة «عايدة»! وقد أثار تبليغي هذا النبأ للملك طنيناً تجاوب بين أرجاء قصر المعبدة. وكان بديهيًّا أن حسن الأشموني لا بد أبلغ الحكومة رسميًّا عن هذه الزيارة التي كانت في حاجة إلى تصريح من الحكومة السعودية وفقاً للقواعد الدولية. وقد زاد المسألة تعقدا الارتياب في أن الوزير البريطاني المفوض كان على علم بوصول هذه السفينة، ولو أن السير أندرو ريان نفى قطعاً أية صلة رسمية له بهذه الحادثة، وعندئذ كلف يوسف ياسين بعلاج هذه المشكلة وفق التقاليد الدبلوماسية، وأرسلت تعليمات إلى جدة بعدم وجود تصريح رسمي ولوجود هذه السفينة في الميناء أو التجول فيه. ثم لم تلبث أن قدمت للحكومة السعودية الترضية اللازمة بواسطة الوزير البريطاني، وانتهى الحادث بأن قدم الملك للسفينة هدية سخية من الغنم والأرز والخضروات لإفطار البحارة في رمضان. وعندما أخذ شهر رمضان يقترب من نهايته أخذت كذلك الصبغة الدينية للصوم بتنفيذ البرنامج الكامل للوجبات الدينية، ففي الثلثين الأولين من الشهر لم تكن تقام صلاة جماعة بعد صلاة التراويح والوتر التي كانت تعقب فريضة العشاء مباشرة. ولكن ابتداء من يوم ٢١ رمضان حتى نهايته وهي الفترة التي فيها ليلة القدر (٢٧، ٢٩ رمضان على الأرجح) التي هي خير من ألف شهر، أضيف إلى الصلوات السابقة صلاة القيام التي تبتدئ حوالي منتصف الليل وتستمر بضع ساعات ويطول فيها السجود. وفي أحد هذه الأيام ذهب بعضنا إلى منى بعد جلسة العصر، وعادوا إلى القصر عند صلاة المغرب وأفطروا مع الملك - وصلاة المغرب هي ثلاثة ركعات وركعتان

(اختياريتان) - ثم توجهنا إلى الحرم الشريف لأداء الفريضة وهي أربع ركعات تسبقها ركعتان تحية للمسجد وركعتا السنة، وتتبعها صلاة الغائب وركعتا سنة أخريان. ثم حل ميعاد صلاة التراويح وهي عشرون ركعة وتركت صلاة الوتر لتأتي بعد صلاة القيام. وبعد هذا حضرت جلسة الملك المسائية القصيرة ثم ذهبت إلى منزلي لأستريح قليلاً قبل أن أعود ثانية في الساعة الواحدة صباحا لأداء صلاة القيام وهي: (١) ركعتان تستمرّ كل منهما عشر دقائق تعقبهما فترة خمس دقائق تقدم أثناءها القهوة والشاي حيث نجلس، (٢) ركعتان كالسابقتين تعقبهما فترة مماثلة تقدم فيها المرطبات، (٣) أربع ركعات تستمرّ كل منها عشر دقائق تتخللها فترة للقهوة والبخور (٤) ركعتان تستمرّ كل منهما سبع دقائق لا تتخللهما استراحة، (٥) ركعتان عاديتان، (٦) ركعة أخيرة عادية (٧) ابتهال ودعاء طويل يستمرّ ربع ساعة ويؤم فيه المصلون على دعوات الإمام المكفوف بين الركوع والسجدة الأخيرة: وقد استمرّ كل هذا البرنامج حوالي ساعتين، وانتهى هذا المساء بتناول فئة صغيرة منا وجبة السحور مع جلالة الملك ثم انصرفنا إلى منازلنا لأداء صلاة الفجر ثم للنوم عقب هذا المجهود الكبير. يتضح مما سبق أن العشر ساعات، وهي الفترة بين غروب الشمس وطلوع الفجر، يقضي منها لا أقل من أربع ساعات في الصلاة، أو بعبارة أخرى أن أربعين ساعة تقضي فعلاً في الصلاة أثناء عشرة الأيام الأخيرة من رمضان. وبديهي أن أقوى الأجسام بنية يكابد جهداً شاقاً بسبب هذا المنهج، ولكنه على عكس الصلوات الخمس، ليس فرضاً أو إجباريًا، بل اختياريًا. والواقع أنني لم أشترك في هذه الشعائر إلّا مرات خلال هذه الأيام العشرة، بينما ضرب الملك لشعبه أحسن المثال في هذا، إذ لم يتغيب قط عن صلاة التراويح وصلاة القيام طوال شهر الصوم.

ولقد دار حوار، وشهر الصوم يقارب نهايته، حول إمكان رؤية الهلال الجديد بعد غروب شمس يوم ٢٩ رمضان، ولقد تنبأت بعد دراسة دقيقة لتقويم الأيام، بأنه لن يرى في هذا المساء. ولكن الملك أرسل اثنين من البدو حديدي البصر ليجوبا بأعينهما السماء بحثاً عن الهلال الجديد من فوق سطح حصن المعبدة المواجه للقصر، وقد عاد الرجلان دون أن يراه أحدهما، ولكن رجلين من مكة المكرمة زعما أنهما شاهدا الهلال، فارسلهما الملك فوراً ليقررا هذه الحقيقة أمام الهيئة المختصة التي لم تأخذ بشهادتهما إذ لم ترد أية إشارة برؤية الهلال من أي مكان آخر، وتقرر أن يكون شهر الصوم ثلاثين يوماً. ويجب أن نذكر هنا أن بناء المحطات اللاسلكية سابقة الذكر قد أدى إلى اتساع مجال رؤية الهلال الجديد لدرجة كبيرة، بحيث ازدادت أيضاً مثل هذه المزاعم التي ألقي على القضاة المحليين بواجبات تحقيقها وإثبات صدقها وإبلاغ النتائج إلى الجهات العليا، بينما كان للملك القرار الفاصل بعد التشاور مع قاضي القضاة في مكة المكرمة أو في الرياض. ومن الغريب أن كانت الناحية الشمالية الغربية من البلاد هي في الغالب مصدر أمثال هذه الأنباء عن رؤية مريبة، وخاصة قرى العلا وتبوك التي ابتكر بعض رجالها وسيلة خاصة بهم لمراقبة حركات الهلال أثناء النهار، إذ كانوا يضعون في العراء صفيحة مملوءة بالماء تلتقط انعكاس الشمس والقمر، فإذا كان القمر وراء الشمس عند الظهيرة، فإنهم يبقونها حتى الغروب إذ تتاح لهم فرصة طيبة لرؤية الهلال إذا كان الجو صافياً. ولقد كانت هذه الوسيلة ابتكاراً طيباً أكثر منها أداة لا تخطئ وبينما استطاعوا أن يسجلوا عرضاً بعض النجاح، فإن مزاعمهم لم تكن دائماً محلاً للتصديق. ففي سنة ١٩٥٠ مثلاً تأيدت قراراتهم من جهات عدة، ولكنها رغم هذا نقضت إذ رأى الملك بعينيه الهلال في الرياض يبزغ في الصباح قبل الشمس بحوالي ساعة.

وعلى أية حال فإن يوم ١٨ شباط/ فبراير كان يوم الصوم الأخير وكان اليوم التالي أول أيام عيد الفطر، أو الاحتفال بانتهاء الصوم. ويوجد في جميع المدن الكبيرة في بلاد العرب مصلى خاص لأداء صلاتي العيدين كل سنة، يسمح لجميع الذكور من السكان أن يصلوا جماعة، إذ تضيق بمثل هذا الحشد الكبير المساجد العادية. ولكن في مكة والمدينة فإن ساحات الحرمين التي تتسع لجموع الحجاج تستوعب بسهولة جموع السكان في العيدين. وتقام صلاة العيد بعد ساعة من بزوغ الشمس؛ ونذكر بهذه المناسبة أن عدد الذين جاؤوا للصلاة بلغ حوالي خمسين ألف مصلٍّ عندما حضر جلالة الملك مع حرسه ليتخذ مكانه في الصف الأول بين الحرس النجدي حيث وقف القضاة إلى جانبيه مواجهين الكعبة الشريفة. وفي خلال الركعتين اللتين بدئ بهما الاحتفال وقف موسى، وهو عبد ضخم من السودان أهداه للملك أحد أشراف مكة قبل ذلك ببضع سنين، يحرس سيده مسلحاً حتى أخمص قدميه؛ وبعد انتهاء الصلاة صعد المنبر الشيخ عبدالله بن حسن ليلقي خطبة العيد التي لا شك في أن تسعة أعشار هذا الحشد لم يسمعوا منها شيئاً. ولم يكن استخدام مكبرات الصوت الحديثة في تلك الأيام أمراً مكروهاً أو غير مرغوب فيه، رغم أن المساجد الكبيرة كان بها منادون موظفون ليسمعوا المصلين بأصواتهم القوية ما لا يسمعونه من صوت الإمام؛ ولكن مكبرات الصوت قد وضعت حديثاً في الحرمين المكي والمدني كوسيلة لزيادة توفير الراحة للجموع التي تؤمهما. وبعد تأدية صلاة العيد اتجه الملك إلى الثكنات الحكومية لحضور حفلة الاستقبال العامة ولتلقي التهاني والتمنيات الطيبة من أتباعه وموظفيه الذين كانوا يدخلون من باب ويخرجون من آخر يصافحون جلالته أو يقبلون يده أو أنفه أو جبهته. وبينما كان العامة يمرون هكذا، فإن الوجهاء وكبار الموظفين كانوا

يجلسون على مقاعد غصت بها القاعة لكي تقدم لهم القهوة والحلوى، بعد أن يجلس الملك الذي يظل واقفاً حتى يتم استقبال جميع المهنئين. وكان يجلس إلى جوار الملك من الجانبين صف طويل من القضاة ورجال الدين وبينهم النبلاء وذوو المكانة الخاصة **أمثال الشيخ عبد القادر الشيبي حامل مفاتيح الكعبة والسيد أحمد السنوسي أحد اللاجئين من الاضطهاد الإيطالي في وطنه برقة، حيث استولت ايطاليا في باكورة رمضان هذا على واحة الكفرة في المنطقة المحرمة.**

وفي غضون الأيام الأربعة لعطلة العيد تبادل أهل مكة المكرمة زيارات التهنئة، وكانت الحياة أكثر مرحاً وهدوءاً، وأخذ الناس بعد انقضائها يعودون تدريجاً إلى حياة العمل والتجارة العادية. وقد شهدت اجتماعاً صغيراً في القصر لدراسة برنامج الزيارة الملكية القادمة لجدة. وكان يجب أن ينتهي اليوم بزيارة جعرانة التي ذهب إليها معظم أنجال الملك فيما يشبه العطلة لكي يشرفوا على أعداد وليمة هناك تكريماً لأبيهم الذي كان علينا أن نصحبه إليها بعد الظهر مباشرة؛ ولكن عندما حضرنا إلى القصر علمنا أن الملك قد عدل عن هذه الزيارة لسبب مجهول، وكانت مفاجأة غير سارة لأبنائه الصغار المتحمسين الذين كانوا سيفرحون ويمرحون في يوم العيد أكثر ممن يكبرونهم من إخوتهم. وكانت هذه الزيارات التقليدية تبدو لي شيئاً مملاً حزيناً. وكان أول أيام العيد بعد الصلاة وحفلة الاستقبال مخصصاً للأسرة؛ وكان اليوم الثاني لهؤلاء الذين يقيمون بجوار الحرم الشريف والذين كانوا يلزمون منازلهم لاستقبال الزوار الوافدين من بقية أحياء المدينة؛ وكان اليوم الثالث مخصصاً للقاطنين بناحيتي الشامية والفلق وغيرهما من أحياء وادي إبراهيم لاستقبال المهنئين؛ وكان اليوم الرابع هو الذي يلزم فيه أهل الأجيد والجروى والمسفلة والمعبدة منازلهم. وكانت أمثال هذه

الزيارات شيئاً تقليديًّا شكليًّا بحتاً، إذ كان الرجل يدخل البيت ليسلم على صاحبه وأبنائه ثم يجلس برهة قصيرةً يتهيأ بعدها للخروج ثانية وهو يأخذ قطعة من الحلوى في طريقه من صينية موضوعة بقرب الباب. ولكن ملل وإقفار هذه الزيارات كان يعوضهما ما يقوم به البدو في مختلف الأحياء مما يشبه العرض العسكري ورقصات الحروب. وكانت أحسن الحفلات هذه التي كان ينظمها رجال قبيلة حرب في المعبدة والتي كان يطغى عليها ويقلل من رونقها وجمالها حفلة الحرس الخاص برئاسة بعض الأمراء بحيث يشترك في آخر مراحلها الملك نفسه، الذي كان دخوله إلى حلبة الرقص يثير مظاهرة تبعث العجب مما لجلالته من حب وولاء في نفوس شعبه، وعندئذٍ ازداد الرقص سرعة في الحركات والدوران حتى بلغ ذروته في صورة من الجمال ربما أثارت حسد المستر كوكرين: كان الملك في ردائه الأبيض الناصع قد بدت هامته وكتفاه فوق رؤوس الشعب وبين هالة من بريق السيوف التي شرعها في شمس الصباح تحية أخيرة لجلالته.

أما وقد مر شهر رمضان، وأجلنا الحديث عن تفاصيل نشاط الملك في جدة إلى فصل لاحق، فإن أهم ما كان يشغل بال الحكومة بعد ذلك هو الاهتمام بموسم الحج القادم الذي كان المعتقد أنه سيكون اصغر موسم تحت حكم الوهابيين نظراً للأزمة الاقتصادية المستحكمة في العالم كله. وبلغتني في خلال ذلك أنباء تفيد وصول برتران توماس إلى ضوفر لكي يبدأ رحلته عبر الربع الخالي؛ ثم أعلنت أنباء نجاحه في الصحف المصرية في أوائل شهر آذار/ مارس، فأرسلت له فوراً برقية تهنئة وسجلت الآتي في مذكراتي اليومية: «إن توماس يستحق كل الثناء الذي سيظفر به، وآمل أن ينعم عليه بنوط الفروسية جزاء على هذا العمل الجريء الخالد». ولست ادري لماذا لم يظفر بهذا الوسام، مما شعرت معه بخيبة أمل شخصية شاركتني فيها دوائر القصر مشاركة جدية. ولكني أظن أن الملك لم يكن

راضياً عنه لأنه اخترق قطاعاً كبيراً من مملكته دون إذنه أو مساعدته. وكانت هذه الحقيقة تنطوي على بعض النتائج السياسية المعقدة، إذ انحسرت رحلته عن فتح طريق جوي يربط بين وحدات السلاح الجوي الملكي في العراق ومثيلاتها في عدن التي كانت تبين عن اهتمام ملحوظ بالكشف الجوي عن مناطق حضرموت والاقتراب من الربع الخالي من ناحية الجنوب. وفضلاً عن هذا فان هذه الرحلة خلقت مبررات ومادة لمطالبة بريطانيا الجريئة بكل بلاد العرب الجنوبية أسفل خط يصل ما بين نهاية الحدود الشرقية لمحمية عدن وشبه جزيرة قطر على الخليج العربي ثم تحديده بالاتفاق مع السلطات التركية. وقد أثير هذا الموضوع ذات مساء في الجلسة الخصوصية فأعلنت عن دهشتي وأسفي في عبارات صريحة. وكان من اثر هذا أن احتد الملك وهو يبارح الغرفة بادي الغضب، فاحتج الحضور على وخز الملك في هذه النقطة المؤلمة! وكان جوابي أن كان أحياناً أحسن وسيلة تدفعه للتفكير الجدي في بعض الأمور التي قد تضر بمصالحه الحيوية، رغم أن أهميتها لا تكون جليسة في اللحظة الراهنة. والواقع أن حدود المملكة العربية السعودية في منطقة الربع الخالي حتى ذلك اليوم من أعقد المشاكل القائمة بينها وبين بريطانيا، وأصبح حلها أكثر صعوبة عما كان منذ عشرين سنة لسبب بسيط هو احتمال وجود منابع للبترول في هذه المنطقة. وعلى أية حال فإن الملك كان قد استعاد هدوءه في الصباح من اليوم التالي، وتحدث عن اختلافنا بالأمس مازحاً ومقارناً بما يجري في البرلمان البريطاني وغيره من مجالس النواب الأوروبية، **فقال جلالته**: «إن جلساتنا هذه لا تختلف في النهاية عن جلسات هذه المجالس النيابية إلّا في شيء واحد، هو أنني اختص بالحديث كله، بينما تظل بقيتكم صامتة خرساء، فيما عدا فيلبي الذي يمثل وحده المعارضة!» وهكذا انتهى هذا الحادث وسط

الضحك المرح العالي، وصمم الملك على أن يتم الكشف عن الربع الخالي كله تحت إشرافه وبأسرع ما يمكن.

وعند نهاية هذا الشهر كان على الملك أن يواجه حدثاً غير عادي، إذ أصبح من الجلي أن نقص كميات البترول قد بلغ حداً يتطلب العمل لإيقاف هذه السرقات الكبيرة المطردة. وتحقيقاً لهذا الغرض وضع جميع سائقي سيارات القصر تحت إشراف ورقابة احد المهندسين الذي أصبح مسؤولاً شخصيًّا عن حوادث سرقة البترول وقطع الغيار للسيارات؛ وكذلك خفضت أجور سائقي السيارات، التي كان معدلها ثمانية جنيهات ذهبية في الشهر، بنسبة ١٥٪. وقد قابل هؤلاء هذه الحركة بالإضراب بينما عالج الملك بنفسه هذه الحالة: أمر الملك بمعاقبة هؤلاء بضرب كل من الرجال الخمسة والعشرين ثلاثين جلدة وبطردهم من الخدمة وتجريدهم من رخص القيادة، وبحرمانهم من أي عمل في المستقبل، كما أمر جلالته بنفي الأجانب منهم وبعدم عودتهم إلى الحجاز. وكان معظم الرجال من السودانيين والصوماليين، وكانت أقليتهم من السوريين وغيرهم من أبناء أمم أخرى نزحوا إلى بلاد العرب بحثاً عن العمل عندما كانت البلاد قد بدأت في استعمال السيارات، فتجمع فيها عنصر من أقذر العناصر وأحطها. وكان الوقت قد أزف لكي يلقنوا درساً تكون لهم منه عظة وعبرة. ولقد لقنوا فعلاً هذا الدرس رغم تدخل سيدات الملك وأطفالهن وهن في الحقيقة المسؤولات عن إتلاف أولئك الرجال. ولقد كنت حاضراً في الحميدية بعد صلاة الجمعة عندما أشرف الأمير فيصل على تنفيذ الحكم: اقتيد المسجونون عراة إلّا من قمصانهم ونعالهم، بين صفين من رجال الشرطة حاملي العصي الطويلة لإفساح الطريق الذي ازدحم بالنظارة أمام ساحة التنفيذ، ثم طرحوا أرضاً على مسافات من بعضهم بعضاً ووقف شرطيان على كل منهم يتناوبان ضربه بالسوط حتى اكتمل

عدد الضربات ثلاثين، ثم صب على آثار الضرب سائل مطهر. ولقد احتمل الصوماليون، أو معظمهم العقاب دون ما تأفف أو تذمر وانصرفوا بعد توقيعه عليهم في هدوء كأنما لا يعنيهم من الأمر شيء، بينما استرعى رجل سوداني ضخم الانتباه إذ لم تختلج فيه عضلة أو يبدو ما يدل على شعوره بضربات السياط المنهالة عليه. هذا وكان سلوك الآخرين يبين عن الجبن والهوان إذ كانوا يضجون من الألم ويصرخون طالبين الرحمة ومبدين التوبة وكان ضجيجهم يزداد كلما أمعن الجلادون في الضرب. وكان هذا جزاءاً عادلاً لما ألفوا من التحدي وسوء السيرة. ومن حسن الحظ في هذه المرة أن كانت الضحايا من قواد سيارات القصر الذين اشتهروا منذ مدة طويلة بين طبقاتهم بأنهم أول الخارجين على قواعد هذه الصناعة وأصولها. والواقع إنني لم اسمع بعد ذلك بحالة إضراب واحدة من جانب قواد السيارات، رغم أن عمال الكهرباء في القصر قد اضربوا منذ بضع سنين في الرياض، ولكن لسبب معقول هو عدم دفع الأجور لهم. وقد عالج الملك هذه الحالة فوراً إذ أمر بدفع الأجور المتأخرة منذ شهور كاملة في الحال، فاستأنف العمال أعمالهم على الأثر.

إن تحول البلاد إلى وسائل النقل الآلية التي كانت أمراً مرغوباً فيه إلى حد كبير خدمة للحجاج وغيرهم من المسافرين، لم يكن في الواقع نعمة خالصة غير مشوبة. فبصرف النظر عن جموع قائدي السيارات التي تدفقت على البلاد من بين أراذل ومجرمي البلاد الأخرى الذين أشاعوا الاضطراب والفوضى فيها، فإن أهل مكة وجدة قد اقتنوا السيارات نتيجة للأرباح الضخمة التي حققها أصحابها في موسم الحج. وقد تجاوز الطلب على السفر بالسيارات العرض بنسبة كبيرة فكان في مقدورهم أن يفرضوا الأجور كما يشتهون في هذه السنين المطمئنة الأولى التي لم يكن من

الأمور الشاذة فيها أن يبيع الرجل المنزل الذي تقطنه أسرته لكي يشتري بثمنه سيارات تحمله سريعة إلى كنوز الذهب. وكذلك كثر تكوين الشركات المغامرة كي تساهم في اغتنام الفرصة واختطاف الثروة، ولكن النتيجة المتوقعة لمثل هذا لم تتأخر كثيراً لكي تنهار آمال هذه الفئة الباغية، فأخذ الإفلاس يتلو الآخر حتى اضطرت الحكومة للتدخل بتوقيع الحجز على ممتلكات المفلسين وتصفيتها لتسديد حقوق الدائنين وللحد من حرية الأفراد والهيئات لتجنب مثل هذا النوع من المقامرة؛ ثم استبانت ضرورة إنشاء شركة كبيرة واحدة تحت إشراف الحكومة وبمساعدتها المالية تمنح احتكار نقل ضيوف الرحمن بأجور تحدد بالاتفاق مع الحكومة. ولكن لم تلبث مطالب البلاد المتزايدة أن جعلت تشجيع المشروعات الفردية شيئاً ملحاً ولكن بواسطة رخص وتصريحات ومع بقاء الشركة الكبيرة متمتعة باحتكار نقل الحجاج. وكذلك كانت شركات السيارات الأجنبية مصرح لها بنقل الحجيج من الخارج وفق اتفاقيات تعقد بين الحكومات الأجنبية المختصة والسلطات السعودية، وهكذا أخذت الأرباح الضخمة التي كان يغلها اشتغال الأفراد بمثل هذا النوع المضطرب من صناعة النقل في التناقض بزيادة عدد هؤلاء زيادة مطردة أدت إلى احتدام التنافس بينهم والى خفض أجور النقل لدرجة أورثتهم الإفلاس بينما كانت الطرق الرديئة وعدم الاهتمام بشؤون الصيانة وتوفير قطع الغيار تؤدي إلى تلف السيارات سريعاً وجعلها غير صالحة للاستعمال. وكان من نتيجة هذا أن أخذت الحكومة تفكر في جعل السيارات التي تستخدم في نقل الحجاج من نمط واحد، ثم انتهى التفكير إلى عقد اتفاقية ساهمت جديًّا في تحقيقها إذ منحت شركة فورد احتكار توريد السيارات إلى شركة النقل العربية، وبدأ تنفيذ هذا سنة ١٩٣٣ ولمدة عشر سنين؛ ولكن الصعوبات التي قامت في سبيل

إمكانيات الدفع المنتظم خلال الكساد الكبير الذي حاق بالعالم في السنين الثلاثين من هذا الفقر مضافاً إليها زيادة الطلب باستمرار على السيارات، أدت إلى فسخ هذه الاتفاقية بناءً على رغبة الطرفين بعد مضي خمس سنين من تاريخ نفاذها. والواقع أن أحداً من الطرفين لم يتأثر كثيراً بتعطيل هذه التجربة ذات الفائدة المتبادلة الملحوظة، إذ لم تلبث أن نشبت الحرب بعد ذلك مباشرة وتوقف توريد السيارات للأغراض التجارية ذات الفائدة المتبادلة الملحوظة، إذ لم تلبث أن نشبت الحرب بعد ذلك مباشرة وتوقف توريد السيارات للأغراض التجارية.

وكان الملك في خلال ذلك مهتماً ببعض الشؤون الصحية الخاصة بمكة المكرمة. فقد كانت هذه المدينة والبساتين التي في ضواحيها موبوءة بالبعوض، وكذلك كان قصر المعبدة الذي أصبح، بعدد سكانه الذي يربوا على عدد سكان مدينة الفاتيكان، وبنظام المجاري السيء البالي وإهمال السكان، بيئة ملائمة لتكاثر هذه الهوام المؤذية الخطرة. وكان جلالته دائم الشكوى من هذا الوباء، ولهذا فإنه بمجرد علمه أن هذه الحالة يمكن أن تعالج بالوسائل الصحية، أمرني أن أتعاون مع الدكتور العراقي محمد علي الشواف، الذي كان يعد كبير الأطباء في الأحساء والمدينة، على بذل جهد لإبادة هذه الهوام وصدرت الأوامر التي تكفل لنا كامل الحرية في حدود معقولة لزيارة كل مكان وركن في القصر والمباني التابعة له. ولقد أتيحت لنا بذلك فرصة قضاء فترة مهمة ومسلية في آن واحد، إذ كنا يوماً بعد يوم نقوم بجولاتنا في القصر مطاردين أسراب الجواري من مكان إلى آخر جيئةً وذهاباً، عند زيارتنا للحمامات ودورات المياه التي كان بعضها في حالة سيئة جداً، فكنا نصب عليها كميات كبيرة من البترول. وكذلك أجريت الإصلاحات اللازمة في مجاري المياه فوراً بناءً على تعليماتنا، وحفرت الآبار في أماكن مختلفة لتستوعب كميات المياه القذرة التي يصب عليها

البترول، وبهذا ظهر شيء من التحسن بعد بضعة أيام من ابتداء هذا العمل؛ ولكن كان لا بد من استمرار العلاج لمدة شهور عدة ليقضي على هذا الوباء تماماً. وكانت هناك حديقة بها أربعة آبار تقع خلف أقصى القصر من الناحية الشرقية، وكانت لا شك مفرخة طيبة كبيرة للبعوض والناموس، ولهذا اقترحت شراءها (كانت تغل إيجاراً سنويًّا مقداره خمسة عشر جنيهاً ذهباً) ووضعها ضمن حدود أرض القصر لتكون محل عناية أكبر مما يبذل لها المستأجرون. وأعلن الملك في يوم ٢٣ نيسان/ أبريل أن يوم وقفة عرفات يوافق يوم ٢٧ من هذا الشهر، إذ وصلت تقارير تقول برؤية الهلال الجديد في مساء يوم ١٨ منه. وكذلك زعم رجل من مكة أنه رأى الهلال في نفس المساء، ولكن زعمه هذا لم يجد قبولاً إذ كان زعم فرد واحد من بين آلاف الأفراد الذين كانوا يرقبون الهلال دون أن يشهدوه.وفي أثناء ذلك صحبنا الملك عدة مرات بعد الظهر في رحلات تفتيش قام بها صوب منى والمزدلفة، حيث كانت تجري أعمال في القصر بمنى حتى يتسع لجميع أفراد الأسرة المالكة خلال الأيام الثلاثة لعيد الأضحى. وكانت هذه المدينة قد استعادت نشاطها ورونقها بعد فترة الخمول والفراغ السنوية التي تبلغ خمسين أسبوعاً فكانت الحوانيت والمقاهي مزدحمة بجموع الحجاج الضاربين في طريقهم إلى عرفات على ظهور الإبل أو الحمير أو على الأقدام. وكانت صفوف طويلة من الإبل حاملة الهوادج والخيام أو غيرها من الأدوات واللوازم تختلط بالمشاة والراكبين، بينما كانت مئات، بل آلاف، من حجاج اليمن الذين جاؤوا من بلادهم سيراً على الأقدام يتعثرون في طريقهم صوب مكة بقدر ما يستطيعون بين هذا الحشد الكثيف. وكانت المساكن في الطرق المهمة قد أعدت لاستقبال الضيوف، كما أخذت كل بقعة من الوادي نصيبها من الخيام لنفس الغرض. وحتى الشياطين الثلاثة

قد تم طلاؤها وأصبحت ناصعة البياض واضحة لواجب الرجم التالي، بينما كانت حجارة السنة الماضية قد أبعدت لتفسح المكان لأحجار جديدة يلقي بها في هذا الموسم.

وفي يوم ٢٤ نيسان/ أبريل أقام الملك مأدبة الحج الرسمية لضيوف بلغ عددهم ستمائة، وكان أبرزهم أمان الله خان ملك الأفغان السابق والأمير أحمد وحيد الدين من الأسرة التركية المالكة والذي كان والده وحيد الدين سلطان تركيا قبل الأخير، وجده عبد العزيز السلطان الذي ولى بعده عرش تركيا السلطان عبد الحميد. وكان أمان الله قد انتهز هذه المناسبة فرصة لعمل دعاية لنفسه بين الوافدين من بلاد الأفغان وغيرهم من الحجاج في مكة المكرمة؛ ولكن السلطات السعودية تدخلت سراً للعمل على إيقاف هذا النشاط، على أساس انه إذا كانت الحكومة السعودية ترحب بجميع المسلمين في مكة المكرمة لأداء واجباتهم الدينية فإنه لا يسمح بان يستخدم الحج أداة للدعاية السياسية أو المذهبية. وقد أدى الأمير التركي فريضة الجمعة في مسجد الملك الخاص في ملابس أوروبية، ولو انه كان مرتدياً الطربوش والواقع انه لم يكن مرتاحاً طوال هذه الفترة لأن الخياط الأوروبي لا يعمل حساباً للجلوس على الأرض. أما ملك الأفغان فكان أعقل من هذا إذ ارتدى ملابسه الوطنية في هذه المناسبة وكذلك في حفلة الغداء عندما جلس جميع الضيوف على الكراسي في ثلاث حجرات منعزلة عن بعضها، إذ لم تكن حجرة الطعام التي تتسع لألف شخص قد تم بناؤها عندئذٍ، بينما كان بهو الاستقبال معداً للحفلة التي أعقبت تناول الغداء ثم لصلاة المغرب.

ولقد ألقيت القصائد والخطب في هذه الحفلة، ولكن حفلة المساء كانت في الواقع عبارة عن حديث للملك الذي كان طوال حياته يتجنب

الخطابة قدر الإمكان، ولكنه في هذه الليلة ارتفع إلى مستوى عالٍ من البلاغة وقوة الأداء لم يكن يتوقعه حتى أشد الناس اتصالاً بجلالته. لقد تكلم ارتجالاً، وكان يبدو لسبب ما، انه يعتبر هذه الفرصة الخاصة ذات أهمية خاصة أيضاً: وكان خطابه في مجمله معبراً تعبيراً صادقاً عن الحاجة الملحة لوجود الوحدة الإسلامية، وربما كان يدور بخلده الخلاف الناشب بين بلاد العرب ومصر، ومشكلة مستقبل الخلافة التي كانت السبب الأساسي لهذا الخلاف. وربما كان في وجود أمير من أسرة ارتدت وشاح الخلافة أربعة قرون ما يساعد على تحقيق أمانيه؛ وكذلك ربما كان في وجود ضيفه الملكي الأفغاني الذي فقد عرشه لنبذه المدنية الإسلامية وإقباله على المدنية الغربية ما يبرر معارضته ونقده للاتجاهات الحديثة في بعض البلاد الإسلامية وإدراكه لخطرها.وعلى أية حال فانه عرض في فيض من السخرية لنشاط مولانا شوكت علي الذي كان يطوف في الدنيا لان هذا كان كثيراً عليه بوصفه مسلماً مخلصاً. **ثم أعلن الملك محتداً: «إن الإسلام ليس دين آل سعود أو دين الشريف، إنه دين الله!** ولهذا فإني أقدم عوني المتواضع لكل من يخدمه ويخلص له النية، كما إني اشد الأعداء على من يعارضونه. وليس لي ما أخافه من المسيحيين، ولكن الذي أخشاه حقيقة هو انقسام المسلمين على أنفسهم. ولهذا يجب أن نتحد، وعندئذٍ لا يستطيع احد أن يؤذينا أو يسيء إلى ديننا!» وقد تكلم بهذا الأسلوب حوالي نصف ساعة، ولقي حديثه تقديراً واضحاً حقيقيًّا لدى غالبية السامعين عبروا عنه بتصفيق حاد عند نهايته. ولقد كان هذا الحديث حديث معركة وكفاح حقيقة، وكان جديراً بهذه المناسبة برجل كان في الواقع هو خليفة المسلمين. قد حضرت بعد ذلك كثيراً من أمثال هذه المأدبة، ولكني لم اشهد ابن سعود يفعل مثل ما فعل في هذه المناسبة، إذ لم يكن يزيد حديثه عن عبارات الشكر والامتنان

للحاضرين وللتمنيات الطيبة التي يبدونها، ثم الكلمات التقليدية التي يلقيها بعض الحاضرين. وقد لاحظت سنة بعد أخرى ميلاً متزايداً لتحديد الوقت للشعراء والخطباء نظراً للمتاعب التي يتحملها جلالته في مثل هذه المناسبات.

وهكذا كانت نهاية موسم الحج في سنة ١٩٣١، وانقضت الأيام القليلة التالية في الحفلات الأخرى التي لا أجد مبرراً لوصفها هنا، إذ أصدرت كتاباً خاصاً بها كما شهدتها في هذه المناسبة، اسمه «الحج في بلاد العرب».



هاميلتون يحمل السيف
الذي منحه إياه الملك عبد العزيز عام ١٣٣٦هـ



الفصل الثالث عشر

حياة الأجانب في الجزيرة العربية

كانت مدينة جدة قبل سنة ١٩٣٣، وبالأحرى قبل الغزو الأميركي لبلاد العرب، هي المكان الوحيد في المملكة العربية السعودية الذي تباح فيه الإقامة لغير المسلمين من الأجانب، وحتى هناك كان نطاق انتقالهم قاصراً على منطقة صغيرة جدًّا هي النطاق الساحلي حول المدينة، الذي كانوا لا يستطيعون تجاوزه آمنين إلّا بتصريح رسمي. وكانت كل محاولة للخروج عن هذه الدائرة تنطوي على خطر النفي من البلاد، وكان عدد الأوروبيين في المدينة وقتئذ حوالي خمسين شخصاً، وقد يزيد أو ينقص عن هذا تبعاً للاعتبارات الموسمية ولظروف العمل: كانوا يقيمون في المنطقة الضيقة من المدينة التي لم يتجاوز عدد سكانها ثلاثين ألفاً على الأكثر. وكانت نسبة كبيرة من هؤلاء الأجانب تتكون من موظفي المفوضيات والقنصليات وغيرها من الهيئات شبه الدبلوماسية التي كانت على علاقات سياسية بالحكومة، بينما كان هناك عدد من البيوت التجارية الأوروبية المشتغلة بالنقل البحري وبالأعمال التجارية الأخرى في البلاد: وكان أهمها البيوت البريطانية والهولندية والايطالية، بينما بدأ الروس والألمان والبولنديون يظهرون اهتماماً كبيراً في هذه الفترة بالإمكانيات الاقتصادية والتجارية في البلاد العربية. وكان أفراد الجالية الأوروبية

يختلفون بين الوزراء والعمال الميكانيكيين، ولكن صغر هذه الجالية أدى إلى بقائها في حياة ديموقراطية انتفى معها التمييز الاجتماعي رغم المحاولات الطائشة التي بذلت لخلقه بين فترة وأخرى. وكانت هذه الجالية سعيدة في عموم حياتها، فكانت تلعب «التنس والكريكيت والغولف» في أوقات فراغها، وكان لها نادٍ دون أن يكون له مبنى أو أي شيء آخر من اللوازم التي لا بد أن توجد في مثل هذه المؤسسات. وكانت الجالية في المساء تلعب الورق أو الموسيقى، وترقص وتغني وتتناول المرطبات العادية سائلة أو متجمدة. وإذا كانت هناك رحلة - والرحلات كانت كثيرة - فكان بديهيًّا أن يدعى إليها كل أفراد الجالية؛ كما كان هناك من السيدات ما يكفي لأن يجعل مثل هذا الضرب من التنزه أو الرياضة مرحاً طروباً لجماعة يغلب بينه العُزب من الرجال. هذا ولم تكن الحياة في جدة سيئة أو غير محتملة على الإطلاق، فالجو كان طيباً مدة سبعة شهور في السنة، أما في الخمسة الباقية فكان رديئاً حقاً. وكانت توجد مقبرة - تعرف بالكنيسة - خارج السور الجنوبي للمدينة، مخصصة لموتى الجالية الأوروبية، وكان ينفق عليها من تبرعات هؤلاء الذين يعنيهم هذا الأمر أكثر من غيرهم، وتشرف عليها هيئة من السياسيين وغيرهم من الأوروبيين.

وقامت الجالية الأوروبية بدور هام في مظاهر النشاط في جدة، ولكنه لم يكن دوراً رئيساً بأية حال. وكان سكان المدينة من الوطنيين الذين ينتمون في نفس الوقت إلى أجناس مختلفة، يؤلفون أسراً شهيرة عالية الذكر كانت تقيم منذ زمن بعيد في هذه المدينة التي تعتبر باب الطريق إلى الأرض المقدسة، ولو أنهم أصلاً من المهاجرين من موانئ الخليج العربي ومن إيران والهند وحضرموت، ومن مصر وسوريا، ومن نجد وخاصة من إقليم القصيم. مثال ذلك أن أسرة قبيل كانت من كبار رجال التجارة منذ

زيارة نجاشي الحبشة في القرن الثامن عشر، وكذلك أسرة علي رضا فهي من ميناء لنجة على الخليج العربي وكانت تملك أهم البيوت التجارية في جدة: وفضلاً عن ذلك فإنه كان النائب المحلي في البرلمان التركي، وحاكم المدينة الذي استمر في وظيفته ناجحاً مرموقاً في حكم الأتراك وحكم الأشراف وحكم الوهابيين على السواء؛ وكذلك أسرة الفضل النجدية التي كانت لها فروع في بومباي وكراتشي، فقد تمتعت طويلاً بمركز ملحوظ بين كبار تجار المدينة ولو أن رأس الأسرة اتهمه الأشراف بميوله للحكم الوهابي فقضى في السجن بضع سنين، إلّا انه تقلد في الحقبتين الأخيرتين هذه الوظيفة الكبيرة وهي رئيس مجلس الشورى. وكان في جدة غير هؤلاء كثير من الأسر والأفراد الذين يقفون على قدم المساواة مع أبرز أندادهم في الموانئ الشرقية الأخرى. ومع أنهم كانوا من التجار المهرة المبرزين الذين اقتنعوا بان الغرض من التجارة هو كسب المال، إلّا أنهم رغم ذلك بلغوا المدى بالجود والإحسان، كما كانوا بعد هذا من أشد المحافظين على أداء واجباتهم الدينية دون ما تظاهر. إنها كانت جماعة تخاف الله، كادة كادحة، قانعة غير مبذرة، وكانت بمثابة الجسر فوق الفجوة بين العالم القديم الذي ولدوا فيه ونضجوا هم وأسلافهم، وبين النظام الجديد الذي ادخل على حياة أبنائهم مؤثرات جديدة غريبة، والذي غيّر طابع مدنية قامت الحياة فيها على تقاليد المحبة والتآلف؛ أما هل هذا خير أو شر، فأمر لم يحن بعد أوان الحكم عليه.

وهكذا كان بالاختصار الوضع في جدة التي كان لا بد لابن سعود بين فترة وأخرى من أن يقوم لها بزيارات قصيرة لكي يختلط بهذا المجتمع الغريب ولكي يألفه. والواقع أنه لم يحب جدة حقيقة، ولكنه لم يعزف عن زيارتها نظراً للدور الهام الذي تلعبه في حياة مملكته من النواحي التجارية والاقتصادية والسياسية. ولعل عدم حبه لها كان راجعاً في أول الأمر

إلى سبب يتصل بالراحة أو بالمساكن الملائمة لجلالته وللحاشية الكبيرة التي كانت تتبعه أينما ذهب، فقد كانت جدة يغلب عليها طراز المباني السكنية العادية والأثرية القديمة للأسرة المالكة، ولم تكن مبانيها كبيرة على نمط القصور. وكانت بعض المنازل تبدو متسعة فسيحة من الخارج. ولم يكن للملك بديل في غضون السنين القليلة بعد الفتح الوهابي للحجاز من أن يشغل منزلاً من أكبر المنازل في المدينة: منزل الشيخ محمود ناصف الذي كان أحد أركان الحكم الجديد في المدينة والذي اشتهر بميوله للنظام الوهابي مما سبب له متاعب كثيرة أثناء حكم الأشراف. وكان عليه لكي يستضيف الملك، أن يخلي منزله تماماً من أسرته ومتاعه. ورغم انه كان يفعل هذا بمحض رغبته الصادقة وعن طيب خاطر وبصرف النظر عما يسببه له من اضطراب في حياته المنزلية، إلّا أن الملك نفسه كان مقدراً حقيقة هذه المتاعب التي يعانيها مضيفه من جراء الزيارات الملكية التي لا مندوحة عنها لجدة. ولكن في هذه الفترة التي يكتب فيها هذا الفصل، كانت هذه الصعوبة قد تلاشت ببناء القصر الأخضر في موضع مواجه للثكنات العسكرية وفي بقعة من أكثر البقع نسيماً وأفضلها موقعاً.

وإلى هذا القصر انتقل الملك بعد فترة قصيرة من انتهاء شهر رمضان في زيارة لجدة لمدة أسبوع ظل الجو خلالها جافاً منعشاً والرياح شمالية لطيفة رغم أن نقص الأمطار الموسمية في هذه المنطقة خلف الصحراء جرداء مقفرة. ولقد تبين بعد نهاية هذا الأسبوع أنه من أهم الأسابيع، إن لم يكن أهمها جميعاً، في تاريخ المملكة العربية السعودية. وكان الغرض الأصيل لهذه الزيارة هو أن يتمكن جلالته من مقابلة المستر شارلز كرين الذي وصل إلى جدة في صحبة المستر جورج أنطونيوس، وكان أبرز شخصية على مسرح القصر طوال الأسبوع الذي مكثه هناك. كما دعا إلى

عدد من الولائم الخاصة التي أقامها القصر. وذات يوم أقامت البلدية مأدبة رسمية لحوالي مائتي شخص تكريماً للمستر كرين الذي اعتقدت أن أهم نقطة في برنامجه هي تزويد المدينة بالمواسير التي تحمل إليها المياه. ولقد طرح على بساط البحث كل موضوع ذي أهمية اقتصادية بين الملك ووزرائه وبين الضيفين، وكانت خلاصة مناقشاتهم أن تعهد المستر كرين بأن يقدم للحكومة أحد كبار مهندسي التعدين لكي يقوم ببحث مصادر الثروة المعدنية في البلاد وغيرها من إمكانيات النمو الاقتصادي، بينما تقوم الحكومة بتزويده بكل وسائل النقل اللازمة وبتقديم التسهيلات المستطاعة لانجاز العمل المطلوب.

ولقد انحسرت هذه الزيارة عن نجاح لا مثيل له. وقد دعا زعيم السنوسيين وحامل مفاتيح الكعبة الشريفة بصفة خاصة، من مكة المكرمة لكي يقابلا أكبر خادم للإنسانية في الدنيا الجديدة. وكذلك تبودلت الهدايا بين الطرفين، فأهدى الملك ضيفه حصانين عربيين أصيلين، بينما قدم هذا للملك هدية صندوقاً صغيراً من تمر كاليفورنيا. لقد كان الضيف مزهواً مفاخراً بهذه الحقيقة وهي أن بقالي سان فرانسسكو باعوا هذه الصناديق التي هي من إنتاج واحة انشأها على النسق العربي المزخرف، كل صندوق بدولار. وكانت هذه الهدية بمثابة إحضار صنف رديء من الفحم إلى نيو كاسل، ولهذا لم يرتح الملك كثيراً إليها. ولقد سألني الملك بعد ذهاب صاحب هذه الهدية إذا ما كنت أحب التمر (!) وأعطاني الصندوق محذراً من أن أخبر كرين بما صنع بهديته. ومع ذلك فان زيارة كرين لجدة قد نضجت على عجل: فبعد ستة أسابيع كان توتشل بيننا؛ وسوف تجد بقية القصة في فصل آخر.

أما بقية ما صنع الملك خلال زيارته هذه لجدة، فكانت ذات طابع رسمي عادي. ففي يوم وصوله وبعد أن تلقى الترحيب والتهاني من وجهاء

المدينة وكبار الموظفين، أقام حفلة استقبال عامة لرجال السلك الدبلوماسي في المدينة، الذي كان عميده وقتئذ الوزير الروسي، حاكيموف، وقد رفعته حكومته إلى هذه الدرجة تعبيراً عن كامل اعترافها بالحكم الوهابي في الحجاز، وحذت حذوها الحكومة البريطانية فاعترفت بالحكم الوهابي بعد فترة مناسبة. وبعد انتهاء حفلة استقبال الدبلوماسيين، استقبل جلالته وفداً ممثلاً لجميع الأوروبيين غير الرسميين، كما استقبل فيما بعد الممثلين الدبلوماسيين ومديري البيوت التجارية الأوروبية للتحدث معهم في مسائل ذات أهمية متبادلة. ومن بين الأشياء الأخرى أن جلالته أولاني شرف قبول الدعوة الى حفلة شاي أقيمت في منزلي دعيَ إليها جميع الشخصيات الأوروبية البارزة بما فيهم رجال السلك الدبلوماسي. وهكذا أتيحت لجلالته فرصة أخرى لمقابلتهم في المأدبة الرسمية التي أقامتها البلدية. وكان في خلال ذلك كثيرون من أعضاء الأسرة المالكة يهرعون من نجد ليشتركوا في الحج: وكانوا يحملون معهم أنباء سارة عن هطول مطر غزير في الشرق، ويحولون تفكير الملك إلى مراعي الربيع الأخضر والى الصيد الذي كان يرجو أن ينعم به في موطنه بمجرد انتهاء مهمته في الحجاز. وفي خلال هذه الأيام كان يجري وضع معاهدة الصداقة المزمع عقدها مع فرنسا ممثلة في شخص روجر مايغريت، احد الرجال البارزين في الإدارتين العسكرية والسياسية في مراكش. ثم وضعت المعاهدة في نصوصها الأخيرة بما حاز موافقة جلالة الملك وأصبحت بذلك أهلاً للتوقيع في باريس، ولو أن الحكومة الفرنسية طالبت بوضع اتفاق آخر خاص بسوريا يوقع في نفس الوقت كبديل للاتفاقية التي عقدت في سنة ١٩٢٦ والتي انتهت في سنة ١٩٣٠. وكان لا بد أن ينحسر هذا الطلب عن شيء من التأخير لبحث الشروط المناسبة التي ترضي الطرفين والتي يجب أن تتضمنها مثل هذه الوثيقة،

ولهذا تأجلت المفاوضات حول هذه النقطة موقتاً. وكانت مشكلة النقد قد طغت مرة أخرى مما استلزم عقد مؤتمرين من الموظفين المختصين والتجار المحليين وممثلي الدول الأجنبية لدراسة الوسائل الكفيلة بمنع انهيار قيمة العملة في البلاد. وكانت النتيجة وضع نظام جديد أعلن في جدة خلال تلك الأيام وأخذ في تنفيذه فوراً، وكانت أهم عناصره الآتي: (١) منع تصدير الذهب إطلاقاً، وهو ما جاء متأخراً كالوسيلة الوحيدة الفعالة لتدعيم قيمة الريال، (٢) القبول العام للريال بقيمته التعادلية وهي ١٠ ريال للجنيه الانكليزي الذهب وفرض عقوبات رادعة على من يمتنع، (٣) عقد اتفاقية التزم بموجبها البنك الهولندي (الشركة التجارية الهولندية) بقبول الريال بهذه القيمة وبأية كمية لأداء المدفوعات في الخارج. ولقد خلقت هذه الإجراءات متاعب جمة في بعض دوائر الأعمال، ولكنها كانت رغم هذا في جانب الصالح العام على الأرجح، بينما كان رصيد الحكومة كافياً لتغطية حاجتها إلى إصدار النقود الفضية بما يوازي مائة وخمسين ألفا من الجنيهات الذهبية.

وقد أقيمت حفلة صغيرة جميلة في القصر في الليلة السابقة لسفر الملك إلى جدة أهدى أثناءها الشيخ محمود ناصف إلى جلالة الملك سيفاً من صناعة اليمن وقد لقيت هذه الهدية قبولاً حسناً وتقديراً عظيماً لدى الدوائر العربية الكلاسيكية؛ ثم ألقى علينا جلالته بحثاً في موضوع السيوف فقال إن النوع اليمني يأتي الثالث في الجودة بعد السيف الفارسي الذي منه صنفان بارزان هما الخرساني والدباني، ثم السيف الهندي المصنوع من صلب ابيض. وكان الملك يملك في هذا الوقت جميع سيوف الأسرة السعودية المشهورة التي وزعها على أكبر أبنائه فيما بعد، باستثناء سيفين هما: الأجرم الذي أهداه عمه عبدالله بن فيصل إلى أسرة آل خليفة حكام البحرين، وسيف آخر يعرف باسم الزجيف الذي اختفى كل أثر له منذ سنين.

ولقد قام جلالته بزيارة قصيرة جدًّا لجدة قبل الحج، لكي يبحث المسائل والأوضاع مع المستر تويتشل الذي وصل إليها يوم ١٦ نيسان/ أبريل. وقد كلف خالد القرقاني، الذي كان على اتصال بشركة ألمانية تجارية تأسست حديثاً في جدة كما كان في الوقت نفسه يعمل كمستشار لمجلس الملك الخاص، بأن يصحب تويتشل في تجواله. وكان أول عمل لهما هو فحص منطقة جدة وما حولها وما وراءها بحثاً عن موارد للمياه، ولكنهما سرعان ما انصرفا إلى السعي وراء صيد أكبر: قاما برحلة على طول وادي تهامة حتى دغبة عادا منها بمعلومات مشجعة عن كشف آثار للزيت وللذهب ولمعادن أخرى. والواقع أن وجود الزيت حول هذه النقطة كان قد اكتشف منذ سنين طويلة ترجع إلى الحرب العالمية الأولى والفترة التي أعقبتها عندما دعا الشريف حسين خبراء لدراسة هذه الإمكانيات وتقديم تقارير عنها. ولو أردنا أن نسبق الحوادث قليلاً لأمكن القول كذلك بأن هذا التفاؤل الكبير الذي أسفرت عنه رحلة تويتشل لم يكن على أساس: والحقيقة انه لم يعثر حتى اليوم في منطقة تهامة على الزيت أو على غيره من المعادن بكمية تكفي لاستخراجه؛ أما الموارد الطبيعية الحقيقية لبلاد العرب فقد كشف عنها في مكان آخر بعد هذا التاريخ. ورغم ذلك فإن هذا التفاؤل بالذات هو الذي خلق الحلم بالعثورعلى كنوز الذهب، ودفع البلاد في محاولة جريئة متطرفة لإيجاد ما يعوض النقص الكبير في الدخل لعدم إمكان الحجاج زيارة الديار المقدسة في أعداد تكفي لتدعيم اقتصادياتها. وكانت الحكومة السعودية آنذاك تعتبر أن متوسط عدد الحجاج يبلغ حوالي مائة ألف حاج في هذا التاريخ، ولكن هذا العدد تناقص إلى ثمانين ألف في سنة ١٩٣٠ ولم يزد على أربعين ألفاً في السنة المقبلة، وتناقص أكثر من هذا بعد ذلك. هذا ولم يخفض مستوى النفقات القائمة على المتوسط السالف لعدد الحجاج ليتوازن مع إيراد

دائب التناقض. وقد تركت لوزير المالية الحرية في اختيار الوسائل التي يواجه بها التزامات الميزانية بحيث توجد دائماً المبالغ اللازمة لمختلف المصالح الخاضعة لإشراف الملك شخصيًّا، مثل الأمن العام والدفاع والشؤون الدينية، وأعمال البر والإحسان ومرتبات الموظفين وغيرها. ولقد شجعت التجارب الأولى المتعثرة لهذه المشكلة الخطرة على زيادة الجرأة في مناقشة ودراسة مزالقها، وانتهت بالحكومة إلى العجز عن وجود مخرج من هذا التيه الذي كانت ضالة في مجاهله. وكان من السهل في البداية الحصول على ما يشبه قرضاً أهليًّا بتأجيل دفع مرتبات صغار الموظفين والجنود النظاميين والبوليس والبوابين وسعاة البريد والموظفين الكتابين وأمثالهم؛ فلو كان عدد هؤلاء عشرة آلاف موظف والمرتب المتوسط لكل منهم عشرون ريالاً في الشهر، ولو اجل دفع المرتبات أربعة أو خمسة شهور، وهو ما تمت الموافقة عليه لمدة معقولة، فإنه يزود الحكومة آليًّا برصيد يبلغ ثمانين ألفاً أو مائة ألف من الجنيهات الذهبية. ولم يكن للضحايا البريئة لهذه العملية بديلاً عن تحلب بقرات أخرى في شكل البقالين والجزارين وإضرابهم، الذين سجلوا هذه القروض بفوائدها مقابل الدفع في الميعاد المناسب. وكان الموظفون عند خاتمة المطاف يطلبون علناً من أصحاب الحاجات من الشعب أجوراً مقابل قضاء حاجاتهم التي كان قضاؤها دون مقابل هو واجبهم بصفتهم موظفي الدولة. وهكذا أخذ الاضطراب ينساب في تيار مستمر يمضي الوقت حتى كان يعتبر من السمات العادية للمملكة العربية السعودية. ولم يلبث أن نظم قرض آخر في سهولة ويسر بلغت حصيلته ثلاثمائة ألف جنيه في ذلك الوقت، عن طريق تأجيل المدفوعات المستحقة لمختلف البيوت التجارية؛ ولكن كان لا بد من أن تبقى هذه العملية في حدود معلومة، وإلا فإنها تكون بالغة الضرر بدخل الحكومة وتؤدي إلى

توقف تيار السلع الأساسية إلى المخازن والحوانيت. وكانت تتخذ وسائل أخرى لتدعيم المركز المالي للحكومة حسبما يتفق والفرصة المتاحة، كما رفعت فئات الضرائب في جميع النواحي.

ولقد أدى هذا الوضع إلى ظهور الأزمة النقدية مرة أخرى. أما وقد أفسدت الإجراءات سالفة الذكر التي اتخذت لتثبيت قيمة الريال ما كان يتوقع الصيارفة وتجار التجزئة من أرباح من جراء التلاعب في قيمته فإنهم سرعان ما اكتشفوا مخرجاً آخر يبين عن ذكائهم: فإذا كان الريال قد ثبتت قيمته عند مستوى التعادل الطبيعي، فان النظام الجديد لم يذكر شيئاً عن القيمة القانونية للقرش النيكلي، التي هي عادة ٢٢ قرشاً للريال. وكانت النتيجة أن شن هجوم على هذه العملة الأساسية للفقراء الذين يُربي عددهم كثيراً على عدد الأغنياء، في منى أثناء العطلة، حيث لم يكن من المستطاع منع تعرض القرش وأجزائه لانخفاض فعلي. ويصح أن نذكر في اقتضاب أن الحكومة منذ ابتداء الحكم الوهابي حتى موسم الحج الذي نحن بصدده في سنة ١٩٣١ كانت قد دفعت إلى الحجاز من العملة المحلية مليوناً ونصف مليون من الريالات (متضمناً عملة فضية من ذات نصف وربع الريال) ومقدار عشرة ملايين ونصف مليون من القروش (متضمناً كذلك عملة من ذات نصف وربع القرش). ولم تكن هذه العملة قد فرضت بعد في نجد في ذلك الوقت، حيث كان ريال ماريا تريزيا ما زال متداولاً بانتظام، رغم أن الريال السعودي كان آخذاً تدريجيًّا في الظهور، وكان عملة رسمية لدفع الضرائب وغيرها من المدفوعات الحكومية.

ولا بد من أن يكون المجموع الكلي للعملة المحلية المتداولة قد تناقص في هذا الوقت نتيجة لأسباب طبيعية مثل ضياع العملة والاكتناز وغيرهما. ولكن النقص في التداول اليومي العادي كان بطبيعة الحال نقصاً

ملحوظاً أتاح للصيارفة وأصحاب الحوانيت فرصاً لتحقيق أرباح من كل صفقة صغيرة تعقد. مثال ذلك أن الفرد لو اشترى أشياء تساوي نصف ريال ودفع ريالاً فان البائع كان يعطيه باقي الحساب على أساس أن الريال يساوي (١٧) أو (١٨) قرشاً؛ ولو أن المشتري من الناحية الأخرى دفع بالقروش ثمن أشياء تساوي بضعة ريالات، ففي هذه الحالة يحاسبه البائع على اعتبار أن الريال يساوي (٢٥) أو (٣٠) قرشاً. وكان على المشتري في الحالتين أن يقبل هذا الوضع، أو أن يذهب بدون السلع التي يريدها. وهكذا كان الصيارفة يصنعون مع الحجاج عندما يرغبون في تحويل العملة النيكلية إلى ريالات فضية لكي يحولوا هذه في النهاية إلى ذهب أو عملة أجنبية عند انتهاء موسم الحج ومبارحة مكة المكرمة. وأخيرا وبعد مداولات كثيرة قررت الحكومة أن تكون لها احتياطيًّا وقتيًّا وذلك بان تسحب بالطرق الجبرية جزءاً من العملة النيكلية المتداولة، من رصيد الحكومة نفسها ومن أرصدة تجار جدة وتجار مكة وتجار بعض البلاد البعيدة كالمدينة وينبع بحيث تكفي لجمع المقدار المطلوب وبنسب هي على التوالي ٨ : ١٠ : ٣,٥. وكان مقدراً أن هذا الإجراء سيؤدي إلى سحب ثلثي العملة النيكلية من التداول (الواقع أن النصف فقط هو الذي سحب، إذ أخطأت الحكومة في حساب المجموع الكلي للعملة النيكلية التي أصدرت أصلاً) بينما كان المعتقد انه يكفي لإيجاد التوازن أن تجعل الحكومة صيارفة معينين كمندوبين لها يقومون بتحويل النقود بسعر الصرف القانوني وهو (٢٢) قرشاً للريال في التعامل الحر غير المقيد، وبحيث يتقاضون في مقابل ذلك عمولة صغيرة لأنفسهم ولم يكن من شان هذه القرارات المتأخرة أن تحمي الحجاج من الخسائر التي نزلت بهم فعلاً، فضلاً عن أن الأثر العام لهذه الأزمة على الرصيد الحكومي قد أدى إلى انهيار جزئي للإجراءات الخاصة بحماية قيمة الريال ذاتها إذ

انخفضت تبعاً إلى سعر احد عشر ريالاً للجنيه الذهبي، بينما اضطر البنك الهولندي لمد إجازة الحجاج أسبوعين حماية لرصيده من الجنيهات الذهبية في مواجهة خطر سعر صرف غير حقيقي لا تستطيع الحكومة أن تسنده أكثر من ذلك.

كان لزاماً أن نسوق تفاصيل التقلبات التي تعرضت لها قيمة العملة المحلية لكي يتضح أن المشكلة الأساسية لم تكن مشكلة الاحتفاظ بسعر الصرف هذا أو ذاك، ولكنها كانت مشكلة أخطر من ذلك وأعقد، مشكلة انكماش فعلي في رصيد الحكومة السعودية، الذي أصبح من المستحيل الاعتماد على الموارد الحكومية الراهنة في رفعه أو زيادته، وكان لا بد من إجراء بعض التخفيض في النفقات الزائدة عن الحاجة. وكانت أبواب النفقات التي تستوعب مبالغ ضخمة مثل نفقات الملك الخاصة ونفقات البر والهبات ثم نفقات جيش الأتباع الذي يحيط به قد خفضت فعلاً، ولكن هناك بعد هذا نقد موجه إلى الإسراف الذي ينطوي على عدم التبصر مثل شراء السيارات بالجملة من جميع الأنواع. ورغم ما عليه وزير المالية من حذق وسعة حيلة، فإن الموقف كان غداً خطيراً حقاً، فقد أرهقت جميع موارد الدخل نتيجة لعمليات السحب المستمرة التي لا تنقطع. ولقد بذلت محاولات لدى الحكومة البريطانية تستهدف العون المالي، ولكن النظام البريطاني كان صلباً غير مرن بالنسبة لبلاد العرب، إذ لا يستطيع أن يمنح قروضاً دون قواعد وشروط وضمانات وإشراف: القبضة الخانقة على أعناق الأمم المفلسة! وكذلك جس النبض في كل من فرنسا وايطاليا للغرض نفسه ونظراً للمعاهدتين المزمع توقيعهما، ولكن واحدة منهما لم تكن في وضع يسمح لها بتقديم مساعدات في الناحية المالية. وعندئذ اتضح أن لا بديل عن إجراء تعديل كبير في نظام الحكم يمكن من إيجاد التعادل بين النفقات والإيرادات؛ ولكن مثل هذا

النهج خال مما يجذب إليه هؤلاء الذين يتمسكون بزمام السلطة. وربما كان من الأفضل الاعتماد على الحظ: المقامرة لتحقيق شيء من التحسن في الموقف، الأمر الذي لم يكن له مبرراً حتى من أمل ضعيف. أن الموقف كان باعثاً للقنوط والضيق حقاً ولا عجب أن كان الملك نفسه ضجراً متشائماً وكان عليه أن يطيل إقامته في جو الحجاز وحرارته المتزايدة في الصيف، ليرى الأزمة تشتد وتنمو، دون أن يكون قادراً على مواجهتها وبصرف النظر عن زيارة قصيرة قام بها للرياض في ديسمبر، فانه بقي بعيداً عن نجد مدة تقارب أربعة عشر شهراً، وهي أطول غيبة منذ رحلته الأولى إلى الحجاز أثناء فتحه وبعده. ولم يكن الحنين للوطن هو الدافع إلى تقريره العودة إلى موطنه في نهاية حزيران/ يونيو تاركاً ابنه فيصل ووزراءه لكي يعملوا قدر الطاقة على التخلص من هذه الضائقة الاقتصادية. لقد ارتجل حقيقة تصحبه كل مظاهر الفرار العجل المفاجئ في يوم ٢٩ حزيران/ يونيو ليبقى بين أهله حتى موسم الحج في ١٩٣٢. أن سبب ارتحاله هكذا كان غريباً مكشوفا! سبق أن قلت إن جميع الموارد كانت قد نضبت وخفت وهذا كان صحيحاً، ولكن باستثناء واحد؛ لقد كان هناك مورد واحد لم يمس بعد، لأنه كان يعتبر أن خطأً أو صواباً، مورداً آسناً دنساً. وقد كانت الحكومة الروسية في سنة ١٩٢٦ هي السباقة بين الدول للاعتراف الرسمي بالحكم الوهابي، كما كانت الدولة الأولى التي رفعت قنصليتها إلى مفوضية في سنة ١٩٢٩ على رأسها مسلم روسي كأول وزير لها في بلاد العرب. وكانت الحكومة الروسية في جميع المناسبات تبدي كثيراً من المجاملة والاعتبار للحكومة الوهابية. وكانت روسيا كغيرها من الدول، راغبة في نمو التبادل التجاري بينها وبين بلاد العرب. وفي سنة ١٩٢٧ وصلت ميناء جدة سفينة روسية تحمل سلعاً روسية لإغراق أسواق الحجاز بأسعار زهيدة، مما دفع التجار العرب إلى

الاحتجاج الشديد على هذا التنافس غير المشروع وكانت النتيجة أن وضعت الحكومة يدها على هذه التجارة التي تم التصرف بعدئذ وفق شروط مناسبة لحكومتين. ويبدو بعد هذا أن الأسواق الحجازية كانت راغبة عن السلع الروسية الرخيصة، كما فرض الحظر على التجارة الروسية في الموانئ الوهابية. أن هذا الفشل قد أضعف المصالح الروسية في المملكة الوهابية، لكنه لم يقض عليها، لما لروسيا من وسائل الدعاية البارعة القوية في العالم الإسلامي؛ هذا بينما كان الظاهر أن النشاط التجاري الروسي قد صادف في اليمن نجاحاً أكبر. ولقد فضل الدب الروسي أن يقضي بعض الوقت منتظراً متربصاً، وكان جزاؤه أن شم رائحة العسل سريعاً في هذا الهيكل الهزيل لبلد أهلكه الفقر. وكانت المفوضية الروسية قد بلغت درجة اليأس التام من النجاح في بلد اعتبر المذهب الشيوعي، أن خطأً وان صواباً، بمناسبة العدو القاتل للنظام الملكي وكانت مسألة إغلاق المفوضية كليا موضع مناقشة جدية لأن المقاطعة القائمة للتجارة الروسية قد قضت على مبررات وجودها. ولكن الأزمة الاقتصادية جاءت في أنسب الأوقات، وأصبح عرض المنتجات الروسية الرخيصة مقابل قروض طويلة الأجل أمراً مغرياً لدرجة أقوى من أن تقاوم من ذلك. وهكذا دعا الوزير الشيوعي إلى بهو الاستقبال بعد تقاعد الوزير البريطاني مباشرة، وقد أبان هذا الاجتماع عن تجانس تام في وجهات النظر وجرى الحديث في جو ودي للغاية. وهكذا انسل الملك إلى صحرائه مخلفاً وراءه مفوضية لكي يتموا على أحسن وجه مستطاع هذه المهمة الصعبة التي تهدد الدولة بكارثة وخراب. ولاشك في أن الأسبقية كانت لحاجة الدولة الملحة إلى البترول الذي كان لديها أغلى قيمة من الياقوت أو من الخبز وسرعان ما أفرغت سفينة روسية حمولتها المرموقة من الزيت في جدة دون أن يدفع ثمنها. وكان لا بد من انقضاء بضع سنين

لكي يعرف الروس أن تقديم الخدمات لبلاد العرب عملية تقتصر على جانب واحد ولا بديل لها؛ وعليه فإذا كان لي أن أسبق الحوادث ببعض سنين، فإني أذكر الحكومة الروسية لم تقرر إلّا في سنة ١٩٣٨ إيقاف محاولاتها لتحويل بلاد العرب إلى المذهب الماركسي. ولم تلبث أن أصدرت أوامر إلى الهيئتين الدبلوماسيتين في جدة واليمن بتصفية أعمالهما وأن تقدما إلى موسكو تقارير عن نشاطهما. ولقد نصح أصدقاء حاكيموف له بعدم العودة إلى روسيا، ولكنه اعتبر هذه النصائح مغالية وغير ذات موضوع بإعتباره احد رجال التعدين وكسب ذكراً طيباً وتقدماً في الخدمة الدبلوماسية وحزمه وحفاظه السياسي. وربما كان لطبيب روسي في المفوضية أسباب قوية شخصية للامتناع عن إبداء أية إيضاحات للمركز الرئيسي عن عدم رغبته في العودة إلى وطنه، ولكنه أرغم بعد محاولة فاشلة للهرب، على الصعود إلى السفينة التي حملته ورفاقه إلى بلادهم. وقد استطاع هذا الطبيب رغم ذلك أن يفر من السفينة وهي تتأهب للرحيل بواسطة المساعدة الطبية التي قدمها له صديق في المفوضية الفرنسية. ولقد شكر رب البيت على هذه النعمة واعتنق الإسلام ووجد عملاً في مصلحة الخدمات الطبية السعودية حتى اليوم. أما بقية رفاقه وهم وزيران وامرأتان وستة من صغار الموظفين فقد وصلوا موسكو في الوقت المناسب وسرحوا بالوسائل الروسية التقليدية. ويبدو منذ ذلك الحين أن إحدى الدولتين لم تحاول إعادة العلاقات الدبلوماسية المقطوعة بينهما.

وفي خلال ذلك كان النجم الأحمر صاعداً في الأجواء العربية، وكان الكمد والحقد اللذان يجيشان بصدر حكومة أضناها الضيق والحرج المالي قد وجدا لهما متنفساً في اتجاه آخر لم يكن متوقعاً بالمرة. لقد دخل عقد شركة ماركوني في دور التنفيذ في شهر أيار/ مايو بوصول الآلات والأدوات التي طلبتها الحكومة مصحوبة بمهندسين فنيين

احدهما بريطاني والثاني مصري (لتركيب الآلات بمكة والمدينة) لإقامة المحطات في المواضع التي اختارتها الحكومة وكانت الأنظار متجهة أولا وقبل كل شيء إلى المحطات الأربع المتنقلة التي طاقة كل منها نصف كيلوواط والتي ركبت على سيارات فورد؛ وأخذ المهندسان بوسيكولوت والكردي، في العمل جادين لتركيبهما بمجرد وصولهما. وعندما أصبحت محطتان منهما صالحتين للعمل تسلمهما عمال الحكومة اللذين أخذوا في تشغيلهما بدون توقف ليل نهار دون أن يفكروا في تشحيم الآلات. ولهذا سرعان ما أبلغ هؤلاء الموظفون عن تلف المحطتين وتوقفهما عن العمل، وأعلن من جانب الحكومة وحدها أن المحطتين رديئتان ولا تنطبق عليهما المواصفات والشروط التي تنص على اشتغال الآلة ثماني ساعات باستمرار! أصبحت بهذا في مركز شديد الحرج ولكن بعد مشاورة بوسيكولت، استطعت أن أخبر الملك أن الخطأ ليس في الآلات ولكن في جانب العمال، فقبل هذا التفسير برفض شديد بينما لقي اقتراحي بتجربة الآلات وفق الشروط قبولاً وترحيباً.

وقد عرضت كذلك أن تشهد لجنة من كبار الموظفين هذه التجربة في جدة، وأن تبقى في مكانها حتى تتوقف الآلة عن الدوران وقد بدت التجربة عند الفجر في يوم صيف نموذجي من أيام جدة شديد الحرارة شديد الرطوبة؛ وعند الظهر قدمت إليَّ عدة اقتراحات بأن اللجنة قد اقتنعت بكفاية الآلة ومقدرتها، ولكني أكدت لهم أن الآلة يجب أن تستمر دائرة أربع ساعات أخرى، وصممت على أن يظلوا حيث هم كشهود عيان على أنها اشتغلت باستمرار المدة المحددة لها. وعند المساء كانوا جميعاً وقد أضناهم العرق، يعبّرون في إعجاب عن رضاهم التام عن كل شيء، ثم طلبوا أن تتوقف الآلة فترة للراحة، فأكدت لهم مرة أخرى أنهم لم يروها بعد في أحسن حالاتها، كما سيتضح لهم ذلك أثناء ساعات

الليل الباردة، ثم أضفت إلى ذلك أننا عملنا حساباً لكي تبقى دائرة مدة ثمان وأربعين ساعة لا يوماً واحداً؛ ولكنهم طالبوا بالرحمة، فاكتفينا بذلك وتوقفت التجربة عند هذا الحد وبعد هذا لم يعد احد للحديث عن المواصفات والشروط؛ وعندما رجعت إلى مكة تحدث الملك كثيراً مشيراً إلى هذه الحادثة.

ولكن كان هناك حادث مكدر آخر يتربص في الدوائر، إذ كانت المحطتان المتحركتان القائمتان مؤقتاً في جدة ومكة تحت رعاية المهندسين، تتخاطبان معاً كما تتناجى الطيور، ولكن الرسائل التي كانتا تبعثان بها لم تكن مسموعة في المدينة، على مسافة ٢٥٠ ميلاً هو النطاق المضمون لقوة هاتين الآلتين. فقد أرسلت محطة تليفونكن القديمة التي بناها الأتراك منذ سنين طويلة، تقول إنها لا تستطيع التقاط الرسائل التي ترسلها، بينما هي تستطيع التخاطب كما تشاء مع المحطة الموقتة الثانية في جدة. وكان من الواضح أن هناك شيئاً غير سليم، وهكذا بدأت المطاردة لاقتناص فريسة غير تلك. أن المحطتين المتحركتين تستطيعان الاتصال على مسافة ٤٥ ميلاً وهي المسافة بين جدة ومكة كما ثبت من التجربة، ولكن هذا كان أقصى طاقتهما، وعليه فإنهما لا تصلحان للغرض الثاني رهن الاعتبار. وغضب الملك لذلك كثيراً ولكني بعد مشاورات أخرى مع بوسيكولت، اقترحت أن تبقى إحدى المحطتين معه في جدة، بينما أذهب مع الكردي بالمحطة الثانية إلى المدينة للعمل على إنشاء الاتصال بينهما. وقد قررت أكثر من هذا أن نذهب، لو نجحنا في عملنا، إلى العلا على بعد نحو أربعمائة ميل من جدة صوب الشمال، ثم إلى تبوك فالجوف فقريات الملح لنتحقق من أبعد مدى تستطيع أن تعمل فيه هذه المحطات وهو ما قدرته بحوالي ألف ميل! ولم يكن الملك ميالاً لمثل هذه التجارب، وأشار متهكماً إلى انه يعتقد أنني أريد أن أتوسل بشفاعة

النبي ﷺ لكي تعمل هذه الآلات التالفة. وقد انتهت الأمسية بشيء من الحرج يهدد بأزمة، ولكن الملك كان في الصباح التالي باسماً يفيض وجهه بشراً، كما لو كانت الدنيا كلها بخير. والمهم انه وافق على إجراء التجارب التي اقترحتها: ولم يغيّر رأيه، فقد رحلت والكردي في اليوم التالي صوب المدينة وما بعدها. كان هذا في يوم ٦ حزيران/ يونيو، وقد انقضت ثلاثة أسابيع أو أكثر عندما علم الملك قبل سفره إلى الرياض أن الاتصال قد تم فعلاً بين جدة والمدينة والعلا. انه نفسه قد قطع هذه الرحلة إلى مدينة الرسول (المدينة المنورة) التي كانت تبشر بان تكون طويلة ممتعة.

وكانت السلطات السعودية هناك مشتغلة بعمل الاستعدادات اللازمة لاستئناف رحلتنا شمالي المدينة بما يربى على خمسماية ميل؛ ولم يكن من واجبي أن أحثهم على الإسراع في الانجاز، إذ كنت أشعر بسعادة تامة للتجوال في هذه المدينة الجميلة أو الواحة الفاتنة. ولقد كنت فعلاً أتجول بعد ظهر يوم ١٩ حزيران/ يونيو بين خرائب العاصمة اليهودية القديمة «يثرب»، عندما دعيت لأقابل على عجل حاكم المدينة، الذي تسلم برقية شديدة اللهجة من الملك يتساءل فيها عن السبب في تبديد لهذا الوقت الطويل في المدينة، ومصدراً إليه تعليمات بتجهيز الرحلة وقيامها بدون تأخير إلى العلا التي علينا أن نعود منها إلى المدينة في فترة ثلاثة أيام! بدأنا الرحلة بعد ذلك بيوم واحد لنقاسي مصاعب أسوأ طريق في العالم على امتداد سكة حديد الحجاز التي دمرها واتلف جسورها ومحطاتها لورنس وأعوانه أثناء الحرب العالمية الأولى وخلفها في حالة يرثى لها من التلف والخراب دون أن تمتد إليها يد الإصلاح. وقد وصلنا إلى العلا بعد مسير خمسة أيام، ثم قضينا يوماً أو اثنين في إنشاء الاتصال مع جدة (على نحو ٤٠٠ ميلاً). وكان الملك على وشك مغادرة

مكة المكرمة، عندما وصلته رسالتي تعلن إلى جلالته عزمنا على السفر في اليوم التالي إلى تبوك بعد أن نجحت مهمتنا في العلا؛ ولكن هذا لم يحدث، إذ كان رد جلالته أمراً حازما بالعود فوراً إلى المدينة وجدة، ثم لنتبعه إلى الرياض بأقصى سرعة لأنه في حاجة ملحة إلى المحطة المتحركة للاتصال بمكة وجدة (مسافة ٦٠٠ ميلاً). وكان افتراض إمكان الاتصال على هذه المسافة مجاملة طيبة من جلالته. وكان عليَّ أن أدير ظهري آسفاً لخرائب مدائن صالح الواقعة وراء العلا مباشرة، ولأرض مدين إلى الشمال منها. وفي غضون أسبوعين لحقت بجلالة الملك في عاصمة الصحراء. إن مشروع ماركوني هذا، الذي كان ميلاده عسيراً مؤلماً، لم يسبب لنا بعد ذلك أية متاعب أخرى، وما زال حتى اليوم بمثابة المحور الذي تدور حوله أداة الحكم في المملكة العربية السعودية كلها. ولا شك في انه اتسع وامتد لدرجة ملحوظة منذ تلك الأيام، وخاصة أثناء الحرب العالمية الأخيرة، عندما اشتركت المشروعات الأميركية في تنمية وسائل الاتصال اللاسلكية في نطاق كبير.



الفصل الرابع عشر

المعجزةُ

إن السنين الأربع السمان التي كانت بداية طيبة لحكم آل سعود قد أقامت نمطاً من الحكم، مهما كان مخيباً للرجاء والآمال في الناحية العملية والأداء للأسباب التي جاءت في الفصل السابق، فقد أرسى للبلاد على الأقل أساساً وطيداً للنمو الإنشائي دلت التجربة على ضرورته لتثبيت النجاح الذي تحقق فعلاً، ولزوال مظاهر الضعف التي غدت أوضح من أن تنكر أو يغفل أمرها. ولكن الظفر بهذا النوع من الحكم قد أنهك في الوقت ذاته الموارد المالية في الدولة وبلغ حد النضوب، وجلي أنه كان من المتعذر الاحتفاظ به في هذا المستوى إلّا إذا بقي للدولة الدخل الذي اعتادت الحصول عليه ولكن الكساد العالمي جاء فحطم الآمال فجأة، وشعرت بلاد العرب بأثره الشديد في صورة نقص خطير في وفود الحجيج من البلاد الإسلامية كالهند وجاوة وغيرهما من البلاد التي منيت منتجاتها الزراعية بكساد بالغ في السوق العالمية، فأصبحت لا قبل لأهلها من المسلمين بترف السفر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج.

وفي خلال الشهور السابقة لموسم الحج في سنة ١٩٣١ أدركت الدوائر العربية المسؤولة حقيقة خطورة الموقف وبالغ حرجه. وكانت الحكومة قد التزمت مقدماً بإنفاق دخلها على مشروعات كمشروع إنشاء

شبكة محطات لاسلكية في البلاد، وتحسين وسائل تزويد جدة بالمياه، وكذلك شراء السيارات على نطاق واسع. وكانت المدفوعات الواجب سدادها عن هذه المشروعات تتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة ألف جنيه، بينما كان الأمل في إمكان سدادها في مواعيد الاستحقاق ضعيفاً للغاية، وكان على الحكومة فضلاً عن هذا أن تواجه مدفوعات كبيرة أخرى تمثلت في مرتبات الموظفين وقد استطاعت الحكومة بإصدار أمر بتأجيل الدفع «موراتوريوم» بشروط مقبولة أن تؤجل دفع التزاماتها قبل دائنيها من التجار، بينما أوقفت دفع مرتبات الموظفين إلى آجال متأخرة: وهذا إجراء سيء لا شك ولكنه اعتبر إجراءاً ضروريًّا مؤقتاً أثناء الأزمة الفعلية! ومع ذلك فانه لسوء الحظ استمر حتى اليوم، وكانت له أثار بالغة الضرر على الموظفين ورجال الشرطة. وإذا نظرنا إلى الوراء لما وجدنا حرجاً في القول بان الحكومة لعشرين سنة خلت كانت تواجه أبداً ديونها في مواعيدها، ولو أن فرص الاقتراض بالنسبة لها كانت تضعف وتتقلص قطعاً نتيجة لتأجيل الدفع وما يصحب هذه العملية من مظاهر التعلل والتسويف.

وأعود إلى الحديث عن الضائقة المالية ذاتها، فأذكر أني صحبت الملك يوماً في خريف سنة ١٩٣٠ في نزهته العادية بالسيارة بعد الظهر، وكان يبدو في حالة من اليأس والكآبة، فلم أجد مناصاً من أن أسأله في صراحة عن سبب ما يهمه. تنهد جلالته مجهداً وصرح بأن الوضع المالي للبلاد يكربه كثيراً! وكان الأمل في موسم الحج ضعيفاً واهياً، وخزانة الدولة خالية خاوية. وغدت الحكومة يائسة من وجود وسيلة يلتقي بها طرفا الميزانية، فضلاً عن صعاب أخرى كانت تواجهها ولا تجد سبيلاً للتغلب عليها. ولقد أجبت في مرح بقدر ما تسمح به هذه المناسبات، قائلاً إنه وحكومته كقوم ينامون على جانبي كنز دفين، ولكنهم أكسل

أو أوجل من أن يحفروا الأرض بحثاً عنه! ثم قلت موضحاً عبارتي بأنني لا استريب قط في أن مملكته الكبيرة غنية بالموارد المعدنية التي لا يفيد منها، هو أو غيره شيئاً ما دامت مستكنة في باطن الأرض، وانه لا يمكن الكشف عن مواطن هذه الثروة إلّا بواسطة الخبرة الفنية، كما لا يمكن استخراجها لصالح البلاد إلّا بالتعاون مع الخبراء الأجانب والرأسمال الأجنبي. ولكن يبدو أن الحكومة أخذت ترقب وتنتظر أن تأتي الشركات الأجنبية لتخرج لها ثروتها الكامنة، وقنعت بأن تبقى ساكنة في جلستها تندب فقرها وسوء حالتها. وأخيراً ختمت حديثي مستنداً إلى هذه الآية القرآنية الكريمة ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. قال الملك فيما يشبه التلهف أو الرجاء: «يا قلبي، إذا أعطاني أي شخص مليونا من الجنيهات، فإني أمنحه جميع الامتيازات التي يطلبها!» لقد كان هذا حقاً تصريحاً مؤلماً! إن تذوق رخاء غير معتاد خلال بضع سنين مضت قد جعل دوام الغنى ضرورة حتماً! أما جميع الاعتبارات الأخرى فيجب أن تضحى في هذا السبيل! قلت أجيب جلالته: «حسناً، ولو أن الحال لن تسوء إلى هذه الدرجة؛ ولكن أحداً من الناس لن يعطيك مليون جنيه اليوم دون أن تقوم مبدئيًّا باختيار إمكانيات الثروة الكامنة في مملكتك.. ورغم هذا ففي مصر الآن رجل أميركي - ربما لم تكن تعنى بمقابلته لو انه قدم إلى جدة قبل اليوم ببضع سنين. انه لا شك يضحي مختاراً بإحدى عينيه لكي يراك بالعين الأخرى! انه قام منذ وقت قصير بزيارة إلى اليمن، وعمل كثيراً لكي يساعد هذا البلد بطرق مختلفة، وإنه يستطيع أن يمد لكم يد المساعدة لأنه من كبار أثرياء العالم وله صلات مهمة وثيقة بالدوائر الصناعية الأميركية؛ وأرى أن الواجب يقتضيك مقابلته بأسرع ما يمكن. هذا وإذا أمكن أن تحدد لي بالضبط وقت وجودك في جدة بعد موسم الحج، فإني أرسل إليه برقية، وأضمن حضوره لكي يقابلك هناك».

ووصل إلى جدة في الميعاد المحدد المستر شارلز كرين[١] المليونير الأميركي وخادم الإنسانية يصحبه المستر جورج انطونيوس، وكان له الشرف في أن يضم آل سعود إلى قائمة الملوك والعظماء الذين قابلهم شخصيًّا أثناء أسفاره في العالم مدة نصف قرن. وتقديراً لهذا الشرف فإنه أبى إلّا أن يقدم خدماته بأحسن الوسائل التي يملكها، فتعهد أن يضع تحت أمر حكومة ابن سعود وبدون مقابل ولمدة ستة شهور، خدمات أحد خبراء التعدين الذين عملوا لحسابه في الحبشة واليمن وغيرها. وكان أن حضر أولاً إلى بلاد العرب المستر ك. س. توتشل لكي يكشف عن الكنز الدفين، الذي أشرت إلى وجوده في أحرج أوقات الضائقة المالية التي عانتها البلاد. لقد توفي المستر كرين منذ مدة طويلة، ولكن بعد أن رأى نضوج أولى ثمار خدماته الإنسانية وكرمه وبرّه، بينما ظل المستر توتشل على أوثق الصلات بالمملكة العربية السعودية إلى وقت قريب جدًّا، ولمدة عشرين سنة انقضت في أجل الخدمات التي ضمت إلى رصيده.

هكذا بدأ استخراج الثروة المعدنية في بلاد العرب؛ ومع ذلك فكان لا بد من أن تنقضي فترة طويلة حتى تتم هذه العمليات التي وفرت للبلاد هذه المرتبة من الثراء الذي تغبط عليه. ولكن اكتشاف توتشل للبترول في شرق بلاد العرب وللذهب في الحجاز قد فتح الباب بالتنافس الأجنبي على الحظوة بشرف تنمية موارد هذه البلاد. وفي سنة ١٩٣٢ كان المسرح قد اعد لافتتاح هذه المسرحية، حيث اتصل بي مندوبو شركة «استاندارد للبترول في كاليفورنيا» لمباردي ولوبيس، في صيف ذلك العام وبعد وصولي مباشرة من رحلة كشف قمت بها في الربع الخالي، للحصول على امتياز من الحكومة العربية السعودية للبحث عن البترول في

---

(١) أنظر صحيفة ٢٥١.

أراضيها، وقد كان في مقدوري أن أشجعهم وأقوي من آمالهم. وفي شهر تشرين الأول/ أكتوبر تسلمت برقية تخولني سلطة التفاهم مع الحكومة على الشروط التي تقترحها لمنح مثل هذا الامتياز. وقد استطعت بسرعة أن ابرق للشركة الأميركية بالشروط التي اقترحتها الحكومة كأساس للمفاوضات والتي سرعان ما وصل إلى جدة لإجرائها المستر لويد هاملتون مصحوباً بالمستر توتشل كمستشار فني له وكمندوبين عن الشركة. وكذلك لم تتوان شركة البترول العراقية عن إرسال ممثل لها، هو المستر ستيفن لونجريج لينافس في الحصول على الامتياز. ومما لا يخلو من عجب أن المستر فرانك هولمز الذي كان، كما سبق القول، قد حصل على الامتياز قبل ذلك بعشر سنين وبشروط تثير الضحك «لنقابة البترول الشرقية العمومية»، ظهر مرة أخرى ليكون المنافس الثالث في الحصول على هذا الامتياز. ولكن أقل غرابة من هذا أنه ارتحل بسرعة وفي غضون بضعة أيام من وصوله، عندما علم انه يجب على الأقل دفع الريع (وقدره ٦٠٠٠ جنيه ذهباً) الذي كان متأخراً عند فسخ العقد، قبل أن يمكن اعتباره منافساً جديًّا في الحصول على الامتياز. وعلى هذا فلم يكن لدى الحكومة إلّا منافسان في المفاوضات التي شغلت الشهور الأربعة الأولى من سنة ١٩٣٣. وكانت الشروط تنص على أن يدفع مقدماً من يظفر بالامتياز مبلغ مائة ألف جنيه على حساب حصة الحكومة المستقبلة في الإنتاج وهي أربعة شلنات ذهب عن كل طن من البترول المنتج. وأخيراً أصبح الأمر معلقاً من المبلغ الذي يدفع نقداً عند توقيع عقد الامتياز، كما كان من اليسير على كل من الشركتين أن تقبل معدل الحصة الذي اقترحته الحكومة وغيره من الشروط التي أرادتها. وعلى أية حال فإن العرض لم يكن سخيًّا بالنسبة لهذه النقطة بالذات.

وإذا كان قد وضح أن شركة البترول العراقية لم تكن لتقبل دفع أي مبلغ مقدماً يزيد على عشرة آلاف جنيه (ذهباً)، فإن الشركة الأميركية رفعت كثيراً من هذه القيمة إذ عرضت دفع مبلغ خمسين ألف جنيه، أو مائتين وخمسين ألف دولار. ولا شك في أن هذا المبلغ كان تافهاً باعثاً للسخرية لو أخذنا في الاعتبار النمو الذي كان ينتظر هذه الصناعة؛ ولكن يجب أن نذكر أيضاً انه لم يثبت في ذلك الوقت وجود البترول بكميات كافية للاتجار. وكانت الأيام ما زالت بعيدة في غور المستقبل، هذه الأيام التي أصبحت فيها الشركات المتنافسة على أتم استعداد لان تدفع أربعين أو خمسين مثل لهذا المبلغ على حساب حصة الحكومة لكي تحصل على الامتياز في الجزء السعودي من منطقة الكويت المحايدة، أو في الجزء السعودي من الأراضي الساحلية الواطئة.

إن استخراج البترول في المملكة العربية السعودية والأقاليم المتاخمة لها أشهر من أن تحتاج إلى حديث مفصل عن هذه القصة، ويكفي القول بان الأميركيين لم يتوانوا في بدء أعمالهم في شرق المملكة العربية السعودية، حيث استطاعوا في سنة ١٩٣٥ أن يكشفوا عن وجود البترول بكميات كبيرة. وفي سنة ١٩٣٨ بدأ الإنتاج على نطاق ضيق وبلغ ثلاثين ألف برميل في اليوم قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية. وقد جعلت ضرورات الحرب وإستراتيجية الحلفاء الاستيلاء على هذه الكمية من إنتاج البترول في المملكة العربية أمر لا معدى عنه، ولو أن الخسارة الطارئة التي تحملتها الحكومة السعودية بسبب هذا الخطر قد عوضت بلفتات مالية مختلفة ذات طابع شاكر نبيل من جانب الحكومتين البريطانية والأميركية اعترافاً بالعون الأدبي لجهود الحلفاء الحربية من رجل **وصفه المستر تشرشل في مناسبة عارضة بقوله «صديقنا الحميم في أوقات الحاجة»**.

وفي سنة ١٩٤٤ كان الحلفاء في مركز يسمح لهم برفع الحظر عن إنتاج البترول في بلاد العرب، وعادت الشركة الأميركية باسم «شركة البترول العربية الأميركية «أرامكو»[1] ووجدت في مقدورها إنشاء المصنع اللازم لزيادة الإنتاج وللتكرير وغيرهما من الأغراض. وكان اطراد زيادة الإنتاج أثناء الخمس أو الست سنين الماضية ضرباً فذاً من القصص الواقعي: استطاع أن يحول بين يوم وليلة مجتمعاً من أفقر المجتمعات في العالم إلى شعب غني موفور الثروة، كما انطوى على ما لا يمكن أن يسمى إلّا ثورة اجتماعية جارفة لا يمكن تقدير آثارها النهائية. إن أبهى واعنف أحلام «ألف ليلة وليلة» لتتخاذل ويعروها الخجل إذا ما قورنت بحقيقة واقع اليوم من حفريات الصحراء والتنقيب في كهوفها بواسطة غرباء قدموا من الغرب هابطين من السماء بخطط ومخترعات غريبة لاختبار جوف الأرض بحثاً عن هذا السائل العكر الذي يجأر العالم للحصول عليه كي يحفظ له آلاته النهمة عاملة تدب فيها الحركة والحياة. إن بلاد العرب التي اتجرت يوماً من الأيام في التوابل والعطور خدمة للآلهة والموتى في الدنيا القديمة، قد استيقظت أخيراً من سباتها الطويل لتخدم الإنسان وتزيد من رفاهيته بهذه الموارد الجديدة من ثروتها الدفينة.

وتستطيع المملكة العربية السعودية أن تنظر اليوم مطمئنة إلى مستقبل لا حد له من الاستقرار المالي والأمني لما يستخرج اليوم من أرضها من البترول بمعدل ثلاثمائة ألف برميل يومياً، وبالأمل الوطيد في أن تبلغ هذه الكمية الضعف[2] بعد فترة قصيرة جدًّا عندما يتم إنشاء خط الأنابيب إلى

---

(١) The Arabian-American Oil Company “Aramco”.

(٢) تم إنشاء خط الأنابيب هذا في تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٥٠، وأصبح إنتاج البترول في اليوم بمعدل ستمائة ألف برميل.

البحر الأبيض المتوسط ليكفي حاجة خزان البقيق الذي يعتبر أكبر خزانات العالم وأكثرها أنتاجاً إذ تقدر كفايته بما يوازي ثلاثمائة ألف برميل في اليوم. ولا ريب في أن المستقبل الاقتصادي لهذه البلاد يتوقف أولاً وأخيراً على استخدام الموارد المتاحة لها اليوم استخداماً رشيداً في النمو الإنشائي والتقدم البنائي للبلاد كلها ولصالح سكانها جميعاً، وخاصة هذا الجزء الكبير منها المشتغل في الزراعة ورعي الماشية، إذ أبانت التجارب الماضية عن أن بلاد العرب خاصة في حالة الحرب أو في حالة كساد عالمي - وهما عاملان يجب أن يعمل لهما حساب لوقت غير محدود بسبب هذه الظروف المضطربة التي تسود العالم - عرضة لمتاعب جمة لأنها من البلاد التي تعتمد لحد كبير على استيراد المواد الغذائية وغيرها من ضروريات العيش من الخارج، ولهذا يجب أن يكون هدفها اليوم العمل على زيادة الإنتاج الأهلي في المواد الغذائية إلى أقصى حد مستطاع. وهناك من المبررات القوية ما ييسر ذلك في نطاق واسع، إذا رصدت الأموال اللازمة واعدت المشروعات الكفيلة بتحقيق هذه الغاية، خاصة وان إمكانيات التوسع في إنتاج المواد الغذائية كثيرة متاحة كما يتضح من الاتصال بأهل الريف، إلّا أن هذه الفرص تقلصت لنقص الوسائل اللازمة لتحسين الإنتاج والإكثار منه في بلد يقع لدرجة كبيرة تحت رحمة الرياح والجو، فضلاً عن الكوارث الطبيعية الأخرى مثل الفيضان وغزوات الجراد.

ولا بد من وجود الرأسمال لإمكان اطراد التنمية الاقتصادية في اتجاه صحيح، ثم لتيسير تعليم الناس وتثقيفهم. ولكن النصيب الأوفر من الرأسمال في الظروف الحاضرة هو في يد الحكومة وفي ملكية عدد صغير نسبيًّا من أثرياء التجار وكبار ملاك الأرض؛ وعليه فواجب الحكومة أن تحرص على استثمار الموارد المالية استثماراً مستمراً

مجدياً؛ هذا ولا نستطيع أن ننكر أن الحكومة قد شرعت في السنين الأخيرة في تنفيذ عدد من المشروعات النافعة، وان غيرها في سبيل التنفيذ، كما أن هناك مشروعات أخرى رهن الدرس والبحث. ولكن يمكن القول بصفة عامة بأن مظاهر النشاط الحكومي في مثل هذه الأمور كانت مرتجلة غير مرنة، إذ انحصرت لدرجة كبيرة جدًّا في المدن وما حولها من مناطق آهلة بالسكان يتمتع الكثير منها بمواقع طيبة ومزايا كبيرة لم تكن تحلم بها منذ عشر سنين بحيث يمكن أن تقارن اليوم دون ما غبن، بمثيلاتها في بعض بلاد الشرق بل وفي بعض البلاد الأوروبية.

وعلى أية حال فان مظاهر هذا النشاط لم تتم وفق خطة مرسومة أو توجيه والواقع أن المدن التي امتدت واتسعت حديثاً مثل جدة والرياض، حتى ازداد عدد السكان في كل منها إلى ثلاثة أمثاله في العشر السنين الأخيرة، تبين جميعاً عن أن هذا الاتساع كان مجرد عملية امتداد وتوسع لا ضابط لها في أرض الصحراء، وأنه لم يتم وفق مشروع قامت بتصميمه السلطات المختصة، وهذا هو مجال الاحتكاك الآن: إن الحكومة المستندة إلى الزعامة الفردية التي استطاعت منذ عشر وخمس عشرة سنة أن تحل المشكلات الأساسية في البلاد، أصبحت اليوم في مواجهة مشكلات متنوعة من طراز آخر تتحدى الحل وفق قواعد السلطة الخيرة الماضية. إن المشكلات الجديدة هي في معظمها ذات طابع اقتصادي أو مالي، فضلاً عن مشاكل أخرى معقدة سياسية ودولية، تتطلب يقظة مستمرة ورقابة دائمة من السلطات. ولا تستطيع الدولة أن تواجه هذه المشكلات في ظل الظروف الراهنة إلّا معتمدة اعتماداً كليًّا على مهارة وإخلاص عدد من الأفراد الذين رفعتهم خدمتهم وكفايتهم الماضية إلى مناصب القيادة وجعلتهم محلاً للثقة والاطمئنان ولكن لا يوجد حتى الآن

شيء من وسائل الحكم المنظم وقواعده ليعالج جملة هذه الأوضاع المؤسفة للأمور، ويصبها في قوالب أخرى تتسق ومستلزمات الدولة الحديثة.

وهكذا كانت الأزمة المالية الراهنة التي بدأت في ديسمبر سنة ١٩٤٩ بين معالم الوفرة والغنى؛ ترجع جميعها إلى حشد الموارد المالية للدولة في سلسلة من المشروعات التي تدخل في نطاق المشروعات الفردية، والتي كانت تستدعي الإعجاب في حد ذاتها، ولو انه لم يكن من المستطاع تنفيذها معاً وفي وقت واحد. وهكذا أيضاً نورد في ختام هذا التحليل الهزيمة المنكرة في فلسطين في السنة السابقة، ثم عدم اتخاذ المملكة السعودية أي موقف حيال الأزمة الكورية إذ يبدو أنها رغبت منذ بدايتها في أن تتبع مصر في موقفها إزاءها أو لعلها بدلاً من هذا أرادت أن تترك الأمر لما تقضي به عدالة الجامعة العربية. وهكذا أيضاً لم يتغير سلوكها بالنسبة لاقتراحات الدول الثلاث (الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا) بان تمد البلاد العربية بالسلاح والتي كان صالحها يقضي بقبولها رغم ما ينطوي عليه هذا القبول من اعتراف فعلي مضمر بدولة إسرائيل في حدودها الراهنة.

إن هذه المسائل وغيرها من أمثالها التي يمكن الاستشهاد بها تدعيماً لوجهة النظر العامة، تنهض في أقل تقدير، دليلاً على تناقض مطرد في الكفاية وحزم القيادة اللتين يتصف بهما الحكم السعودي اليوم. ويرجع هذا القصور إلى حد ما إلى الحقيقة الواقعة في أن عبئاً ضخماً من المسؤولية يقع على عاتق الملك نفسه في ظل الظروف الراهنة: ومن الأرجح أن البلاد لا تنظر ولا تتجه إلّا إليه، للبدء في إصلاح الحكم وإعادة تنظيم قواعده على الأسس التي اصطلح اليوم على تسميتها بالنظم الديموقراطية. ومن المؤكد انه لا يستطيع، إلّا بهذا النهج، أن يخفف

عن نفسه مشقة هذا العبء المتزايد من واجباته اليومية، بصفته ملكاً أوتوقراطيًّا بغريزته وبحكم الضرورة، مهما كان خيراً براً؛ هذا فضلاً عن انه بعمله هذا يهب شعبه حكومة ألهمت نبيل الدوافع التي تميز بها حكمه الطويل، وأوتيت القدرة والقوة بما يسودها من توافق وانسجام، لأن تحافظ على هذا الملك الكبير الذي قام على ساعده وجده.

إن الصور والفكر التي تتضمنها الفصول الباقية، إنما هي في الواقع بدافع وإيحاء من توقع المعجزة التي حدثت فعلاً في بلاد العرب خلال بضع السنين الماضية. لقد كنت أحاضر جماعة مثقفة بلندن في هذا التحول الغريب الذي طرأ على بلاد العرب التي رأيتها للمرة الأولى منذ ثلاثين عاماً في ظروف مختلفة تمام الاختلاف، فسألني أحد الحاضرين عما إذا كان من العدل أن تصبح بلاد كبلاد العرب بين يوم وليلة في مثل هذه الدرجة الخيالية من الثراء، دون أن تبذل أية جهود من ناحيتها؟ وكان جوابي على هذا بسيطاً يبدو لي أنه حاز قبولاً لدى المستمعين، إذ قلت، إن هذا هو جزاء الفضيلة والإيمان. وكنت وقتئذ وفي غير ما وعي، أتذكر السنين العجاف الماضية التي لم يزعزع الفقر وخشونة الحياة خلالها من إيمان العرب وثقتهم في رحمة الله الذي كانوا يعبدونه في خشوع وولاء يمسان شغاف القلوب ويبهران العيون بما فيها من جمال، وبحيث كان الخطر عليهم كامناً في الرخاء الذي قد يدفعهم إلى ما يتنافى مع الفضيلة والإيمان بالله، **لأن الحقيقة هي كما قال الملك في حديث قريب: «إن الأموال والأولاد هم أعداء الإنسان!»**.

من المحتمل أن يصبح الرخاء والثراء شراكاً ومزلقاً للضلال والبعد عن الله في بلاد العرب كما كان في غيرها من الممالك. ولكن المعجزة قد تحققت! وعلى العرب أن يتقبلوها في خشوع عميق وتواضع قوي، وبحزم وعزيمة فلا يكون منها موارد للاضطراب والفوضى في البلاد. إن الرجل

الذي قادهم من ضراوة العيش وخشونته إلى الثراء وأرض الميعاد، يستطيع أن يكون راضي الخاطر مرتاح الضمير لأنه لم يحد قط عن المُثل العليا التي اتسم بها جهاده وطبعت أعماله منذ نصف قرن مضى. وسوف يجد من يخلفونه أن احتذاء نهجه أصعب وأكثر عقبات في عالم مطرد الانحدار في هاوية المادية باسط ذراعيه على الصحراء بهذه الدعوى «المقدسة» من «الحريات الأربع» وغيرها من مميزات هذا العصر الآلي.

لكن بصرف النظر عما قد تجيء به الأيام أو تدع، فإن بلاد العرب التي عرفتها أول الأمر عظيمة قانعة بدخل لا يزيد على مائة وخمسين ألف جنيه في العام، قد ارتفع دخلها الآن إلى ثمانين ألف جنيه في اليوم من البترول وحده منذ تم إنشاء خط الأنابيب، ولها أمل عظيم في أن يرتفع هذا الدخل إلى مائة ألف جنيه يوميًّا في بضع السنين التالية، ما لم تطرأ ظروف غير متوقعة تحد من الإنتاج. وفضلاً عن هذا فهي تستطيع أن تعتمد على مبلغ آخر يبلغ حوالي عشرة ملايين جنيه سنويًّا من موسم الحج وغيره من موارد الدخل التي تملكها. وعلى هذا وبدخل مالي يقدر بخمسين مليون جنيه في السنة، وسوف يزداد تدريجيًّا على الأرجح في المستقبل، فإن المركز المالي لهذا البلد أصبح قويًّا ممتازاً، بل وتجاوز ما كان منتظراً، ويتنزه عن المقارنة بمثيله في جميع فترات تاريخها. ولقد أبانت هذه البلاد عن أنها تستطيع أن تستخدم النقود؛ ولكن ليس بمقدور أشد المعجبين بها أن يزعم أن جميع هذا الدخل الكبير ينفق إنفاقاً حكيماً أو حتى إنفاقاً مشروعاً. لقد كان هناك كثير من وجوه الإنفاق لم تكن بطبيعتها محمودة قطعاً، وكان هناك إسراف على نطاق واسع، بينما أنشئت مشروعات كثيرة نافعة بنفقات باهظة لم يكن لها مبرر. هذا ومن الممكن علاج القصور الذي يرجع في معظمه إلى قلة التجربة وسرعة التنفيذ وفقدان التوافق بين الأفراد والمصالح المختصة؛ ولكن من العسير الانتفاع بهذه الموارد

المتزايدة الكبيرة إلى أقصى الحدود ما لم تصلح الأداة الحكومية وتشكل بحيث تكفي هذا الغرض. إن البلاد لا يعوزها الرجال المفكرين الأكفاء ولكن لن تجدي مجهوداتهم الفردية في هذه الناحية أو غيرها من نواحي النشاط وتؤتى أكلها، إلّا إذا نسقت ونظمت لتنفيذ برامج ناضجة قد بحثت ووضعت مقدماً بواسطة هيئة مسؤولة من الوزراء والخبراء، يحمل كل منهم مسؤولية شخصية، ويحملون كهيئة مسؤولية جماعية أمام الملك نفسه. وقد اتبعت هذه الطريقة في مرحلة مبكرة من تاريخ المملكة العربية السعودية، عندما كان الملك يقوم بدور أكثر نشاطاً في توجيه سياسة الحكومة، كما حدث أثناء المفاوضات حول امتياز البترول في سنة ١٩٣٣. ولكن يبدو أن تشعب الأمور وتعقدها بشكل آخذ في الزيادة والاتساع قد أدى إلى ضعف الجهد الجماعي لمستشاري الملك وإلى الميل لتركز قدر كبير من السلطة والمسؤولية في وزارة المالية، التي تمارس في الواقع سلطات ديكتاتورية، وفي مدى واسع، على غيرها من مصالح الحكومة وفروعها، وبهذا تعيق من نشاطها ومشروعاتها، بل ومن تفكيرها وابتكارها ولهذا يبدو أن قيام المسؤولية الوزارية الجماعية هو الوسيلة الوحيدة لإيجاد التوازن والاستقرار في بلد قد تهيأت له الآن كل الموارد اللازمة.



الفصل الخامس عشر

علاقات المملكة مع اليمن

لقد استطاع ابن سعود أن يمد حدود مملكته إلى ما هي عليه اليوم فعلاً، بفرض حمايته على ولاية عسير الإدريسية في سنة ١٩٢٦، وبامتداده الفعال للمناطق الشمالية حتى حدود منطقة معان - العقبة التي ضمت إلى شرق الأردن بعمل عسكري من جانب واحد قامت به القوات البريطانية. أما في العراق وشرق الأردن، والكويت والبحرين وقطر، وعلى امتداد الساحل وعُمان، فقد أوقفته مصالح بريطانية وطيدة لم يستطع أن يتحداها. ووراء الربع الخالي يقع إقليم حضرموت الذي لم يكن فيه ما يغريه به، والذي لم يكن قد أثار بعد رغبات السلطات البريطانية في عدن، ولا مطامع اليمن التي كانت البلد الوحيد الذي يتطلب الحذر من جانب العاهل الوهابي نظراً للحدود الغامضة غير الثابتة التي تفصل بينهما، ثم للمطامع المعروفة التي كان يكنها الإمام يحيى لضم نجران وجزءاً من المنطقة الإدريسية إلى مملكته. ومثلما صنع الشريف حسين بواحة خرمة صنع الإمام يحيى في هذه المنطقة إذ بدأ بشن غارات توسعية عليها لتحرك ابن سعود إلى عمل إيجابي. وكان هذا بعد فتح الحجاز قد بعث بجيوشه جنوباً لتراقب نشاط جاره، بينما ارتضى مبدئيًّا أن يدعَ نجران - وهي واحة كبيرة ذات سمعة سيئة كمصدر للاضطراب والفوضى - لاستقلالها، وعلى

أية حال كمنطقة حرام موقتة بينه وبين اليمن على جانب الصحراء من ناحية الجبال الفاصلة بينهما. وكان في وجود قوات الدولتين وحركاتها حول تخوم غير مخططة، ما أدى إلى وقوع حوادث على الحدود لم يكن من المستطاع تجنبها؛ وفي إحدى هذه الحوادث كانت القوات السعودية هي المعتدية لاحتلالها قرية عرو، ولو انه لم توجد في سنة ١٩٣١ خرائط لدى الطرفين يمكن بواسطتها بيان الخطأ والصواب في كل من هذه الحوادث المحلية.

ولقد انحسرت هذه الغزوات الصغيرة المتتابعة عن تبيان الهدف اليمني الرئيسي الذي كان نجران ذاتها، إذ انقضت قوة يمنية على هذه الواحة في شتاء سنة ١٩٣١-١٩٣٢، لكي تواجه ابن سعود بالأمر الواقع! ولكي يجعلوا احتلالهم للواحة سائغاً مقبولاً لدى سكانها فإنهم شردوا وسلبوا من اشتهر منهم بالعداء وسوء السمعة ودمروا بيوتهم ونخيلهم. وكان في شكاية هؤلاء ما دفع آل سعود للعمل؛ فأسرع خالد ابن لؤي، الذي انتصر في معركة خرمة الشهيرة، على رأس جيش كبير من الإخوان إلى مشهد هذه العمليات في صيف ١٩٣٢. ولقد برهنت القوات اليمنية على أنها غير أهل لهذا التحدي الكبير، فانسحبت من حيث أتت بعد قتال تافه مرتجل. وبهذا حلت مسالة نجران نهائيًّا، وذهب وفد سعودي إلى صنعاء لإجراء مفاوضات لتسوية مشكلة الحدود تسوية عامة مع إمام اليمن الذي لجأ إلى المراوغة والتعلل، وكان واضحاً أنه لن يوافق على هذه التسوية وفق الشروط السعودية. وبدا جليًّا عندئذ أن هذه المشكلة لا بد أن تفصل الحرب فيها، وكان جليًّا كذلك أن مثل هذه الحرب لن تسفر إلّا عن انتصار الوهابيين، رغم أن بعض المتظاهرين بالمعرفة قالوا أن على ابن سعود في النهاية أن يخوض المعارك الفاصلة الأخيرة الجبلية الوعرة من اليمن.

وبصرف النظر عما قيل فان المفاوضات امتدت حتى ربيع سنة ١٩٣٤ حيث نفذ معين صبر آل سعود إزاء هذا الأسلوب من المراوغة والمواربة من جانب الإمام، فأرسل إليه العاهل الوهابي إنذاراً، وكانت قواته قد حشدت لمواجهة جميع الطوارئ، واتخذ جزء منها مكانه فوق الهضبة تحت قيادة الأمير سعود ولي العهد، وجزء آخر في تهامة بقيادة أخيه الأمير فيصل. وقد صدرت الأوامر للقائدين بالزحف عبر الحدود يوم ٥ نيسان/ أبريل، ما لم تصلهما أوامر أخرى بغير ذلك. وقد حدث أن هبت عاصفة رملية بالغة القوة يوم ٣ نيسان/ أبريل، لم تستمر بضعة أيام فحسب، بل وعطلت الأجهزة اللاسلكية للقوات الأمامية. وهكذا عبرت الجيوش الوهابية الحدود إذ لم تصلها تعليمات جديدة من الرياض. وفي غضون أسابيع ثلاثة كان الأمير فيصل قد بلغ ميناء الحديدة واحتله، وهدد المورد الأساسي لتموين اليمن؛ هذا بينما لاقى الأمير سعود صعوبات جمة وعقبات كثيرة نظراً لوعورة مسالك الجبال حيث تعذر النقل الآلي في طرقاتها لدرجة أنه لم يستطع تزويد القوات الأمامية بالغذاء والميرة.



الإمام يحيى

ولكن هذا لم يهم كثيراً، لأن النصر السريع الذي أحرزه الأمير فيصل حّرك الدول الكبيرة للعمل، فظهرت أساطيل بريطانية وفرنسية وايطالية في ميناء الحديدة لتملي تسوية لهذه المشكلة. وعندئذ وصلت أوامر من الرياض للأمير فيصل تمنعه من الزحف على صنعاء أو على امتداد الساحل. وهكذا انتهت حرب الأسابيع الثلاثة إلى هدنة لثلاثة أسابيع تتيح فرصة لمفاوضات أخرى بقي فيصل وجيشه في الحديدة انتظاراً لنتائجها. أما الإمام يحيى وقد أفزعه انهيار قواته أمام الجيش الوهابي، فقد وافق على إجراء المفاوضات وعين أحد قواده المعروفين، سيد عبدالله بن الوزير، نائباً مفوضاً عنه لهذا الغرض. جرت المفاوضات في الطائف مباشرة تحت رقابة لجنة للصلح مكونة من مندوبين عن مصر وسوريا وغيرهما من البلاد العربية على رأسها محمد علوية باشا والسيد شكري القوتلي، الذي انتخب فيما بعد رئيساً للجمهورية السورية. وأطردت محادثات الصلح في جو من صادق الرغبة والتفاهم، وأوضح ابن سعود بما لا يحتمل شكاً انه لم يقصد إلى احتلال أي جزء من أرض اليمن، واحتج بأنه اضطر إلى القتال نتيجة لمراوغة الإمام وتسويفه في إيجاد تسوية لمشكلة الحدود. ولقد برهن ابن الوزير على انه مفاوض قدير متزن، رغم العقبات التي كانت تعترضه من اضطراره لأن يبرق لسيده عن كل خطوة تتم، بل وعن كل نقطة من التفاصيل.

ورغم هذا فلم يمض وقت طويل حتى كانت معاهدة الطائف قد وضعت وأصبحت معدة للتوقيع، كما تمت تسوية مسائل أخرى لم تشملها المعاهدة بما أرضى الطرفين، مثل التعويض الذي يدفع للمملكة العربية السعودية لتغطية نفقات الحملة. وكان كل ما بقي بعدئذ هو أن يثبت الإمام قبوله للمعاهدة وان يوكل إلى مندوبه سلطة توقيعها باسمه. وعند هذه المرحلة ذاتها اتضح تردده وإحجامه عن اتخاذ الخطوة الأخيرة،

فانقضت بضعة أيام بدا خلالها أن المعاهدة قد لا يتحقق عقدها بعد كل هذا. وكان التفسير المحتمل لتردد الإمام أن نفسه لم تطوع له في اللحظة الأخيرة دفع التعويض المطلوب.

وسواء كان هذا أم غيره هو السبب، فان ابن سعود اضطر لتحديد موعد تتم فيه هذه الأعمال وأنذر باستئناف العمليات العسكرية إذا لم تجب مطالبه. ولكي يبين للعالم، وخاصة للجنة الصلح، حقيقة الموقف، فإنه دعا لمأدبة تقام في الليلة التي ينتهي عندها ميعاد إنذاره متظاهراً بأنه إنما يولمها احتفاء بتوقيع المعاهدة. ورأى من الأجدى أن أقوم بدور الصديق المحايد للطرفين التواق لتبيان وتأكيد الشروط التي اتفق عليها الطرفان لقيام الصلح والسلام بينهما. وكان عليَّ أن أفتح هذه الإجراءات بحديث ألقيه بعد الغداء، يرد عليه جلالته موضحاً هذه الظروف المؤسفة المحزنة التي أدت بعد كل هذا إلى فشل المفاوضات نتيجة لمراوغة الإمام ورفضه. وبما أني فوجئت بهذا قبيل الميعاد، فقد أسرعت لأعد حديثاً مناسباً قدمت مسودته لجلالته، فأخذ يغيّر من صياغته بما يتفق ورأيه وذوقه. ولا بد لي من القول بأن الفقرة الأخيرة التي أملاها جلالته، لم تنسجم إلّا قليلاً مع أصل الخطاب الذي تقدمت به، وكان كل واجبي أن أدوّنها وأن انتظر في شيء من الوجل اللحظة التي تلقى فيها. وربما كان من حسن الحظ أن هذه اللحظة لم تحن أبداً! وقد أقيمت المأدبة دون حاجة إلى أحاديث، إذ وصلت في صباح هذا اليوم المُعتم المريب إجابة الإمام وبذلك أصبح كل شيء على خير ما يرجى، وتم توقيع المعاهدة وأقيم في صباح اليوم التالي عرض عسكري كبير كان الملك نفسه على رأس جنده وهم يرقصون رقصة الحرب.

ولقد كرس عبدالله بن الوزير جهوده لخدمة سيده في إخلاص، وعين بعد ذلك مباشرة محافظاً لإقليم الحديدة على البحر الأحمر، ليقوم

شخصيًّا بالإشراف على تنفيذ نصوص المعاهدة. وقد سحب الأمير فيصل آسفاً قواته المظفرة من مشهد انتصارها لكي يحتفل بهذا النصر في مهرجانات الطائف وذهب الملك بنفسه حتى رنيه ليستقبل ويحيي ولي عهده عند عودته من حملة غير مأمونة ولا مشكورة بين الجبال الراسيات على الحدود. ولقد قوبل ما أبدى ابن سعود من كرم وقناعة بعزوفه عن تحرير أجزاء كبيرة جديدة إلى مملكته بالرضا التام، وكان له أثر محمود في البلاد المجاورة التي كانت تنظر فزعة إلى احتمال ضم اليمن إلى المملكة العربية السعودية.

اشتملت معاهدة الطائف على تدابير لتخطيط الحدود بين المملكة العربية السعودية وبين اليمن؛ ولهذا اجتمعت لجنة الحدود المختصة المكونة من مندوبين مسؤولين عن الطرفين لتنفيذ هذه المهمة وفق الشروط الواردة في المعاهدة. وكان هذا يقتضي عموماً التمسك بالحدود القبلية التي يمكن معرفتها فوراً بحيث تثبت على طولها القوائم الخشبية التي تبين الامتداد الصحيح لخط الحدود، وبحيث لا يجوز ولا يمكن أن يوجد في المستقبل أي شك في مواضعه ولا في تبعية القرى والقبائل على جانبيه. وقد انتهت اللجنة من انجاز هذا الواجب في سنة ١٩٣٥، وذكر في التقرير عن قوائم الحدود: أنها بلغت ٢٤٠ قائماً في خط ممتد حوالي أربعمائة ميل من شاطئ البحر بين الموسم وميدي إلى حافة الربع الخالي. وكان لي في السنة التالية شرف اجتياز هذه المناطق على طول خط الحدود لأضع خريطة للأقاليم والبلاد المختلفة التي يخترقها، والتي هي في بعض أجزائها ذات طابع قوي أخاذ. وكذلك أتيحت لي في هذه الرحلة فرصة سعيدة قابلت فيها عبدالله بن الوزير مرة أخرى وكان في زيارة رسمية لغسان لكي يتأكد بنفسه ويطمئن سيده على أن الحكومة السعودية لم تخل بشروط المعاهدة التي تمنع إقامة الحصون في مسافة

خمسة كيلو مترات على جانبي خط الحدود. وكان للعلاقات الطيبة التي استطاع أثناء المفاوضات أن يقيمها مع ابن سعود أثر كبير في سهولة تطبيق نصوص المعاهدة التي عقدت بين البلدين؛ وفضلاً عن هذا فقد أصبح مسؤولاً عن خط الحدود نيابة عن الحكومة اليمنية بصفته محافظاً لإقليم الحديدة. وخيل إلينا وقتئذ أن حرب الأسابيع الثلاثة التي انتهت بمعاهدة الطائف، قد مهدت السبيل لتلاشي هذه العلاقات المضطربة المزعجة التي عاش فيها البلدان مدة عشر سنين قبل ذلك؛ ولكن كان بين الزيديين من سكان اليمن عناصر متطرفة أضمرت الحقد والبغضاء للوهابيين لانتصارهم، ولم يلبث سخطهم هذا أن اتضح وانجلى؛ ففي موسم الحج سنة ١٩٣٥ وصل جمع كبير من اليمن إلى مكة واشترك في الحفلات الرسمية كالعادة. وفي اليوم التالي لوقفة عرفات، عندما كان الملك وولي عهده وحرسه الخاص يطوفون بالكعبة الشريفة وسط جموع الحجيج، انقض عليه ثلاثة من اليمنيين مسلحين بالخناجر عرفوا كيف يخترقون الجمع الحاشد حتى كانوا على مسافة قصيرة من الملك. وقد أصيب الملك وولي العهد بجروح صغيرة من أسلحة المعتدين قبل أن يرديهم الحرس الخاص برصاص بنادقه - واتضح من التحقيقات بعد الحادث، أن احد أبناء الإمام قد وقع لهؤلاء على جوازات سفرهم كما وقع لغيرهم من مئات اليمنيين الراغبين في أداء فريضة الحج؛ ولكن لم يكشف عن أي دليل على وجود مؤامرة نظمت للثار من الوهابيين بسبب الهزيمة التي انزلوها بجيوش اليمن. ولعل المعتدين على الملك فقدوا بعض أقاربهم في القتال، ورأوا أن يثاروا لهم بهذه الكيفية البشعة. وكان لهذا الحادث أثره في أن تدرك السلطات مدى الخطر الكامن في اختلاط الملك كعادته بالجموع المحتشدة في المناسبات العامة، وخاصة الدينية منها. ومنذ ذلك اليوم حتى الآن فإن الساحة التي تحيط بالكعبة تخلى من

الزوار عندما يقوم جلالته بالطواف؛ هذا وقد اضطر الملك في المناسبات العامة الأخرى لأن يحتمل إجراءات الأمن والسلامة التي تتراءى لهؤلاء المسؤولين عن سلامة شخصه، بكل ما يمكن أن يبدو من رجل في مكانته ومن طرازه من لطف وتسامح.

وسرعان ما انتهى هذا الحادث المشؤوم إلى النسيان بين المظاهر الكثيرة لزيادة التفاهم والود بين الدولتين وبين عاهليهما. وكثيراً ما كان أبناء الإمام يقومون بزيارات لمكة في موسم الحج أو في غيره من المناسبات في السنين التالية، كما كانت البعثات السعودية وكبار رجال هذه الدولة يزورون اليمن بين فترة وأخرى لمناقشة مسائل ذات مصلحة مشتركة. وكان التفاهم التام يسود العلاقات بين البلدين عندما نشبت الحرب العالمية الثانية. وبصرف النظر عن بعض حوادث الحدود الصغيرة التي لا معدى عن وقوعها والتي كان الموظفون المحليون يفصلون فيها بسهولة، فلم تنشب مشكلة ذات أهمية كبيرة احتاجت إلى عناية الحكومتين بحلها: وهذا وضع جد مختلف عن مثيله الذي استمر منذ بضع عشرات السنين حتى اليوم حول الحدود المضطربة التي تفصل اليمن عن محمية عدن البريطانية.

إن أطراد بروز اليمن وخروجها من عزلتها إلى المجال الدولي كأمة لها كيانها السياسي وما تبع هذا من انضمامها إلى هيئة الأمم المتحدة والى جامعة الدول العربية بعد الحرب العالمية الثانية، قد هيأ لها فرص التعاون مع الدول العربية في جميع المسائل الخاصة بالعالم العربي؛ ولم يكن من النادر أن كان لها صوت مسموع ذو أثر طيب في مسائل ذات أهمية مشتركة عامة. ولعل الإمام السابق قد شعر في أحيان كثيرة بأن جاراته من الدول العربية، وخاصة المملكة السعودية، لم تمد له يد العون والمساعدة في الخلاف المستمر بينه وبين الحكومة البريطانية! ولكن من المتعذر القول

بأنه لم يقتنع بالنوايا الطيبة التي كان ابن سعود يكنها لشخصه ولحكومته. ولا شك في أن ابن سعود حذره أكثر من مرة من سوء مغبة تجاهله لمظاهر القلق والاضطراب المحلية التي ترد جزئيًا إلى وسائله الرجعية وسلوكه حيال البلاد الحديثة، والتي ترجع في معظمها إلى سوء التفاهم الآخذ في التفاقم بينه وبين ابنه الكبير وولي عهده وما يساوره بسبب ذلك من شكوك بالنسبة لوراثة الحكم. وقد كانت الحال في اليمن لبضع سنين مصدر قلق للبلاد المجاورة مخافة أن يؤدي سوء الأوضاع الاقتصادية إلى بعث أنواع النشاط المتلف المدمر. ولم تنقض فترة طويلة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى أخذ أحد صغار أبناء الإمام، سيف الإسلام إبراهيم، جهراً على أبيه وفر مع فئة قليلة من المتذمرين إلى عدن للدعاية لإصلاح وسائل الحكم في اليمن. وفي نفس الوقت رأى ابنه الكبير وصاحب الحق في العرش بعده، سيف الإسلام أحمد، من الحكمة أن يبتعد عن دوائر القصر لما ساوره من شكوك في مقاصد أبيه نحوه فارتحل إلى تعز حيث استطاع أن يجمع حوله أنصاراً كثيرين من قبائلها يستعين بهم عند الحاجة في المحافظة على مصالحه؛ وحتى أبرز الوزراء والمستشارين الذين ظلوا في صنعاء في خدمة الإمام، فان ولاءهم له مشوباً بكثير من الشك والريبة كما أبانت الحوادث بعد ذلك. وكان من بين هؤلاء شخصيات متفوقة بارزة مثل عبدالله بن الوزير نفسه وعبدالله العماري ومحمد الكبسي.

ولا شك في أن الأول من هؤلاء الثلاثة قام باتصالات لدى ابن سعود ليتحقق مما إذا كان يعضد قيام حكم جديد في اليمن في حالة وقوع محاولة لإرغام الإمام على قبول نوع من الحكم الدستوري؛ ولكنه لم يلق أي تشجيع في هذه الناحية. وفي غضون هذه السنين ذاتها أبان ابن سعود عن انه صديق مخلص للإمام، بعد أن سوى مشاكله مع اليمن في سنة ١٩٣٤؛

بل أنه كصديق له، نصحه أكثر من مرة وألح عليه لكي يخفف من وطأة حكمة الاتوقراطي. ولكي يسوي أولاً وقبل كل شيء، مشكلة وراثة العرش المعقدة تسوية دائمة وإلّا استشرى الخلاف بين أبنائه بعد وفاته واتخذ ابن سعود في نفس الوقت الخطوات اللازمة ليكون دائماً على علم تام بجميع التطورات في اليمن، إذ كان من الجلي ان الاضطرابات التي تقع وراء حدوده قد تحدث آثار سيئة في مناطق بعيدة.

وقد اتضح في ديسمبر سنة ١٩٤٨ أن مصير الأمور تسير إلى مأزق حرج؛ وكان عند نهاية هذا الشهر أن أعلنت جماعة سيف الإسلام إبراهيم في عدن موت الإمام، وكذبت الرياض هذه الأنباء، وكان هذا هو الحقيقة؛ ولكن كان من اليقين أن هذه الجماعة في عدن، قد توقعت حدوث شيء في وقت معلوم حول هذا التاريخ، وأنها سبقت هذا الحدث بإعلان وقوعه بطريقة تبدو بريئة إذ كان الإمام يعاني في شهر ديسمبر نكسة مرضية خطرة أصيب بها في تلك السنة. ولكن وضوح الحقيقة في انه كان حيًّا لم يمت، بل وقد أبل مرضه، كان بمثابة شيء من خيبة الأمل للمتآمرين الذين كشفوا عن أنفسهم إلى حد ما، وأصبح من كان منهم في اليمن في خطر القبض عليه وإنزال العقاب به؛ ولكن بقدر ما تيسر الحكم من واقع الظروف، فإنهم قد قرروا العمل في مزيد من الحزم والقطع. وهذا ما فعلوه حقاً، إذ أبلغ عامل اللاسلكي في صنعاء زميله في مكة الأنباء المحزنة وهي أن الإمام ورئيس وزرائه قد وقعا في كمين وقتلا بينما كانا في نزهة بالسيارة، كما قتل اثنان من أبنائه عندما حاولا منع المتآمرين من دخول دار الخزينة والمصالح الحكومية، وأن عبدالله بن الوزير على رأس الثائرين وقد اغتصب الحكم وأعلن نفسه ملكاً، وأسرع إبراهيم بالعودة من عدن لكي يشترك في الحكومة الدستورية الجديدة، بينما انضم أعضاء آخرون من الأسرة المالكة،

ومنهم ابن سيف الإسلام أحمد، إلى الغاصب، أما خشية مغبة الرفض، وإما لأنهم كانوا أطرافاً في المؤامرة. وقد بذل ابن الوزير خلال ذلك كل محاولة ممكنة ولم يدع جهداً لكي يظفر بعون أو رضا الدول العربية ومحمية عدن. أما جامعة الدول العربية فإنها نزولاً على رغبته، فقررت تأليف لجنة للتحري ذهبت إلى صنعاء لتدرس الموقف وتقدم تقريراً عن الحالة، وكانت هذه الخطوة بمثابة تمهيد للاعتراف بالأمر الواقع، ولكن حماسة اللجنة للوصول إلى صنعاء قد اعتراها الفتور عندما علمت في جدة أن مطار صنعاء واقع تحت نيران البدو وغيرهم من العناصر المناوئة من الشعب الذين وزع عليهم ابن الوزير سلاحاً ونقوداً من خزانة الإمام. وبدا وقتئذ أن فترة من الاضطراب والفوضى لا بد آتية في أعقاب هذه الأحداث! وبقي بعد ذلك أن تعرف كيف يواجه الغاصب هذا الموقف، ثم الخطوات التي يتخذها سيف الإسلام أحمد للثار لأبيه ولإثبات حقه الشخصي في العرش.

ولقد تجاهل آل سعود طلب الغاصب لعون عسكري وطائرات، رغم أن البعثة التي أرسلها إلى المملكة العربية السعودية، تشرفت بمقابلة الملك في الرياض، وسمح لأعضائها أن يقولوا ما يريدون في جلسة عامة؛ وعندما انتهوا من قولهم التفت إليهم الملك قائلاً: «كيف تحضرون إليّ وتطلبون مني عوناً لسيدكم واعترافاً به!» ثم استطرد يقول وهو يشير إليهم بإصبعه: «أنتم سفاكون! إنكم جئتم إلى هنا ضيوفاً عليّ، وبما أني قد سمعت ما أردتم أن تقولوا، فلا استطيع إلّا أن اطلب منكم مغادرة بلادي!».

وفي خلال ذلك لم تجر الأمور على أحسن ما يبغي المتآمرون، رغم أن الحركات التي قام بها سيف الإسلام أحمد، الذي ألقى نهائيًّا للغاصب بقفازه، كانت متعثرة بطيئة تدل على انه لم يكن قط واثقاً مطمئناً إلى سلوك

من حوله من الأنصار. ومن الناحية الأخرى فان عبدالله بن الوزير لم يعرف كيف يستفيد من الموقف الذي خلقته المفاجأة والعجب لخلاص البلاد من حاكم لم يكن مشهوراً معروفاً بصرف النظر عما كان عليه من صفات ومزايا، كما يبدو أن هذا الحادث كان قاصراً على إطلاق كل العناصر المعادية في الريف الذي أخذ البدو يجوبون أنحاءه بحثاً عن الأسلاب والغنائم، بينما أخذ سكان المدن، الذين طال كبتهم والذين زودوا بالسلاح والمال، يقاتلون بعضهم بعضاً دون ما سبب أو غرض معلوم. وكيفما كانت الحال فإن البدو هم الذين سيطروا على الموقف، وكانت البلاد خارج العاصمة في حالة تامة من الفوضى الفعلية؛ أما الأقاليم البعيدة فكانت في قبضات زعماء القبائل الذين امتنعوا عن مناصرة الطرفين.

وكان ابن سعود يرقب الموقف من بعيد قلقاً متوجساً، بينما كان سيف الإسلام أحمد يتحرك متريثاً يشق هذا المشهد المليء بالأخطار والمخاوف مختبراً الأرض التي يسير عليها قبل كل خطوة يخطوها في طريقه إلى حجة. وبما أن عبدالله بن الوزير كان يفقد سلطانه رويداً خارج العاصمة، فان الأوضاع بدأت تتحول إلى ما فيه صالح أحمد؛ وعندما استقر به الوضع في حجة، أصبح في استطاعته القيام بهجوم على صنعاء. وبينما كان هذا يكسب كل يوم أرضاً جديدة ويوطد مركزه، فقد اضطر المتآمرون لأن يلتجئوا إلى الحصون، خوفاً من أعمال عدوانية محلية ومن هجوم تقوم به قوات أحمد، وبذلك كانوا قد وقعوا في الشراك فعلاً إذ لم يلبث الحرس ورجال الشرطة الذين أعطوهم السلاح لكي يقوموا بحراستهم، إن سلموهم إلى ممثلي ملكهم الشرعي يوم ١٢ آذار/ مارس، فوضع عبدالله بن الوزير وابرز أعوانه في سيارة نقل ذهبت بهم إلى حجة حيث سلموا بين لعنات حشد كبير من الشامتين إلى أحمد الذي

أمر بإيداعهم مختلف سجون المدينة رهن التصرف في أمرهم. وفي يوم ١٥ آذار/ مارس أعدم عبدالله وغيره من المتآمرين شنقاً أمام الشعب. أما سيف الإسلام إبراهيم بصفته أحد أعضاء الأسرة فقد سجن في أحد الحصون حيث توفي بعد ذلك ببضعة أسابيع؛ وأما ابن أحمد الصغير، فقد عومل كصبي نزق ضلله الكبار من الأسرة، وبقي وليًّا للعهد كما كان متوقعاً. هذا بينما كان أخ آخر هو عبدالله، خارج البلاد عند وقوع الانقلاب، ويبدو انه انحاز لجانب الوارث الشرعي للعرش، ولكنه رغم ذلك فضل البقاء بعيداً عن البلاد بصفته ممثلاً سياسيًّا لها. وثمة أخ ثالث، هو حسين، قام بخدمة أخيه في هذه الوظيفة البغيضة وهي محافظ العاصمة التي تراءى وقتئذ للملك الذي أقام معسكراته الرئيسية في تعز، أن الوقت لم يحن بعد لزيارتها؛ وربما كان لهذا أسباب قوية، ولكن الظاهر أن سبب طول غيابه عن صنعاء، هو انه لم يكن مطمئناً تماماً إلى الأماكن التي يدخلها خارج نطاق سلطته الشخصية الفعالة. هذا ولم يجد الأوروبيون الذين زاروا قصره في تعز صعوبة في زيارة صنعاء أيضاً، إلّا أنه يبدو أن الحكومة كانت عاجزة عن إقامة سلطة فعلية في المناطق الصحراوية من المملكة، بما فيها مأرب وجوف عاصمتا بلاد العرب في التاريخ القديم. أما من ناحية محمية عدن فقد استأنف أحمد المطالبة كأبيه ببعض المناطق القبلية التي تطالب بها أيضاً بريطانيا التي ألقت قنابل من الجو على احد المعاقل اليمنية في منطقة الحدود المختلف عليها في وادي بيهان مبدية بذلك دليلها بالوسيلة الحديثة المعتادة. وقد قوبل طلب بريطانيا الحصول على امتياز للبحث عن البترول بالرفض في تعز، حيث بدت الشكوك كذلك حول وجود بعثة أميركية تقوم بالتنقيب بين خرائب كحلان في وادي بيهان.

وربما كان ملك اليمن الحالي غير مرتاح لما قرره ابن سعود من عدم تدخله سياسيًّا لصالحه ولتسوية هذه المشكلات المعقدة! ولكن بصرف

النظر عن هذا فهناك أسباب كثيرة تدعوه لأن يذكر بالشكر هذا العون الثابت والعطف القوى اللذين أبداهما ابن سعود دائماً لشرعية الحكم في اليمن منذ أن سويت المشاكل بين البلدين. لقد سوي وانتهى الخلاف بين العاهل الوهابي وبين اليمن إلى غير رجعة كما تقطع الدلائل كلها الآن، إذ قد اعترف العالم كله، والعالم الإسلامي بصفة خاصة، بالوضع الدولي لليمن. وفوق هذا فقد جرت مفاوضات في أواخر سنة ١٩٥٠ في لندن لتسوية كل المشاكل القديمة القائمة بين بريطانيا واليمن، وقد تيسر الوصول إلى وضع اتفاقية في شهر تشرين الأول/ أكتوبر ينتظر تصديق الحكومتين عليها لتصبح نافذة.

الفصل السادس عشر

الشريف عبد الله بن الحسين

في يوم ٢٥ أيار/ مايو سنة ١٩٤٦ اتخذ الشريف عبدالله أمير شرق الأردن لنفسه لقب «ملك المملكة الهاشمية في شرق الأردن» نتيجة لمعاهدة التحالف التي عقدت بينه وبين بريطانيا العظمى، والتي وقعت في لندن يوم ٢٢ آذار/ مارس سنة ١٩٤٦ مع المستر بيفن ورئيس الوزراء الأردني إبراهيم باشا هاشم؛ ثم تغير هذا الوضع بمعاهدة اخرى وقعت في عُمان بعد سنتين من هذا التاريخ وتم التصديق عليها في لندن في ٣٠ نيسان/ أبريل سنة ١٩٤٨. ولقد دعت حوادث فلسطين بعد ذلك إلى تغيير اسم



الشريف عبدالله بن الحسين

هذه المملكة فأصبح «المملكة الأردنية الهاشمية». وفي صيف سنة ١٩٤٨ قام الملك عبدالله بزيارة إلى المملكة العربية السعودية فاستقبل استقبالاً ملكيًّا من الملك عبد العزيز آل سعود تبادل فيه العاهلان كالعادة الهدايا وعبارات المجاملة. والغالب أن الضيف الكبير جال ببصره بين معالم مشهد قد اكتنفه التغيير من كل نواحيه منذ وقع عليه نظره لآخر مرة قبل ذلك بربع قرن تقريباً؛ وربما ارتد عسل الرياض ولبنها بذاكرته إلى الفرص المضيعة في ماض لا ينسى أبداً، عندما غرر بهم الطمع على أشياء لم تكن إلّا ظلالاً: ولكنها كانت ظلال أحداث مقبلة! إذ إن ما انطوت عليه تلك الأيام من آمال قد ضاع في جوهره إلى الأبد، وحل محله هيكل عرش تحف به بلا شك عظمة الملك وفخامته، ولكن سنده ودعامته من مال وسيوف دولة أجنبية عطوف، فضلاً عن انه ملك يضيق برجل ولد ليكون عظيماً، رغم انه اخفق في بلوغ المجد والعظمة، ولم يجد إلّا عالماً عاقاً لا يزف إليه المجد عفواً جزافاً. ولم يكن في مقدور المظاهر والمجاملات أثناء هذه المناسبة أن تخفي النفور المتبادل بين رجلين غير متشابهين في شيء؛ ولا بد أن عاد كلاهما بذاكرته إلى حادث فرد وقع في سنة ١٩١٩ عندما ألقى جواب فظ غاشم بصاحبه إلى التهلكة. كتب ابن سعود وقتئذ إلى عبدالله يحذره وينصح له بالامتناع عن الزحف إلى واحة خرمة، وكان جواب عبدالله: «غداً أتناول الفطور في خرمة، وسوف أتناول العشاء في الرياض خلال الأسبوع المقبل!» ولكن جيشه لقي الفناء في نفسها حيث كان معسكراً في ترابة، ولم ينج هو نفسه إلّا بمعجزة على حد قوله، إذ استطاع الفرار من الميدان في آخر لحظة. إنه لم ينس الوهابيين أبداً! وعندما زار الوهابيون شرق الأردن في سنة ١٩٢٢ سرعان ما كان على أتم أهبة لمعجزة أخرى! وعند زيارتهم الثانية لهذا الجزء من العالم، كان عبدالله غائباً في زيارة لأبيه بمكة المكرمة قبيل هبوب العاصفة الوهابية على الطائف.

لا غرابة بعد هذا أن حاطت بعبدالله طوال حكمه أبالسة الخوف من ابن سعود والوهابيين. وكانت له غير هذا شكايات أخرى كثيرة من الحياة والقدر، ومطامع كثيرة بديلة يهدهدها راجياً أن يكون المستقبل أكثر حناناً وعطفاً عليه من الماضي! وكان لحقده المتلف مبرر قوي مما حاق به وأسرته من ضرر على يد سباع نجد، عندما أطاحوا بأسرة الأشراف الحديثة بعد فترة قصيرة من حكمها للبلاد التي حكمها أسلافهم؛ وهذا واضح إلى حد بعيد من النص العربي لمذكراته التي نشرت لفترة قصيرة قبل أن يصبح ملكاً، والتي أصدرها أخيراً جونتان كيب في ترجمة انكليزية منقحة، استدعت لا شك بذل جهد جبار واستخدام مواهب بارزة لإيجاد التطابق بين مغزى الأصول العربية وما يستطيع أن يسيغه الرجل البريطاني العادي، ثم لتفسير أو لتهذيب ما هو غريب شاذ من بنات أفكاره ملك بما يتفق وفن التحرير وأصوله المعتادة.

«ليسقط ابن عبد الوهاب والذين من شيعته!» **جاء هذا النص الأصيل للمذكرات وفي أكثر من موضع، بينما عزفت الترجمة الانكليزية عن إيراد مثل هذا القذف،** «لو عرفت ورفاقي أن هذا سيكون نتيجة الثورة العربية والنهضة الوطنية، لابتعدنا عنها وعن الذين قاموا بها! إن البلاد المقدسة يحكمها اليوم بيت نشأ على السلب والنهب، والغزو والغصب وسفك الدماء، يحيط به أناس لا مراكز لهم ولا صفات جاؤوا من مصر والعراق وسوريا، مثل يوسف ياسين وهو نصيري معروف، وفؤاد حمزة وهو درزي سافر، وحافظ وهبه وكان صاحب حانوت في الكويت؛ هؤلاء السادة الأكياس هم الذين صنعوا ما صنعوا من نهضتنا! ليست هناك عظمة إلّا عظمة الله! والله يعلم أننا لم نهدف إلّا إلى خير العرب في جميع أعمالنا وجهودنا؛ والآن ماذا صنع هؤلاء القوم في أرض الله المقدسة إلّا صنائع الاستبداد وإبادة أهل الحجاز، وابتغاء الغنى من ثروات الحجاج والضرائب التي يفرضونها عليهم، والانغماس المسرف في كل ما هو

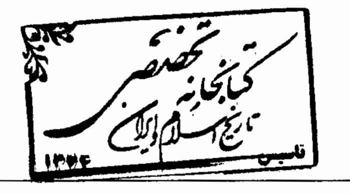
حرام؟ وفوق هذا فان امتيازات البترول قد منحت بدون تمييز أو تفريق، وفتحوا المدخل الشرقي للبلاد العربية، فأقاموا بذلك، كما كانت الحال دائماً، جسراً لأخطار يتعرض لها الدين والأخلاق هي اشد هولاً من أي خطر عسكري! وقد حدث كل هذا دون مشاورة السلطات الدينية أو أية هيئة تشريعية، أو أي مجلس نيابي! ولكن لا يحمل هذا الخزي والعار إلّا العرب أنفسهم!».

ومن الغريب حقيقة أن يصدر هذا كله عن رجل أنجبه بلد اشتهر بكل أنواع الرذيلة والفجور، حتى جاء الهراقلة الوهابيون لينظفوا حظائر ماشية أرغديس: لا لشيء إلّا لتضعف هذه العملية من صلابتهم؛ ويتراءى خير دليل على هذا في مظاهر التراخي العام الذي يدب فيهم اليوم مطرد الزيادة. أما بالنسبة للعواقب الوخيمة لامتيازات البترول على أهل الفضيلة الحجازيين، فلا أحد يجهل أن الدين قد تحول منذ زمن بعيد إلى تجارة تجري على نسق وأصول عمليات السياحة، حتى جاء الوهابيون مرة أخرى ليصلحوا ويقوموا النظام السائد لسلب الحجاج وتجريدهم من كل ما يملكون. ومع ذلك فان كر السنين قد انحسر في هذه الناحية عن تراخ وتساهل في القبض على أزمة الأمور، وكانت النتيجة أن عاد الحجاج إلى الشكوى، بل وما زالوا يشكون حتى اليوم كما كانوا يفعلون من قبل. والغالب أن متاعب الحجاز ومشاكله اليوم ترجع إلى انقياد الغزاة للحجازيين المغلوبين على أمرهم مما انطوى على الضرر والخسران للإسلام والعرب كليهما. وربما كان مما لا مندوحة عنه أن تخبو النار القديمة، لا أن ينفخ فيها كما حدث مع شديد الأسف! ولكن عبدالله ليس على حق ولا تستند قدماه إلى أرض ثابتة عندما يندد بنتائج آثار المدينة الغربية في بلاد تسمى بالبلاد المقدسة، فمكة لا تكاد تختلف اليوم، من الناحيتين الدينية والأخلاقية، عما كانت عليه في حكم أبيه.

أما فيما يتصل بموضوع امتيازات البترول عموماً، فلا شك في انه مكان الاحتكاك ومصدر الحقد! لقد كان جزاء ما سلف من فضائل الوهابيين سخيًّا صادقاً تمثل في مزيد من الثروة وفضل من الغنى تجاوز مدى أحلامهم، ولو أحسن القيام عليه لكن لهم من وضع أسس مدعمة لمستقبل بلاد العرب. ومن الناحية الأخرى فان عبدالله يعلم يقيناً أن مملكته الأردنية الصغيرة ليست قط صالحة للبقاء بذاتها، ولا بد لها من أن تعتمد إلى الأبد في أمنها وحياتها على كرم دافعي الضرائب البريطانيين، وعلى الإعانة الأميركية في ميادين معينة أخرى. ولهذا فمن العجيب الغريب أن ترتد به الذاكرة إلى هذه الأيام التي تشرفت فيها بتمثيل الحكومة البريطانية في مملكة جلالته، عندما اعتبر مبلغ مائة وخمسين ألف جنيه مبلغاً كافياً، إلى جانب دخله الهزيل، لمواجهة جميع حاجاتها، بينما تلتزم الحكومة البريطانية اليوم بدفع إعانة سنوية دائمة مقدارها ثلاثة ملايين جنيه، ازدادت مليون جنيه هذه السنة، لكي تواجه أعمالاً إنشائية لصالح اللاجئين إليها من عرب فلسطين الذين فروا من وجه إسرائيل. ومن الجلي أن دولة لا يكاد يبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة إلى جانب إمكانيات اقتصادية تافهة ودخل أهلي يبلغ نحو مليون جنيه في السنة، مثل هذه الدولة لا تستطيع ان تحتفظ بشؤون الدفاع والإدارة في مثل النطاق الراهن بدون مساعدة أجنبية. إن المساعدة البريطانية تنطوي على قيود أساسية تحد من استقلال البلاد وتقيد حكومتها، إذ يقول الملك عبدالله نفسه في مذكراته: «**لم أحاول قط أن اخفي المصاعب التي تواجه وزرائي من جراء تدخل المقيم البريطاني!**» وكان هذا الموظف البريطاني البغيض هو السير هنري كوكس الذي خلفني في عُمان سنة ١٩٢٤ والذي اشرف على حكم البلاد مدة لا تقل عن خمس عشرة سنة حتى انتهت مدة خدمته كما يستنتج من رد الملك على الالتماس الذي تقدم به لهذا الغرض سنة ١٩٣٩. ومن الواضح أن بعض القيود والإشراف على عناصر أصيلة

مزمنة في الأوضاع القائمة بين بريطانيا و المملكة الأردنية «المستقلة» التي ليس للأولى حق شرعي في الاحتفاظ بجيوش في أراضيها، كما هي الحال في مصر التي ما زال شعبها وحكومتها منذ زمن طويل يبديان سخطاً واحتجاجاً وادعين ضعيفين على وجود قوات أجنبية في ديارهم. ولقد أدرك الملك عبدالله في وضوح أن امتداد سلطانه هو الوسيلة الوحيدة للتحرر من القيود المفروضة على استقلاله الذي يحرص عليه كأي من جيرانه العرب. ولهذه الغاية ابتكر مشروع «سوريا الكبرى» وقام بالدعاية له؛ وهذا لا شك في حد ذاته مشروع سليم مثالي، إلّا أنه يبدو غير سائغ لشعوب البلاد الأخرى الداخلة في نطاقه إذ يشترط مبدئيًّا لإمكان تنفيذه أن يكون تحت زعامته وفي نطاق النظام الملكي. ومن هذا النوع فكرة «الهلال الخصيب» ولو أنها على نطاق أوسع؛ ولكن يحول مرة أخرى دون إخراج الفكرة إلى حيز التنفيذ الدور الأول الذي احتفظ لنفسه به في هذا النظام بصفته رأس الأسرة الهاشمية؛ **إنه يقول في مذكراته**: «إذا كتب على العرب أن يخرجوا عن حكم قريش، فعلى العرب وعلى قريش السلام!» إن تمسك عبدالله بالحق الشرعي لأسرته هو السبب في فشله وإحباط مسعاه في كل أمر! والغالب أن العرب لا يرجى منهم أن يشاطروه الرأي في هذا الموضوع وقد جربوا على مر العصورمعظم أنواع الحكم ما عدا الحكم الهاشمي. ولهذا لم يكن لعبدالله إلّا أن يعمل أحسن ما يستطيع في تجارة كاسدة، وأن يستمر في اعتماده على الإعانة البريطانية في حياته التي يلاحقه فيها قدر قاس، والتي ينظر منها نظرات الحسد إلى من هم أسعد وأوفر حظاً من جيرانه الذين تكفي مواردهم المالية لمواجهة حاجاتهم، بل وتزيد على ذلك، بدون مساعدة من الخارج.

ولكن الحقيقة انه يتجنى كثيراً في حقده على آل سعود لتمتعه بهذه الثمرات التي لم يكن هو ليستطيع قطافها أبداً. وسوف يعجب من يقرأ



النص الانكليزي لمذكراته عندما يطلع على الملحق الثالث الذي عنوانه «**امتياز البترول في الحجاز**» والذي هو عبارة عن نص كتاب بعث به إلى المندوب السامي في فلسطين يوم ٥ نيسان/ أبريل سنة ١٩٤٤ ولا شك في انه كان يعرف كما عرف غيره أن مثل هذا الامتياز لا ولم يوجد لسبب واحد بسيط هو عدم وجود بترول في الحجاز؛ وإلا فإنه في غضبته الحقة لتدنيس الأراضي المقدسة قد خلط غير عامد بين البترول والذهب في اعتراضه الواضح على منح امتياز استغلال مناجم الذهب في منطقة استثنى منها نصا نطاق المدينة ومكة الطاهرة؛ ومع هذا فلتعلم الدنيا، أن ابن سعود لو كان قد زل وأخطأ في هذه المسألة، فقد سبقه إلى هذه الخطيئة سلف الملك عبدالله نفسه من الهاشميين، فمن الثابت تاريخيًّا أن خلفاء العباسيين من الهاشميين قد استغلوا هذا المنجم ذاته، منجم مهد الذهب، الذي يشير إليه في مذكراته، والذي لايقع، لحسن المصادفة، غربي المدينتين المقدستين كما يزعم، ولكن في منتصف المسافة بينهما تقريباً منحرفاً إلى الشرق من خط مستقيم يمتد بينهما. وفضلاً عن هذا فهناك من قوى الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد بأن أحد المبرزين من أعضاء أسرته الكريمة كان كبير الاهتمام بهذا المنجم الذي كان يرسل ما يستخرج منه ليزين المعبد في بيت المقدس أيام سليمان، ابن أحد الأنبياء الذي وضعه المستر روبرت هرست في مقدمته للمذكرات بين الأنبياء الخمسة الكبار، بعد استبعاد آدم، لسبب من الأسباب التي نجهلها!.

ومهما كان الوضع فإن قليلين من الأذكياء المثقفين هم الذين يقبلون فكرة الملك عبدالله من الناحية الجغرافية، أو يوافقون على أن: «المنطقة من مدائن صالح إلى حدود اليمن جنوباً، والى حدود حائل ونجد شرقاً هي منطقة طاهرة لا يجوز أن يقوم فيها أي عمل صناعي، وأنها يجب أن تبقى لا لشيء إلّا ليقوم المسلمون فيها بعبادتهم، مثل الحج وتأدية الصلاة

وزيارة الأماكن المقدسة. . .» ثم يستطرد قائلاً: «إنها مكان للخلوة والتأمل، وللتوبة ولعبادة الله؛ إنها المكان الذي نؤدي فيه كل واجباتنا الدينية: وهكذا كانت خلال التاريخ الإسلامي كله! وحتى إذا كان الملك ابن سعود قد فتح هذه المنطقة واحتلها، فليس من حقه أن يعبث بسماتها المقدسة أو يغير من تقاليدها وطقوسها، ولا يجوز له أن يبيح دخولها لهؤلاء الذين يعملون لدنياه، والذين سوف يضعون وسائل الإغراء والغواية في طريق الناس بحيث يكفون عن تكريس نفوسهم للمدينتين الطاهرتين؛ وسوف تدنس المصالح الدنيوية هذه المنطقة الطاهرة مما يذهب بهدوئها وقدسيتها حيال هؤلاء الذين يقصدونها من جميع أنحاء العالم ليكفروا عن ذنوبهم ويتوبوا لربهم!».

ثم يستطرد قائلاً: «والمرجح أن جلالة ملك نجد يجهل هذه الأمور لأنه حديث عهد في وضعه هذا. وأرجو وأن تصدقوا أن هذه هي الحقيقة مبرأة من كل تحامل أو انحراف؛ ولهذا أرجوكم أن تبلغوا رسالتي إلى رئيس الوزارء البريطاني بأسرع ما يمكن.. إن العالم سوف يسمع عن انتهاك هذه الحرمات وسوف يكون لهذا رد فعل متلف في جميع العالم الإسلامي!».

والظاهر أن المندوب السامي ورئيس الوزراء البريطاني لم يتأثر أحدهما كثيراً بهذا الكشف الخطير عن أعمال آل سعود، بينما يبدو أن العالم الإسلامي قد تمتع بدون ريبة أو أسف بوسائل الراحة والنظام التي ينعم بها الحجاج من استغلال منجم سليمان ومنابع البترول في هذه المنطقة النائية من الخليج العربي.

ومن الحق أن الشريف حسين ما كان ليسمح باستعمال منتجات صناعة المشركين مثل السيارات في الحجاز، اللهم إلّا سيارة واحدة لاستعماله الخاص، كما انه كان عاملاً رئيساً في إيقاف مد سكة حديد

الحجاز إلى مكة بعد أن بلغت المدينة قبل تنصيبه أميراً على مكة وقد كان مزمعاً أصلاً مد الخط الحديدي إليها. ورغم هذا فإني لم أصادف حاجاً واحداً يعارض مبدأ السفر في البر عن طريق السيارة أو غيرها إذا تيسر له ذلك، ولا أحداً يرفض السفر في القطار إلى المدينة أو مكة لو كان هناك قطار يسافر فيه. وإذا كان هناك خطأ من الناحية الأخلاقية في تأدية فريضة الحج بقدر مناسب من الراحة، فان ابن سعود قد أخطأ في تيسير وسائل الحج كما هي الآن، ولكنه يصر على المضي في خطئه هذا بالبحث عن كل وسيلة تجعل سفر الحجاج أقل مشقة مما هو الآن. وإنه سوف يحاسب على هذه السقطات ومجانية الصراط المستقيم أمام محكمة أعلى ولكنه يكتفي في غضون ذلك بأن الإنسانية سوف تحمد له الجهود التي بذلها طوال حكمه في الأراضي الطاهرة ليلطف من وقع ريحها الخشن القوي بالنسبة للحجيج الضعيف، نابذاً وضارباً صفحاً عن هذا النقد المخاتل من جانب رجل قلما كان بيته حريصاً على صالح الحجاج أو الرحمة والرأفة بهم. وفضلاً عن هذا فإنه يستطيع بعد شكر الله تعالى وحمده، أن يشير مفاخراً إلى الحقيقة البسيطة وهي أن موسم الحج في أثناء حكمه الذي امتد خمساً وعشرين سنة، قد خلا من الأمراض الوبائية! أنها نتيجة رائعة، لو قورنت بمثيلتها أثناء حكم الأتراك أو الأشراف.

ويحاول الملك عبدالله إلى حد ما ورغم ولائه لأبيه، أن يحمله العبء الأكبر فيما وقع عليهم من الوهابيين وما حل بهم من اضطراب، لأنه لم يستمع للنصيحة البريطانية المخلصة، كما استمع قبل ذلك لنصيحة الباب العالي التي تقدم بها رئيس الوزارء التركي إبراهيم حقي باشا. وعند «معجزة» عودته من كارثة ترابة في سنة ١٩١٩، وجد «والده مريضاً وفي حالة عصبية؛ إنه كان يعاني المرض الذي مات به، وكان وقتئذ كثير النسيان حاد المزاج مستريباً، كما فقد سرعة الإدراك وسلامة الحكم»،.

وتبدو هذه الحالة غريبة على الأقل بالنسبة لرجل قطع بعد ذلك بخمس سنين، وهو في الخامسة والسبعين من عمره، الطريق الوعر بين العقبة ومعان وطوله خمسة وسبعون ميلاً على ظهر بغل في يومين، ثم أشرف على الإجراءات في عُمان مما أذهل السير هربرت صمويل وأدهشه! ولم يبدو عليه أبداً ما يدل على ضعف عقلي أو على الذهول والنسيان، إلّا إذا كانت فكرته في أن يحل ابنه عبدالله أميراً لشرق الأردن محل ابنه علي، مما يعتبر دلالة على ضعف العقل! وقد أدت حادثة وقعت وراء حدوده إلى فشل هذا المشروع إذ ألغت أنقرة الخلافة، فاتخذ الشريف حسين لنفسه هذا المنصب الرفيع الشاغر، وأسرع قافلاً إلى الحجاز، لكي يبايع بالخلافة رسميًّا في المسجد الحرام في مكة المكرمة. ومن المصادفة أن الفهرست الأبجدي للمذكرات يحتوي هذه المادة «الخلافة، الملك عبدالله يتقلدها، ٢١٣، ٢٢٦» (!)، بينما يقول المترجم في الهامش، أن حساب جلالته بالنسبة لهذه الحادثة لم يكن دقيقاً. وعلى أية حال فإن شرق الأردن قد ترك ليواجه قدره، وتنفس السير هربرت صمويل الصعداء. ويقول الملك عبدالله في موضع آخر من مذكراته، لم يرد غالباً في الأصل العربي: « أنني عملت كثيراً على تحريض الناس ودفعهم للموافقة على هذا الأمر». وهذا صحيح إلى حد ما، ولو أن نشاطي انتهى بورود أوامر من حكومة جلالة الملك بعدم وجود دليل على أي تفاعل بريطاني حيال هذا التطور، معارضاً كان أم مؤيداً. ولكن يجب أن نذكر أن الحكومة البريطانية عبرت في مكاتباتها للسير مكمهون عن رغبتها في أن ترى الخلافة وقد عادت إلى مكانها الأول في بلاد العرب. ورغم هذا، ومراعاة لأوامري السابقة، فقد امتنعت عن أن ألقبه بلقبه الجديد: مكتفياً بقولي «جلالتكم» وذلك في وليمة أقمتها تكريماً له قبيل سفره إلى الحجاز. وربما ذكر الملك عبدالله عرضاً، أنني بذلت قصارى جهدي لكي

أجعل استقلال بلاده حقيقة واقعة، رغم أنه فضل في الأزمة المالية التي وقعت في ذلك الوقت أن يحول أصوله إلى ثروة سائلة.

ونجد الملك عبدالله يقول في مكان آخر من مذكراته، حيث عالج نشاط أبيه كمخلب القط بين أنامل تركيا في الصحراء وراء الحجاز، وقد ألمع في اقتضاب إلى أول تصادم بين مصالح الأشراف والوهابيين بالنسبة لتبعية قبيلة عتيبة في سنة ١٩١٢، وهي الفترة التي سبق الحديث عنها في الفصل الثاني والتي انتهت بوقوع سعد أخ أبن السعود أسيراً في يد الشريف حسين، ثم بقبول زعيم الوهابيين لشروط فيها شيء من الزراية بالكرامة كثمن لإطلاق سراح أخيه. وكان من حق الشريف أن يفخر ويزهى بهذا النصر الرخيص الذي كان مصدراً لكثير من الكوارث التي حاقت به فيما بعد. ولكن من الصعب معرفة السبب في أن مترجم هذه المذكرات أصر على الزعم بأن أسم أسير الشريف حسين لم يكن «سعداً» ولكن «سيداً»، ثم ذكر في الهامش أن صحة الاسم «سعود»: ملاحظا أن هـ. س. أرمسترونغ قد ذكره في كتابه «سيد بلاد العرب» خطأً إذ سماه «سعدا» رغم أن هذا هو الاسم الصحيح! ولقد قتل كما سبق القول في معركة مع قبيلة العجمان في سنة ١٩١٦، بينما لم يزل أخ آخر اسمه «سعود» على قيد الحياة.

ونذكر بهذه المناسبة أن إغفال الملك عبدالله، عن عمد ذكر عمره أو سنة ميلاده في النص العربي لمذكراته أمر غير ذي بال في هذه الناحية: وإن كان لا يخرج عن أسباب تستطيع أية امرأة أن تقدرها حق قدرها. ولكن مترجم المذكرات وقد أزعجه هذا النقص حقاً. فقد رأى أن يقول بلسان الملك: «ولدت في مكة سنة ١٦١ هـ». أو منذ ١٠٨ سنة قمرية (١٠٥ سنة شمسية) ومع ذلك فإن ناشر المذكرات تدخل في هامش له فترجم التاريخ القمري بأنه يوافق سنة ١٨٨٢م، وهذا على الأقل أكثر إيضاحاً. وفي

موضع آخر يستنطق الملك بأن ١٢٩٣هـ هي السنة التي صدر فيها الدستور التركي، الذي منح فعلاً في سنة ١٩٠٨م (١٣٢٦-١٣٢٧هـ). ومن العدل القول بان ليس على الملك ما يشين فيما أضاف المترجم من عنده، أو فيما تقول به عليه.

وخشية أن يتبادر إلى الأذهان أن ابن سعود، بصفته العامل الرئيسي في هزيمة الهاشميين وإحباط مطامعهم، كان أو ما زال، وحده محلاً لسخط الملك عبدالله ونقمته، فيجب أن نؤكد أنه كان يعتبر أخاه فيصل أكثر منه حظاً في اجتذاب بسمات السعد إليه، رغم أنه لا شيء غير خائن لأسباب المسألة العربية أو الهاشمية. إنه هو الذي ظفر بنصيب الأسد من إعانة الحلفاء وسلاحهم لمتابعة تحقيق تفاهم مؤداه أن تصبح سوريا في الوقت المناسب دولة مستقلة منفصلة عن الحجاز، كما وافق على إنزال العلم العربي في بيروت ليتجنب تحدي المشاعر الفرنسية الحساسة؛ ثم ذهب إلى مؤتمر باريس، لا ليمثل المصالح العربية ويدافع عنها، ولكن ليؤكد لنفسه عرشاً كهدية من كليمنصو. وقد أذعن لمزاعم الصهيونية في فلسطين خدمة لمصلحته، وهكذا. أما فيما يتصل بالجامعة العربية، فإنه لا يخفي شكوكه في نجاحها **إذ يقول**: «إنها مغامرة خطيرة، ذات اسم ضخم وبرنامج مجلجل ليجمع حوله ممثلين بعيدين عن الروح الوطني وعديمي الكفاية، بينما كل دولة عضو في الجامعة مقيدة إلى عجلة دولة أجنبية كبيرة ولا تستطيع أن تمد نشاطها إلى ما وراء الالتزامات التي ارتضتها وارتبطت بها، فضلاً عن أن الشعوب العربية وملوكها تقف بعيدة عن كل هذا؛ فتأملوا في هذا يا أصحاب العقول!».

وإذا كان من الطبيعي في النهاية أن يضمر الملك عبدالله، كمن نزلت به أكبر خسارة بسبب اضطراب السياسة العربية الحديثة، الحقد والضغينة لمن هم أكثر نجاحاً من منافسيه ويحاول الثأر منهم، وخاصة ابن سعود،

إذا ما واتته الظروف وتضافرت معه؛ إذا كان هذا طبيعيًّا فما هو الوجه الآخر للصورة؟ إنه وإن كاد يكون أبيض ناصعاً، إلّا أنه ليس كذلك كله! إن مصر وسوريا والعراق والمملكة العربية السعودية ليس لديها ما تحسده عليه، طالما كنا نعنى ناحية الخير في هذا العالم! أما اليمن ولبنان فهما بعيدتان كثيراً عن منطقة نشاطه بحيث لا تعنيان به إلّا نادراً، ومع ذلك فإن الملك عبدالله يملك شيئاً لا يملكه أحد من معاصريه إلّا أخوه فيصل. وليست الجاذبية هي التي يملكها؛ فكثيرون من زعماء العرب، إن لم يكن معظمهم، لهم اليوم حظ كبير منها؛ إن له خاصية الاستحواذ على خيال الأوروبيين ولفت نظرهم، وخاصة الانكليز السكسونيين منهم، كأخيه فيصل. فهو الفتى المدلل لدى هيئة الأمم المتحدة - التي ليست دولته عضواً فيها - وبريطانيا! إنه يحظى بمركز يفضل مراكز غيره من ملوك العرب اليوم؛ واللواء العربي هو أحسن جيوش العالم نظاماً الآن، وجنوده أكفاء في العرض العسكري، - رغم أنهم غير ذلك في الحرب! ألم ينقذوا الموقف في الشرق الأوسط سنة ١٩٤١، وذلك بخسارة رجلين قتلا في الحملة كلها! وفوق هذا، أليس هو الجيش العربي الوحيد الذي لم يهزم في الحرب القائمة في فلسطين، والجيش الوحيد الذي يكن له اليهود احتراماً قدسيًّا، لأنه أخلى مثلث اللد والرملة وطولكرم للعدو وفقاً لخطة موضوعة! ثم ألم يسجل جلالته في مذكراته أنه بينما اتضح عجزه قوة الحدود الانكليزية الأردنية عن الاضطلاع بواجباتها في الصحراء... فإن نشاط غلوب بك والمهارة العسكرية التي أبداها البدو جعلتا من «اللواء العربي» فخراً لشرق الأردن!

يبدو أن العالم يعيش اليوم فوق مزالق من الرياء والكذب الرخيص، وانه يقدم الزبد كثيفاً لأبنائه الأكياس الذي يعاملون أسيادهم كأشباه آلهة؛ ولكن لا تنه عن خلق وتأتي مثله! فالعربي يتأثر كثيراً بالدعاية وهو شديد

الحساسية للعلانية. هذا وينتظر صائغو المديح والثناء في بلاد العرب جزاءهم، كما كان ينتظر قدماء الشعراء المتجولين والموسيقيين جزاء على جهدهم. ولكن عبدالله يدفع بعملة أخرى غير النقد، لأن المديح الذي يزف إليه من الصحف البريطانية ومن نواح أخرى، هو الثمن لولاء صادق لنوع السياسة الذي يسيغه «رجل الشارع». وليس من الإسراف في شيء القول بأن الملك عبدالله قد برز من ثنايا الاضطراب العام في السنين الأخيرة ووصل إلى مركز مرموق في العالم العربي، بينما يبدو أن معاصريه قد تناقص ذكرهم في نظر الدنيا نتيجة لسلوكهم وموقفهم المستقل حيال المشاكل العالمية الراهنة. إن قسيساً برأي الذي غير دينه أربع مرات ما زال شخصية معروفة مشهودة! ولكن الشهرة لم تكن أبداً مقياساً للجوهر والكفاية. وهكذا ندع الملك عبدالله يعاني قسوة قدره، ونترك معاصريه يضمرون له الحسد على مركزه الخطير!

الفصل السابع عشر

الملك عبد العزيز والقضية الفلسطينية

ليس من اليسير أن نكشف عن غامض أسلوب ابن سعود وتفكيره حيال الحلقة الحديثة من المشكلة اليهودية؛ ولكن تاريخ حكمه لا يمكن أن يسجل كاملاً دون محاولة للتشبث بهذه المشكلة المعقدة، التي لا يمكن أن نعرضها في اقتضاب أو نغفلها نزولاً على زعم المستر غروسمان الهوائي بأنها مجرد «عداء شديد للسامية!» إن هذه هي آخر جريمة يمكن أن تلصق ببلاد العرب يدعمها ما لا يصح أن يكون سبباً أو مبرراً وهو: أنها لليهود الوطن الأصيل الشهير خلال الأجيال المتعاقبة (وحتى أحدث العصور)، لأن هذه فرية كبيرة اطردت دون ما وعي حماية لسيادة أسلافهم من التدخل الأجنبي. وليس للعرب، ولا هم يميلون، لأن يختبروا أو يحللوا تفاعلهم التقليدي حيال مختلف أوضاع الحياة. ومع ذلك فإن تحليلاً كهذا لو اطرد حتى نتائجه المنطقية، فسوف يبين عن أن الأساس الحقيقي لبغض العرب ومعارضتهم للهجرة اليهودية إلى فلسطين اليوم، يرجع إلى شعور غريزي بالحقيقة في أن الأغلبية الكبيرة بين يهود وسط أوروبا وشرقها الذين يحاولون دخول فلسطين لاضطهادهم في بلادهم، ليست سامية قط: هذه نقطة تلقى صمتاً عميقاً من المؤرخين والسياسيين اليهود معاً. وكيفما كان الوضع السياسي الذي

قد يتخذه عدوهم وسيلة للتوطن في فلسطين، فإن هذا العدو يعتبر تهديداً خطيراً للمدينة السامية في بلاد العرب التي تعاني فعلاً ضروباً غريبة من الضغط، وخاصة من النفوذ والتدخل الأميركي القوي في اقتصاديات الصحراء. إن الساميين الاصلاء من اليهود لم يكن لهم ما يشكون منه في بلاد العرب التي استوطنوها منذ ٢٥٠٠ سنة تقريباً، لسبب بسيط هو أنهم ورثة مدنية مماثلة لمدنية مضيفهم وأهل البلاد من العرب. ولكن اليهودي الأوروبي المعاصر بما له من منظر أجنبي غريب ومن وسائل مادية منفرة، يعتبر أجنبيًّا غريباً ومتطفلاً مغتصباً على أبواب بلاد العرب.

هذا ولا يبيح لنا المجال هنا الإفاضة في مناقشة هذا النفور الذي يبديه العرب، لأسباب أدبية واقتصادية، نحو غير الآسيويين من اليهود، والذي هو ظاهرة حديثة النمو والانتشار من المحقق أنها ليست أقدم عهداً من الصهيونية الحديثة التي أوجدتها، والتي ترجع في الغالب إلى تصريح بلفور سنة ١٩١٧ وما انحسر عنه من نتائج مباشرة. وكان من المصادفة، كما حدث فعلاً أن أصبح اليهود هم الهدف لهذا النفور والبغض، إذ كان من الممكن أن يكون في محلهم أي جنس آخر وضعته في هذا الموقف الأداة السياسية في ذلك الوقت: كما حدث تماماً في سوريا إذ باء الفرنسيون ببغض العرب وكرههم الشديد، كما حاق بالإيطاليين في ليبيا في عهد موسوليني مثل هذا. إنه الحكم الأجنبي وما انطوى عليه من تناقض مع المصالح الحيوية لشعوب هذه البلاد الثلاثة، هو الذي خلق جم المتاعب والاضطرابات التي سادت الشرق الأوسط بضع عشرات السنين الماضية.

هذا وكانت مشكلة اليهود تنطوي على عامل آخر أقدم بكثير، ومن الغريب حقاً أن لم يكن له وجود في حالتي فرنسا وايطاليا، فمنذ زمن بعيد ظفرت المسيحية باحترام العالم الإسلامي، إن لم يكن برضاه، وذلك

بصفتها عقيدة أكبر الدول الاستعمارية التي حكمت البلاد الإسلامية من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي خلال القرون الماضية، بينما كان الإسلام من الناحية الأخرى ينظر إلى اليهودية ويشعر نحوها بما يشبه الازدراء والحقد كعقيدة أقليات متفرقة في العالم وفي مجتمعات خاصة مجردة من الحقوق السياسية ومن الاعتبار الدولي، ولهذا شعر العالم الإسلامي بصدمة قوية عندما عرف أن الدول المسيحية، وبريطانيا في مقدمتها، قد قررت اتخاذ إجراءات لمنح اليهود كياناً سياسيًّا في عالم نسي وجودهم السياسي في فترتين سحيقتين وأوقات بعيدة في أغوار التاريخ: ولا يحدث هذا إلّا في فلسطين بالذات من دون بلاد العالم؛ فلسطين التي لم تعرف غير الحكم الإسلامي طوال الثلاثة عشر قرناً الماضية من دون انقطاع. ولهذا فإن ارتياح الوطنيين العرب وابتهاجهم لانهيار الإمبراطورية العثمانية قد انقلب إلى غضب شديد وأسى عميق لهذه الفضيحة التي دنست الإسلام وامتهنت كرامته وكرامة المسلمين. وقد ازداد الوضع سوءاً في فلسطين نفسها نتيجة للعدوان السياسي والاقتصادي الذي صحب هذه الإهانة.

وإذا أتيح لبلاد العرب وقتئذ زعيم حازم ليعلن الجهاد ضد المشركين على قواعد دينية خالصة لقضى في الغالب، على مشروع الوطني القومي في مهده. كان الترك آنئذ في بلاد العرب ولم يبرحوها بعد، بينما وجدت خدعة «سيك - بيكوت» البلشفية صدى طيباً في نفوس العرب وحاولت اجتذاب قلوبهم. وكذلك لم يكن في مقدور بريطانيا أن تسمح بقيام أزمة كهذه في الشرق الأوسط، بينما كانت نتيجة الحرب لم تزل في الميزان. ولكن مثل هذا الزعيم لم يظهر في بلاد العرب! لقد كرس الشريف حسين وأبناؤه جهودهم الحثيثة المطالبة ببلاد العرب جميعها، بما فيها الأقاليم الشرقية، ولهذا كانوا معنيين بشؤونهم ومصالحهم الخاصة وفي شغل عن

أن يعيروا التطور الجديد في فلسطين نظرة جدية. أما ابن الرشيد حليف تركيا فلم يكن قط في نظر الحلفاء أكثر من شخص لا قيمة له، بينما كان طريق آل سعود لم يزل غامضاً ولم تستقر به الحال بعد في بلاد العرب نفسها؛ ولهذا فإنه آثر أن يترك مثل هذه المشروعات في ساحة الكفاح لأسباب كانت آنئذ أقوى من أن يستطيع مواجهتها. وهكذا تيسر لبريطانيا أن تتقدم في طريقها «القويم» دون ما مراعاة للشعور الديني العربي والإسلامي. وقد ينقضي جيل قبل أن تنمو أنياب الشر الذي زرعته ويلغ في الدماء والفقر وخيبة الأمل. وعندئذ يكون الوقت قد أزف ليستطيع الآباء أن يكفروا أو يتوبوا عن هذه الخطايا والآثام التي ارتكبوها حيال أبنائهم.

يكفي هذا ديباجة عارضة لدراسة فترة عرف العالم عنها بعض الشيء من واقع الكتاب المشهور الذي أصدره سنة ١٩٤٩ أول رئيس لدولة إسرائيل، ترجمة لحياته وهو: «التجربة والخطأ». ويجب أن نقرر منذ البداية أن وصف الدكتور ويزمان للحادث الذي نحن بصدده قد جاء مشوباً بقدر ملحوظ من المغالطة والخداع وبمثل هذا التحفظ والصمت عن الحقائق حتى ليعجب الإنسان إذا ما كان من المجدي حقيقة مجرد الإشارة إلى هذا الموضوع دون سرد القصة كلها: حتى لمجرد جلاء هذا الغموض الكثيف الذي يحيط الآن باقتراح سوي مستقيم لم يسفر عن شيء في النهاية. وكان في تنفيذ هذا الاقتراح وفق الخطوط التي ارتأها واضعه، ما يجنب سفك الدماء ومظاهر البؤس والشقاء التي أعقبت انهيار الانتداب البريطاني في فلسطين سنة ١٩٤٨، وما يؤدي إلى أهم النتائج التي أسفر عنها الالتجاء إلى القوة وهي قيام دولة يهودية على الجزء الأكبر من أرض فلسطين. وإذا كان اليهود قد حققوا لأنفسهم بالقوة المزايا التي انطوى عليها هذا المشروع، فإن العرب قد تركوا ليعانوا ويندبوا الأسى ونكد الطالع ويعضوا على النواجذ بغضاً وكمداً لليهود وحلفائهم من الدول

المسيحية دون أن يفوزوا بإحدى المزايا المقترحة في المشروع والتي يعللون النفس بها الآن. هذا وقد تستمر الحرب الباردة التي أعقبت الهزيمة العسكرية إلى ما لا نهاية؛ ولكن من الصعب معرفة المزايا والمنافع التي تعود عليهم من ورائها.

هذا ويقدم الدكتور ويزمان هذه الحلقة بصفتها تطوراً مفاجئاً يتصل بحديث جرى بينه وبين المستر تشرشل لبضع ساعات قبل ارتحاله إلى أميركا يوم ١١ آذار/ مارس سنة ١٩٤٢.

قال له المستر تشرشل: «إني أريد أن تعلم أن لديّ خطة، ولكنها لا يمكن أن تخرج إلى حيز التنفيذ إلّا بعد انتهاء الحرب. أني أود أن أرى ابن سعود أميراً على الشرق الأوسط - أمير الأمراء - على فرض أن يتفق معك؛ وسيترك لك الأمر لتحصل على أفضل الشروط! ولا شك في أننا سنساعدك، وعليك أن تكتم هذا؛ ولكن لا بأس من أن تتحدث إلى روزفلت عنه عندما تذهب إلى أمريكا. ليس هناك ما لا يمكن أن نعمله هو وأنا، متى عزمنا عليه!».

ويعترف الدكتور ويزمان بأنه ذهل لهذا الحديث الذي وجه انتباهه إلى: «ظروف غريبة حيرتني بعض الوقت من قبل، ولم أدرك مغزاها إلّا الآن فقط. لقد قابلت سانت جون فيلبي قبل ذلك ببضعة شهور. . . وأكد لي شيئاً دونته في مذكراتي، ولكنه بدا لي غامضاً غير مفهم من ناحيته إذ قال: «اعتقد أنه لا يلزم لحل مشكلتك إلّا شيئان: أن يخبر المستر تشرشل والرئيس روزفلت ابن سعود أنهما يرغبان في أن يريا برنامجك وقد خرج إلى حيز التنفيذ؛ هذا هو الشيء الأول؛ أما الشيء الثاني فهو أن يدعما ويعززا سيادته على البلاد العربية ويمنحاه قرضاً يمكنه من تنمية موارد الأقاليم التي يحكمها»؛ ولأنه وجدت الارتباط بين عرض المستر فيلبي وبرنامج المستر تشرشل!».

وسوف يقترب القارئ اللبيب بهذا من الكشف عن شخصية واضع هذا البرنامج الذي لم ينفذ! ولكن لا بد قبل أن نبارح هذه النقطة من أن أبدي استنكاري لما نعتني به الدكتور ويزمان مثل «كاتم سر ابن سعود» أو «الوكيل السري لآل سعود» أو «مندوب آل سعود»، إذ الواقع أنني لم أكن قط، ولم أزعم أبداً أنني شيء من هذا؛ كما أنني لم أتقلد، ولم أحاول أن أتقلد أي مركز رسمي أو شبه رسمي في حكومة المملكة العربية السعودية. إني صديق آل سعود، وأفخر وأعتز بالواقع في أنني كذلك منذ أكثر من ثلاثين سنة: بكل ما للصديق من حق في أن يخالف رأي صديقه، وفي أن ينتقد سياسة أو نشاط حكومته، فضلاً عما لي من مطلق الحرية في أن أبدي آرائي الخاصة عن أي موضوع مهما كان، حتى ولو كانت مخالفة لوجهات نظره الخاصة! ولقد فعلت مثل هذا عندما أيدت «توصية لجنة بل» لتقسيم فلسطين سنة ١٩٣٧، وأصدرت المفوضية السعودية في لندن تصريحاً للصحافة البريطانية بأن آرائي عن هذه المسألة لا تمثل آراء جلالة الملك ولا آراء حكومته.

ولكي نعود من هذا الاستطراد الشخصي إلى الموضوع نقول، لعله من الفضول أن نتحدى قوة ذاكرة الدكتور ويزمان أو نصف مذكراته بأنها ضرب من الحدس والتخمين! ولكن رغم ذلك فإني أعرف حقائق لا تقبل جدلاً فضلاً عن أنها مسجلة في مذكراتي اليومية، توحي بأنه اختار - وربما لمجرد سهولة علاج الموضوع - أن يجمعها حول حديثه الخيالي مع المستر تشرشل في آذار/ مارس سنة ١٩٤٢. إنه مثلاً يؤرخ مقابلتي له «ببضعة شهور» قبل هذه المناسبة؛ انه لا ريب قد نسي أن هذه الفرصة السعيدة التي أتاحت لي مقابلته وزوجه إنما ترجع إلى سنة ١٩٢٢، عندما قمت بدور متواضع في فصل شرق الأردن عن نطاق الوطن القومي وشروطه التي وضعها الانتداب البريطاني، إذ أذكر جيداً دليلاً قويًا هو حديث السيد ويزمان عن موضوع الصهيونية جميعه، هدفه

وخططه. لقد كان هذا منذ ثلاثين سنة تقريباً، ولعله قد أمحى من ذاكرة الدكتور ويزمان! ولكن من الصعب أن يكون قد نسي الاتصالات الكثيرة التي كانت بيننا أثناء مؤتمر فلسطين سنة ١٩٣٩، وخاصة الفرصة السارة التي استقبلت فيها أنا وأمي في منزلي بشارع عقول على مائدة الشاي الدكتور ويزمان نفسه والمستر داود بن غوريون وفؤاد بك حمزة عضو الوفد السعودي العربي في المؤتمر. حدث هذا في آخر يوم من شباط/ فبراير، بينما تناولت العشاء مع الدكتور ويزمان في فندق كارلتون يوم ١٧ آذار/ مارس، وهو اليوم الذي انفض فيه مؤتمر فلسطين دون بلوغ أية نتيجة. وحتى هذه النقطة فإن أحاديثي الشخصية عن مشكلة فلسطين مع من ذكرت ومع غيرهم مثل الدكتور ج ز ف غراهام براون أسقف بيت المقدس، والأستاذ ل ب. نامير من الهيئة الصهيونية، وكانون دوجلاس، والسيد جمال الحسيني عضو البعثة العربية الفلسطينية، والمستر أ. هـ. لورانس، كانت أحاديث للتحري والاستقصاء وبوازع من الأمل في إيجاد أساس للاتفاق بين الفريقين المتنازعين، نظراً لعزم الحكومة البريطانية على فرض حل من جانب واحد إذا لم يتم الاتفاق بينهما. ولكن هذا الأمل خاب، وانحسر إخفاق المؤتمر الذي أعقبه إصدار الحكومة البريطانية لكتاب أبيض في أيار/ مايو، عن خلق وضع جديد من جميع النواحي.

وللمرة الأولى منذ إعلان تصريح بلفور قبل ذلك بحوالي اثنتين وعشرين سنة اضطرت الحكومة البريطانية للتسليم بأن تفسير العرب للوعود التي بذلت لهم في سنة ١٩١٥ كان أفضل مما كان معتقداً أو متصوراً! ولكي تصلح الحكومة البريطانية بعض الخطأ الذي يستحيل إصلاحه كله، فإنها عمدت إلى تصفية التزاماتها حيال تصريح بلفور بمنح اليهود ترضية نهائية هي تحديد الهجرة خلال السنين الخمس التالية، بحيث لا يسمح بعد ذلك بهجرة اليهود إلى فلسطين إلّا بقبول

من العرب: وبلغ مجموع المهاجرين خلال هذه الفترة خمسة وسبعين ألفاً. وكان لا بد لليهود من أن يرفضوا هذا العرض، واخذوا في تعبئة مواردهم الضخمة لكي يحولوا دون تنفيذ ما جاء في الكتاب الأبيض الذي أعلن حزب العمال البريطاني معارضته له وعزمه على إلغاء هذا الوضع عندما يعود إلى الحكم، كما لم يكن المستر تشرشل وأصحابه أقل معارضة له. ولم تلبث عصبة الأمم المتحدة أن أعلنت أن هذه السياسة المقترحة تتعارض مع التزامات الانتداب البريطاني في فلسطين.

ومن الصعب أن نقرر ما إذا كانت إنكلترا قد أرادت حقيقة تنفيذ السياسة المقترحة أو أنها لم تقصد إلّا كسب الوقت في مواجهة الأزمة الدولية الآخذة في التعقد. ولكن بصرف النظر عن هذا فإنني كنت أؤيد بقوة فكرة قبول العرب لهذا العرض وأخذ إنكلترا بكلمتها، إذ كان هذا لا شك كسب لوجهة نظرهم بالنسبة لاقتراحات التقسيم التي عرضتها لجنة بيل والتي لقيت تأييدي التام. وقد قامت فكرتي لقبول المشروع على أساس أنه مشروع مناسب ينطوي على كسب، لا على أساس وازع قانوني أو أخلاقي يناقض موقف العرب في معارضتهم لهجرة اليهود إلى فلسطين. لقد كنت مؤمناً أن ليس لليهود ظل من حق قانوني أو أخلاقي يبرر الهجرة اليهودية إلى فلسطين رغم أن تصريح بلفور وسلوك الدولة المنتدبة كانا في صالحهم. ولقد قلت ملحاً مراراً وتكراراً بضرورة عرض المشكلة على محكمة العدل الدولية لتفصل فيها. ومن المناسب أن نذكر هنا أن هذا الاقتراح عرضه مندوبو الدول العربية على الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٨ في ثلاث مناسبات منفصلة، وكانت نتيجة التصويت عليه بمثابة دليل على استياء كثيرين من أعضاء الجمعية العدول وقد أحيطوا علماً بهذه الإجراءات الشاذة المريبة دون ما إرشاد أو رقابة من الهيئة الوحيدة المختصة بتقرير اتخاذ مثل هذا الإجراء. وكان من الواضح دائماً وفي نفس الوقت أنه إذا ما أزمع فريق من الأفراد الأقوياء أو الدول القوية

أن يطأ القانون والعدل تحقيقاً لإجراء محكم من أعمال الغضب أو العدوان، فواجب الفريق المعتدى عليه أن يهب للعمل في حذر وحرص وبكامل مهارته السياسية لكي يخفف ما أمكن من نتائج الضرر المتوقع. ومن المعلوم أن دولا كبيرة وكثيرة، وعلى مقدمتها بريطانيا، قد قررت منذ سنين، إن خطأ أو صواباً، أن تكون لليهود دولة خاصة بهم تشمل جزءاً كبيراً من أرض فلسطين، رغم أن العدو كان بالغ الحرص على أن لا يضفي على هذه المأساة صفة البغي والغضب. وقد علق الدكتور ويزمان نفسه على تقرير اللجنة التنفيذية الأهلية لحزب العمال البريطاني في نيسان/ أبريل سنة ١٩٤٤ بالآتي:

«ليس هناك معنى ولا أمل في قيام وطن يهودي إلّا إذا كان هناك أيضاً استعداد للسماح لليهود، متى أرادوا، بدخول هذا البلد الصغير في أعداد تبيح لهم الأغلبية فيه. لنشجع العرب على الهجرة من هذا البلد كما نشجع اليهود على الهجرة إليه!... ولندفع للعرب تعويضاً كافياً عن أراضيهم، ثم نقبل في عناية على تنظيم وتمويل توطنهم في بلاد أخرى»[١].

ومن التوافق أن يكون تاريخ هذا التعليق ذا أهمية بالنسبة لفترة السنين الخمس المحددة في الكتاب الأبيض الذي اعتبر ضمناً وثيقة مهملة عديمة الأثر. ولم تجد الحكومة صعوبة في ابتكار قاعدة أو وسيلة لاستمرار الهجرة اليهودية طوال مدة الانتداب.

ولكن العرب هم الذين يحملون وزر هذا إلى حد ما، لأنهم رفضوا في سنة ١٩٣٧ التقسيم الذي كان من شأنه أن يحدد رقعة الوطن اليهودي في أقل تقدير، كما أنهم في سنة ١٩٣٩ الكتاب الأبيض الذي كان يرمي إلى تحديد عدد المواطنين اليهود في فلسطين. ويبدو أن العرب كانوا

(١) هذا ترديد أو صدى «للمشروع» ذاته.

مدفوعين إلى هذا الرفض بعاملين من العناد والتفاؤل، رغم أنهم كانوا على حق في تصرفهم الذي جاء على غير ما كان يتطلب الرشاد وأصالة الرأي. أنهم رفضوا عمل أي شيء يمكن أن تشمّ منه رائحة أي حق لليهود في الإقامة في فلسطين، واستمروا في آمالهم عبثاً ورغم كل الدلائل الجلية في تلك الأيام عسى أن يجد شيء يغير من سلوك الدولة المنتدبة ومن خططها. وكان من البين عندما رفضوا مقترحات الكتاب الأبيض أن اليهود سوف يتقدمون في تؤدة، ومهما كانت الخطوات بطيئة، نحو تحقيق أغلبية يهودية بين سكان فلسطين كما كان من المحقق أن الحكومة البريطانية سوف لا تنفذ سياسة ضارة باليهود - رغم إنها كانت تتوخى صالحهم - في حين أن العرب قد عارضوا في تنفيذها. هذا ومن العسير القول إلى أي مدى توقعت بريطانيا وقتئذ الاحتمال الآخر الذي كان يضطرها لإيقاف الهجرة اليهودية بوسائل القهر والإرغام؟ ولكن العرب الذين توقعوا مثل هذا التطور، لم يساور واحداً في الألف منهم أدنى شك في نتائج مثل هذا التحدي. لقد كانت ثقتهم تعادل عنادهم وتفاؤلهم، مما تخيله المراقب العادي موقفاً موطداً قويًّا بالنسبة للظروف والأوضاع في سنة ١٩٣٩.

ومن الحق أنني لم أجد في ذلك الوقت مبرراً لفكرة تخالف هذا، وسوف لا اذكر إلّا أن ما بدا من سخاء أميركا وبريطانيا ومن الثراء والغنى الذي ظفرت به بلاد العرب نتيجة لاستغلال موارد البترول فيها، لم يكن قد ظهر منه شيء وقتئذ ليضعف من فضائل العرب؛ وأني كنت أشعر واثقاً بأن أية محاولة عسكرية يمكن أن يقوم بها العرب لتعطيل تنفيذ هذا المشروع سوف نقابل بكل عنف وقوة من جانب الدول الكبيرة الديموقراطية «المحبة للسلام» خدمة للغضب اليهودي. وعليه فإني سعيت بحكم الضرورة لإيجاد وسيلة للخروج من هذه الورطة عن طريق الاتفاق مع

الخصوم. ولقد اعتقدت صراحة أن العرب، مدفوعين بمصالحهم الخاصة، سوف يكون لهم من الرشد والنضوج ما يحفزهم إلى المطالبة بتعويض عن حقهم الصريح الذي لا ينكر، والذي لن يكون له اعتبار لدى هؤلاء الذين يملكون القوة الكافية للدفاع عن باطلهم.

وبناء على هذا فإن هذه «الخطة» تملكت فجأة الدكتور ويزمان عن طريق المستر تشرشل في سنة ١٩٤٢. وليس في مقدوري أن أعرف لماذا اختار الدكتور ويزمان، وهو بصدد تدوين تاريخ حياته، أن يجعل من عبارات المستر تشرشل برقاً لامعاً حيره وخطف بصره؟ ولكن من المستطاع على أية حال أن نستخلص الآتي في اختصار: أولاً، انه كان على علم بهذه الخطة منذ شهر أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٣٩؛ وثانياً، أنه ناقشها بصفة عامة مع المستر تشرشل نفسه في القيادة البحرية في ١٧ كانون الأول/ ديسمبر من السنة ذاتها، قبل سفره إلى أميركا ببضعة أيام؛ وثالثاً انه تحدث عنها إلى الرئيس روزفلت في باكورة شباط/ فبراير سنة ١٩٤٠. ولهذا فمن المصادفة أن يكون القول الذي عزاه إليَّ وهو أن «المستر تشرشل والرئيس روزفلت يجب أن يعرفا ابن سعود



تشرشل

رغبتهما في تحقيق برنامجك»، هو خطأ تاريخي جلي، لسبب بسيط هو أن المستر تشرشل لم يكن رئيس الوزارء في ذلك الوقت (أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٣٩)، بينما بارحت أنا إنكلترا في تشرين الثاني/ نوفمبر ومكثت في بلاد العرب حتى تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٤٠!

وانتقل بعد هذا إلى الحقائق المفصلة بهذا «البرنامج» الذي استطيع أن أقول بدون حرج أنني واضعه. إن رفض العرب واليهود كليهما لمقترحات الكتاب الأبيض وعاصفة الاحتجاج التي أثاراها على بريطانيا، بدت وكأنها قد عطلت موقتاً أي احتمال في التقدم صوب وجود حل المشكلة الفلسطينية. ولم يكن في الأحوال العادية ما يستطاع عمله إلّا انتظار تطورات جديدة يمكن أن تفتح الباب لمحاولة جديدة تفض هذا المشكل. ولكن الأحوال العادية سرعان ما تغيرت وتلاشت بنشوب الحرب، وكان من الواضح أن استمرار الأزمة في الشرق الأوسط سوف يضر بجهود الدول المتحالفة التي كان إخلاص العرب وتعاونهم من العناصر الأساسية لنجاحها. ولم تبد أية مراعاة لمصالحنا من جانب الفريقين، حتى مجرد ترك المشكلة إلى ما بعد الحرب، بينما تراءت في بعض البلاد العربية - مصر والعراق وسوريا مثلاً - عناصر ذات شأن كان من الصعب اعتبارها موالية أو مخلصة لبريطانيا وحلفائها. أما اليهود فقد اختاروا، تحت ظروف الحرب ورغم خيبة أملهم، التعاون مع الحلفاء، ولو أن هذا التعاون لم يعد بكبير نفع على الحلفاء في الشرق الأوسط. وأما في الناحية العربية فان كل ما سبق ذكره عن ابن سعود قد بين لبريطانيا في جلاء انها تستطيع دائماً أن تعتمد على ولائه وإخلاصه، رغم انه لم يكن من السهل الهين الانتفاع التام بهذه الحقيقة في مواجهة سياسة جارحة لشعور العالم الإسلامي. وكانت سياسة بريطانيا في فلسطين هي المثل البارز في هذه الناحية!

وكان من الواضح أننا لن نعود، ولا نستطيع أن نعود، إلى سياسة الوطن القومي اليهودي. وكنا في الوقت نفسه وخلال السنين العجاف التي أعقبت الحرب العالمية قد اقتربنا جدًّا من تحقيق موافقة شكلية من ناحية العرب على سياستنا في فلسطين بواسطة المفاوضات التي جرت مع الأمير فيصل! وقد كان فشل هذه السياسة راجعاً إلى الحقيقة الصارخة في إن النفع والأمل اللذين انطوت عليهما اقتراحاتنا تعلقاً بالأمير فيصل نفسه، الذي ثبت عجزه عن أن يحمل أباه، بله العالم العربي كله، على ممالأة الصهيونية. ولهذا فان المشكلة انحصرت في ابتكار قاعدة توزع بواسطتها المنافع الناشئة عن تسوية مناسبة لقضية فلسطين على جميع أجزاء العالم الإسلامي. ولم يكن أقل أهمية من هذا وجود وسيط له الأهلية والرغبة في أن تلقي هذه القاعدة قبولاً عاماً. وكان هناك لا شك مرشح واحد أهل للقيام بهذا الدور في الميدان: إن معارضة ابن سعود كانت كافية لتدفع بأي حل للمشكلة إلى فشل محقق، كما أن تأييده كان كافياً لأن يسير بأي حل مسافة طويلة في سبيل تحقيق القبول العام له، طالما كان يرجى منه نفع وميزات حيوية للعالم الإسلامي كله. أما بالنسبة لهذه القاعدة نفسها فلم يكن المرء في حاجة لأكثر من مد يده إلى الوكر الذي هجعت فيه المراسلات بين السير هنري مكمهون والشريف حسين ملك الحجاز مدة ربع قرن إذ لا توجد وثيقة أقوى واقطع من هذه على مطالبة العرب باستقلالهم. وكل ما كان يجب عمله بعدئذ هو إحلال لبنان محل فلسطين في نطاق المقترحات الأصلية.

وقد تمثل حل المشكلة في ثلاث قواعد بسيطة مستقيمة شاملة هي: يجب أن نترك فلسطين كلها لليهود؛ يجب إسكان العرب الذين يخرجون من فلسطين في أماكن أخرى على حساب اليهود، الذين عليهم أن يضعوا لهذا الغرض عشرين مليوناً من الجنيهات تحت تصرف الملك ابن سعود؛

يجب الاعتراف رسميًّا للدول العربية الآسيوية، ما عدا عدن، باستقلالها التام وبالمعنى الصحيح لهذه الكلمة. ويجب أن تقدم هذه المقترحات للملك ابن سعود، بصفته الزعيم العربي الأول، بواسطة إنجلترا وأمريكا اللتين تضمنان بالتكافل بينهما تنفيذ هذه المقترحات إذا ما حظيت بقبوله نيابة عن العرب. ويجب أن أشير على قدر علمي إلى انه لم يكن هناك أي تفكير لإعطاء ابن سعود منحة مالية توكيداً لكسب رضاه عن البرنامج، ولا لتنصيبه ملكاً على بلاد العرب كلها. ومن الجلي أن المبلغ المقترح للمشروع كان تافهاً جدًّا إذا ما قيس بالنفقات التي تطلبتها أخيراً إعانة اللاجئين وإعادة توطنهم خلال السنين العشر الأخيرة.

وكيفما كان الوضع فإنني لم أعرض أو أناقش البرنامج بصفة عامة مع الدكتور ويزمان والأستاذ نامير إلّا في يوم ٢٨ أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٣٩ على مائدة الغداء في نادي «الاتينيوم» بلندن. وكان في الأثر الايجابي والموافقة التي بدت منهما ما شجعني على أن استشير عدداً آخر من الأصدقاء وخاصة المستر لورنس وفي يوم ٦ تشرين الأول/ أكتوبر ظفر هذا البرنامج بقبول ودي شاكر من الدكتور ويزمان وموشي شرتوك كليهما في حفلة عشاء في النادي ذاته حضرها سوانا الأستاذ نامير وابني وقد اتفقوا على أن يستخدموا نفوذهم لدى الحكومتين الأميركية والبريطانية لقبول وتنفيذ هذا البرنامج، كما وكلت إليَّ مهمة تعريف ابن سعود به وبمضمون شروطه ومحاولة توكيد موافقته مقدماً على العرض الذي قد تتقدم به الحكومتان المذكورتان في الوقت المناسب.

برحت إنكلترا بعد شهر تقريباً عائداً إلى بلاد العرب، وقد حدث أن تكلمت مع جلالة الملك ابن سعود في الرياض عن تفاصيل المشروع في ٨ كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٤٠ الموافق الذكرى الرابعة عشرة للمناداة به ملكاً على الحجاز وكان موقفه حيال المشروع باعثاً على الاهتمام والغرابة

في آن واحد، إذ طلب إلي أن يبقى هذا الموضوع سراً مكتوماً بيننا: ولعله أراد بذلك أن يختبر صحة معلوماتي عن الموضوع المنتظر أن تتقدم به الحكومتان. انه سوف ينقضي وقت طويل حتى يتحقق العرض المتوقع الذي كنت على ثقة من أنه سيقدم إليه في الوقت المناسب. وكان الدكتور ويزمان قد تحدث خلال ذلك في الموضوع إلى المستر تشرشل الذي كان يعتبره الصديق الأول للصهيونية في مجلس الوزراء، كما أتيحت له بعد ذلك بفترة قصيرة فرصة الحديث عنه إلى الرئيس روزفلت. ولكن ثلاثة شهور مضت دون أن تبدو أية بارقة نشاط من هاتين الناحيتين. وعندما وجدت من اللازم أن أذكر الملك بأنه لم يعطني جواباً نهائيًّا محدداً على الاقتراح الذي تحدثت إليه عنه، أجاب جلالته في شيء من اللبس والغموض إذ قال إنه وإن كان هو مقتنعاً برغبتي الصادقة في أن أساعده، فإنه يجد صعوبة كبيرة في أن يساعدني لكي أستطيع بدوري مساعدته في تحقيق غاياته! وقد حملت هذا الجواب على محمل عتاب ودي لقاء عرض اقتراح يبدو انه خلوّ كليًّا من الحقائق المادية. وكان لاعتراضه هذا مبرر قوي من صمت الحكومتين طوال هذه المدة؛ ولم أجد سبباً لذلك إلّا فشل الدكتور ويزمان في إقناع وإغراء أصدقائه الأقوياء. وإذا كان الأمر كذلك فقد قضى على المشروع وأصبح هباء. كما كان من غير المنتظر أن يتخذ آل سعود الخطوات الأولى في الموضوع. وكان من حقي في مثل هذه الظروف أن اسقط هذا المشروع بحذافيره؛ ولكني لم أفعل شيئاً من هذا، بل على العكس فقد عمدت إلى أن أحدث بعض كبار مستشاري الملك عن الموضوع، لمجرد أن ابعث خلافاً كبيراً في أرائهم الأولية حيال اقتراح تلغي صعابه العملية الظاهرة الميزات المغرية التي ينطوي عليها. ولقد أخبر بعض الذين تحدثت إليهم الملك بما جرى، كما كنت أرجو أن يفعلوا، وقد عاتبني الملك في الوقت المناسب لمناقشة مثل هذه

المسائل خارج حدود نطاقها. ورغماً عن هذا فاني لم أفقد الأمل في إمكان وقوع تطورات خارجة عن إرادتي قد تعمل على إخراج هذا المشروع إلى حيز التنفيذ.

بعث إليّ في خلال ذلك الدكتور ويزمان، الذي كان يزمع السفر ثانية إلى أميركا في أيار/ مايو سنة ١٩٤٠ (وتأجلت الرحلة إلى أجل غير مسمى نظراً لسوء الحالة العسكرية) برسالة يؤكد فيها ثقته في الحصول على الموافقة اللازمة لهذا البرنامج، ويسأل أن أرسل إليه أنباء عن مدى تقدمي في مهمتي وربما أكون تجاوزت حدود الواقع إذ أجبته بأنه ما زال هناك أمل في تحقيق نتائج ايجابية إذا ما اتخذت الخطوة الأولى المقترحة في اتفاقيتنا الأصلية؛ هذا وكنت ما زلت اعتقد في إمكان تحقيق مثل هذه النتائج المرجوّة بالوسيلة ذاتها، وإنها ذات فائدة مستديمة لكل من يعنيهم الأمر. ولكن مستقبل فلسطين درج إلى الإهمال وعدم الاهتمام في غضون التوتر الذي ساد الشهور العصيبة التالية. وبقدر ما أعلم فإن شيئاً جديداً لم يتخذ حيال هذا الموضوع حتى دخلت أميركا الحرب في نهاية سنة ١٩٤١. وفي خلال ذلك تركت بلاد العرب لأعاني فترة حرجة مؤقتة بالنسبة للنشاط السياسي المحتمل؛ يضاف إلى هذا ما حاق بي من خيبة للشك الذي ساور بعض أصدقائي العرب في أنني أعمل لمساعدة اليهود، بينما زعم غيرهم بأنني أناصب العداء للصهيونية إن ابن سعود قد أعلن عزمه على حرماني من العودة إلى بلاده، رغم إنه لم يكن من الصعب عليَّ أن اثبت ألا أساس من الحقيقة لمثل هذه الفرية التي أعلنت رسميًّا في شباط/ فبراير سنة ١٩٤١ ثم جددت بعد سنتين من هذا التاريخ، كما سأبين فيما يأتي.

وعند عودتي إلى نشاطي العادي في نيسان/ أبريل سنة ١٩٤١ كنت كثير الاتصال بالأستاذ نامير؛ وبطبيعة الحال جرى الحديث حول مشروع

سنة ١٩٣٩ الذي لم يكن هو وأصدقاؤه قد نبذوه كشيء لا يرجى تحقيقه، كما أنه لم يعرفني إلّا في منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر بأن رئيس الوزراء قد عاد إلى اهتمامه الكبير بالمشروع، وأن الدكتور ويزمان سيقابل المستر إيدن بعد فترة قصيرة بخصوص هذا الموضوع. ولكن دخول أميركا الحرب أدى إلى تأخير الإجراءات التي أدت إلى اجتماع الدكتور ويزمان بالمستر تشرشل بحيث لم تتم هذه المقابلة إلّا في يوم ١١ آذار/ مارس سنة ١٩٤٢، يوم سفر تشرشل إلى أميركا؛ وكما سبق القول فانه كان على علم تام باهتمام رئيس الوزراء بالبرنامج. وقد قابلته والأستاذ نامير مصادفة قبل حديثه مع تشرشل بيومين اثنين، بينما تسجل مذكراتي مقابلة أخرى في حفلة عشاء حضرها أيضاً الأستاذ نامير واليوزباشي جامنز في يوم ١٧ آذار/ مارس، وهو ما يتناقض مع قول الدكتور ويزمان بأنه سافر إلى أميركا يوم ١١ آذار/ مارس!

إنه يقرر بصفة خاصة بأنه لم يناقش البرنامج مع الرئيس روزفلت أثناء هذه الزيارة، الأمر الذي يبدو على شيء من الغرابة في تلك الظروف، رغم انه تحدث عنه إلى بعض الرجال الرسميين الأمريكيين، ومن بينهم الكولونيل هوسكنز، الذي ظن انه الممثل الشخصي للرئيس في الشرق الأوسط. ومن ناحية أخرى يجد إنه سجل في مكان تالٍ أنه تحدث إلى الرئيس روزفلت قبيل نهاية هذه الزيارة في حضور المستر سومنر ويلز، وان سلوك المستر روزفلت حياله نم على التأييد التام. وعليه نستطيع القول على مسؤولية الدكتور ويزمان أن كلا من المستر تشرشل والرئيس روزفلت كان كبير الاهتمام بتسوية المشكلة الفلسطينية على أساس هذا البرنامج؛ ولكن علينا في مواجهة هذه الأوضاع أن نضع الحقيقة البسيطة وهي أن أحداً منهما لم يتخذ أي عمل ايجابي لتنفيذه وفق القواعد المشار إليها، ولكن كلا منهما لا شك اتخذ خطوات للكشف عن حقيقة الموقف بإرسال مندوبين عنهما إلى الشرق الأوسط

لزيارة ابن سعود، رغم أن مظهر المندوبين أبان عن أنهما من أشد المعارضين للصهيونية. ولقد حضر اللورد موين أولاً وقابل ابن سعود في ٢٩ كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٤٢؛ إلّا أن الدكتور ويزمان لا يذكر هذه الحقيقة، ولا يتعرض لنتائج هذه الزيارة، التي لا شك في أن وثائقها مودعة بين اضابير هوايتهول حيث جرفها النسيان. ولا يمكن أن نتخيل إلّا أن اللورد لم يكن مفوضاً في تقديم الاقتراح المشار إليه في البرنامج، ولهذا فشل، كما كان متوقعاً، في استخلاص أي شيء ايجابي من محارب قوي كملك بلاد العرب الذي وصفه تشرشل نفسه بعد ذلك في مؤتمر الفيوم سنة ١٩٤٥ بأنه «الصديق في الشدائد» الذي لم تعوز إنكلترا قط مساعدته وعونه خلال الأيام السود منذ فترة الحرب.

وكذلك فان الكولونيل هوسكنز الذي زار ابن سعود في أواخر سنة ١٩٤٣ لم يكن مفوضاً إلّا في الكشف عن صحيح الموقف وتعرف نواحيه، ولم يكن مكلفاً بعرض المشروع على جلالته. ولا ريب في انه نزل على الرحب وحسن القبول لدى أكبر سياسي في بلاد العرب، ثم عاد وقد امتلأت جعبته بقصص خيالية عن تجاربه في الرياض. وعلى حد قوله نفسه فان ابن سعود تكلم في غضب وازدراء عن الدكتور ويزمان ومحاولته إغراءه بالرشوة ليبيع فلسطين لليهود. ولكن هذا ليس شيئاً بالنسبة لما جاء بعد ذلك في تقريره (إني أسجل ما ذكره الدكتور ويزمان) وهو «أن ابن سعود لن يسمح مرة أخرى للمستر فيلبي بان يعبر حدود مملكته!» والجواب البسيط على مثل هذا الهراء والإساءة هو أنني عدت إلى بلاد العرب في طائرة الملك الخاصة (وهي هدية من الرئيس روزفلت) من القاهرة إلى الرياض عن طريق جدة يوم ٢٧ تموز/ يوليو، وذلك بمجرد أن خففت الحكومة البريطانية من القيود المفروضة على السفر. أما تفسير هذا الجواب فقد نجده في كلمات الملك نفسه، عندما ذكرت له كيف حاول الكولونيل هوسكنز وغيره أن يلصقوا بي الضعة ويشهروا بي أمام

عالم يجهل الحقائق، إذ قال جلالته: «كيف يبيحون لأنفسهم مثل هذا الكلام؟ ألم يعرفوا انك كنت صديقي الوحيد في تلك الأيام حيث كنت في أمسّ الحاجة إلى أصدقاء؟ هل يعتقدون أنني أنسى هذا يوماً من الأيام؟». وهكذا انقضت تلك السنون الخمس وكأني لم ابتعد عن بلاد العرب قط، إذ عدت إلى مكاني في مجلس الملك لأظل فيه منذ ذلك التاريخ حتى اليوم: محلاً لصداقة ابن سعود التي لم ولن تتغير، وأهلاً لثقته وعطفه؛ والغالب أنني سأقضي في بلاد العرب بقية حياتي، التي أصبحت منذ فترة طويلة جزءاً لا يتجزأ من هذا البلد.

ومن الحق أن الكولونيل هوسكنز قد لطف وعدّل كثيراً من هذه العبارة المذكورة في حديث جرى بيننا في فندقه بلندن يوم ١٥ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٤٣، ولكن لا ريب في أن تقاريره الرسمية قد أحدثت أثرها على سيده، بحيث كانت النتيجة أن هذا البرنامج لم يسفر عن شيء، وأن تركت المسألة الفلسطينية لتحل في الوقت المناسب بما يحقق صالح اليهود بحكم السيف والقوة المادية. أما كيف حدث ذلك، فقصة أخرى ليس فيها ما يفخر به العرب؛ ولكن بالنسبة لقول المستر تشرشل: انه ليس هناك ما لا يستطيع هو وروزفلت عمله، إذا ما عقدا العزم على ذلك، فإن الخزي والعار لسفك الدماء وانتشار الفقر والبؤس التي سبقت الحل النهائي للمشكلة، إنما يقعان عدلاً وصراحة على هذين الرجلين اللذين كانا في مقدورهما حل المشكلة بوسائل سلمية، إذا ما اعتزما ذلك. ولكن لم يكن أحد منهما في منصة الحكم عندما حل وقت تصفية الحساب بسفك دماء العرب واليهود معاً: ولا مبرر لأحدهما بان يشعر بالود أو يكن الشكر للدولتين الكبيرتين المسؤولين عن خلق المشكلة الفلسطينية.

يتساءل الدكتور ويزمان: «ما ذا كان في المقدور، وماذا يمكن أن نصنع من كل هذا؟ إن المشروع لم يتمخض عن شيء كما نعرف اليوم

جميعاً؛ أما النتائج التي كان يؤدي إليها تنفيذه فمن العسير جدًّا التنبؤ بها». ولا شك انه من الصعب دائماً التكهن بما كان قد يحدث بسبب فرصة لم تتحقق أبداً. وربما كانت الحرب ونتائجها قد تغيرت، لو أن هتلر لم يهاجم روسيا، أو لو أن اليابان لم تهاجم بيرل هاربر: ولدينا من المبررات ما يجعلنا نحمد الله على هذين الحادثين. أما فيما يتصل ببرنامج فلسطين، فكانت دعامته الأساسية أن تصمم بريطانيا وأميركا على تنفيذه، وربما كانت الحال تستدعي أن تتنازلا بمحاولة دراسة تفاصيله وشرح أغراضه مع واضعه، رغم التعالي والتحامل وقال لا شك في سبيل مثل هذا التفضل والتنازل. وكان لابن سعود الحق كله في أن يدرك أن المشروع نفسه سوف يعرض عليه من جانب أكبر سلطتين في العالم، إذا كان الحديث الذي حدثته به عنه ينطوي على شيء من الحقيقة. ولهذا فإنه لم يرض الارتباط بأي شيء حتى تتحدث إليه هاتان السلطتان. والواقع أنه لم يرتبط بأي شيء في هذه المرحلة، كما لم تعرض أبداً المناسبات التي كانت تمكنه من أن يتخذ قراراً في المسألة؛ والسبب في هذا أن المستر تشرشل والرئيس روزفلت، رغم رغبتهما في إيجاد حل للمشكلة في مجموعها، لم يكن في مقدورهما أن يصمما على وضع حل غير قويم لمشكلة عويصة عنيدة كهذه. وكانت الدولتان أقل استعداداً لعرض هذه المشكلة، بما انطوت عليه من حق وباطل، على محكمة العدل الدولية، التي كان لا شك في أن حكمها سيأتي في غير صالح اليهود وأعوانهم. ولهذا فإنهما قصرتا اللعبة على الوسائل السياسية «القويمة» التي تتمثل في إعطاء اليهود كل ما يمكن عند انتهاء الحرب، دون إن تتقيدا بتعويض العرب. وكانت نفقات هذه اللعبة مريعة هائلة إذ كانت عناصرها من الحياة والألم والفقر والتشريد؛ أما نتائجها السياسية والاقتصادية في الشرق الأوسط، فلم يشعر بها أحد حتى الآن، ولكنها ستكون مدمرة متلفة.

وربما يحاول هؤلاء الذين يحملون وزر هذا الجرم أن يرضوا ضمائرهم بالاقتناع بان العرب لم يكونوا ليقبلوا هذا المشروع بأية وسيلة؛ ولكن هذا ليس عذراً لعدم محاولة ذلك. إن العرب يعرفون الآن ما كانوا يكسبون من ورائه، بل وما ضيعوا بدونه! أني لا اشك في أمكان وجود عربي واحد بعد هذه الأحداث كلها، لا يعترف اليوم بأن العرب ربما كانوا في ظل المشروع أحسن حالاً مما هم الآن. أن كل ما يطالبون به اليوم هو السماح للاجئين من العرب، إذا أرادوا، بالعودة إلى ديارهم في فلسطين المحتلة؛ أو بديل ذلك، وهو أن يعوض هؤلاء عن خسائرهم.

أما ردّ الفعل القوي من جانب ابن سعود حيال هذا البرنامج، فلا يمكن تقديره وقياسه إلّا في ضوء الأحداث التالية، كما كان هو الوحيد من بين جميع زعماء العرب الذي استمر في موقفه الواقعي إزاء المشكلة الفلسطينية التي كان يشعر نحوها بمسؤولية ضعيفة خلال فترة الانتداب البريطاني الذي لم يأسف لانتهائه احد أكثر منه. إنه اعرض عن بعث النشاط الثوري قبل انسحاب بريطانيا، كما كان بعد هذا عميق النقد محرجاً لاندفاع العرب إلى الحرب في استخفاف وعدم أهبة ونظام. ومن الثابت انه أوصى بنوع من التقسيم أثناء عرض المشكلة على هيئة الأمم وفي خلال فترات الهدنة. أما اشتراكه في الأعمال العدائية الفعالة فكان ذا طابع رمزي، إذ لم يشترك إلا بقوة صغيرة ضعيفة السلاح تحت القيادة المصرية، وببعض الإعانات المالية اللازمة لتوحيد العمليات التي اقتنع بان يتركها لتصرف الجامعة العربية رغم انه لم يكن راضياً قط عن طريقة نظام الحملة وقيادتها. ولا تكاد تخرج أسباب الهزيمة النهائية عما قاله وتوقعه؛ كما أن الحقيقة في أن شرق الأردن هي الدولة العربية الوحيدة التي أصابت بعض العزاء من وراء فتح اليهود للجزء الأكبر من فلسطين، لا

يمكن اعتبارها بمثابة شيء من الترضية والقبول له. ولا شك في انه قد غسل يديه من هذه الأحداث المؤسفة جميعاً، وتجنب أن يساهم بأي شكل في المفاوضات التي جرت مع اليهود بعد ذلك حول مستقبل فلسطين، ولو انه أذن لقواته أن تشترك في موكب النصر الذي نظم احتفالاً بإخلاء الجيش المصري للبلاد! أما الجهاد الذي أعلنته السلطات الدينية في المملكة العربية السعودية، فقد تجاهلته في الواقع الجهات الرسمية، ولو أنهم جعلوا منه فرصة لجمع اكتتابات كبيرة خدمة للهدف العربي. أما العمل الإيجابي الفعال حقيقة الذي كان في استطاعة الحكومة العربية السعودية أن تقوم به وهو إلغاء أو تأجيل امتياز البترول الأميركي كاحتجاج على مناصرة أميركا لليهود، فلم يكن محل اعتبار جدي، أو إنه درس ليرفض كإجراء كبير الضرر بالمصالح الاقتصادية للبلاد، رغماً عن الدعاية الكبيرة التي تكفلت بها العناصر المعادية في العراق وشرق الأردن.

وهل من المحتمل في مواجهة كل هذا وعند خاتمة المطاف أن يرى سياسي فحل في منزله ابن سعود أنه من صالح العرب أن يرتضوا حلاً وسطاً لمشكلة فلسطين رعاية للميزات الكبيرة التي يعرضها هذا البرنامج؟ هذا سؤال لا تتيسر الآن الإجابة عنه لسبب بسيط هو أن هذه المزايا لم تعرض أبداً من الجهة المختصة قصد البحث والدراسة. ويستنتج من كل هذا أن ابن سعود لم يكن أكثر من مراقب محايد في جميع أنواع النشاط الذي تحدثنا عنه في هذا الفصل. إنه لم يدع أبداً للتدخل في الموضوع، وظل ثابتاً غير مستسلم للنهاية المريرة لصراع طويل لا يستطيع أي عربي أن ينظر إلى نتيجتة دون نفور واشمئزاز وشعور بالمذلة والمهانة الوطنية. إنه لم يتخل أبداً عن رأيه في أن غزو اليهود لفلسطين، الذي ظفر بتعضيد بريطانيا أولاً ثم برعاية أميركا وهيئة الأمم المتحدة، كان إساءة للعرب واعتداء عليهم. ولهذا فانه تغافل عنه

طالما كان تحت إشراف بريطانيا العظمى وتصرفها بصفتها الدولة المنتدبة؛ وفي النهاية عندما كانت عواطفه كلها متجهة لعرب فلسطين، فانه لم يستطع أن يمد لهم يد المساعدة نظراً لخيبة مسعى جامعة الدول العربية وفشلها نتيجة للشقاق والغيرة بين أعضائها، ثم للاضطراب والعجز البادين بين دولها. ولكن ثمة محل للتساؤل عما إذا كان من الحكمة والسداد أن وضع كامل ثقته دون ما تحفظ في جامعة الدول العربية كما أن هناك مجالاً للشك والريبة في أن جامعة الدول العربية تستطيع الحياة تحت الأعباء الداخلية لبيت منقسم على نفسه! أما فيما يتصل بشخصي، فلا أحد يستطيع أن يستريب بحق في إخلاصي للقضية العربية، رغم المناسبات التي كنت أجد نفسي حيًّا لها على خلاف عميق مع السياسة العربية الرسمية غير الواقعية المتصلة بمشكلة فلسطين. إني كنت دائماً على يقين، بل وما زلت موقناً، بان لا حق لليهود إطلاقاً في الذهاب إلى فلسطين، سواء في ذلك الحق القانوني أو التاريخي؛ ولقد أيدت إحالة الموضوع على محكمة العدل الدولية للفصل فيه، ولم أقصر في نفس الوقت في أن أثبت أن كلاً من أميركا وبريطانيا قد اعتزم منذ البداية ارتكاب كل ما يناقض اعتبارات الحق والعدالة خدمة لصالح الصهيونية، وأن في استطاعتهما، متى شاءتا، أن تستخدما لتنفيذ هذا الغرض قوة لا قبل للعرب بها؛ وربما أخذ عليّ، وهو ما لا أشك فيه، أنني دافعت عن وجهة النظر العملية في أن العرب لا يستطيعون النجاة بأنفسهم من الكارثة النهائية إلّا بقبول حل وسط أو بالاتفاق مع العناصر المعادية التي شعرت أحياناً بتأنيب الضمير لكي تضع حداً للحلم الصهيوني. وقد أيدت في سنة ١٩٣٧ مشروع التقسيم الذي وضعته لجنة بيل كخطوة في هذا السبيل، إلّا أنني وجدت نفسي أفكر في اتجاه مضاد لميل العرب نحو عدم الاتفاق أو رفض المشروع. وكذلك رحبت في سنة

١٩٣٩ بمقترحات الكتاب الأبيض كتصفية نهائية لالتزاماتنا قبل الصهيونية، إلّا أنني وجدت أصدقائي العرب مصرين على رفض حل وسط. هذا وقد قمت في السنة نفسها بوضع «البرنامج» الفاشل سابق الذكر، الذي دفع باسمي (ربما كان الواجب أن أقول رغماً عنه) في قائمة سوداء نشرت حديثاً واحتوت على أسماء تسعة رجال، منهم الجنرال اسبيرس، والمسيو أسباك واليوزباشي فران وغيرهم، أوصت لجنة مشتركة من العناصر اليهودية المتطرفة بتصفية الحساب معهم! **انه من العسير حقاً أن ترضي الناس جميعاً!**

الفصل الثامن عشر

غروب الشمس

غروب الشمس! لعلها أشد لحظات اليوم جاذبية وأكثرها ريبة في تلك البلاد التي ما زالت تحيا وثيقة الصلات بالطبيعة: إنها اللحظة التي تفرق بين اليوم والغد، وتمكن للإنسان من أن يرى النور مولياً والظلام مقبلاً وما بينهما من ضوء السحر القصير: إنها اللحظة التي تشهد المسلمين، في بلاد العرب وغيرها من معاقل الإسلام، وقد ولوا وجوههم شطر مكة المكرمة ساجدين لله شاكرين على ما أولاهم من نعم وخير في اليوم المنصرم، وموجهين لعزته وجلاله الدعاء أن يبارك جهودهم وسعيهم في اليوم المقبل: إنها اللحظة التي تشهد ملايين العيون، في المناسبات الإسلامية الكبيرة، جائسة خلال السماء وقت الشفق متلهفة على الرؤية الأولى للهلال، التي تحدد بداية أو نهاية شهر الصوم، أو بداية موسم الحج؛ إنها اللحظة التي تبيح حتى لأبناء العرب والمسلمين المقيمين في الشرق أن يبعثوا بأفكارهم ونجواهم مع الشمس إلى ما وراء الأفق حيث ما زالت تسطع في أوطانهم وعلى مواطنيهم. أما المدن الكادحة في أوروبا الحديثة والدنيا الجديدة فلا تعرف مثل هذه اللحظة المقدسة من حياة الناس؛ فالشمس تغرب خافية عن العيون خلف كثيف لفائف دخانها أو محتجبة وراء زحمة بيوتها. وحقاً فقد امتدت هناك اللحظة

الفاصلة بين يوم وآخر إلى هذه الساعة المريبة عند منتصف الليل: عندما تعلن ساعات السكان منتصف الليل، وعندما يكون الناس نياماً، إلّا المجرمين وأهل اللهو والعبث، وكلهم سواسية غافلون عن مولد يوم جديد حتى تدعوهم الشمس ذاتها إلى اليقظة والى السعي والكد.

وعلى غير ما شبه بالأيام الشمسية الثابتة المقدرة، نجد أيام الإنسان على الأرض قد تقصر أو تطول وفقاً لظروف الحياة وعوامل العيش: ابتداءً من الآمال المعقودة على الفترة الأولية القصيرة التي تبلغ ثلاث عشرة سنة. والتي قد تنقص أو تزيد على ذلك في أحيان كثيرة لألف سبب وسبب مختلفة متفاوتة، ترجع مصادرها في الغالب إلى ما عليه الإنسان نفسه من نقائض أو فضائل: موروثة عن آبائه أو مكتسبة من صنع يديه. إن كل دورة في سباق الحياة تتطلب ضحاياها قبل أن يبلغوا الغاية «الشريط» بينما قلة هي التي تجتازها في قوة تكفي لدورة أخرى أو اثنتين، إلّا أن بعض هؤلاء هم الذين يحتفظون خلال هذه الدورات الإضافية بما كانوا عليه من حماسة وسرعة في باكورة عدوهم حتى يسلموا الشعلة مضيئة غير خابية لأولئك الذين ينتظرون ليستأنفوا حملها في هذا الصراع الأبدي بين الإنسان ومثله العليا. ورغم ذلك فقلما نجد بين هؤلاء الطامحين المنتظرين من هو أهل للمحافظة على السرعة والقوة التي أحرزها من قبله هؤلاء الأبطال. **إن ابن سعود مغرم بترديد هذا القول أو ما يقاربه في مغزاه:**

إن الفتى من يقول ها إنذا   ليس الفتى من يقول كان أبي

ومن حسن طالع بلاد العرب أنها لما تواجه هذه المشكلة المتصلة بالمستقبل. إن ابن سعود وقد بلغ هذه المرحلة العادية من عمر الإنسان لم يزل في صحة لا بأس بها: وربما لم يعد كما كان من قبل، ولكن رغم سمات التعب والضعف البادية عليه إثر هذه الجهود الجبارة التي اضطلع بها طوال حياته فإنه لم يذبل ولم يتراخ وما زال يبين عن كل إمارات

الكفاية والحزم في متابعة الرسالة التي اقسم لها يمين الولاء منذ خمسين عاماً. إن أمثال هؤلاء الرجال لا يموتون إلّا على ظهور الجياد، ولكنهم لا ينسون المستقبل ولا يغفلون حاجاته: هذا المستقبل الذي أعد له عدته منذ سبع عشرة سنة إذ جعل وراثة العرش من بعده للأمير سعود أكبر أبنائه الأحياء وأمّنها له ببيعة عامة من أسرته وشعبه. ومنذ هذه اللحظة أخذ ولي العهد، الذي يبلغ التاسعة والأربعين من عمره، يشترك مع الملك



الأمير سعود بن عبد العزيز ولي العهد

نفسه اشتراكاً فعليًا في حكم البلاد؛ أما الأمير فيصل، وهو الابن الثاني ذو المرتبة الثانية والبالغ من العمر السادسة والأربعين فيحظى بمنزلة رفيعة وتميز ملحوظ، وقد خدم والده في وظيفة مزدوجة كنائب الملك في الحجاز ووزيراً للخارجية. وغير هذين من الأبناء كالأمير منصور[1] الذي كان وزيراً للدفاع، والأمير سلطان الذي خلف أخاه ناصر كحاكم للرياض في سنة ١٩٤٧، فقد أتيحت لهم أيضاً تجارب قيمة في الشؤون العامة

(١) توفي في سنة ١٩٥١.

وبعض نواحي الحكم. وفضلاً عن هذا فإن كثيرين من أبناء الملك قد قاموا بزيارات بعيدة خارج بلادهم: وعادوا من أوروبا وأميركا يحملون إليها صوراً وأفكاراً لا بد أن تفيد منها وهي تخطو خطوات حثيثة لاتخاذ مكانتها بين جماعة الدول الحديثة: إنهم يحملون إلى مجالسهم ومجتمعاتهم عنصراً من الإيمان والفروسية كما كانت الحال في عصور قديمة مضت وغمرها النسيان بين الاهتمام والاستعداد المادي لاستقبال المدنية العربية. ولم يسمح لهؤلاء الشبان أبداً أن ينسوا واجبهم نحو



الامير سلطان بن عبد العزيز آل سعود

البلد الذي أنجبهم ونحو الدين والجنس الذي هم أنقى عناصره والذي يجب أن يكونوا أبرز ممثليه. إن أبناء الملك الستة والثلاثين الأحياء ومثل عددهم من الأحفاد، فضلاً عن أبناء هؤلاء وأبناء عمومتهم وأبنائهم يضاف إليهم الخمسة الأحياء من إخوة الملك؛ من كل هؤلاء تقوم أسرة ملكية ضخمة حقاً، بل هم يؤمنون لأسرة سعود بقاء طويلاً ممعناً في القرون هو كما يبدو فوق مستوى الشك والريبة. ومما يبعث على الطمأنينة والرضا أن جميع أعضاء هذه الأسرة الضخمة قد نشأوا في رعاية الملك نفسه وتحت

إشرافه كعصبة قوية من الإخوة: متحدين إزاء الصالح العام ومشتركين أو مترئسين المجالس والحفلات وفق ترتيب ميلادهم ودون ما اعتبار للكفاية الشخصية أو الوضع الاجتماعي لأمهاتهم. وليس آخر ما يسجل للملك من جليل الأعمال انه أخرج من هذه الفئة متباينة الميول والعلاقات عجينة واحدة سماتها الألفة والوحدة، بحيث فشلت، رغم دراسة طويلة عميقة لمواقفهم المتبادلة إزاء بعضهم بعضاً، في أن أكشف عن اثر لعوامل العداء والنزاع التي حطمت الأسرة في حكم أعمام الملك، والتي أدت إلى انهيار رشيد المنافسة في شمال بلاد العرب في وقتنا هذا.

ولا يقل النجاح الملحوظ الذي حققه ابن سعود في نطاق أسرته وبين أهله عن مثيله في ميدان حكم القبائل، إن لم يكن هذا أبرز وأكبر، إذ لم يلبث الذين عرفوه في فتوته وصباه من البدو، وهم العنصر العنيد المشاغب وليد قوى الصحراء الذين نكب بهم آباؤه من قبل وأجداده منذ غابر الزمن، لم يلبث هؤلاء أن عرفوا في هذا الشاب سيدهم الذي حكم الرياض عند مشرق هذا القرن! وسرعان ما صنع منهم آلة وأداة كان الغرض منها أن تقضي على تمردهم وعنفهم وتنهنه من بداوتهم: رغم انه استخدمهم أولاً، وبمنتهى الحذر وتام المهارة وبرضاهم واختيارهم، للقضاء على المنافسين الذي قد يحاولون في صراع قابل تحقيق مزاعمهم في سيادة بلاد العرب. وقد أصبحت كل هذه القبائل اليوم وبدون استثناء جماعات ترعى الماشية وتعيش في طاعة القانون وفي رخاء نسبي بين أحوال اليسر والرخاء العام في حياة الصحراء، أو في جماعات زراعية صغيرة تفلح الأرض التي طالما دمروها وأفسدوا فيها بالغزو من قبل بحثاً وراء الغنائم والأسلاب.

ولا ريب في أن عوامل كثيرة قد تضافرت في السنين الأخيرة لبعث الاستقرار إلى هذا التطور الفرد في تاريخ الصحراء. ولكن الذي يرتفع على

مستوى التساؤل هو أن شخصية ابن سعود وجهوده في ظروف اليأس وانقطاع الرجاء خلال باكورة حكمه، هي التي يسّرت وضع الأسس لنظام لم يكن لزاماً أن يأتي نتيجة لمجرد تحسن الأوضاع الاقتصادية في البلاد. وبديهي أن يكون هناك مجالاً للتساؤل عما إذا كان هذا التقدم الاقتصادي ذاته في بلاد العرب قد عمل، إلى حد ما، على استرخاء صرح قوي البناء أعد ليوجهه قوى الجذب في أوضاع جد مختلفة، ولكنه اضطر الآن لأن يتكيف وفقاً لقوة قاهرة من نوع أكثر تربصاً وخداعاً. ومهما كان الأمر فإن تصميم المهندس قد أصبح بناء قائماً منذ فترة طويلة قبل أن تتجمع العواصف الجديدة حول هيكله؛ أما فيما يختص بالصحراء وأهلها، فيمكن القول في ثقة انه استطاع أن يقف شامخاً ظافراً في وجه جميع التجارب التي تعرض لها في ظل ظروف الحياة التي تغيرت، بل ودائبة التغير، في بلاد العرب.

ولا شك في أن المرء قد يكشف عن ضعف وثغرات، لا في أصول البناء وأسسه، ولكن في طبقاته الأعلى، وهي لا ترجع في الغالب إلى التصميم الأصيل الذي وضعه المعلم الأول، بقدر ما ترجع إلى بعض ظروف الحاجة الملحة وسرعة التنفيذ بواسطة بنائين ذي كفايات متفاوتة وأدنى مستوى بصفة عامة. واليوم نجد في الحاكمين، أكثر مما نجد في المحكومين، أخطاء تستوجب النقد المشروع؛ هذا بينما كان الملك قد أتم بنفسه تنظيم رعاياه واستخدمهم لتحقيق غرضه ومتابعة أهدافه التي كانت أهدافهم أيضاً، وانحسر النجاح السريع الذي صحب نمو قوتهم وتمامها عن مثل هذا الاتساع المفاجئ لنطاق نفوذهم ومسؤولياتهم، بحيث لم يعد في مقدور نظامهم الصحراوي أن يواجه هذه الأعمال الجديدة غير المألوفة لهم إلّا بمساعدة أجنبية، وعون خارجي كان يأتيهم مطرداً متزايداً من البلاد العربية المتاخمة وغيرها من الأمم الإسلامية، لأن

الملك وطد النفس محقاً منذ البداية على أن لا يقبل في خدمته غير المسلمين من الأجانب. وكان لا بد من أن يؤخذ الجزء الأكبر من فيض طلاب الوظائف على أنهم أهل للثقة في ذلك الوقت. ولقد أبانت سرعة تنسيقهم في كادر إداري عن الفوضى بعينها، بينما تطلب الواقع إبعاد الضعفاء غير ذوي الكفايات والطفيليين منذ وقت طويل، الأمر الذي لم يتم إلّا بعد أن عانت مصالح البلد وسمعة الحكم الوهابي خسارة كبيرة.

ولكن كان من بين هؤلاء عدد كاف من الرجال الأكفاء حقاً، وكان من المستطاع أن تقوم منهم بمرور الزمن حكومة قوية ذات كفاية لتشرف وتدير المصالح الإدارية المختلفة في الدول. وإنها لحقيقة ملحوظة تستأهل التام لأن الوزراء وكبار الموظفين اليوم قد قاموا عمليًّا على المصالح التي تحت إدارتهم الآن منذ مدة تبلغ ربع قرن متمتعين بكامل ثقة الملك وصداقته الشخصية؛ يستثنى من هذا أنهم لم يضطلعوا بأية مسؤوليات في الناحية التنفيذية وهذا في الغالب هو خطأ الملك نفسه: إنه أوتوقراطي بطبيعته، والحرص والوعي لمسؤولياته الخاصة في توجيه شعبه توجيهاً صحيحاً، ولهذا فإنه لم يستطع أبداً أن يحيلها إلى غيره حتى في الصغائر والشؤون قليلة الاعتبار، مثل وصول ضيف أو إصلاح سيارة أو حالة مرض عارضة في الأسرة وغيرها من الحوادث البسيطة؛ إن مثل هذه الأمور الصغيرة تسترعي انتباهه على قدم المساواة مع أكثر مشاكل الدولة أهمية وخطراً! إن هذه المقدرة الغريبة على الاشتغال بالتفاصيل وصغير الأمور لا يمكن تفسيرها في اعتقادي، إلّا بالواقع في أن ابن سعود لا ينقطع عن التفكير: وهذا لا شك طابع عقل من الطراز الأول يميز صاحبه عن متوسطي العقول من الناس الذي يقنعون من العيش، رغم فرص التعليم السهلة المتاحة لهم، بأن يضربوا كالماشية في المسالك التي كشف عنها زعماؤهم. أما ابن سعود، وقد ارتفع

درجات فوق قطيع العامة من مواطنيه وأتباعهم، فقد كان لديه دائماً مزيد من الوقت للتفكير والتأمل؛ فهو وحده الذي يقوم بواجب الحديث في المناسبات العامة والخاصة إلى قوم صامتين كثيراً ما كانوا لا ينصتون إلى حكيم كلماته أو لا يسمعونها ولكنهم كانوا دائماً على استعداد لتأييد رأيه؛ ولا تعوزهم عبارات الموافقة والاستحسان، إذا ما أراد الملك أن يعرف أراءهم في حديثه أو ملاحظاته. وفي مثل هذه المناسبات كانت تسود فترة صمت لا يقطعها صوت أحد هؤلاء الحاضرين؛ وما لم تأخذ الملك سنة من الكرى كما يحلو له أن يفعل في السنين الأخيرة، فإن التفكير يعود فيسيطر على عقله ممهداً السبيل لجولة أخرى من «الحديث» وفضلاً عن القراءات المسائية التي يصغي أثناءها جلالته لقطع يختارها أمام القصر في الدين والتفسير والتاريخ، وعما يصغي إليه من الأخبار اليومية التي يختارها مستشارون من بين ما تذيعه محطات الراديو في العالم كل يوم، فإن جلالته يقصر المطالعة على كتب الأمثال والحكم والمواعظ الدينية، وهي التي تعينه على قضاء فترة الوحدة التي تفصل بين نومه القصير في الليل وبين الفجر عندما يتبع صلاته بفترة يقضيها في الابتهال والدعاء، تتلوها فترة أخرى قصيرة يقضيها في النوم. ومن المهم في هذا الصدد أن نسجل بصفة خاصة ظهوره في سنة يوبيله الذهبي ذاتها، وغالباً للمرة الأولى في حياته، كمؤلف لمجموعة من التأملات الدينية (وردْ،عقد الورد) وتفسير مقاطع وآيات من القرآن ذات أهمية خاصة، اتبعها بمختارات من مجموعاته المفضلة وابتهالاته. وقد قامت بنشر هذا السفر مطبعة الحكومة بمكة، وأنه وإن كان لا يكاد يختلف عن أمثاله، إلّا أنه يهدي من يبحث في تاريخ حياة المؤلف ونهجه بلمحات من المبادئ الأساسية التي حرص دائماً على أن يوجه بهديها أعماله في سبيل الله وطاعته وخدمة بلده ورعيته.

ولكن «**الأعور العجوز**» - كما كان يسميه أصدقاؤه القدماء من البدو بلهجتهم الخشنة مداعبة ومحبة، كما سمعته مراراً - له عين عمياء في عقله وفي رأسه: ولكل منهما نفس الأثر الغامض المحير على الجموع التي يحكمها. والبصر السليم نفاذ في الحالتين كالمجهر والتليسكوب، ولكن كما لا يستطيع الإنسان أبداً في النطاق المادي أن يتبين على وجه التأكيد التام طريقه إذا ما ألقى بملاحظة أو سؤال قد يتطلب جواباً، فإنه كذلك قد لا يتيسر له في النطاق العقلي دائماً وبسهولة أن يكشف عن الزاوية التي يحاول منها تذليل بعض مشاكل الساعة؛ فقد يلقي سؤالاً لمجرد الحصول على معلومات عن الموضوع، أو من الناحية الأخرى فقد يكون نفسه على علم بالجواب، ولا يقصد بسؤاله إلّا مجرد اختيار رأي من يسأله. وعندئذ يتوقف الأمر كثيراً على ما إذا كان فوق أرضه المألوفة وملعبه المعتاد حيث يستطيع أن يقهر أي لاعب في سهولة وتمام الثقة، أو هو يلعب على أرض غير ممهدة في عالم غريب، تكثر فيها المزالق عند الهدف الذي عليه أن يدافع عنه ضد كل هجوم يقوم به عدو متشبث عنيد.

وكان من حسن حظه أن وجد، عند النقطة التي واجهه فيها أقسى اختبار لكفايته وقدرته، زميلاً استطاع أن يعتمد عليه في صد لاعب ماهر جديد واكتفى نفسه بالمحافظة على هدفه. لقد كان عبدالله السليمان[١] هو المستثنى الوحيد من القاعدة العامة وهي نقص الكفاية الإدارية والتنفيذية بين جميع كبار الموظفين في الحكومة الوهابية خلال ربع القرن الماضي، الأمر الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق، وهو الذي اشتهر منذ إحدى وعشرين سنة كوزير للمالية وخلف للشريف شرف رضا، وما زال محتفظاً بمركزه هذا حتى اليوم؛ وربما كان في استطاعته كمواطن نجا أن ينسجم ويأتلف أكثر من غيره من موظفي الحكومة الأجانب، ومع النظام الفردي

(١) انظر صحيفة ١٣١.

الذي أدى لبلاده خدمات جليلة في أوقات الضيق وعجاف الأيام، وان يضع عليه تدريجاً القيود والإشراف التي يستلزمها النمو السريع المطرد في دخل البلاد نتيجة لفتح الحجاز. وكان لا بد أن تساير النفقات الدخل الآخذ في الزيادة، ولكن كثيراً ما زادت المصروفات على الإيرادات بمعدل جعل من العسير موازنة الطرفين. وكثيراً ما وجد وزير المالية نفسه في مثل هذا المركز الحرج الذي يلزمه بإنتاج الخبز والسمك بواسطة أفران وبحار لا وجود لهما. كان عليه في مثل هذه الظروف أن يستخدم الحيل والخداع، التي كثيراً ما عرضت الحكومة لنقد شديد صريح. وقد أدى تأجيل دفع مرتبات صغار الموظفين إلى شر أنواع الفوضى التي أخذ يتسع نطاقها بامتداد أصيل أسبابها وكذلك أدى عدم دفع استحقاقات التجار في مواعيدها أو في أوقات قريبة منها إلى فقدان الثقة في الحكومة وعدم البيع الآجل لها؛ كما أن عجز الحكومة عن الوفاء بالتزاماتها التعاقدية أغلق الباب دون إجراء أعمال إنشائية جديدة. وفضلَا عن هذا فإنه عجز في الوقت نفسه عن أن يحد من إسراف القصر وغيره من المصالح الحكومية بما فيها المصلحة التي يقوم عليها، وعندما أرغمته الظروف على إعلان وقف الدفع (الموراتوريم) بالنسبة لجميع ديون الحكومة في سنة ١٩٣٣، كان من البديهي أن تصبح كفاية الحكم الوهابي وأمانته، إن لم تكن إمكانيات بقائه، موضعاً للتساؤل وعرضة للشك والريبة. ولقد كانت سمعة هذا الحكم في منتصف السنين الثلاثين قد انحطت إلى درك أسفل في نظر العالم وكان الأمل الوحيد في الخلاص معلقاً على ما يبدو من احتمال وجود البترول والذهب في بلاد العرب وفي ظل الامتيازات التي منحت سنة ١٩٣٣: وقوبل امتياز البترول بمزيد من الارتياح والترحيب، وحصلت الحكومة على مبلغ خمسين ألف جنيه مقدماً على حساب حصتها في المستقبل، إن أمكن الكشف عن موارد الزيت.

وحقيقة، كما سبق القول، سرعان ما اكتشف البترول بكميات تجارية في الأحساء، بينما كشف عن منجم للذهب صالح للاستغلال بمهد الذهب في منتصف الطريق بين مكة والمدينة. وبدأ إنتاج البترول في سنة ١٩٣٨، وكان قائماً قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية بمعدل ثلاثين ألف برميل في اليوم، وهو ما استقر الاستمرار عليه وفقاً للسياسة الحربية للدول المتحالفة، الأمر الذي كان بمثابة ضربة قاسية لأماني بلاد العرب الناضجة، التي انخفضت مواردها مرة أخرى بدخول ايطاليا الحرب في سنة ١٩٤٠ وما انطوى عليه من توقف الحجيج توقفاً تاماً فيما وراء البحار. وبدأ الموقف وقد تقطع فيه الرجاء رغم رغبة شركة البترول في تمويل المشروعات الضرورية في البلاد بضمان حصصها المستقبلة من إنتاج البترول. ولكن لم تلبث الحكومتان البريطانية والأميركية أن تقدمتا بمساعدة سخية كريمة كان الجواب عليها من جانب العرب مرة أخرى هو الإمعان في الإسراف وسوء الإدارة مصحوبتين بزيادة الفوضى والاضطراب على نطاق واسع بين الجهات العليا.

والظاهر أن العودة إلى إنتاج البترول سنة ١٩٤٤ كان نقطة تحول التيار بما يكفل صالح بلاد العرب التي تهيأت لأن تصبح إحدى البلاد الرئيسة في إنتاج البترول، وأخذت حصتها من إنتاجه تزداد بنسبة مطردة كبيرة حتى بلغت (٢٥) مليون جنيه سنويًّا في تموز/ يوليو سنة ١٩٥٠ ومع هذا فقد قامت أزمة مالية خطيرة في ديسمبر الماضي انطوت على توقف الدفع بصفة رسمية بالنسبة لديون الحكومة وتأجيل عدد من مشروعات التنمية الهامة، وذلك لأسباب قامت في نفس الوقت من جراء تنفيذها دفعة واحدة دون ما رعاية أو تقدير للطاقة المالية في البلاد والواقع أن الخزينة خلت فعلاً من النقود في لحظة معينة! وكان من سوء المصادفة

أن اختار الملك هذه اللحظة بالذات ليطلب مبلغاً كبيراً نقداً نفقات لاثنتي عشرة حفلة عرس في الأسرة المالكة. ولا بد أن كان وزير المالية جد قريب من إعفائه من منصبه عندما أخبر الملك بعدم قدرته على تلبية رغباته، بينما أعفي نائبه فعلاً من منصبه. وكان البترول هو عامل النجاة، وأصبحت أنصبة الحكومة منه تأتي بمعدل خيالي كان لا شك يكفي ليؤمن للدولة الاستقرار الاقتصادي، بعد سداد مبالغ دفعت مقدماً، ولكن هذا بشرط أن يعمل الملك وحكومته على أن يحيكوا أرديتهم بقدر القماش الذي يملكونه! هذه هي المسألة الهامة! ولكن لم يوجد حتى الآن ما قد يوحي بأنها ستحل بطريقة صحيحة مستقرة.

وكان الكلام يكثر أحياناً عن الادخار والحد من الإنفاق، وفي الوقت نفسه يقل الميل إلى تحقيق هذه الفضائل. وفي سنة ١٩٤٧ أجريت التجربة الوحيدة لكي تسير الحكومة على هدى ميزانية موضوعة معلومة، ولكنها باءت بفشل ذريع بحيث لم تبذل محاولة أخرى تدعو الناس إلى الثقة بالحكومة[١]. ونذكر في هذه السنة المناسبة، لكي نعطي وزير المالية حقه كاملاً، أنه عرض في صراحة أن يخفض الاعتمادات المالية لبعض أبواب المصروفات مثل الإكراميات الحكومية، والمحافل الدينية والروحانية، وأعمال البر والإحسان الرسمية وغيرها؛ ولكن الملك لم يسمح بشيء من هذا متمسكاً بأن تقاليد الكرم والبر العربية ميراث غالٍ فلا يجوز أن يعطلها أو يضعف منها شيء بأية حال، كما أن الوعاظ ورجال الدين قدموا للبلاد من الخير والنفع ما يربي على ما قدمت كل مصالح الحكومة مجتمعة، إذ يعملون على تغذية الرفاهية الروحية للشعب ورفع قواه المعنوية. وهكذا كان باب التعليم هو الذي تحمل في النهاية العبء

(١) أعلن عن تقديرات الميزانية سنة ١٩٥١ بحيث تعادلت الإيرادات والمصروفات عند ٤٩ مليون جنيه استرليني في مقابل ٢١,٥ مليون سنة ١٩٤٧.

الأكبر في موازنة الميزانية، بينما تعرضت بعض المصالح الأخرى لنقص صغير في اعتماداتها، الأمر الذي لم يكن ذا أهمية كبيرة إذ تقرر أن تشرف مصلحة المالية وحدها على الميزانية وتطبيقها، ما عدا المخصصات الملكية التي لا تمس، ثم الغزوات التي تأتي مفاجئة من هذه الناحية على موارد الدولة. وكان في استطاعة مصلحة المالية دائماً أن تمسك عن صرف الاعتمادات المقررة في الميزانية لأية مصلحة كما كانت عادة تتوقف عن صرف مرتبات صغار الموظفين لفترات تتراوح بين ثمانية شهور (في أسوأ الأحوال) وأربعة شهور (في أحسن الأحوال).

لا شك في أن هذا العرض الوجيز للوسائل الارتجالية المضطربة التي قام عليها النظام المالي في البلاد خلال العشرين سنة الماضية، يحتم وجود بعض وجوه الخلاف الأساسية بين النظرة العربية إلى مثل هذه الأمور، وبين ما تقضي به النظم المتبعة في الدول الغربية التي انحسرت عنها التجارب الطويلة، بل وفي غير هذه من البلاد التي درجت على الأفكار والمبادئ الغربية خلال فترات طويلة من الحكم الأجنبي. إن بلاد العرب هي في أصلها بلاد ديموقراطية تقوم على ملكية الدولة وإشرافها كشيء طبيعي بديهي، كما هي الحال في الهند حيث أنشأت ووطدت الحكومات البريطانية من المحافظين والأحرار نظاماً اشتراكيًّا صحيحاً لفترة طويلة قبل أن يكون للاشتراكية أو لحزب العمال ذكر في بريطانيا. ولكن ملك العرب قد يقول كما قال ملوك الهند من قبل: الدولة أنا، أو الدولة ملكي؛ وفي الحالتين لم تكن الحكومة خادم الشعب ولكن خادم الحاكم المطلق: الذي كان تخويل استخدام أية سلطة معلقاً من إرادته الخاصة!.

والواقع أن بلاد العرب لم تعرف أي تفويض أو إنابة في السلطة، باستثناء وزير المالية. وحتى ولي العهد وحاكم الحجاز، فكلاهما يقوم

بوظيفة نائب الملك أثناء غيابه عن هذه المناطق، فهما يعملان نيابة عنه ويعرضان عليه كل مسائل الساعة التي تعنى كل شيء يتصل بمواضيع نمطية بحتة. وهكذا لا تكاد تختلف سلطة الوزراء والمستشارين وغيرهم من كبار الموظفين والقواد عن مثيلتها من مختلف وظائف السكرتيرية في الحكومات الأوروبية: يعرضون مختلف الحالات على الملك ويتلقون أوامره التي قد يعهد إليهم أحياناً بالإشراف على تنفيذها، وخاصة في الخارج عندما يكون مشتركاً في مؤتمرات أو محافل دولية. ولا يتاح لهم شيء من حرية التصرف إلّا في مثل هذه البعثات الخارجية، ولو أنهم يتلقون عن معظمها أوامر تفصيلية بحيث لا يستطيعون أكثر من إعادة النظر في النقط التي يكون لغيرهم من أعضاء المؤتمر حيالها وجهات نظر تخالف آراء الرياض. وهذا ما يحدث كثيراً في جامعة الدول العربية إذ ترسل الدول العربية الأخرى لحضور اجتماعاتها الوزراء مزودين بسلطات واسعة، بينما لا تكاد تكون لمندوب المملكة العربية السعودية سلطة تزيد كثيراً على واجب المراقبة: وأوامر بأن يصوت مع الأغلبية إذا أمكن؛ أما في حالة نشوب خلاف بسيط فعليه أن يصوت ضد الكتلة الهاشمية. وكان لا معدى أن يؤدي هذا إلى ضعف عوامل الابتكار وحسن التصرف وفقدان الزعامة التي ربما كانت من نصيب المملكة العربية السعودية في العالم العربي نظراً للزيادة السريعة في أهميتها الاقتصادية، ولما يتمتع به ملكها من نفوذ قوي وشخصية بارزة هذا ولا احد ينكر أن هؤلاء الوزراء والموظفين قد جهدوا وجدوا في انجاز واجباتهم بدقة وكفاية في نطاق القيود التي فرضتها عليهم الظروف؛ ولكن واحداً منهم لم يستطع أن يعلو فوق هذه الظروف ليهب بلاده السبق والتقدم اللذين تلح حاجتها إليهما. وإذا عرفنا أنهم كانوا جميعاً *منذ ربع قرن فقراء لا يملكون غير عقولهم، وإنهم الآن جميعاً أغنياء بعد*

سنين نعموا فيها بكرم الملك وجوده، فلا يمكن عندئذ أن يكون نهجهم في أعمالهم إلّا مخيباً للرجاء. ومن المشهور المعروف أن استقالة واحدة لم تقدم طوال هذه الفترة كدلالة على عدم الموافقة أو الاحتجاج على أية سياسة أو تصرف.

وعلى عكس هذا فقد برز عبدالله السليمان منذ البداية بين زملائه كرجل ذي كفاية عالية وابتكار ومواهب للقيادة، وثقة كبيرة في سلامة آرائه وقدرته على ترجمتها إلى أعمال وحقائق. وهو بطبيعته رجل نحيف قصير لا نعرف عمره على وجه التحقيق، ولكن نفسه تنطوي على شيء من النفحات النبوية المباركة، وكما إنه موهوب بفضل من الذكاء الفطري الذي تبين عنه الصحراء. هكذا بدأ عمله كوزير للمالية بالوسيلة والأساليب التي ولدت منذ أكثر من عشرين سنة، وأخذ يتسلم مدارج القوة والجاه: مركزاً قوة ملاحظته وإدراكه على المشاكل التي تواجهه كأنه ملاكم في الحلبة، ومخاطراً عند عارض تجهم الخطر في تصميم خيالي لكي يكسب خلال هذه اللحظات. ويبدي هذا الرجل العظيم في حضرة جلالته من الاحترام ما يبين عن عميق الخضوع والولاء، فيجلس على الأرض بينما يتربع غيره ممن هم أقل منه مكانة ومقاماً فوق الكراسي والمقاعد المزخرفة، كما يبدو أبداً وكأنه بمعزل عن الاجتماعات كالممثل «كوكلين» لا يأبه بحشد النظارة؛ إن هذا الرجل القوي الصموت يدخر قوته للمناسبات الكبيرة، التي لا تعرض عادة بالنسبة له إلّا في أخص المشاورات التي تجري بينه وبين سيده. وأخيراً تفضل الملك نفسه فعبّر عن هذه الحقيقة في خير ما قل ودل، عندما كان جلالته مشتغلاً بدراسة بعض المسائل من الناحية القانونية، وطلب فجأة معاونة من عبدالله السليمان الذي كان جالساً على مسافة قريبة من الملك، والذي يتمتع بميزة حقيقية أو مصطنعة من ثقل السمع، وأجاب عبدالله على حديث

الملك كما لو كان يفيق من حلم قائلاً: «إنني لم أسمع!» فردّ عليه الملك قائلاً: «لا! إن ابن السليمان لا يصغي إلى أحد؛ ولكن على كل إنسان أن يصغي إلى ابن السليمان!».

إن عبارات المزح قد تنطوي على كثير من الصدق والحقيقة! لقد كشف عبدالله السليمان حقيقة ومنذ البداية عما يتمتع به جلالة الملك من كفاية عقلية متشعبة، وكرس نفسه لتنفيذ إرادتها من ناحيتها التي يجب أن تعالج - دون أن تعد لذلك - المشاكل الجديدة المعقدة في العالم الحديث وبصرف النظر عن أشياء كالتدرج في إصدار العملة السعودية وتداولها في كل المملكة، وهو ما تم لا شك في النهاية، وإنشاء فروع في جميع المديريات لجمع الضرائب وغيرها من الإدارات الحكومية، فضلاً عن الإشراف على إنفاقها، فإنه بالغ في مقاومته أي إغراء بالتدخل في شؤون الحكم في نجد، وقنع بتدوين مبالغ مجملة للاعتمادات التي يحتاجها الملك ومختلف حكام الأقاليم الذين معظمهم من الأسرة المالكة، لكي يتصرفوا فيها وفق ما يتراءى لهم وبدون أي التزام بتقديم حسابات عن وجوه إنفاق هذه الاعتمادات. وبقدر ما كان تواقاً لأن يرد هذه الأمور المضطربة إلى نوع من القواعد والنظام، بقدر ما تحقق له أن أية محاولة كهذه في ظل الظروف السائدة، سوف تبوء، لا بالفشل فحسب، بل وسوف تهدد جديًّا حريته في أن يشكل النظم في الأقاليم «المتقدمة» وفق برنامجه ونماذجه. ولهذا ركز اهتمامه في المناطق التي في متناول يده. أما وقد كان يتمتع بكامل ثقة الملك في ولائه وفي قدرته على أن يحول نظم الحكم في الحجاز وفي مناطق البترول في الشرق إلى نظم وأسس ترضي العناصر الأوروبية وتجعل البلاد أهلاً للحصول من الغرب على القروض وغيرها من عون مالي في أوقات الحاجة؛ أما وقد ظفر بكل هذا فسرعان ما أصبح صاحب النفوذ، غير منازع، على جميع فروع

الحكومة، وكان هو المتصرف فعلاً في مصير البلاد، وابتسم له الحظ ابتسامة عريضة. ولقد ظفر بعاطر الثناء لجهوده وحذقه خلال سنين الحرب الطاحنة، في جلب المنح والمساعدات من بريطانيا وأميركا تدعيماً لسلطته وإبقائه على رضا الملك وولاء البلاد لقضية الحلفاء. ومنذ هذه الفترة أخذ التوسع المطرد في استغلال موارد البترول في البلاد يفي على خزانة الدولة تياراً متزايداً من الذهب.

ولم تكن هناك حاجة إلّا إلى شيء من الإمساك وكبح الجماح ومن الإدارة الحازمة البصيرة لكي تصبح البلاد في مأمن من الحاجة والفقر، ولكي ترتفع إلى مستوى مستقر عال من الرفاهية. ولكن الأثرياء كانوا يأتون من ضروب الإسراف الفاحش ما لم تعهد بلاد العرب من قبل قط، الأمر الذي يجب أن يشاطر عبدالله السليمان الملك حمل تبعته ومسؤوليته. إن السفن التي أبحرت إلى مصر والهند خلال الحرب وعلى أثر دفع الإعانة البريطانية، ثم عادت محملة بكل نفائس إفريقيا والهند من التوابل والعطور، والحرير والديباج، واللآلئ والياقوت والذهب، وغيرها من ثمين الساعات التي تنكرها الشعوب الورعة المقاتلة، هذه الأشياء قد رجعت بالذكرى إلى تلك الأيام البعيدة في عهد حتشبسوت وسليمان. ولقد قوبلت الاحتجاجات البريطانية على هذا الإسراف الطائش رغم أنها لم تستهدف إلّا صالح بلاد العرب، بابتسامات الملك الدالة على رضا جلالته عن مثل هذا التصرف؛ وكان هذا في الواقع هو خاتمة الحادث إن تقاليد بلاد العرب لا تقضي بأن يسأل صاحب الهدية المهدى إليه عما يفعل بها!.

لقد مكن البترول للمملكة العربية السعودية من الانغماس في الإسراف على حساب مواردها الخاصة، ولقد فعلت هذا على نطاق كبير حقا: ابتدأت ببعثة من اثني عشر أميراً ذهبت إلى الدنيا الجديدة لتساهم في

الاحتفال بافتتاح هيئة الأمم المتحدة، ولتبحث في الولايات المتحدة عن السيارات وغيرها مما يزيد من متعة الحياة. وقد تتابعت مثل هذه البعثات، فكانت إحداها برئاسة ولي العهد وأخرى برئاسة عبدالله السليمان نفسه؛ وعادت كل منهما حاملة إلى المملكة العربية السعودية أحسن الآثار وأهم التذكار بعد غزوها لأغنى بلاد العالم طراً والتي من بين عجائبها، كما ذكر أحد رؤوساء هذه البعثات، بل لعله أعجب هذه العجائب، ناد ليلي في غواصة جدرانها من الزجاج بحيث تبيح للأسماك المحيطة بها رؤية الراقصين! وجاء مع السيارات الأميركية وغيرها من منتجات الصناعة، بما فيها آلات التصوير والخيالة ومكيفات الهواء وأدوات اللهو واللعب، كثير من الميول والآراء الأميركية حتى تذوق وإساغة الطعام الأميركي. وقد حضرت بعضاً من ولائم الطعام الطازج في حديقة قصر ولي العهد بالرياض، حيث أحضر كل لون من الطعام طازجاً في المبردات من أميركا؛ كما أن بعض قصور الأمراء مزودة بملاعب التنس وكرة السلة ومستلزماتها، فضلاً عن حمامات السباحة، وملاعب كرة القدم أحياناً. أما الصيد، فيما عدا الصيد بالسيارات، والسباق (في بلد لا يعرف الرهان ويحرمه) وركوب الخيل، فضلاً عن ركوب الجمال، فقد اندثرت اليوم في بلاد اشتهرت بها جميعاً من قبل. لقد علمتها أمريكا حقيقةً كيف يجب أن يعيش الأغنياء في دعة ومتعة! ووعى تلاميذها هذا الدرس جيداً!.

هكذا تتبارى زيادة الطلب على كماليات الحياة مع الزيادة المطردة في الدخل الأهلي؛ وكثيراً ما اضطر وزير المالية لأن يستحث قصارى كفايته وقوة ابتكاره لكي يواجه هذه الالتزامات. ولكن لا يصح أن يتبادر إلى الذهن بأنه يميل بطبعه إلى التقشف وخشونة العيش. إنه يؤمن بالإنفاق وهو نفسه ينفق عن سعة، ولكنه يفضل أن يكون الإنفاق تحت إشرافه

وليس عن طريق المصادفة وحيثما اتفق كما يفعل القصر دائماً وأينما كان: في الرياض أو مكة أو الطائف أو في إحدى معسكرات الصحراء. إن هذا الخادم الجالس بادي الخضوع عند إقدام الملك في الجمعية الكبرى، يستطيع أن يتحول في طرفة عين خارج جدران القصر إلى دوره الحقيقي كحاكم مطلق «ديكتاتور». إنه يتجول في البلاد كالأمراء يحف به حرس خاص في موكب مكون من احدث طراز السيارات؛ إنه يعقد اجتماعات من طراز ملكي في قصره بمكة أو في «الأكواخ» مجهزة البناء الملحقة بمقره الرسمي في جدة والمزودة بأغلى آلات تكييف الهواء، وحيث يتعذر لدرجة كبيرة على الشعب أن يراه أو يقابله، على نقيض ما يصنع الملك! إن الذين يلتمسون مقابلته كثيرون، وكلهم من رجال الأعمال ويسعدهم أن يمنحهم من وقته الثمين الدقائق القليلة اللازمة لتصريف أعمالهم، بينما يحتشد غيرهم في غرف الانتظار وفي الردهات منتظرين مقابلة خاصة للحديث في مثل هذه الشؤون. إن نشاطه ليس له حدود، ولكن رغم هذا لم يكن في مقدوره أن يحمل وحده ثقيل عبء الأعمال والمسؤوليات الذي ألقي به على عاتقه، ولهذا فإنه جمع حول نفسه هيئة كبيرة من كاتمي السر، الأكفاء حقيقة في معظمهم، ليعاونوه على أداء واجباته، وجلهم من أعضاء أسرته، ومنهم تتكون الإدارة المالية - وكثير من هؤلاء يتمتعون بكفاية من الطراز الأول تؤهلهم أحياناً للنيابة عن الوزير الذي كثيراً ما يعهد إليهم بمفاوضات مهمة يقومون بها حتى الحد الذي يستلزم تدخله شخصيًّا. ولا حاجة للقول بأن معظمهم، كبقية زملائهم في المحيط الملكي، من الأثرياء الذين ظفروا بالثروة في وقاية من دروع الوظائف الكبيرة.

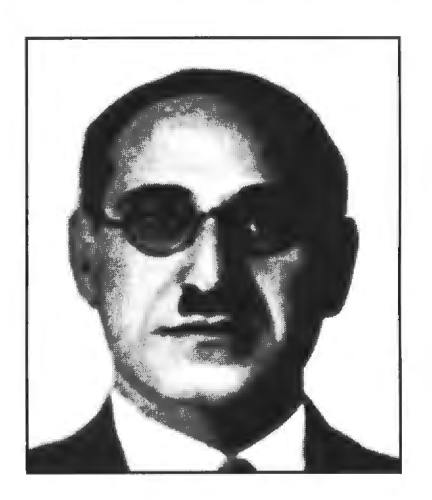
هذان هما المصدران المهمان للحكم السعودي، بحيث يكاد يتوافر التوازن بين الرياض وجدة: مع ميل وئيد غير ملحوظ لتحول السلطة التنفيذية والمسؤولية عن المصدر الأول إلى الثاني كلما ازداد تشابك

وتعقد فروع الحكم الحديث نتيجة للزيادة المستمرة في الدخل التي تيسر قيام المشروعات الصناعية الكبيرة. إنه من الممكن في الغالب أن نؤرخ بالضبط ابتداء عملية التحول هذه. كانت الرياض حتى منتصف سنة ١٩٣٩ تقريباً هي مركز الثقل قطعاً، بينما لم يمنح وزير المالية أصلاً هذه السلطة الواسعة في تصريف شؤون الحكم إلّا لكي يستخدمها أولاً في تغطية مطالب القصر باعتبارها صاحبة الأولوية، ثم ليوزع ما يبقى من الأرصدة بعد ذلك على مختلف المصالح الحكومية بحيث يتحقق أكبر نفع مستطاع في ظل الظروف القائمة. وكان الملك نفسه خلال هذه الفترة هو الرأس العامل المدبر للحكم؛ فهو الذي يرأس جميع جلسات المجلس الخاص لمناقشة كل الشؤون المهمة، ثم يملي القرارات التي «يتفق عليها». وكان أحياناً يجلس منكس الرأس أو مستسلماً لسنة من النعاس أثناء تلاوة الوثائق الطويلة المملة مثل وثيقة امتياز البترول أو اتفاقية احتكار المحركات، أو عقد شركة ماركوني وغيرها، ولكنه كان عموماً على معرفة كافية بمحتوياتها، كما كان يسأل أحياناً بعد الانتهاء من القراءة عما إذا كان هناك تعليق أو انتقاد قبل أن يبارك الأهداف والوسائل التي تتضمنها. وكان النصيب الأوفر من العمل في مثل هذه الأحوال يقع على عاتق وزير المالية أو على اللجان المختصة التي كان يشترك فيها مع غيره من الوزراء أو الموظفين الذين يعينهم الملك. ولكن كان لا بد من أن تجتاز اقتراحات هذه اللجان نطاق النقد الشديد الذي تتعرض له في المجلس الخاص برئاسة الملك الذي كان في مقدوره دائماً أن يحولها إلى الاتجاه الذي يتراءى له إذا ما تبين أن النقد سليم الأساس. ومن ثم أخذت تواجهه المشاكل الجديدة تدريجيًّا؛ وإنه وإن ترك علاجها والتصرف فيها لأبرز الكفايات بين من يصلحون للقيام بهذا الواجب، إلّا أن هذا لم يكن دلالة على قصور في كفايته عن أن يدرك أهميتها ويمسك بنواصيها؛ وعليه فقد بقيت السيطرة وحق توجيه الأمور في يديه.

ولكن التحول طرأ في غضون سنيّ الحرب! إن ابن سعود لم يجعل من عطفه الكبير على قضية الحلفاء سراً يخفيه على أحد، ولكنه عارض في قوة كل محاولة للزج ببلاده في حرب لا نعنيها في شيء. لقد أعلن حياد بلاده ولزم مقتضيات هذا الحياد بكل دقة، كما يتضح من حادث البحارة الايطاليين الذين اضطروا إلى الالتجاء إلى شواطئه فنقلوا إلى الطائف حيث نعموا بكل ما يبيح هذا البلد من كرم ولين عيش دون أن تصل إليهم أيدي البريطانيين. ولكنه في الوقت نفسه انحرف قليلاً فلم يسمح للوزير الألماني، الذي كان في إجازة خارج بلاد العرب عند نشوب الحرب، بالعود إلى جدة تجنباً لكل المضايقات والمجرحات التي كان من المتوقع أن تحدث في الأحياء الضيقة من هذه المدينة، كما إنه اتخذ بعد ذلك وتوخياً للغرض ذاته، إجراءات مناسبة لإقامة الوزير الايطالي وجاليته في إحدى الجزر المعدة للحجر الصحي في الميناء. وقد حرص على أن لا يتحول أي جزء من بلاده إلى ميدان لمعارك الدعاية، لدرجة أن هذه النشرات التي كانت ترسلها السلطات البريطانية لحكومته بين وقت وآخر، كانت تتخذ سبيلها في تكتم وحذر إلى خزائن الأضابير، لتستعمل بعد ذلك كمجرد ورق لمسودات الأخبار التي كان يلتقطها عمال اللاسلكي من إذاعات الأنباء العسكرية المختلفة لتعرض على جلالته. وبينما كان دائماً وفي نفس الوقت على استعداد لاستقبال الأميركيين والبريطانيين وغيرهم في الرياض، فإنه كان يحاول أن يتجنب استقبال احد في الحجاز إلّا للشؤون الملحة التي لا معدى عنها، تفادياً للوقوع في مشاكل سياسات الحرب التي كان يتابع تطوراتها في جد وحرص عن طريق محطات الإذاعة في عاصمته الآمنة البعيدة في الصحراء. أما وقد امتدت الحرب وأصبح التذرع بالحرص والتبصر غير ملح كما كان، فإنه لم يخف رضاه عن تطورها وسيرها، فقبل الدعوة لمقابلة الرئيس روزفلت والمستر تشرشل في مصر، حيث قدمه تشرشل

إلى الرئيس بقوله «صديقنا المخلص في وقت الحاجة»، بينما استقبله الرئيس جالساً في مقعد المرض ومعتذراً عن عدم وقوفه مما أوحى إليه بأسلوب من الحياة في جلوس مستمر سرعان ما كان إغراؤه أقوى من أن يقاوم. إنه من الصعب أن نذكر بالضبط متى بدأ التهاب المفاصل، الذي أصيب به الملك نتيجة لجرح في ركبته في إحدى المعارك، يسبب له متاعب حقيقية؟ ربما كان يبدو دائماً في مشيته شيء من تصلب هذه الساق ولكن من المؤكد انه كان يشترك حتى منتصف السنين الثلاثين في رقصات الحرب النجدية أثناء الحفلات، كما كانت مشيته طبيعية حتى تموز/ يوليو سنة ١٩٤٠ عندما بارحت بلاد العرب، إذ كان يخرج إلى المعسكرات والصيد في الربيع وينعم بنزهات منتظمة في الصيف إلى أحد البساتين الكثيرة التي كانت آخذة في الانتشار عندئذ فوق الصحراء بجوار الرياض مباشرة. وعندما رجعت إلى الرياض عند انتهاء الحرب بعد مضي خمس سنين، وجدت عنده مقعداً للمرضى هدية من الرئيس روزفلت؛ أما جلوسه في هذا المقعد باستمرار، كما يفعل منذ فترة ليست بالقصيرة، فلم يكن إلّا مسألة وقت لا أكثر ولكن ملاطفة وجاذبية الرئيس والمستر تشرشل وإطراءهما إياه كانت أضعف من أن تزحزحه عن التمسك بحياده؛ أما فكرة إعلانه الحرب على ألمانيا فكانت المقابلة أقصر من أن تبيح مناقشتها بصفة جدية، إلّا أن الموضوع عرض عليه بعد ذلك بواسطة ممثلي بريطانيا وأميركا في جدة نظراً لاقتراح تكوين هيئة الأمم المتحدة، إذ كان إعلان الحرب على ألمانيا قبل ٣١ آذار/ مارس سنة ١٩٤٥ شرطاً أساسيًّا للقبول كعضو مؤسس في هذه الهيئة. إن الملك الذي رفض الاشتراك في عصبة الأمم طوال خمس وعشرين سنة دون أن يأسف لهذا القرار، كان كذلك راغباً عن الاشتراك في الهيئة الجديدة، رغم الضغط الكبير من جانب الدولتين الكبيرتين اللتين ظفر بمعونتهما طوال مدة الحرب لأن المسألة كانت مسألة مبدأ لا يستطيع التحول

عنه؛ ولهذا فإن المحاولة الأخيرة التي قامت بها بريطانيا في آخر لحظة لكي يعدل عن رأيه لقيت منه رفضاً رقيقاً وديًّا، إلّا أن الملك أسف لذلك بعد بضع دقائق فاسترجع السفير المجدود ليخبره بأنه، بعد هذا كله، سوف يعلن الحرب كدليل على تضامنه مع الأمم المحبة للسلام! ومن الناحية الأخرى فإنه لم يخف أبداً امتعاضه واشمئزازه من الأعمال التي حدثت في نيرنبرج إذ منع موظفي اللاسلكي أن يذكروا عنها شيئاً في حضرته. **وقد لقي السيد رشيد عالي الكيلاني، «مجرم الحرب» الذي قام بثورة مايو/ ايار ١٩٤١ في العراق، الوحيد الذي لجأ إلى جلالته غاية الكرم وأقام في كنفه ضيفاً عزيزاً عليه حتى اليوم.**



رشيد عالي الكيلاني

وكما يتضح مما سبق فإن ابن سعود كان حتى فترة هذه المحاولات هو رب البيت فعلاً، ولو انه فضل أن يقيم في الطابق الأعلى تاركاً تدبير شؤونه وقضاء حاجاته لمن يديرها ويقوم عليها. وقد كان التدخل عند خاتمة المطاف قليلاً في بلد قد جرد من كل موارد عيشه الطبيعية، بينما كانت حاجات القصر ومطالبه لا بد وان تغطى بأية وسيلة كانت ؛ ولهذا فقد كان

من الأفضل والأجدى أن توكل هذه المهمة إلى حذق وزير المالية وحسن تصرفه. وهكذا تدريجاً وببعض الوسائل البارعة المحكمة، استطاع عبدالله السليمان أن يبسط نفوذه على أداة الحكم كلها حتى اليوم. ولكن من المحقق أن شيئاً من الرقابة الفعالة قد توطد وثبت فعلاً منذ سنة ١٩٤٤ قبل إعادة فتح أنابيب البترول التي فاضت جنباتها بالذهب منذ ذلك اليوم حتى الآن.

ولكن بعد سنين الحرب هذه قد آزرت الملك ودفعته إلى الأمام خطوات بعيدة حتى لكان يرجو في أغوار نفسه منذ فترة طويلة أن تنشب حرب عالمية ثانية ربما أفاءت على بلاد العرب الخير والنجاح، كما أفاءت عليها الحرب العالمية الأولى! وكان يبدو عند بداية الحرب العالمية الثانية أن كل شيء يجري معوجاً وعلى غير ما يرام؛ وعند نهايتها كانت المملكة العربية السعودية قد انزلقت كثيراً في حبائل العالم الغربي: إلى حد وجود قاعدة حربية أميركية فوق أرضها تنشئ وتدير الميناء الجوي الحديث في الظهران. وكان هذا بمثابة تجربة حيوية أجراها القدر، وما زالت مستمرة بشكل فعال وإن كان أقل دفعاً وأخف وطأة. وفضلاً عن هذا فقد كانت في الطائف بعثة عسكرية أميركية تعمل على تحقيق رغبة المملكة العربية السعودية الفتية في أن يكون لها جنود مدربون على النهج الغربي. ولا شك في أن الاستغلال الأميركي لموارد البترول ومهندسي المباني من الأميركيين كانا يعملان غير وانين على تغيير هيكل الحياة العربية في كل مظاهره. وكان للحاجة الملحة إلى النقود، والى مزيد مضطرد منها، الاعتبار الأول الذي يتضاءل إلى جانبه أي اعتبار آخر. وكان على الملك، بأسرته الضخمة وضيوفه الذين لا عدد لهم من مختلف الأقاليم التي يحكمها، أن ينهج نهجاً جد مختلف عن طراز التقاليد العربية التي آمن بها إيماناً قويًّا. إنهما شيئان متناقضان لا وجود لأحدهما إلّا في غيبة الآخر؛ ولكن ابن سعود كان قد انطلق في سبيل التقاليد مسافة أطول من

أن تبيح له النكوص. وكان يبدو في هذا الوقت كأنما يعاني كثيراً من هذا الوضع! وعلى أية حال فقد كان عندما غادرت في سنة ١٩٤٠ لأقضي فترة طويلة في انكلترا، لامعاً نضراً سمحاً قويًّا كما كان في أي وقت من حياته السابقة، حاملاً مهام الدولة ومسؤوليات الحكم الخطيرة الثقيلة في حزم ونشاط كانا دائماً أبرز مميزات شخصيته في السراء والضراء على حد سواء. وبعد سنين خمس وهي جلده من الاضطلاع بحمل مسؤوليات الحكم وأنكته أعباء حياة عظيمة عنيفة: كان مستسلماً لشلل ركبته وغيره من أثار غير العدو الكبير التي لا تستطيع الأصباغ أن تخفيها مهما كانت متقنة بارعة. إنه كان يجتاز مرحلة ضعف المقاومة ووهن العزيمة في غابة مظلمة من عالم لم يره أبداً ولم يعرفه إلّا عن طريق السمع وحده، ولو انه حتى الآن قابل كثيراً من أهله، وسوف يقابل أكثر منهم في السنين القادمة بجذبهم إلى صحرائه ما ذاع حديثاً عن ثرائها الخيالي وشوق إلى رؤية الرجل الذي عمر قفر الصحراء وروض ضراوة أهلها، وجعلها إحدى جنان الأمن والسلم النادرة في عالمنا المضطرب المحفوف بالمخاطر. ولكن لسوء الحظ إنهم لم يظفروا برؤيته كما كان في أحسن أيامه وإبان فتوته. إن الصوت القوي القديم قد ضعف وبح حتى لكأنه تمتمة رجل مغمور قد ارتج عليه القول؛ وأصبح العقل الرتيب سريع القطع متردداً ضعيفاً في كفاحه ضد مشكلات عالم غريب؛ وحتى الروح الذي كان يشتعل بين جوانحه أيام الثقة والاقتناع والغزو والفتح فإنه يبدو الآن وكأنما غلبته الشكوك وفقد شيئاً من حرارته التي كانت تلهمه التفاني في سبيل عقيدته وقضيته اللتين انتصرتا تحت قيادته وفي ظل رعايته، واللتين انتابهما التراخي منذ أخذت نسائم الغرب تلطف من حرارة حماسه الشخصي.

ولكن النار ما زالت كامنة تحت السطح، قد خبت ولكنها لم تنطفئ! وليس على الإنسان، لكي يعرف هذه الحقيقة، إلّا أن يحضر اجتماع

الملك ببعض مندوبي البدو، أو يشهده في مؤتمر ديني بين القضاة والعملاء؛ فعندما يكون جو هذه المناسبة عاديًّا، فانك ترى البلاغة القديمة تنبجس من خلال الكبت الطويل، فيستعيد الصوت صبغته الآمرة القاطعة، ويبدو الخبير الماهر عاملاً على حل مشكلة جعلته التجارب الطويلة على دراية تامة بها. إنه يعود ممتلئاً حياة وفطنة، فيفصل الخلاف بمبضع الجراح الماهر؛ وبينما يدلي الفريقان المتنازعان بما يثبت حقوقهما، فإنه يصدر قراره في كلمات تصيب كبد الحقيقة مباشرة. وعندئذ يقوم رؤساء الفريقين المتنازعين ويقبلون جباه بعضهم بعضاً دليلاً على فض الخلاف الناشب بينهم، ثم يقبلون، هم وأتباعهم، يد الملك إيذاناً بانتهاء الجلسة، وقد عرفوا أنهم تلقوا أمراً يجب أن يطاع، وعرفوا فوق هذا أن هذا الأمر حق وعدل. وهكذا أيضاً حاله مع رجال الدين، فإنه يتكلم في عباراتهم وشؤونهم كما لو كان أحدهم. فإذا كانت المسألة متصلة بالتراخي في رعاية المصلين وأوقات الصلاة أو غير هذا من علامات الانحراف عن أصول الدين، فإن جلالته يدفعهم إلى مراكز التقهقر والحرج، فيحاصرهم في محض واجباتهم للمحافظة على من وكل إليهم أمرهم، ويندد في بلاغة قوية متحمسة بهذا التراخي البين الشائع بين الناس في أمور دينهم متوسلاً إليهم جزعاً، وكثيراً ما يسيل الدمع من عينيه، أن لا يهملوا في أداء واجباتهم نحو ربهم عاملين على نجاة عبيده من سيء عواقب التقصير. إن حديثه عن أمثال هذه الأمور يتصف ببالغ الجد، لأنه إذا تكلم عن الدين، كما يفعل كثيراً في اجتماعاته الخاصة والعامة، فإنه يتكلم، كما يبدو لكل مستمع، بكل قوة الإيمان البسيط الذي لم تزعزع منه عجائب وأهوال العلم الحديث؛ ومع ذلك فهو ليس بغافل عن التشكك والحيرة والالتباس التي أسرعن إلى بلده آتية من العالم الغربي في الأيام الأخيرة! وربما كان يدرك كذلك

استحالة الحد من الميول التي هي نتيجة للتعليم الغربي والسفر إلى الخارج، وهو ما عمل نفسه كما عمل غيره، على تشجيعه في أسرته وبين رعاياه. وإذا كان التحول عن الدين قد انتشر في بلاد أخرى، فإن الدين سيكون له أبداً مركز كريم مرموق في بلاد العرب؛ ولكن من المرجح إلى أبعد الحدود أن الدين لن يستعيد مكانته الأولى كما كانت الحال في نجد منذ عشرين سنة لا أكثر، عندما كانوا يتعلقون بالآمال في تعويض وجزاء أحسن وأفضل لما يصيبهم في الحياة من مخاوف والآم. أما اليوم فإن الدنيا قد غدا لها من المتعة والجمال ما لا يحفز على المضاربة بهما للظفر بما في الغيب وما وراء الحياة!

ومن الجلي انه لم يكن من المستطاع أن تبقى متأججة إلى الأبد بين الوهابيين نار التعصب الديني التي سيطرت على سياسة الصحراء خلال الحقبتين الثانية والثالثة من هذا القرن، لأن فتح الحجاز قد أسفر عن نقص في تزويدها بالوقود، كما إن إخماد ثورة الإخوان (١٩٢٩-١٩٣٠) على مؤسس هذه الحركة وقائدها قد أطفأ آخر جمراتها. إن ابن سعود قد قتل العملاق «فرانكشتين» الذي صنعه بيديه خشية أن يقتله العملاق! وهكذا ظل ابن سعود ينعم في سلام وأمن طوال عشرين سنة بثمرات انتصار ما كان ليتحقق دون مساعدة هذا الجبار. ولقد عملت سرعة انتشار نفوذ الحلفاء على تغذية ظاهرة الفتور الديني، بل والتحول في البلاد بصفة عامة، حتى ليمكن القول بأن هذه الظاهرة جاءت أكبر وأشمل مما تخيل المرء قبل أن يوجد هذا النفوذ فعلاً.

حاول الدكتور د. ج. هوغارت أن يخطط صورة لمستقبل بلاد العرب التي كان وقتئذ اعرف الناس بأحوالها، وذلك في رسالة بعث بها إلى المعهد البريطاني للشؤون الدولية في آذار/ مارس سنة ١٩٢٥، أي بعد سقوط الطائف ومكة، ولكن قبل الاستيلاء على المدينة وجدة أو قبل فتح

الحجاز. وإذا نظرنا إلى هذه الرسالة في ضوء معرفتنا لما حدث منذ تلك الأيام، لاتضح أن بعض أجزائها تستأهل التدوين، إذ كانت هذه الرسالة في الغالب بمثابة تبرير للسياسة البريطانية في الشرق الأوسط خلال الحرب، وخاصة تقصيرها في مساعدة الشريف حسين مرشحها الوحيد لزعامة العرب ضد الفتح الوهابي. ولكن تقديره للاتجاه المتوقع لتطور الحركة الوهابية هو بالأحرى ما يعنينا في هذا الكتاب. لقد قال: «عرفنا أن الحجاز لا بد أن يسقط لفترة ما، إن عاجلًا وإن آجلاً» - هذا بيان يسترعي الملاحظة بالنظر إلى القرار الذي اتخذته بالإجماع اللجنة الحكومية برئاسة اللورد كيرزون في آذار/ مارس سنة ١٩١٩ لمساعدة الشريف حسين مقتنعة بأنه لن يجد صعوبة في التخلص من التهديد الوهابي! ولكن لندع هذا، إذ استطرد الدكتور هوغارت قائلاً: «والآن، وبينما... غلى دفات التعصب الديني في نجد مرات، إلّا أية من سابق فوراته لم تعمر طويلاً، نظراً لأسباب ما زالت قائمة اليوم... إني لا أرى شيئاً في ظروف وعوامل التوسع الوهابي الراهن شيئاً ترجى له بسببه حياة أطول مما أتيح لفورات نجد الماضية، التي لم تعمر في مكة، على سبيل المثال، أكثر من عشرين سنة في المتوسط. وكذلك فمن المحتمل أن تطول حياته هذه المرة لما يتميز به السلطان عبد العزيز آل سعود من شخصية قوية نادرة: ولكني شخصيًّا أعتقد بأنه لن يطول به الوقت أكثر من سلفه حتى يعرف أن مكة والطائف والمدينة حصون تنهنه من سورة تعصبه وقوة اندفاعه، وانه قد تجاوز حدود نطاق الحكم الفردي ولهذا فإني أتوقع أن لا يطول حكم الوهابيين لبلاد العرب خارج نجد أكثر من عشر سنين على أكثر تقدير... ولا شك في أن الحقائق تؤيد وجهة نظري في أن الوهابية قد بلغت حدودها الجغرافية وتجاوزت في الوقت نفسه طاقة الحكم المطلق... فهل مما يضر بمصلحتنا أن يحكم الوهابيون

الطائف ومكة وبقية جنوب الحجاز باستثناء جدة؟ هذا عن الوضع الحاضر».

إن جوابه على هذا التساؤل كان في صالح الوهابيين في مجمله؛ أما قوله فيما بين القوسين أعلاه فيكفي أن توقعه لمستقبل حكم الوهابيين كان بعيداً عن التفاؤل، بينما جاء قوله في موضع آخر خطأ كبيراً. وقد قال في حديث مقتضب عن مدى مصالح بريطانيا في هذه البلاد!

«إن بلاد العرب لا تشترى ولا تباع بكميات تكفي لأن نجعل لها وزناً في الناحية السياسية؛ ولا انتظر أن يتوفر هذا يوماً ما، رغم بعض المشروعات والأفراد الذين منحوا امتيازات للصيد هناك منذ الحرب؛ ومنذ أن تغلب البن البرازيلي والإفريقي على البن اليمني في الأسواق، أصبحت صادرات بلاد العرب تافهة؛ أما الواردات فهي ليست أكثر أهمية من هذا!».

ولكن الحياة لم تمتد بهوغارث ليرى سكة الحديد التي تبلغ نفقاتها ثلاثين مليون دولار زاحفة عبر الصحراء الشرقية إلى الرياض، أو هذه الطرق العظيمة التي تربط بين جدة ومكة والمدينة (الأخيرة منها في حيز الإنشاء)، ولا الميناءين الكبيرين في جدة والدمام، أو المحطات اللاسلكية المنتشرة في بلاد العرب، أو محطات القوى الكهربائية في مدنها الأربع الكبيرة، أو مواسير المياه الممتدة إلى جدة، أو برنامج التوسع الزراعي الكبير في الخرج، ولا مصانع البترول الضخمة في الصحراء، أو مناجم الذهب التي اكتشفت ثانية لتنتج هذا المعدن النفيس، أو هذه الطائرات التي تملكها شركة الخطوط الجوية السعودية والتي تقطع الجزيرة ذهاباً وإياباً في أقصر وقت، أو ليرى غير هذه أشياء أخرى كثيرة قد تدهشه لو أنه استطاع العود ليراجع مدى صحة نبوءاته.

وقد كنت أنا الآخر بين المتنبئين، وكانت لي الأسبقية على هوجارث الذي كثيراً ما اشتد الخلاف بيني وبينه في ذلك الوقت؛ ولكني استطيع اليوم على الأقل أن أزعم أن وجهات نظري قد تحققت، وهو ما يثبته واقع الأحداث وهيكل المملكة العربية السعودية اليوم. ولقد أشرت بمناسبة مروري بواحة خرمة، التي كانت وقتئذ موضع خلاف بين ابن سعود والشريف حسين، قبل عيد الميلاد سنة ١٩١٧ ببضع أيام إلى أن «هذه البقعة قد قدر لها، رغم ما يبدو عليها من عدم اعتبار ونقص أهمية، أن تقوم بدور حيوي في صنع التاريخ؛ وربما كانت مقبرة الفكرة الخيالية للوحدة العربية! ربما كان هذا، فمن يدري؟ وقد تكون بمثابة السندان الذي تطرق فوقه هذه الفكرة إلى حقيقة وأمر واقع!». ولا شك في أن خرمة كانت هي السندان الذي طرقت فوقه الوحدة العربية كما هي اليوم، وفي أقصى الحدود التي يبيحها الاستعمار البريطاني الذي كان ابن سعود أحذر وأعقل من أن يغاضبه أو يستثيره. واليمن هي البلد العربي الوحيد غير الخاضع للسيادة الأوروبية والذي لا يدخل ضمن مملكة ابن سعود العربية المتحدة، ولو أنه كان على وشك أن يحقق لي نبوءة أخرى في حرب الأسابيع الثلاثة سنة ١٩٣٤، لولا اعتدال ابن سعود وخوفه من تدخل أوروبي.

لقد كتبت في سنة ١٩٢٩ الآتي[١]: «إذا استثنينا المناطق التي تحت الانتدابين البريطاني والفرنسي. فمن الصعب أن نتصور مستقبل بلاد العرب إلّا تحت الحكم الوهابي؛ بينما يتوقف تمام وحدتها في شكل نهائي وفي ظل عاهل وهابي على نتيجة هذا الخلاف المعمر الحتم بين ابن سعود وحاكم اليمن قريباً أو بعد فترة لن تطول. هذا ولا يكاد أحد ينكر أن ابن سعود قد أحرز نصراً حاسماً في ضوء تجارب ربع القرن

(١) كتاب «بلاد العرب» صحيفة ٣٦٣.

الماضي. ولا يستطيع الذين يستشفون المستقبل أن يروا الملك الوهابي إلّا وقد بسط سيادته ومد نطاق حكمه إلى حدود لم يبلغها سلفه، سوف تشمل، لا أقل من شبه جزيرة العرب من أقصاها إلى أقصاها، **وقد وضع على رأسه التاج المثلث: مكة، الرياض، صنعاء، تحيطه أكاليل من حسن نوايا بريطانيا وأوروبا وصداقتهما».**

وليس هناك من شك في وجود هذه الميول الطيبة وجم العطف ينعم بهما الملك العجوز إذ أخذ على نفسه أن يقود شعبه في تيه السنين الباقية من أجل هذا الحكم العظيم الذي قد لا يكون له نظير في تاريخ بلاد العرب. إن القصص التاريخي يعرف أرقاماً قياسية لحكم ثلاثة من ملوك سبأ الغابرين الذين حكموا في تلك الفترات معظم رقعة المملكة العربية السعودية كما هي اليوم، وامتد حكمهم ١٢٥، ١٦٠، ١٨٠ سنة على التوالي! ولكنا ندع هذا القصص لنقول بأن هناك رقماً قياسيًّا لحكم يمكن أن يقارن به حكم ابن سعود في طول مدته يرجع إلى ملك من ملوك سبأ جاء حكمه متأخراً كثيراً، وهو واراو - عمار أيمن، الذي يبدو أنه حكم بلاد العرب من ٣٧٨ - ٤٢٥م[١] والذي كان، ويا للعجب، يهوديًّا رغم انه كان من الجنس العربي الخالص. ولقد وجدت أسماء أبيه وإخوته وابن عمه، وكلهم من ملوك سبأ بدورهم، منقوشة على حجر من آثار سبأ اكتشف حديثاً في إقليم الدوادمي في وسط بلاد العرب.

وكيفما كان الأمر فإن الواجب الذي يواجه ابن سعود اليوم لا يعتبر وظيفة شرف لا مقابل لها من عمل بالنسبة لرجل اضطلع بجهود جبارة طوال حياته! ولا شك في أن جزءاً كبيراً من أعباء الحكم، وخاصة في نواحيه الغريبة التي لم يألفها، قد رفع عن عاتقه إذ حمله منذ مدة كما

---

(١) انظر كتاب «ما وراء الإسلام» صحيفة ١١٦.

سبق القول، عبدالله السليمان الذي لم يعد في نشاطه المعتاد والذي هو عمر الملك قطعاً. وعلى هذا وبقدر ما يستطيع المرء أن يرى، ورغماً عن أن وراثة العرش قد استقرت، فإن الاحتياط الواجب للمستقبل والاستعداد له لم يتخذا بعد. إن أكثر الأمور إلحاحاً اليوم هو خلق أداة حكومية تشرف وتوجه الحكم في البلاد بطريقة منتظمة حازمة وتجنبها أي توقف عن الاستمرار والمسايرة عند الانتقال من الحاضر إلى المستقبل. ولا شك في أن الملك قد أصاب بمساعدة وزير ماليته نجاحاً كبيراً في الاحتفاظ بالنظام المركزي في بلد لم يألف التقاليد البرلمانية ويعوزه الموظفون الأكفاء، إلّا أن أعباء الحكم الآخذة بزيادة سريعة مضطر قد تجاوزت إمكانيات حكم الفرد. هذا ولا يرجو هؤلاء الذين يرغبون في أن يروا الانتصار الكامل لهذا النظام أن لا تتأخر كثيراً الخطوات اللازمة لإيجاد مجلس وزراء على الأقل، يفضل أن يكون تحت رئاسة ولي العهد كي يحمل عن الملك كل المسؤوليات ما عدا المسؤولية العليا، وليبشر في الوقت المناسب بولوج بلاد العرب مرحلة جديدة من تاريخها. ومن السهل أن تشكل هيئة حكومية قوية من الموظفين الموجودين الآن إذ من بينهم بضعة رجال ذوي كفاية كبيرة وتجارب طويلة في خدمة قائدهم العظيم، وغيرهم ممن إذا منحوا الفرص المناسبة لإظهار مقدرتهم في مراكز ذات مسؤولية، لاستطاعوا أن يرفعوا مستوى الإدارة في مختلف المصالح الحكومية ويضفوا عليها التميز والحزم. ومن المتوقع كذلك أن نظاماً حكوميًّا أقل تسلطاً ومركزية سوف يجذب إلى خدمة المملكة العربية السعودية من البلاد العربية المجاورة كثيرين من الرجال الأكفاء البارزين الذين لا تتاح لهم في بلادهم فرص العمل المناسب لسبب أو لآخر، مثل السيد رشيد عالي الكيلاني الذي سبقت الإشارة إليه قبلاً، وجمال بك الحسيني الذي يبدو أنه فقد كل أمل في إيجاد حكومة موحدة لفلسطين

كلها، والذي يوجد الآن في غزة نتيجة لتقسيم المناطق المقدسة بين المملكة الأردنية الهاشمية واليهود.

إذا أمكن وجود مثل هذه الهيئة في دستور المملكة العربية السعودية بحيث تحمل مسؤولية جماعية عن إدارة دفة الحكم في البلاد تحت السلطة العليا لملك عامل وفي ظل إشرافه، فلا شك في أن المملكة التي شيدها ابن سعود تستطيع أن تشق طريقها في العالم الحديث دون ما حاجة إلى الأخذ بالنظم البرلمانية التقليدية التي برهنت على أنها لم تكن إلّا خداعاً وشراكاً في الممالك العربية الأخرى، مثل سوريا ومصر. إن الشرق وهو أصلاً أكثر ديموقراطية من الغرب لتحرره من مشاكل اللون والجنس، يستطيع نتيجة لهذا أن ينشئ نظاماً خاصاً به وأكثر ملائمة لبلاد لم تعرف شعوبها بعد المزايا المريبة «للتعليم» على نطاق واسع بدون أن يمزق منها الشمل!

وفضلاً عن كل هذا فإن مثل هذه الهيئة سوف ترفع عن الملك عبئاً هو أثقل مما يستطيع أن يحمل في هذه السن دون أن يبهظه أو يضيق بحمله إلى جانب تيسير الانتقال من النظام القديم إلى الحكم الحديث الذي سوف يضطلع بأعبائه من هم لا شك أصغر سناً وأقل دربة. إن النبوغ السياسي لا يوجد في كل جيل من الأسرة الحاكمة؛ ولكنه يكون شيئاً غريباً إذا لم يوجد من بين أبناء الملك الكثيرين واحد أو اثنان يتصفون بالكفاية التامة والقدرة على حمل المسؤولية. إن الصعوبة تتمثل في أن ليس لأغلبهم ما يعملونه في ظل الظروف السائدة، ولا مورد يستقون منه العلم والثقافة إلّا التجارب التي تتاح لهم في الحياة. وربما كان من اللازم أن يصبحوا - لو دربوا التدريب اللازم - قادة أكفاء في الجيش النظامي الذي يتكون من فرقة واحدة والذي عاونت خلال السنين الثلاث الماضية بعثة بريطانية على تنظيمه وإعداده، وأن يعدوا ليكونوا نواباً لحكام مختلف

أقاليم الدولة، أو من هيئة كبار موظفيها. ولكن الملك شديد الحساسية بالنسبة لأسرته، ولهذا فهو يفضل أن تبقى تحت إزاره وفي ظل إشرافه الخاص حتى لا تتعرض للوقوع في الخطأ ولألسنة النقاد، ولهذا أبناؤه الصغار ينطلقون في عنف إذا ما ابتعدوا عن أبيهم. وحتى أبنائه الكبار الذين لا بد أن تقع عليهم مسؤوليات المستقبل، والذين نقول إنصافاً لهم، أنهم في منتهى الحرص والحذر، والذين وجهوا كثيراً من النقد لأداة الحكم القائم في البلاد؛ نقول إن المحاولات التي بذلوها للتدخل في الشؤون العامة بمقترحات تقدموا بها لتحسين الأحوال وتدعيمها، قد طرحها أبوهم جانباً بصفتها حذلقة أو خيلاء صغار ليسوا على شيء من التجربة أو الدراية. وهذا لا شك كثير على رجال بلغوا الأربعين من عمرهم، ولكثيرين منهم دراية عملية بالعالم الحديث خارج بلاد العرب أكثر من حظ الملك نفسه منها لأنه تجنب مختاراً أن تكون له صلات بمدنية غريبة عنه وكبيرة الاختلاف عن المدنية التي احتضنته ونشأ بين ظهرانيها.

ولقد اقترحت على جلالة الملك في مناسبات كثيرة طوال المدة التي صاحبته فيها، وبينت المزايا التي تعود عليه وعلى بلاده من وراء رحلات يقوم بها خارج بلاده ليرى العالم كما هو وعلى حقيقته لا كما تمثله الصحافة المغرضة أو كما يراه في الصحف المصورة التي تتسلل إلى بلاد العرب في أعداد آخذة في التضخم. وقد كانت حجته منذ سنين طويلة، هي أنه حقيقة راغب عن وجود علاقات وثيقة بمجتمع قد يرى في جماع نشاطه وحياته الكثير مما لا يبيحه أو يقره أبداً، ومما قد يخشى معه التقصير في واجباته كضيف. وقد بدا في مناسبة أخرى أكثر قابلية للنظر في اقتراح القيام بزيارة بعض البلاد التي قامت بينه وبينها علاقات سياسية لكي يعمل على إيجاد صلات شخصية بحكوماتها وبكبار رجالها؛

ولكنه أضاف إلى هذا أنه سيقوم بهذه الزيارات بطريقته وعلى طرازه الخاص. إنه سوف يستأجر سفينة لتحمله وعدداً كافياً من الحاشية يليق بمقامه إلى الخارج، وأنه سوف يقيم مع حاشيته عند وصوله في قصر يستأجره أو يشتريه لهذه المناسبة، حتى يستطيعوا أن يعيشوا هناك الحياة التي آلفوها في بلادهم: يخرجون في السيارات لرؤية المناظر الطبيعية في هذه البلاد، ومؤسساتها العسكرية والصناعية، وحفلات السباق وغيرها من المتع المباحة، ويتعجنبون الاتصال بالنواحي غير اللائقة من حياتها: مثل حفلات الكوكتيل والمراقص والسينما والمسارح وأشباهها. ولم استطع إلّا أن أجيب بأن مثل هذه الزيارة تفقد لبها ومغزاها إذا ما رغب عن مشاهدة حياة الناس على حقيقتها وكما يعيشون فعلاً.

وليس من الغريب أن مثل هذه الزيارة لم تحدث إلّا بالوكالة عن الملك أو قام بها نائب عنه. وبدأت الزيارات في خلال الثلاثين سنة الماضية بالزيارة التي قام بها الأمير فيصل سنة ١٩١٩ لإنكلترا ولميادين القتال الأوروبية في الحرب العالمية الأولى. وبعد ذلك قام كثيرون من أبناء الملك وأحفاده وأبناء عمومته بزيارة كل بلاد أوروبا بما في ذلك روسيا، وعبروا الأطلسي مرات متعددة لزيارة أميركا الشمالية التي أصبحوا يجيدون معرفتها وكذلك قام الأمراء بزيارة الهند ومصر وتركيا وجميع البلاد الشرقية. أما الملك نفسه فإنه كان قد زار منذ مدة طويلة هذه الإمارات الجميلة على الساحل الغربي من الخليج العربي، كما أن زياراته للكويت والبحرين وأمثالهما لا تكاد تعتبر زيارات خارج نطاق بلاده أو لدولة أجنبية. وكانت أولى هذه الزيارات في سنة ١٩١٦ عندما زار البصرة كضيف على قائد الجيش السير بيرسي كوكس، مما سبق ذكره في فصول سابقة[١].

(١) انظر صفحة ١٠٧-١١٣.

ونزل الملك في رحلته الثانية ضيفاً على بريطانيا في السفينة الملكية البريطانية «لوبين» خارج المياه الإقليمية السعودية والعراقية في الخليج العربي سنة ١٩٣٠، تلبية لدعوة من السير فرنسيس هامفري المندوب السامي البريطاني في العراق، ليقابل الملك فيصل وليتحدث معه بصفة عامة تمهيداً لتسوية الخلاف بينهما، وكانت ثورة الإخوان من نتائج هذه الزيارة. ولقد أعد كل شيء في دقة وإحكام لتفادي كل ما من شأنه أن يناقض آراء ملك الوهابيين أو يجرح شعوره لدرجة انه كان على الملك فيصل أن يتسلل إلى إحدى حجرات السفينة ليدخن لفافة في هدوء. وحدث الشيء الوحيد الذي أزعج ابن سعود خلال هذه الزيارة، في حفلة دينية عسكرية حضرها الملكان ليشهدا في هذه المناسبة حفلة دينية عريقة؛ ولكن لسوء الحظ أن لاحظ الملك الوهابي بنظرته الثاقبة أن القوات جلست على الأناجيل التي تحملها (وعلى الأرجح الكتب الدينية) عندما توقفت عن القراءة فيها! ولا يستطيع المرء في البلاد الإسلامية أن يتصور القرآن عرضة لمثل هذا السلوك النابي وقلة الرعاية والاعتبار. وذات مرة قبل حادث السفينة لوبين ببضع سنين، تنازل الملك بتشريف حفلة شاي أقامتها زوجتي في جدة ووجد عند حضوره أحسن وسائدنا في انتظاره فوق مقعد الشرف الذي أعد لجلالته، فتراجع فترة ثم طلب بعد ذلك إبعاد هذه الوسادة التي كانت من الحرير ومطرزة بأسماء الله الحسنى وقديسيه.

وحتى سنة ١٩٤٥ لم يكن ابن سعود قد قام بأية رحلة إلى خارج بلاده. ولا شك في أنه خلال هذه الفترة كان قد عرف الأوروبيين والأميركيين وتوثقت صلته بهم لأنهم احتشدوا في بلاده نظراً للمشروعات المختلفة الجاري تنفيذها، أو أنهم جاؤوا إليها كزائرين من أماكن بعيدة وكان الأميركيون أثناء الحرب بصفة خاصة هم الذين حاولوا

أن يوثقوا معرفتهم بهذه البلاد وان يزيدوا صلاتهم بأهلها ويقيموا علاقات سياسية مع حكومتها بواسطة مفوض لدى البلاط السعودي لأول مرة. وقد زار مبعوثو الرئيس روزفلت الرياض ومثلوا بين يدي جلالته هناك؛ أما اللحظة الكبيرة فقد حانت عندما دعي جلالته لمقابلة صانعي النصر الآخذ في الاقتراب من البريطانيين والأميركيين، فأبحر ابن سعود إلى قناة السويس في مدمرة أميركية وقابل الرئيس روزفلت على ظهر الطراد «أوغستا» في البحيرات المرة المقابلة لمدينة الإسماعيلية من الشمال؛ ومن هناك سافر براً إلى الفيوم ماراً بالقاهرة دون أن يتوقف فيها، إذ كانت زيارته لمصر غير رسمية، ليقابل المستر تشرشل وزملاءه في حفلة عشاء أقيمت على ساحل بحيرة قارون. كانت هذه زيارة أعمال محض لكبار رجال الحرب ولم تتح للملك إلّا فرصة صغيرة للتمتع بجمال مصر أو لرؤية شيء من عجائب هذا القطر العريق. وكانت القاهرة هي أول مدينة كبيرة رآها جلالته. كما انه لا شك مرّ بالأهرامات في طريقه إلى الفيوم وعوده منها.

وكان الملك فاروق قد قام بزيارة رسمية للحجاز في السنة السابقة وقضى الملكان معاً بضعة أيام في معسكر فخم مترف أقيم بين ينبع والمدينة في ظلال جبل رضوى. وكان عندئذ أن نبتت فكرة رد هذه الزيارة لمصر، ولكن حالت أصول اللياقة أو البروتوكول دون أن تربط هذه الزيارة الرسمية المزمعة بالزيارة القصيرة لمقابلة الرئيس الأميركي ورئيس وزراء بريطانيا على ارض مصرية؛ ولهذا أرجئت الزيارة الرسمية إلى كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٤٦، حيث تمت بين مظاهر المجد والعظمة وفي عالم ساده السلام مرة أخرى. وقد حمل اليخت الملكي المصري الزائر الكبير وحاشيته من جدة إلى السويس، وكان لي الشرف أن أكون في معيته. وحقا فقد كانت الأربعة عشر يوماً التي قضاها ابن

سعود في مصر أياماً لا تنسى أبداً! فقد أحاطه الشعب المصري بقلبه: فكان الناس يزدحمون في الشوارع التي يمر بها ركبه وكثيراً ما كانوا يعترضون طريقه لكي يروا من قرب زعيم بلاد العرب العظيم، أو لمجرد أن يلمسوا بأيديهم السيارة التي تحمله. لقد كان الحماس عميقاً بالغاً! وكانت النساء ترفعن أطفالهم ليظفروا بنظرة الملك وابتسامته، وكانت البنات تقف صفوفاً طويلة على أرصفة الطرق لترقبن مرور سليمان الجديد؛ وكان سليمان نفسه غير غافل عن محاسنهن، إذ قال مرة في الإسكندرية وذلك عندما كان وحده بين أصدقائه المقربين بعد جهد يوم انقضى في مشاهدة مختلف الأماكن ووسائل التسلية والترحيب: «في هذا البلد بعض بنات حسان، إني لا أحجم عن جمع باقة منهن أعود بها إلى بلاد العرب، ولتكن قيمتها مائة ألف جنيه من أنواع هذا الجمال!» ومع ذلك فقد بدا لي خلال ذلك اليوم كأنما كان جلالته يمر بهذه الجموع الضاحكة المستبشرة بوجه لم يتأثر بمرآها، ويوحي بأنه يعاني ضائقة ألقاها على صدره الصيت العريض والشهرة الواسعة؛ ولكم تمنيت لو أنه رأى هذه المناظر في سن مبكرة لكي ينعم بها ويسعد بمتعتها! وكم ذكرت أثناء مرورنا بهذه التظاهرات الضخمة الطافحة بالفرح والولاء، إن ابن سعود يستطيع أن يحفز هذه الملايين من المصريين ويدفعها لتتبعه أينما اتجه، إذا كان هناك مبرر قوي للجهاد، إلّا أنه لم يخطب قط طوال زيارته، ولم يعقد مؤتمراً صحفيًّا لتنشر الصحف آراءه وأحاديثه، ولم يبد عليه شيء من دلائل الاستجابة لهذا الحماس المضطرم من حوله. والأرجح أنه صمم على أن لا يسمح أو يشجع أي اتجاه يجعل من هذه الزيارة الرسمية مجالاً للدعاية أيًّا كان نوعها، خشية أن يسيء هذا إلى أحد. إن أوضاع السياسة المصرية المضطربة في حكم مصطفى النحاس باشا، إلى جانب الشيخ حسن البنا وأهداف حركة الإخوان المسلمين التي

يرأسها، كانت في الواقع دقيقة لدرجة تبرر مثل هذا الحذر. وفي نفس الوقت كانت تنم عن دلالة رضا أو تشجيع للحكومة المصرية في طلبها سحب القوات البريطانية من قناة السويس ووحدة مصر والسودان تحت التاج المصري، مما يسيء إلى أصدقائه البريطانيين وغيرهم من الأوروبيين. إنه كان في وضع ليس من السهل أن يواجهه رجل في مثل مركزه. وكان يبدو عليه أنه قد تعب من حمل العظمة والمجد، ومن الشعور بعبء السنين. وكانت هذه على ما أعتقد، هي المرة الأولى التي تحققت فيها إنه قد ولج نطاق الشيخوخة.

وكانت الولائم تأتي في أعقاب بعضها دون انقطاع، وكانت الزيارات تترى إلى عجائب مصر المختلفة: إلى الأهرامات والقناطر الخيرية، والجامعة التي لم يسمح للطالبات بحضور حفلتها فلم يظهرن في صفوف العرض بملابسهن الرياضية؛ ثم الجامع الأزهر، ومعاصر الزيوت في صهرجت الكبرى، ومستشفى المواساة في الإسكندرية. إنه كان برنامجاً يصعب احتماله بالرغم من جميع الإجراءات التي اتخذت لتوفير الراحة له. وكانت هذه الأحاسيس قد ازدحمت كثيفة على ملاحظته وإدراكه، حتى أن ذكرياته عن تفاصيل هذه الزيارة لا بد أن اختلطت عليه بمجرد انتهاء هذه الحفلات.

وربما شعر الملك فاروق أحياناً أن ضيفه على شيء من الخشونة والشدة! إنهما كانا ملكين على طرفي نقيض: فهذا فرعون الصغير ملك أقدم مملكة على وجه البسيطة، في عنفوان شبابه ممتلئاً ثقة في المستقبل بأن بلاده تحت قيادته لا بد وأن تنفض عنها مخازي التبعية وأن تنهض مرة أخرى بين الأمم حرة يحف بها المجد كما كانت في غابر الزمان، بينما كان أسد الصحراء العجوز، وقد شلت حركته الجروح القديمة وأثقلت كاهله أعباء حكم طويل، صامتاً يجيل الفكر وهو ينظر إلى مستقبل معتم



الملك فاروق

قد خبا بعض التماعه الذي نعم به منذ سنين طويلة انقضت: انه كان يعي عظم الرسالة التي حققها، ولكنها صغرت في عينيه في مواجهة هذا الغزو والجلال لبلد حابتها الطبيعة وأساء إليها الإنسان! ورغم هذه الحفاوة البالغة والترحيب الحار اللذين لقيهما ابن سعود في مصر ورغم شكره العظيم لهذا، فإنه كان مسروراً لرجوعه إلى بلاد العرب حيث يمكن أن يعود إلى حياة الاسترخاء والهوادة والبساطة في قصره هناك.

ولكن السلم لم يكن شيئاً حقيقيًا. لأن نهاية الحرب لم تأت بفترة هدوء ولم تمهل الناس في العالم بينما كان الشرق الأوسط نفسه يعج بالمشاكل التي سببت الوجل والأسى لحكوماته. أن جامعة الدول العربية كهيئة الأمم المتحدة لم تكن بطيئة في الكشف عن الخلاف العميق بين الصفوف، وأسفرت قراراتها عن الفشل في حرب فلسطين التي لم تلعب فيها المملكة السعودية إلّا دوراً اسميًا بسيطاً: إذ كانت أكثر عناية بالوقوف في وجه المطامع الهاشمية في العراق وشرق الأردن منها بتدعيم حركة جماعية لتخليص فلسطين من اليهود. ومنذ تكوين الجامعة العربية في آذار/ مارس سنة ١٩٤٥، احتضن ابن سعود الفكرة العامة في وجوب

ترك كل ما يتصل بالمصلحة العربية المشتركة لهذه الهيئة التي سوف يكون على استعداد لقبول قراراتها؛ ولكن عندما أصبحت شرق الأردن بعد سنتين مملكة «مستقلة» وبذلك تسنى لها أن تشترك في الجامعة العربية، فإنه أخذ يتقرب إلى القطر المصري بصفته الزعيم الطبيعي لحركة تهدف إلى تعطيل مشروعي «الهلال الخصيب» و«سوريا الكبرى» اللذين اقترحهما الشريف عبدالله أصلاً وظفرا بتأييد العراق بصفة عامة. وكذلك لم يعطف لبنان على مثل هذه المشروعات لما تنطوي عليه من تهديد لاستقلاله، بينما كانت سوريا حيرى، وكانت لا شك بمثابة مخلب القط بين الفريقين المتنازعين. وكان للشريف عبدالله بعض العون والأنصار في سوريا بفضل الإنفاق السخي على الدعاية من جيوب دافعي الضرائب البريطانيين، كما كان من المتوقع أن تجد مطالبته بعرش سوريا مظاهرة من إسرائيل مقابل بعض التساهل في موضوعات خاصة بفلسطين ذاتها: قد تحقق أولها حديثاً باحتلال اليهود للمنطقة الهامة التي يلتقي فيها نهر اليرموك بالأردن. ويقال إن هذا قد تم برضى الشريف عبدالله، ولكن بدون علم حكومته التي هددت بالحرب، ثم قنعت بعد ذلك بتقديم احتجاج ضعيف لهيئة الأمم المتحدة! وبغض النظر عن هذا فإن خطر تحقيق مشروع «سوريا الكبرى» كان ضعيفاً طالما كان شكري القوتلي رئيساً للجمهورية السورية، ولكن الأمور تغيرت عندما حاول وظفر فعلاً بالرئاسة للمرة الثانية. وكانت الرياض تراقب الثورات الثلاث في سنة ١٩٤٩ بشعور خليط تبعاً للعطف أو الكره الذي كان ينعكس أو يبدو من كل منها على مشروع «سوريا الكبرى» تحت التاج الهاشمي. ولكن يبدو الآن أن الوضع السياسي في سوريا قد استقر إلى حد ما. ومما تجب ملاحظته أن اسمي ملك مصر وملك البلاد السعودية لم يظهرا في القائمة التي أعلنتها الحكومة السورية بأسماء رؤساء الحكومات التي

أرسلت تهانيها إلى السيد الموقر هاشم الأتاسي بمناسبة انتخابه رئيساً للجمهورية. ويرجع سبب ذلك إلى أن الاعتراف بنظم الحكم التي جاءت في أثر بعضها بمثل هذا العنف وهذه السرعة أمر يستدعي بعض الروية والتبصر، كما كانت النتيجة الحتمية لذلك أن أصبح الموقف في سوريا الآن مبرراً لخلق شيء من الانزعاج والقنوط في كل من القاهرة والرياض[١].

إن خطط الملك عبدالله وتصرفاته السقيمة وما صاحبها من توفيق وفشل إنما هي أعراض علة أضعفت العرب قروناً عديدة، وليس من المتوقع أن يوجد لها علاج الآن في حياة زعمائهم الذين ضيعوا فترتي حربين عالميتين في شقاق متبادل، بينما احتل أصدقاؤهم المشتركون بلاد العرب لكي يوجهوا ضربة قاضية إلى أعدائهم الحقيقيين. ولقد حملوا صراعهم إلى الفترة المريبة التي تفصل بين الحرب العالمية الثانية وحرب ثالثة متوقعة أخذت تتجمع سحبها في جميع أنحاء العالم. وهنا أيضاً يبدو العدو المشترك أوضح وأجلى من أن تخطئه أو تتشكك فيه! وربما كان الخطر أكبر وأفدح منه في أي وقت مضى! ومع ذلك فقد ثبت أن مشروع الضمان الجماعي العربي الذي اقترحه حديثاً بعض أعضاء الجامعة العربية، على نهج حلف الدفاع الغربي، عقيم غير مجد نظراً لسابق سياسة المملكة الأردنية والعراق التي لا تتفق قط مع سياسة مصر والمملكة العربية السعودية.

ومع ذلك فإن البلاد العربية تدرك تماماً أن مصادر الخطر الحقيقي الذي يتهدد أمنها وسلامة شعوبها كامنة «وراء الستار الحديدي»، رغم توجسهم وتصورهم لهجوم تشنه إسرائيل على بلادهم في المستقبل. ولقد

(١) أصبحت العلاقات بين سوريا والمملكة السعودية منذ هذه الفترة مرضية مستقرة.

اختاروا أن يسموا هذا الخطر الحقيقي «الشيوعية»، وربما كان ذلك ليبرروا الدعوة إلى الجهاد، ولو أنهم يعرفون في قلوبهم وقرارة نفوسهم، أو سوف يعرفون إذا فكروا، بدلاً من الانقياد إلى الدعاية التي تقوم بها بينهم الدول صاحبة المصلحة، أن هذا الخطر ليس أقل أو أكثر من عدوهم «الاستعمار» في رداء الذئب السافر. أما بالنسبة لابن سعود فإنه من العسير الوقوف على تفاعل عقله وتفكيره حيال الموقف العالمي الراهن. ويمكن القول قطعاً بأنه يمقت ولا يصدق احتمال انتصار روسيا إذا وقعت حرب عالمية أخرى، إلّا أنه فزع ومستريب في سياسة الدول الغربية الملتوية، ثم لتعثر هذه الدول وتباطئها في القبض على زمام المشكلة الصريحة التي تواجهها. ويبدو انه يتساءل لماذا يحجمون عن مهاجمة العدو بينما هم يتميزون عليه في إنتاج القنبلة الذرية، وقبل أن تتوفر له هذه الميزة ذاتها؟ وبهذه المناسبة فهو يرفض قطعاً أية فكرة تأبى أو تنفر من استعمال مثل هذا السلاح الفعال. إن كل شيء جائز عدل في الحرب والحب، لأن الغرض الوحيد في النهاية هو النصر في الحالتين! إنه ينكر بشدة أية رغبة في نشوب حرب عالمية أخرى في حياته؛ ولكن المرء لا يستطيع أحياناً إلّا أن يعتقد انه كثير الاحتجاج على هذا الاتهام الهامس المتئد. إن بلاد العرب قد أصابت من الحربين السابقتين فوائد هي أكبر وأجل من أن تدفعها إلى الوجل من توقع حرب أخرى، سوف تقوم فيها بدور المشاهد المعجب بإقدام الآخرين وجرأتهم: ولكن ربما غاب عنها أنها في هذه المرة سوف تقوم بدور حيوي في اللعبة التي قد تجلب الصراع المضني إلى جوارها وربما إلى ديارها. إن الرجل الذي أضفى السلام على بلاد العرب يعتبر الصراع والكفاح من طبيعة الإنسان الذي يخشى لو أن الجبابرة تأخروا طويلاً عن هذا العمل الطيب، فإنه سوف يكفر عن ذلك بكوارث الطبيعة من الزلازل وفيضان الأنهار والبحار! لقد

قصرت المسافات فأصبح يقطع منها في يوم ما كان يقطع في سنة، وأصبح صوت الإنسان نفسه يصل في ثانية إلى أقصى أنحاء الأرض، وأصبحت الرذيلة تبدو في مئزر الفضيلة، وخاصة في العالم الشيوعي! إن ضوء الفضيلة قد خبا حتى في بلاد العرب ذاتها! وأخيراً فإن القزمين ياجوج وماجوج سوف يبرزان من كهفيهما البعيدين في الشرق ليتحديا قدرة الله ذاته وليعلنا ظهور خصوم المسيحية! حقاً إن الساعة الأخيرة للعالم لا يمكن أن تكون بعيدة اليوم! **لقد قال الملك أكثر من مرة:** «**إني أود أحياناً أن ينتهي كل هذا التعب والاضطراب تواً!**» إن التعبير عن مثل هذه الرغبة في الوسط الإسلامي غير مناسب؛ إنه يبلغ حدود الكفر وتحدي إرادة الله، كما قال أخ الملك «عبدالله» في لطف وإشفاق مشيراً إلى وجود حديث نبوي كريم مؤداه أن الساعة الأخيرة لن تحل بالعالم حتى تتحول جزيرة العرب إلى ارض تملؤها المراعي وتشقها الأنهار! وعلى هذا فما زال أمام الإنسانية وقت طويل، بينما يبدو أن معرفة الكوريين الشماليين لياجوج وماجوج وإيمانهم بهما ليس شيئاً ثابتاً إطلاقاً! ومهما كانت أوضاع الأمور فإن ابن سعود ليس بأية حال الوحيد بين الرجال لرغبته في أن يكون من شهود العيان ليوم القيامة!

فليحيا الملك عبد العزيز آل سعود! ولتحيا أعماله العظيمة طويلاً من بعده!

الملاحق

الدوحة السعودية
وسلالة أسرة السديري



الدوحة السعودية

الملحق الأول

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
(١) مانع	ربيعة	موسى	إبراهيم	عبد الرحمن	؟	محمود	(٢) إبراهيم	
المريدي				(٣)سيف				
ابن ربيعة				(٤) عبدالله				
				(١٤) مرخان	(٤ب) ربيعة	(٥) وطبان	(١٥) مرخان	(٦) زيد
							(٥ب) ناقب	(٥د) إبراهيم
							(٥ج) ربيعة	(٥هـ) عبدالله
							(٧) إدريس	
							عشرة غيره	
					(٤ج) مقرن	(٤د) محمد	مقرن	عبدالله
							(٩)سعود	(١٠) مشار
						(٨) عبدالله		
						عياف		
						(١١) مرخان		
								(١٤) فرحان

ملاحظة: الأرقام بين قوسين أمام الأسماء تشير إلى الملاحظات التفسيرية الواردة بعد. الأسماء التي تحتها خط أسماء الذين حكموا فعلاً الأرقام التي على رؤوس أعمدة الجدول تدل على ترتيب الجيل.

علامة الاستفهام أمام الاسم تدل على شك في حقيقته.

تابع/ الدوحة السعودية

١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦
(٥و) محمد						
فرحان						
عبد الرحمن	(١٢) مشارى	عبد الرحمن	مقرن	(١٣) محمد	مقرن	مشاري
					سعود	فهد
						سعد
					عبد العزيز	عبدالله
					عبدالله	
					عبد الرحمن	
		حسن	محمد		حسن	
حسن	عبد المحسن	إبراهيم	عبد المحسن	إبراهيم	فهد	
					سعود	
				مشاري	مشاري	
				عبد العزيز	سعود	
				عبدالله		
				محمد		
عبدالله						
سعود						
مقرن	إبراهيم	سعود	(١٥) ناصر	عبد الرحمن		
				عبدالله		
				(١٦) محمد		
				سعود	سعد	
					عبد العزيز	فرحان
					عبدالله	فهد
						فيصل
						خالد
					محمد	(١٧) ثنيان
					مشاري	
					عبد الرحمن	
					ناصر	

تابع/ الدوحة السعودية

١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧
			تركي	فيصل	عبدالله فهد	عبد العزيز فرحان فرحان تركي عبدالله فيصل	
			إبراهيم				
يوسف	محمد	يوسف	عبد العزيز				
عبدالله	ناصر	فيصل	ناصر	فهد فيصل هذلول	(١٨) فهد (١٩) فيصل (٢٠) سعود	محمد فيصل	
إبراهيم	ثنيان	(٢١) عبدالله	(٢٢) محمد إبراهيم	ثنيان	إبراهيم محمد	ثنيان عبدالله	بندر محمد سعود فهد
				عبدالله	فيصل (٢٣) أحمد سعود (٢٤) عبد القادر (٢٥) عبد الرحمن	عبد العزيز عبدالله (زكي)	منصور

تابع/ الدوحة السعودية

٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦
(٢٦)	(٢٧) فيصل	ناصر؟					
محمد	(٢٨) سعود	حسان؟					
		حسين؟					
		عبد الرحمن؟					
	(٢٩) على						
	(٣٠)عبد العزيز	(٣١) سعود	(٣٢) عبدالله	سعد			
				سعود			
			فيصل	محمد			
			ناصر	فيصل	ناصر		
			تركي	مشاري			
			إبراهيم				
			سعد				
			فهد				
			(٣٣) مشاري				
			عبد الرحمن				
			عمر				
			(٣٤) خالد	مشاري			
			عبد العزيز				
			هذلول				
		عبدالله - عمر؟					
	(٣٥) عبدالله	زيد					
		محمد					
		إبراهيم	عبدالله	فهد			
			(سنتيان)	سعود	عبدالله		
		(٣٦) تركي	(٣٧) عبدالله	ناصر			
				تركي			
				محمد			
				عبد العزيز	محمد	عبد العزيز	
					سعد	عبد العزيز	
						فهد	

تابع/ الدوحة السعودية

٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦
					تركي	خالد	بندر
						ضار	
						فيصل	
						عبد العزيز	
						عبدالله	
						محمد	فهد
					عبدالله	خالد؟	
						عبد العزيز	
						سعد	
						سعود	
			جلوى	محمد			
				سعود	مشاري	جلوى	
						فهد	
				فهد			
				مشاري			
				عبد العزيز	سعود		
				(٤٦) مساعد	أحمد		
					(٣٨) عبدالله		
					(٣٩) عبد	(٤٠) عبدالله	
					العزيز	(٤١) فهد	
						(٤٢)	
						مساعد	
						(٤٣) جلوى	
						(٤٤) عبدالله	محمد
							خالد
							منصور
							مساعد
					(٤٥)جوهرة		

تابع/ الدوحة السعودية

١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨
	سعد					
	منصور					
	عبد المحسن	جلوى	سعود؟			
	(٤٧) عبدالله	(٤٨) فهد	محمد؟			
			مشاري			
			خالد			
			فيصل			
		(٤٩) سعود	عبد العزيز	عبدالله؟		
		ناصر				
		عبد العزيز				
		عبد المحسن				
		(٤٩أ) محمد	(٤٩ب)عبدالله			
			(٤٩جـ) عبد			
		مساعد	العزيز			
		جلوى				
		سعد				
		مشاري				
		محمد	عبدالعزيز			
		منصور				
		(٤٩د) تركي	فهد			
(٥٠) فيصل	(٥١) محمد					
	(٥٢) عبدالله	تركي				
	(٥٣) سعود	(٥٢أ) ساره				
		(٥٤) محمد	سعود			
			سلمان	عبد العزيز		
				محمد		
				فيصل		
			تركي	سعود؟		
		عبد العزيز	عبدالله			
			(٥٥) سعود	سلطان		
				(٥٦) محمد	عبدالله	(فهد)
				(شقران)	فيصل	خالد
				عبد العزيز	سلطان	
				تركي	فهد	

تابع/ الدوحة السعودية

١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨
				فيصل		
			(٥٧) فيصل (٦٠) محمد	(٥٨) عبد العزيز سعود عبدالله سعد عبد الرحمن فيصل عبد العزيز	(٥٩) فيصل خالد فهد فيصل	
			(٦١) تركي مشاري	بنت		
		(٦٢) سعد	(٦٣) فيصل (٦٤) فهد (٦٥) سعود عدة بنات			
		(٦٦) عبدالله	تركي سعود	عبدالله (٦٦أ) فيصل سعود محمد عبدالله		
		فهد؟ عبد الرحمن				

تابع/ الدوحة السعودية

١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧
	(٦٧) طرفه				
	(٦٨) بنت				
	(٦٩) عبد الرحمن	(٧٠) فيصل			
		(٧١) فهد			
		(٧٢) نوره			
		(٧٣) عبد العزيز	(انظر الجدول	الخاص بنسله)	
		(٧٤) محمد	(٧٥) خالد	(٧٥أ) فهد	
				سعد	
			(٧٧) سعد	(٧٦) عبدالله	
			(٧٨) فهد	بنت	
				(٧٩) محمد	
				(٨٠) بنت	
				بنت	
				بنت	
			(٨١) سعود		
			(٨٢) عبدالله	خالد	
				محمد	
				فهد	
				فيصل	
				تركي	
				(٨٣) عبد الرحمن	
			(٨٤) عبد العزيز		
			(٨٥) عبد الرحمن		
			(٨٦) بندر	سعود	
				بنتان	
			(٨٧) بدر		
		(٨٨) سعد	(٨٩) فيصل	(٩٠) بنت	
				(٩١) خالد	
				(٩٢) سعد - بنتان	
			(٩٣) فهد	(٩٤) جواهر	
				(٩٥) سعد	
				(٩٦) ساره	
				(٩٧) خالد	
				(٩٨) عبدالله	
				(٩٩) فيصل	
			(١٠٠) سعود	(١٠١) سعد	

تابع/ الدوحة السعودية

١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧
		(١٠٢) سعود	محمد	عبدالله	(١٠٣)
				(١٠٤) سعد	حمود
				بندر	
			عبدالله	محمد	
			فيصل		
		(١٠٥) عبدالله	(١٠٦) فيصل	بنت	
			(١٠٧) يزيد		
			(١٠٨) عبد الرحمن		
			(١٠٩) محمد		
			(١١٠) خالد		
			(١١١) فهد		
			(١١٢) سعد		
			(١١٣) مصعب		
			(١١٤) سعود		
			(١١٥) بندر		
			(١١٦) تركي		
			١٠ بنات		
		(١١٧) أحمد	(١١٨) محمد		
			(١١٩) عبدالرحمن		
		(١٢٠) عبد المحسن؟			
		(١٢١) مساعد	(١٢٢) عبدالله		
			(١٢٣) عبدالرحمن		
			بنتان		
		(١٢٤) سعد			

الدوحة السعودية - الملحق الثاني

١٥	١٦	١٧
(١) تركي. توفي	(١أ) فيصل	(١أأ) تركى
		(١أب) عبدالله
		(١أح) بنت
		(١أد) بنت
	(١ب) بنت - توفيت	
	(١ج) بنت - توفيت	
(٢) سعود	(١د) بنت	
	(٢أ)سلطان - توفي	
	(٢ب) فهد	
	(٢ج) مساعد	
	(٢د) محمد	
	(٢هـ) عبدالله	(٢هـ أ) متعب
		(٢هـ ب) (جوهرة)
	(٢و) فيصل	
	(٢ز) خالد	
	(٢ح) عبد المحسن	
	(٢ط) عبد الرحمن	
	(٢ي) منصور	
	(٢ك) عبدالله	
	(٢ل) بنات عدة	
	(٢م) سعد	
	(٢ن) بدر	
	(٢س) بندر	
	(٢خ) ماجد	
	(٢ف) تامر	
	(٢س) سلطان	
	(٢ق) عبد المجيد	
	(٢ر)طلال	
	(٢ش) نايف	
	(٢ت) مقرن	
	(٢ص) أحمد	
(١) (نوره) توفيت	(٢ع) (نوف)	
خالد - توفي		

تابع/ الدوحة السعودية

١٥	١٦	١٧
(٤) فيصل	(٤أ) عبدالله	(٤أأ) خالد
		(٤أ ب) محمد
		(٤أ ج) عبد الرحمن
		(٤أد) سعود
		(٤أهـ) طلال
		(٤أو)عدة بنات
	(٤ب) العنود	
	(٤ج) محمد	
	(٤د) خالد	
	(٤هـ) سعود	
	(٤و) عبد الرحمن	
	(٤ز) سعد	
	(٤ح) بندر	
	(٤ط) تركي	
	(٤ى) بنت	
(ب) بنت	(٤ك) عدة بنات	
(٥) فهد - توفي		
(٦) محمد	(٦أ) فهد	(٦أأ) فيصل
		(٦أب) بنتان
		(٦أج) سعد
	(٦ب) بندر	
	(٦ج) عدة بنات	
	(٦د) بدر	
(٧) خالد	(٧أ) بندر	
	(٧ب) عبدالله	
(جـ) (العنود)	(٧ج) أربع بنات	
(٨) سعد - توفي		
(٩) ناصر	(٩أ) سعود (٩ب) خالد (٩ج) عبدالله	
	(٩د)فهد	
	(٩هـ) محمد	
	(٩و) عبد الرحمن	
	(٩ز) تركي	
	(٩ح) أحمد	
	(٩ط) أربع بنات	

تابع/ الدوحة السعودية

١٥	١٦	١٧
(١٠) سعد		
(د) (شيخة)		
(١١) فهد	(١١أ) فيصل	
	(١١ب) خالد	
	(١١ج) سعود	
(١٢) منصور - توفي	(١٢أ) بنت - توفيت	
	(١٢ب) بنت	
	(١٢ج) طلال (غير اسمه إلى منصور)	
(هـ) (جوهرة)		
(و) (لؤلؤة)		
(ز) (حصة)		
(١٣) عبدالله		
(١٤) بندر	(١٤أ) فيصل	
	(١٤ب) بنت	
(١٥) مساعد		
(١٦) سلطان	(١٦أ) خالد	
	(١٦ب) فيصل	
	(١٦ج) أربع بنات	
(١٧) عبد المحسن		
(١٨) مشعل	(١٨أ) بنت	
	(١٨ب) (العنود)	
	(١٨ج) فيصل	
	(١٨د) مشاري	
	(١٨هـ) محمد	
(١٩)عبد الرحمن	(١٩أ) خالد	
	(١٩ب) فهد	
	(١٩ج) أربع بنات	
(ح) (قماشة)		
(٢٠) متعب	(٢٠أ) بنت	
(٢١) طلال - توفي		
(ط) بنت		
(٢٢) بدر - توفي		
(٢٣) طلال	(٢٣أ) فيصل	
(٢٤) بدر		
(٢٥) مشاري		
(٢٦) نايف		
(٢٧) نواف	(٢٧أ) ابن	
(٢٨) تركي		

تابع/ الدوحة السعودية

١٥	١٦	١٧
(٢٩) فواز (٣٠) ماجد - توفي (ي) بنت - توفيت (ك) بنت - توفيت (ل) (سلطانة) (م) (هيا) (٣١) عبدالله (٣٢) سلمان (٣٣) أحمد (ماجد) (٣٤) تامر (ن) (مضاوى) (٣٥) أحمد (٣٦) ممدوح (٣٧) عبد السلام (٣٨) هذلول (٣٩) مشهور (٤٠) عبد المجد (٤١) صتام (٤٢) مقرن (٤٣) ولد - توفي (س) (عبصاء) (ع) (طرفاء) (٤٤) حمود (ف) بنت - توفيت (س) بنت - توفيت (ق) عدة بنات أخريات - توفين (ر) (نوف)		

ملاحظات: أسماء الإناث بين قوسين.
أسماء أعضاء الأسرة الذين يشغلون مناصب مهمة في الحكومة موضوع تحتها خط.
لم يبق في قيد الحياة من الأربع والأربعين ولدا الذين أنجبهم الملك إلاّ خمس وثلاثون.
لم يبق في قيد الحياة من التسعة عشر بنتاً اللاتي أنجبهن الملك إلاّ أربعة عشرة بنتاً.
لم يتحقق بعد على وجه الدقة مجموع عدد بنات جلالة الملك الأحياء منهن والأموات.
وكذلك لم يتحقق على وجه الدقة مجموع عدد أحفاده وأبنائه.



بعض الملاحظات عن الدوحة السعودية

(١) إن مانع المريدي (أو المريدي) بن ربيعة هو الجد الأكبر للأسرة السعودية وهو غاية ما يمكن أن نقتفي أثره في التاريخ. إنه من عنصر الدروع الذي يقطن القطيف والذي استوطنها أثناء الهجرة العامة التي قامت بها قبيلة الدروع من وطنها الأصيل في شبه جزيرة عُمان، هذه القبيلة التي اشتهرت بتربية إبل الدرعية للركوب. ولقد وجه سكان وادي حنيفة الدعوة إلى مانع لكي يقيم بينهم؛ وعليه فقد هاجر خلال الحلقات الأخيرة من القرن السادس عشر وأسس مدينة الدرعية: التي أصبحت فيما بعد قاعدة الإمبراطورية الوهابية.

(٢) انقرض الفرع الأكبر من أسرته في الجيل السادس (حوالي منتصف القرن الثامن عشر) بقتل إبراهيم في معركة عائلية على أيدي أبناء عمومته آل يحيى أهل الكباش من نسل سيف

(٣) ثاني أسباط مانع الأربعة الكبار. وما زالت حتى الآن من آل يحيى عناصر على قيد الحياة ولكنها غير ذات أهمية.

(٤) كان عبدالله ثالث الأسباط الكبار لثلاثة فروع من الأسرة هم: آل واطب، وآل حيدر، وآل عيسى، الذين ما زالت لهم بقية مغمورة على قيد الحياة حتى اليوم.

(٤أ) مرخان رابع الأسباط الكبار وهو الذي نجح خلفه في أن يصبحوا فعلاً حكام مدينة الدرعية كخطوة أولى في سبيل تأسيس مملكة أوسع رقعة.

(٤ب) وقد ولى ابنه الأكبر ربيعة الحكم وخلفه فيه ابنه وطبان.

(٥) الذي اشتبك في صراع عائلي وترك البلاد مختاراً إلى الزبير بعد أن قتل ابن عمه مرخان (١١) ابن مقرن **(٤جـ)** مخلفاً وراءه أربعة عشر أبناً يبدو أن أكبرهم مرخان **(٥أ)** ولي الحكم ثم تنازل عنه لأخيه زيد.

(٦) ولقد تحدى هذا الفرع زعيم عينية المجاورة وهو محمد بن عبدالله بن معمر آل خرفش وقتل زيد في المعارك التي نشبت بينهما.

(٥ب) وتبع ثاقب، وهو احد أبناء وطبان، أباه إلى المنفى في الزبير وخلفه في الحكم ابنه إبراهيم. **(٥د)** وتبعه في الزعامة ابنه محمد (٥و) الذي نفث عليه نفوذه في المناطق المجاورة الحاكم التركي في البصرة. وعندما ذهب هو وبعض أتباعه في إحدى المناسبات الدينية ليقدموا فروض الاحترام للمتصرف التركي في البصرة أحمد عجه، ألقى القبض عليهم البعض ثم قتلوا جميعاً. كان هذا في سنة ١٨٣٦ حيث فرت بقية الأحياء ومن الأسرة إلى الكويت.

(٥جـ) احد أبناء وطبان هو ربيعة الذي توفي ابنه عبدالله **(٥هـ)** سنة ١٨٥٧.

(٧) أحد أبناء وطبان هو إدريس الذي رأس الجماعة المسماة آل إدريس والتي ما زالت لها بقية مغمورة على قيد الحياة.

(٤جـ) إن مرقن بن مرخان السابق ذكره في الجيل السادس من نسل مانع هو الصلة الحقيقية بين هذا الأخير وبين أسرة سعود كما هي اليوم عن طريق ابنه محمد **(٤د)**، وكثيراً ما تسمى الأسرة المالكة نفسها آل مِقْرِن (الذي حقيقته مُقرْن، ولكنه ينطق مِقْرِن).

(٨) وكان من بين أبنائه الثلاثة عبدالله هو رأس آل ناصر الذين لم تزل منهم على قيد الحياة بقية مغمورة؛ ويبدو أن عياف مات (ولم يكن له أولاد) بينما قتل مرخان (١١) بيد وطبان (٥) **كما سبق القول.**

(٩) كان سعود بن محمد بن مقرن الذي توفي سنة ١٧٤٧ الحاكم الفعلي للدرعية على اثر بدء بعثة الإصلاح برئاسة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في عينية، هو الجد الذي تنتسب أسرة سعود إلى اسمه.

(٢٦) وكان أكبر أبنائه محمد الذي حكم من ١٧٤٧-١٧٦٥ هو المؤسس الفعلي لأسرة سعود وللإمبراطورية الوهابية، وهو الذي رحب بمحمد بن عبد الوهاب في بلاطه بالدرعية بعد إبعاده عن عينية وتعاون معه على الإصلاح الديني الذي قامت عليه الفرق العسكرية التي ردت نجد شبه الوثنية إلى ساح الدين فيما بعد.

(١٠)، (١٤، (١٧) كان إخوته الثلاثة مشاري وفرحان وثنيان من أول أنصار الحركة الدينية الجديدة، وقاموا بدور فعال في الدعاية للإصلاح الديني. وقد أحاط شيء من الغموض والالتباس على مر الوقت بتفاصيل هذه الفروع الثلاثة التي ترجع إلى هؤلاء الإخوة بين الأسرة المالكة، ويبذل رجل يدعى محمد أمين التميمي محاولة لتقصي هذه الفروع الثلاثة عن طريق وضع شجرة للأسرة المالكة، ولكنها لا تخلو من كثير من الشوائب التي يرجى تداركها. أما الإيضاحات الواردة بهذا الجدول فقد تيسر الوصول إليها عن طريق الاجتهاد وسؤال مختلف أعضاء هذه الفروع التي نحن بصددها؛ وفضلاً عن عدم ذكر بعض الأفراد الذين لم ينجبوا، فإن ما جاء بهذا الجدول يبدو اكثر دقة وادعى للتصديق مما جاء في شجرة التميمي، التي تمد فرع مشاري إلى الجيل العشرين من نسل مانع، بينما جاءت بكبار أبناء الملك الذين يمثلون الفرع الأكبر من الأسرة في الجيل السابع عشر ولهذا فإني اتبعت بصفة عامة قاعدة هي أنه لا يجوز

قبول الأسماء المدونة في شجرة التميمي إلّا إذا كانت واردة في مصادر أخرى، بينما وضعت في الحالات التي أخذت فيها أسماء من هذه الشجرة دون بحث ومراجعة، علامة استفهام أمام الاسم دلالة على وجود شك في صحته. ويجب أن نذكر هنا أن مستر بايلي وندر الأستاذ بجامعة برنستون قد ضمن ملحق كتابه القيم الذي لم ينشر بعد وهو «تاريخ الأسرة السعودية في القرن التاسع عشر» والذي أطلعت على صورته بالآلة الكاتبة؛ ضمن ملحق هذا الكتاب شجرة للأسرة مشتملة على جميع الأسماء والأجيال الواردة في شجرة التميمي التي تم وضعها في سنة ١٩٤٣ ونشرت في سنة ١٩٤٦. وأضيف إلى ما ذكر أن هذا الكتاب عندما يتم نشره سوف يحجب ما خلاه من المؤلفات عن تاريخ هذه الأسرة، وخاصة في الفترة من ١٨١٨-١٨٥٠ التي انتهى عندها كتاب المؤرخ النجدي ابن بشر وتدوينه للحوادث؛ هذا وينتهي الجزء الأخير من هذا الكتاب في سنة ١٨٩١ عندما أفل نجم الأسرة السعودية موقتاً نتيجة لانتصار محمد الرشيد في معركة مليدة، ولكنه مشوب بشيء من النقص وقصر التفصيل نظراً لعدم وجود موارد كافية للاستعلام والمستندات، ولكن من المستطاع أن تسد هذه الفجوة من واقع المستندات التي جمعها المؤرخ النجدي ابن عيسى والتي ما زالت أصولاً بخط اليد ولم تطبع بعد. وقد توفي مشاري (١٠) سنة ١٨٢٠.

(٢٧)، (٢٨)، (٢٩) أبناء محمد الثلاثة وهم فيصل وسعود وعلي وقد قتلوا جميعاً في المعارك؛ ففي سنة ١٧٤٧ قتل الأولان، بينما قتل الأخير في سنة ١٧٧٠ خلال الأعمال العدائية الطويلة بين الوهابيين ودهام أمير الرياض التي سقطت في يد محمد في هذه السنة. (٣٠) وقد خلف محمداً ثاني ملوك الوهابيين ابنه عبد العزيز الذي حكم من سنة ١٧٦٥ حتى مقتله في الدرعية على يد أحد المتعصبين للدين من كربلاء سنة ١٨٠٣. وقد مد رمقه الذي ورثه عن أبيه كثيراً: بما في ذلك الاستيلاء على مكة.

(٣٥) عبدالله وهو أخ عبد العزيز، وقد قام بدور ايجابي في إخضاع الأقاليم النجدية: وخاصة سدير والوشم والخرج، ولكن أهم معالم شهرته أنه كان والد تركي (٣٦) سادس ملوك الوهابيين ومؤسس الأسرة المالكة الراهنة. وعلى هذا فعبدالله هو الجد الأكبر للملك الوهابي الحالي.

(٣١) وفي خلال ذلك خلف عبد العزيز ابنه الأكبر سعود ثالث ملك حكم من سنة ١٨٠٣ إلى سنة ١٨١٤ عندما توفي في الدرعية في السادسة والثمانين من عمره، وخلفه ابنه عبدالله (٣٢) الذي اشتبك طوال حكمه في حروب مع محمد علي باشا حاكم مصر وابنيه طوسون وإبراهيم الذي سقطت الدرعية في يده سنة ١٨١٨ وضرب رأس عبدالله في القسطنطينية، وعندئذ انحلت مؤقتاً الإمبراطورية الوهابية وعانت نجد من احتلال مصر لها.

(٣٣) وفي سنة ١٨٢٠ عاد إلى نجد مشاري أحد أبناء عبد العزيز الذي نفي مع غيره من أعضاء الأسرة إلى مصر بعد سقوط الدرعية ونجح في احتلال العاصمة ولو أن هذا النجاح كان قصير الأجل، إذ هزم وأسر في السنة ذاتها (٣٦) انظر (٣٥) أعلاه - وفي سنة ١٨٢١ وهي السنة التالية عاد تركي ابن عبدالله الذي كان قد فر من الدرعية قبل سقوطها على رأس ثورة ضد الاحتلال المصري واستطاع أن يحتفظ بمركزه كسادس ملوك الوهابيين حتى سنة ١٨٢٤ حيث اغتيل نتيجة لمؤامرة دبرها مشاري احد أبناء عمومته الأباعد بالاتفاق مع المصريين.

(١٢) قام مشاري أحد أسباط مشاري (١٠) ابن سعود (٩) على رأس ثورة عقيمة ضد تركي في سنة ١٨٢٧ ولكنه لم يستطع أن يحتفظ بمركزه كحاكم في الرياض التي اختارها تركي لتكون العاصمة الجديدة للأسرة المالكة. وكذلك فشلت محاولة ثانية قام بها للاستيلاء على العرش، وقتل أثناء اجتياح قلعة الرياض على يد القوات الموالية للحاكم الشرعي. ولهذا لا يمكن أن يعد مشاري هذا بين ملوك الوهابيين.

(٥٠) وعليه فقد خلف فيصل أباه كسابع ملوك الوهابيين، ولكن مركزه لم يكن وطيداً أبداً، وسرعان ما استطاع خورشيد باشا الحاكم المصري لبلاد العرب أن يتعاون مع أحد المتنافسين على العرش وهو خالد أحد الأبناء العديدين لسعود الكبير، ولهذا فهو أحد أعضاء الفرع الأكبر، فاضطر فيصل لمبارحة الرياض فراراً إلى الصحراء، وحاول في سنة ١٨٣٨ أن يعقد صلحاً مع المصريين. ولكن خورشيد باشا كان في مركز قوي مكنه من الإصرار على مبارحته البلاد في رحلة إلى مصر. وعلى هذا فإن حكمه توقف بعد جلوسه على العرش مدة أربع سنين من ١٨٣٤-١٨٣٨، ولكنه استطاع أن يعود سنة ١٨٤٣ ليحكم البلاد حكماً ناجحاً قويًّا حتى وفاته في سنة ١٨٦٥.

(٣٤) وفي غضون ذلك استطاع خالد ثالث أبناء سعود أن يرتقي العرش بمساعدة مصر وبقبول الرأي العام فكان الملك الثامن لنجد؛ ولكن سرعان ما تعرض لنقد شديد وثورة ضده إذ كان مجرد لعبة في أيدي المصريين. ولكن الجيوش المصرية انسحبت سنة ١٨٤٠ من بلاد العرب وسرعان ما طلت عليها الثورة بوجهها. ويبدوا أن خالداً لم يبذل محاولات جدية ليكبح من جماحها، وأسرع بالفرار إلى الحجاز.

(٢١) كان قائد الثورة. عبدالله احد أبناء ثنيان وهذا احد أبناء سعود الكبير، ويبدو انه لم يجد صعوبة في احتلال الرياض ١٨٤١، ولكنه حكمها كتاسع ملوك الوهابين حتى سنة ١٨٤٣ عندما انزل به فيصل (٥٠) هزيمة منكرة، ومات في الأسر بعد فترة لم تطل.

(١٣) يعتبر محمد بن مقرن بن عبد الرحمن بن مشارى بن عبد الرحمن بن مشاري بن سعود أكبر الموجودين على قيد الحياة من فرع مشاري.

(١٥) توفي ناصر بن سعود بن إبراهيم بن فرحان بن سعود سنة ١٩٣٩ وقد نيف عمره على (٩٠) عاماً. وقد تزوج وهو في التاسعة

والسبعين من عمره، من الطرافة (٦٧) إحدى بنات فيصل (٥٠) التي ما زالت على قيد الحياة، وما زال ابنها محمد (١٦) أكبر أعضاء فرع فرحان على قيد الحياة. وما زال كذلك على قيد الحياة وهو سعود أخ له من أم أخرى.

(١٨)، (١٩)، (٢٠) ممثلوا الفرع الأكبر من نسل ثنيان وهم فيصل (١٩)، سعود (٢٠) الذي له ولدان هما محمد وفيصل؛ أما الثالث فهو فهد وقد توفي حديثاً؛ أما سعود (٢٠) فهو عالم صاحب مدرسة وأتباع، كما أني مدين له بكثير من المعلومات القيمة عن فروع مشاري وفرحان وثنيان من هذه الأسرة. وهو فضلاً عن هذا مالك النسخة الخطية الأصلية (أو صورة منها) من تاريخ ابن عيسى.

(٢٢) قتل محمد أكبر أبناء عبدالله (٢١) ابن بثيان على الأرجح في العمليات التي استرد بها فيصل (٥٠) الرياض.

(٢٣) ولد أحمد بن إبراهيم بن عبدالله (٢١) في القسطنطينية ولكنه عاد إلى نجد أثناء الحرب العالمية الأولى وخدم الملك الحالي كسكرتير سياسي خاص حتى وفاته المبكرة سنة ١٩٢١. وقد رافق الأمير فيصل ابن جلالة الملك الحالي في رحلته إلى إنكلترا سنة ١٩١٩. وقد تزوجت أرملته في القسطنطينية بينما ابنتها هي الزوجة الأولى للأمير فيصل نجل جلالة الملك وحاكم الحجاز.

(٢٤)، (٢٥) وكذلك ولد شقيقا أحمد وهما عبد القادر وعبد الرحمن في القسطنطينية وبقيا هناك حتى الآن، ولا يكاد يعرف شيء عن نسلهما إذا كان لهما نسل.

(٣٧) عبدالله بن تركي وقد انحاز إلى جانب عبدالله (٥٢) في كفاحه ضد أخيه سعود (٥٣) بعد وفاة فيصل (٥٠) ودافع عن الرياض ضد سعود بضعة أسابيع سنة ١٨٧١، وما زال عدد من نسله على قيد الحياة.

(٣٨) عبدالله بن مساعد (٤٦) توفي دون أن ينجب.

(٣٩) عبد العزيز بن مساعد (٤٦) كان حاكم حائل سنين كثيرة، وقد توفي أربعة من أبنائه الخمسة بدون أن يخلفوا وهم (٤٠)، (٤١)، (٤٢)، (٤٣) بينما ابنه الخامس عبدالله (٤٤) هو الحاكم الحالي للقصيم منذ سنة ١٩٤٧، وله أربعة أبناء.

(٤٥) جوهرة بنت مساعد (٤٦) تزوجت من الملك سنة ١٩٠٨ وهي أم ولديه محمد وخالد وابنته العنود. وتوفيت جوهرة أثناء وباء الحمى الإسبانية سنة ١٩١٩.

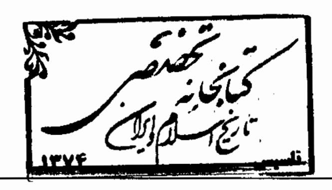
(٤٧) عبدالله بن جلوي كان أحد رفاق الملك وأهم أعوانه في الغزوة الجريئة التي انحسرت عن استعادة الرياض سنة ١٩٠٢. وكان حاكماً للقصيم حتى نقل حاكماً للأحساء بعد سقوطها سنة ١٩١٣. وقد تمتع بالسمعة الطيبة كحاكم للأحساء نظراً لعدالته التي كانت مضرب الأمثال ولخبرته الكبيرة بالخيل والإبل، وتوفي في سنة ١٩١٨.

(٤٨) قتل أكبر أبنائه فهد في عمليات ضد قبيلة العجمان أثناء ثورة فيصل الدويش سنة ١٩٢٩.

(٤٩) أما ابنه سعود فقد خلفه حاكماً للإحساء وما زال قائماً بهذه الوظيفة.

(٥١) محمد ثالث أبناء فيصل (٥٠) انحاز لجانب أخيه عبدالله ضد أخيه سعود وعاش بعد وفاتهما ليموت دون أن ينجب سنة ١٨٩٤.

(٥٢) عبدالله أكبر أبناء فيصل (٥٠) وقد خلف أباه على العرش كالعاشر من ملوك الوهابيين سنة ١٨٦٥، ولكنه فقد عرشه بعد أربع سنين إذ اغتصب الحكم أخوه سعود الذي توفي سنة ١٨٧٥، فعاد عبدالله إلى العرش ثانية وحكم حتى مماته سنة ١٨٨٩. وكان له ولد واحد توفي



صغيراً وبهذا انقرض نسله؛ أما ابنته الوحيدة سارة (٥٢أ) فإنها تزوجت من الملك وما زالت على قيد الحياة، ولكنها لم تنجب.

(٥٣) وكان سعود، ثاني أبناء فيصل (٥٠)، الملك الوهابي الحادي عشر لنجد، الذي حكم من ١٨٦٩-١٨٧٥ وقد أنجب ستة أبناء وما زال عدد كبير من نسله أحياء حتى اليوم.

(٥٤)، (٦٢)، (٦٦) وهم محمد وسعد وعبدالله أبناء سعود وظلوا بعد موت أبيهم يناصبون عمهم عبدالله العداء والانتقاض متخذين إقليم الخرج قاعدة لعملياتهم العدائية. وكادت سلطة عبدالله في هذا الوقت أن تكون اسمية، بينما كان الحاكم الفعلي لنجد هو محمد الرشيد الذي وقع على عاتقه مواجهة أبناء سعود الثلاثة، ولهذا ذهب سالم بن سبهان حاكم الرياض الرشيدي بنفسه إلى الخرج ليعالج الموقف، وألقي القبض على الإخوة الثلاثة وقتلوا سنة ١٨٨٦.

(٥٥) سعود بن عبد العزيز أحد أسباط سعود (٥٣) ظل مقيماً على المطالبة بالعرش كأحد أفراد الفرع الأكبر من الأسرة بعد أن استرد الملك الحالي عرش الرياض. وقد اشتبك معه الملك في أعمال عدائية لبضع سنين حتى سنة ١٩١٢ حيث هزم نهائيًّا واستسلم للملك الذي عفا عنه في كرم ونبل. وقد تزوج شقيقة الملك «نورة» التي أنجبت له ولده محمد (٥٦) المعروف باسم الشقران، وغدا بعد صلحه مع الملك من اعز أصدقائه المقربين إليه ومن أعوانه المخلصين، وما زال حيًّا كأخيه محمد (٦٠) المعروف بغيرته الدينية. وقد عرف سعود وإخوته وأبناء عمومته بالعرائف سابقاً نتيجة لحادث وقع أثناء إحدى المعارك التي تعاونا فيها مع ابن الرشيد ضد الملك، حيث وجدوا بعد ذلك أسرى في معسكر العدو فعرفهم الملك.

(٥٧) فيصل ولد آخر لسعود (٥٥) توفي سنة ١٩٣٨ وترك ولداً اسمه

عبد العزيز (٥٨) ولد في سنة ١٩٢١ وما زال حيًّا، وله ولد اسمه فيصل (٥٩) ولد في سنة ١٩٤٤. وقد تزوج إحدى بنات تركي أكبر أبناء جلالة الملك.

(٦١) وهناك أخ آخر لسعود (٥٥) اسمه تركي فر إلى الأحساء عندما أسر سعود وعفا عنه، ورفع لواء العصيان في محيط قبيلة العجمان: وظل سائراً في أعماله العدائية حتى قتل في إحدى المعارك سنة ١٩١٦.

(٦٣)، (٦٤)، (٦٥) فيصل وفهد وسعود الأبناء الثلاثة لسعود (٦٢) وقد اشتركوا جميعاً في ثورات العرائف في فترات متفاوتة، وقتلوا ثلاثتهم في العمليات العسكرية ضد قبيلة العجمان سنة ١٩١٦.

(٦٦أ) فيصل بن تركى حفيد عبدالله (٦٦) ما زال حيًّا وتزوج لؤلؤة إحدى بنات الملك سنة ١٩٥١.

(٦٧) طرفة إحدى بنات فيصل (٥٠) ولدت سنة ١٨٥٤ وما زالت على قيد الحياة، وهي أكبر أعضاء الأسرة المالكة سناً، وقد تزوجت من ناصر بن فرحان (١٥) الذي أنجبت له ولده محمد (١٦).

(٦٨) وابنة أخرى لفيصل (٥٠) ولدت سنة ١٨٥١ وتوفيت ١٩٣١.

(٦٩) عبد الرحمن والد جلالة الملك، وقد ولد سنة ١٨٥٠ وتوفي سنة ١٩٢٨ وكان أصغر أبناء فيصل، وقد قام أحياناً بدور بالغ الأهمية أثناء الخلاف الذي نشب بين أخويه الكبيرين. كما كان يدعى أحياناً ليقوم على رأس الدولة ولكنه لم يحكم نجد أبداً بموجب حقه الشخصي. وقد ذهب بعد معركة مليدة سنة ١٨٩١ مع أسرته إلى منفاها المختار في الكويت، وبقي هناك حتى مطلع القرن الجديد. وبذل في سنة ١٩٠١ محاولة فاشلة لاسترجاع عرش أجداده، ولكنه بعد هزيمته في معركة الصرف تنازل عن حقه في عرش نجد لأكبر أنجاله الأحياء وهو جلالة الملك الحاكم. وبعد

استرداد الرياض بواسطة ابنه، فإنه كرس حياته لمعاونة الملك في شؤون مملكته وتوسيع رقعتها وتدعيم الملك فيها.

(٧٠) أكبر أبناء عبد الرحمن (٦٩)، ولد سنة ١٨٧٠ وتوفي سنة ١٨٩٠ دون أن يقوم بأي دور في النشاط الكبير الذي ساد هذه الفترة المضطربة.

(٧١) أما فهد وهو ابن آخر لعبد الرحمن (٦٩) فلا يعرف عنه شيء سوى أنه توفي في سنة ١٨٧٥.

(٧٢) نورة بنت عبد الرحمن شقيقة الملك، ولدت سنة ١٨٧٨ وتزوجت من سعود العرافة (٥٥)، وتوفيت في تموز/ يوليو سنة ١٩٥٠ لبضعة أيام سابقة لتاريخ يوبيل جلالة الملك. وكانت هي وأخوها الملك على حب عظيم لبعضهما طوال حياتهما، كما كانت السيدة الأولى في بلد لا يعرف الملكات.

(٧٣) جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود، ولد في ذي الحجة سنة ١٢٩٧هـ الموافق يوم ٢٦ كانون الثاني/ يناير سنة ١٨٨٠.

(٧٤) محمد، رابع أبناء عبد الرحمن، ولد سنة ١٨٨٠ وتوفي في يوم ٢٨ تموز/ يوليو سنة ١٩٤٣. وقد اشترك في غزوة أخيه الملك التي استرد بها الرياض سنة ١٩٠٢ كما اشترك في الأعمال العسكرية بعد ذلك، ولكنه صرف معظم حياته كمزارع محبوب، ولم يساهم في توجيه سياسة تلك الفترة إلّا قليلاً.

(٧٥) خالد أكبر أبناء محمد (٧٤) ولد سنة ١٩٠٤ وقتل في حادث سيارة أثناء الصيد سنة ١٩٣٨. وكان متزوجاً إحدى بنات الملك وهي شقيقة الأمير فيصل، كما تزوج ابنه فهد (٧٥أ) من العنود بنت فيصل. ومن أبنائه الآخرين عبدالله (٧٦) وقد توفي صغيراً.

(٧٧) سعد ثاني أبناء محمد (٧٤) وتوفي صغيراً.

(٧٨) هو أكبر الأحياء من أبناء محمد (٧٤)، ولد سنة ١٩٠٤ وتزوج شيخة بنت الملك.

(٨١) سعود احد أبناء محمد (٧٤)، ولد سنة ١٩١٠ وتوفي سنة ١٩٣٦ دون أن ينجب.

(٨٢) عبدالله احد أبناء محمد (٧٤)، ولد سنة ١٩١٢، وله خمسة أبناء وكلهم أحياء، وولد آخر هو عبد الرحمن (٨٣) وتوفي صغير.

(٨٤) عبد العزيز أحد أبناء محمد (٧٤) وقد توفي صغيراً.

(٨٥) عبد الرحمن بن محمد (٧٤)، ولد سنة ١٩٣٠ وتوفي سنة ١٩٥٠ولم يكن له ولد.

(٨٦) بندر بن محمد (٧٤)، ولد سنة ١٩٣١، وله ولد واحد وبنتان.

(٨٧) بدر اصغر أبناء محمد (٧٤) ولد سنة ١٩٣٥.

(٨٨) سعد خامس أبناء عبد الرحمن (٦٩) وقد قتل في العمليات العسكرية ضد قبيلة العجمان سنة ١٩١٦. وهو شقيق الملك، ومن أشد ضباطه ولاء وإخلاصاً في القتال الذي أسفر عن توطيد ملكه وتدعيم مركزه. وقد وقع أسيراً في يد الشريف حسين أمير الحجاز سنة ١٩١٢ في غضون غارته على نجد، واحتفظ به ليساوم على افتدائه، وكانت النتيجة أن وافق أخوه «الملك» على عقد اتفاقية ليست في مصلحته.

(٨٩) فيصل أكبر أبناء سعد (٨٨)، ولد سنة ١٩١٠ وتزوج قومشة إحدى بنات الملك وشقيقة الأمراء منصور ومشعل ومتعب، وقد ولد ابناه خالد (٩١) وسعد (٩٢) في سنتي ١٩٤٥، ١٩٤٩ على التوالي، كما رزق بنتاً (٩٠) سنة ١٩١٦. وله أيضاً بنتان أخريان في سن الطفولة.

(٩٣) فهد ثاني أبناء سعد (٨٨) ولد سنة ١٩١٢ وتزوج من العنود

بنت الملك سنة ١٩٤٠ ، ورزق ابنه عبدالله (٩٨) سنة ١٩٣٥ الذي توفي سنة ١٩٤٠ ، كما ولد ابنه سعد (٩٥) سنة ١٩٤٠ وأنجبت له العنود بنتين.

(٩٤)، (٩٦) في سنتي ١٩٤١ ، ١٩٤٤ على التوالي، وولدين هما خالد (٩٧) وفيصل (٩٩) ولدا على التوالي سنتي ١٩٤٥ ، ١٩٤٧ .

(١٠٠) سعود اصغر أبناء سعد (٨٨) من جوهرة بنت سديري، ولد سنة ١٩١٤ وتزوج العنود (**انظر (٩٣) قبل ذلك**) بنت الملك ولم يرزق منها أولاداً. وانفصلا سنة ١٩٣٥. وله من امرأة أخرى ولد يدعى سعد.

(١٠١) ولد سنة ١٩٤٤ .(١٠٢) سعود سادس أبناء عبد الرحمن (٦٩) ولد سنة ١٨٩٠ تقريباً ولم يشترك أبداً في الأعمال العامة لأنه بطبيعته يميل إلى العزلة. وله ثلاثة أبناء وأربعة أحفاد أحدهم سعد الذي ولد سنة ١٩٣٠ ، أما حمود (١٠٣) ابن ابنه عبدالله فقد ولد سنة ١٩٤٥ .

(١٠٥) عبدالله سابع أبناء عبد الرحمن (٦٩) ولد سنة ١٨٩٠ تقريباً واشترك اشتراكاً فعالًا في الأعمال العسكرية (بما في ذلك الاستيلاء على مستعمرة الإخوان الشهيرة في الغطغط وتدميرها) التي انتهت بتبديد شمل حركة العصيان بزعامة فيصل الدويش سنة ١٩٢٠-١٩٣٠. وكان لسنين عديدة عضواً بارزاً في مجلس الملك. وأصبح بعد نشوب الحرب العالمية الثانية على صلة وثيقة بحكم البلاد كأحد المستشارين الرسميين للملك وعضواً في المجلس الخاص. وولد فيصل أكبر أبنائه (١٠٦) سنة ١٩٢٨ وله ابنة، وله غير هذين الولدين عشرة أبناء من (١٠٧-١١٦) ولدوا في الفترة بين سنتي ١٩٣٣-١٩٤٦ ، وتزوج ثلاثة منهم حديثاً. وله بعد ذلك عشر بنات.

(١١٧) أحمد: ثامن أبناء عبد الرحمن (٦٩) ولد سنة ١٩٢٠ تقريباً،

ولم يشترك في الأعمال العامة. وله ولدان هما محمد (١١٨) وعبد الرحمن (١١٩) ولدا في سنتي ١٩٣٤، ١٩٤٣ على التوالي.

(١٢٠) عبد المحسن: تاسع أبناء عبد الرحمن (٦٩) وتوفي طفلاً.

(١٢) مساعد: عاشر أبناء عبد الرحمن (٦٩) ولد سنة ١٩٢٢ ولم يشترك في الأعمال العامة، إلّا أنه من رجال الزراعة البارزين الناجحين، وله ولدان هما عبدالله (١٢٢) وعبد الرحمن (١٢٣) وقد ولدا في سنتي ١٩٣٩، ١٩٤٤ على التوالي، فضلاً عن ابنتين.

(١٢٤) سعد: الحادي عشر من أبناء عبد الرحمن (٦٩) ولد سنة ١٩٢٥ وليس له أولاد، ولم يشترك أيضاً في الأعمال العامة.

ملاحظات تاريخية
عن أسرة الملك عبد العزيز آل سعود

(١) تركي أكبر أبناء الملك، ولد في الكويت سنة ١٩٠٠ وتوفي أثناء وباء الأنفلونزا الذي اجتاح البلاد سنة ١٩١٩. وبدأ يساهم في العمليات العسكرية وعمره (١٦) سنة، كما قاد القوات الوهابية في العمليات الأولية ضد ابن الرشيد سنة ١٩١٨.

(١أ) ولد ابنه فيصل بعد وفاته سنة ١٩٢٠ وهو أطول أعضاء الأسرة المالكة قامة إذ يبلغ طوله ستة أقدام وأربعة ونصف بوصة أو ما يوازي ١٩٤ سم وله ابنان (١أأ، ١ب) ولدا في سنتي ١٩٤٤، ١٩٤٦ على التوالي.

(٢) سعود ثاني أبناء الملك ولد في الكويت ١٩٠٢، وأخذت له البيعة بولاية العهد في سنة ١٩٢٣. وهو اليد اليمنى لأبيه في حكم البلاد بصفته القائد الفعلي غير الرسمي للجيش[١] وحاكم نجد في نفس الوقت. وقد زار بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية وغيرهما من البلاد الأوروبية والهند ومصر في مناسبات عدة ونيابة عن أبيه. وقد ولد أكبر أبنائه الأحياء (٢ب) في سنة ١٩٢٣ تقريباً، بينما توفي أبناؤه الثلاثة الصغار (٢ط، ٢ى،

(١) عين سموه الملكي منذ شهر آب/ أغسطس سنة ١٩٥٣ قائداً للقوات المسلحة (المترجم).

٢ك)[1] الذين ولدوا في سنين ١٩٤٦، ١٩٤٧، ١٩٤٧ على التوالي. هذا وقد ولد حفيده الوحيد (٢هـ أ) سنة ١٩٤٨ وحفيدته الوحيدة (٢هـ ب) سنة ١٩٤٩. أما أول أبنائه (٢أ) فقد توفي صغيراً.

(٣) نورة بنت الملك تزوجت من ابن عمها فيصل بن سعد (٨٩ في جدول الأسرة العام) وتوفيت في حادث سنة ١٩٣٠ وتركت ابنة تزوجت عبدالله بن فيصل (٤أ).

(٣) خالد، ولد سنة ١٩٠٣ وتوفي طفلاً.

(٤) فيصل ولد سنة ١٩٠٤، وقام في سنة ١٩٤٩ نيابة عن والده بزيارة لإنكلترا، فزار ميادين القتال في فرنسا والفلاندر أثناء هذه الرحلة. وقام منذ ذلك الحين بكثير من أمثال هذه الزيارات للخارج بما في ذلك روسيا وتركيا في إحدى المناسبات. وقد حضر حفلة افتتاح هيئة الأمم المتحدة بمدينة سان فرنسيسكو سنة ١٩٤٥ بصفته وزير الخارجية في حكومة أبيه. ومنذ هذا التاريخ وهو يمثل حكومة المملكة العربية السعودية في اجتماعات هذه الهيئة. وفي سنة ١٩٢٠ قاد الحملة الناجحة على إقليم عسير، بينما تولى قيادة الجيش العربي ضد اليمن سنة ١٩٣٤ واحتل تهامة كلها بما فيها ميناء الحديدة وأرغم على طلب الصلح. وقد كان خلال العشرين سنة الماضية حاكماً للحجاز إلى جانب كونه وزيراً للحربية. وكانت أمه من سلالة مؤسس الوهابية.

(٤أ) ابنه عبدالله الذي كانت أمه سلطانة بنت سديري، وقد ولد في سنة ١٩٢١، ولعله أبرز أفراد الجيل الثاني من سلالة الملك، وله تجارب كثيرة في الناحيتين السياسية والإدارية إذ كثيراً ما كان ينوب عن أبيه كوزير الخارجية وحاكم للحجاز أثناء رحلاته الكثيرة إلى الخارج.

---

(١) ازداد عدد أسرته منذ سنة ١٩٤٩.

(٤ب) العنود أخت عبدالله، ولدت في سنة ١٩٢٣ وتزوجت من فهد ابن خالد بن محمد **(٧٥أ)** في الجدول العام.

(ب) شقيقة فيصل، وتزوجت من خالد بن محمد **(٧٥)** في الجدول العام وتوفيت في حادث سيارة سنة ١٩٢٨.

(٥، ٨) فهد وسعد، مات كلاهما صغيراً في وباء الحمى الإسبانية سنة ١٩١٩ وقد ولدا في سنتي ١٩٠٥، ١٩١٤ على التوالي.

(٦، ٧ «جـ») على التوالي محمد (ولد سنة ١٩١٠) خالد (ولد سنة ١٩١٢) وأختهما العنود (ولدت سنة ١٩١٧)، وقد رزق بهم الملك من زوجه جوهرة بنت مساعد **(٤٥، ٤٦ في الجدول العام)** التي أمها نورة بنت أحمد السديرى. وكانت أمهم إحدى ضحايا وباء الأنفلونزا المذكور سنة ١٩١٩. وفي سنة ١٩٢٥ قاد محمد الحملة الوهابية التي استولت على المدينة المنورة أثناء حرب الحجاز ومنذ هذا التاريخ وهو يحظى بلقب أمير المدينة، ولو انه لم يعهد إليه بحكمها ولم يشغل أي منصب آخر في الحكومة العربية السعودية؛ وكذلك شان خالد فلم يتقلد وظيفة حكومية قط. أما أختهما العنود فقد احتلت لسنين عدة مركزاً يشبه مركز كبرى بنات الملك في انكلترا. وقد تزوجت أولاً من ابن عمها سعود **(١٠٠ في الجدول العام)** ولم تنجب منه، ثم تزوجت أخاه فهدا **(٩٣ في الجدول العام)** فولدت له ابنين وبنتا **(٩٤، ٩٥، ٩٨ في الجدول العام)**.

(٩) ناصر، ولد سنة ١٩٢٠ وتقلد منصب حاكم الرياض مدة سنتين بين ١٩٤٥-١٩٤٧، وتزوج مضاوي بنت أحمد السديري (١ب بجدول أسرة السديري) فأنجبت له خمسة أبناء **(٩ب، ٩جـ، ٩د، ٩ز، ٩ح)**، وبنتا، وكذلك تزوج إحدى بنات عبدالله بن متعب بن الرشيد (توفي سنة ١٩٤٧) الحاكم قبل الأخير لحائل، وأنجبت له ولداً **(٩و)**.

(١) سعد، كانت أمه من إقليم القصيم.

(د) شيخة. ولدت سنة ١٩٢٢ وتزوجت من فهد بن محمد (**٧٨ في الجدول العام**).

(١١) فهد، ولد سنة ١٩٢١ وهو أكبر أبناء حصة بنت أحمد السديري وهم كثيرون.

(١٢) منصور أكبر أبناء شديدة التي توفيت سنة ١٩٣٨، وقد ولد في سنة ١٩٢٢ وتوفي في باريس بمرض الكلى يوم ٢ أيار/ مايو سنة ١٩٥١. وكان يتقلد منصب وزير الدفاع والطيران منذ سنة ١٩٤٠، وترك طفلاً ذكراً (١٢ج) وابنة (١٢ب).

(هـ) جوهرة تزوجت من سعود العرافة (**٥٥ بالجدول العام**) وبقيت على ذمته حتى سنة ١٩٥٠ حيث طلقها ليتزوج (في سنة ١٩٥١) حصة (ز) إحدى بنات الملك من هيا بنت سعد السديري (**انظر جدول أسرة السديري**).

(و) لؤلؤة تزوجت فيصل بن تركي (**٦٦ بالجدول العام**) سنة ١٩٥١.

(١٣) عبدالله، ولد سنة ١٩٢٣، وهو ابن بنت العاصي بن شريم من شمّر التي توفيت سنة ١٩٣٤.

(١٤) بندر، ولد سنة ١٩٢٣، وكانت أمه بزة وتوفيت سنة ١٩٤٠، وله ابن (**١٤أ**) ولد سنة ١٩٤٣، وبنت.

(١٥) مساعد ولد سنة ١٩٢٣ وولد أخوه سعد (١٠)، عبد المحسن (١٧) في سنتي ١٩٢٠، ١٩٢٥ على التوالي، وكلهم أبناء جوهرة بنت سعد السديري (انظر جدول أسرة السديري).

(١٦) سلطان الابن الثاني من حصة بنت أحمد السديري (**س بجدول أسرة السديري**)، ولد سنة ١٩٢٤ وخلف أخاه ناصر كحاكم للرياض

سنة ١٩٤٧، وله ولدان (١٦أ، ١٦ ب) وأربع بنات (**١٦ج**): ورزق بولديه على التوالي في سنتي ١٩٤٩، ١٩٥٠.

(١٨) مشعل الابن الثاني من شديدة، ولد سنة ١٩٢٦ وخلف أخاه منصور كوزير للدفاع سنة ١٩٥١، وله بنتان ولدتا في سنتي ١٩٤٥، ١٩٤٦، وثلاثة أبناء ولدوا في سنين ١٩٤٧، ١٩٤٨، ١٩٤٩ على التوالي **(من ١٨أ إلى ١٨ هـ)**.

(١٩) عبد الرحمن ثالث أبناء حصة بنت سديري **(انظر ١١ و١٦ أعلاه)** وله ولدان وأربع بنات **(من١٩أ - ١٩ جـ)** أما الإخوة الأربعة الآخرون من حصة هذه فهم نايف: **(٢٦)**، تركي **(٢٨)**، سلمان **(٣٢)**، أحمد **(٣٣)**، فقد ولدوا على التوالي في سنين ١٩٣٣، ١٩٣٤، ١٩٣٦؛ ١٩٣٧ وليس لأحدهم سلالة.

(ح) قماشة بنت شديدة، ولدت سنة ١٩٢٧، وهي زوجة فيصل بن سعد (٨٩ بالجدول العام).

(٢٠) متعب أصغر أبناء شديدة، ولد سنة ١٩٢٨ وله طفلة **(٢٠أ)**.

(٢١) طلال بن منير، ولد سنة ١٩٣٠ بالطائف في السنة التالية.

(ط) بنت وهي ابنة هيا بنت سديري.

(٢٢) بدر بن هيا بنت سديري ولد سنة ١٩٣١ وتوفي في نفس السنة.

(٢٣) طلال سمي باسم أخيه المتوفي، وهو ابن منير (المعروفة باسم أم طلال) ولد سنة ١٩٣١، وهو المشرف على تدبير القصور الملكية، وله ابن واحد، هو فيصل المولود سنة ١٩٤٩.

(٢٤) بدر سمي كذلك باسم أخيه المتوفى، وهو ابن هيا، ولد سنة ١٩٣٣.

(٢٥) مشاري ولد سنة ١٩٣٢ وهو ابن بشرى.

(٢٧) نواف الابن الثاني من منير، ولد سنة ١٩٣٤، وله ابن طفل (٢٧أ).

(٢٩) فواز ولد سنة ١٩٣٤، وأمه بزة.

(٣٠) ماجد ولد سنة ١٩٣٤ وهو ابن مضاوي وتوفي سنة ١٩٤٠.

(ى) بنت توفيت في مهد الطفولة.

(ك) بنت توفيت في مهد الطفولة.

(ل) سلطانة بنت مضاوي.

(م) هيا بنت مضاوي.

(٣١، ٤٠) عبدالله (ولد سنة ١٩٣٥)، عبد المجيد (ولد سنة ١٩٤٠). وكذلك بدر (٢٤) وكلهم أبناء هيا بنت سعد السديري.

(٣٤، ٣٦، ٣٩) على التوالي تامر (ولد سنة ١٩٣٦)، ممدوح (ولد سنة ١٩٤٠)، مشهور (ولد سنة ١٩٤٢)، وهم أبناء بنت الشعلان من الرولة.

(ن) مضاوي ولدت سنة ١٩٣٩ وهي بنت منير (أم طلال).

(٣٥، ٣٧) أحمد (ولد سنة ١٩٤٠)، عبد السلام (ولد سنة ١٩٤١؟) ولا يعرف اسماً أميهما على وجه التأكيد.

(٣٨، س) هذلول (ولد سنة ١٩٤١) وأخته عبطاء (ولدت سنة ١٩٤٤) وهما ولدا سيدة اليمنية.

(٤١) صتام ولد سنة ١٩٤٣ (ولم يتحقق اسم أمه).

(٤٢) مقرن ولد سنة ١٩٤٣ وهو ابن بركة اليمنية.

(٤٣) ابن آخر له (لا يعرف اسمه) ولد سنة ١٩٤٢ وتوفي سنة ١٩٤٤ وأمه هي خضرة اليمنية.

(ع) طرفاء بنت عيشة، ولدت سنة ١٩٤٦.

(٤٤) حمود بن فطيمة اليمنية، ولد سنة ١٩٤٧ وهو أصغر أبناء الملك جميعاً كما ولدت له ابنتان في نفس السنة ولكنهما توفيتا في باكورة الطفولة.



سلالة أسرة السديري

	ء	هـ	و	ز	ح	ط	ي
	محمد السديري	علي	فوزان	حمد	محمد	سليمان	تركي
	بن						
ج	راجي						
	بن						
ب	أمير						
	بن						
ا	بدران						
	من						
	البدريين						
	(آل بدر)						
	قسم من قبيلة						
	الدواسر						

* ملاحظات:

١- تبين الحروف في رأس الجدول ترتيب أجيال الأسرة.

٢- أسماء الإناث بين قوسين.

٣- الحرف بين قوسين قرين كل اسم يدل على الملاحظات التفسيرية.

تابع/ سلالة أسرة السديري

ك	ل	م	ن	س	ع	ف
محمدد	(١) أحمد الكبير	(ب) محمد	(ز) أحمد	(ح) تركي	فهد، محمد	
					خالد، أحمد	
					عبد المحسن	
					عبد الرحمن	
				(ط) عبد العزيز	عبدالله	
					سلطان، نايف	
				(ي) خالد	فهد، محمد	
					مسعد، تركي	
					أحمد، عبد العزيز	
					عبدالله، سلطان	
				(ك) محمد	زيد	
					مشعل، خالد	
				(ل) عبد الرحمن	فيصل سلطان،	
					سلمان	
				(م) مساعد	أحمد	
					خالد	
				سليمان		
				(ن) بندر		
				(س) (حصة)		
				(ع) (سلطانة)		
				(١ب) (مظهي)		
		عبد المحسن	سعد	(ف) عبدالله	مساعد	فهد
					عبد الرحمن	
					محمد، سعد	
					فهد، تركي	
				نايف	مساعد	نايف
				عبد المحسن	(ق) أحمد	مساعد
					مساعد	
				ناصر	سعد	
					فهد	
				(ر) فهد	سعد	
					عبد المحسن	
				(س) (هيا)		مساعد
				(ت) (جوهرة)		أحمد
			ناصر	عبدالله	(ش) ناصر	
					عبد العزيز	
					تركي	

تابع/ سلالة أسرة السديري

ل	م	ن	س	ع	ف
		(١ح) محمد	محمد	تركي؟ فهد عبد المحسن؟	عبد المحسن أحمد
	(ج) تركي (د) عبد العزيز عبد الرحمن	أحمد	(ص)عبد الرحمن	عبدالله فهد	
	(هـ) (ساره) (و) (نوره)				
ناصر	عبدالله	ناصر	(+) عبدالله		
فراج	عبدالله	(لا) محمد			
تركي	عبدالله	تركي	عبدالله	عبد العزيز	
	سليمان	تركي	سليمان		
	محمد	ناصر	محمد تركي سليمان عبد العزيز		
		أحمد	محمد عبد العزيز		
	عبد الرحمن	تركي (ز) سعود محمد عبد الرحمن			
	سعد	تركي عبد الرحمن محمد			
	(١١) أحمد	تركي خالد عبد العزيز			



ملاحظات عن أسرة السديري

المعروف أن قبيلة الدواسر تكونت في القرن الهجري (الثاني عشر الميلادي) من عناصر من قبيلتي أسد ووائل واستقرت في وادي الدواسر وحوله. وتنتسب أسرة السديري إلى أحد فروع هذه القبيلة وهم البدريون، أو آل بدر، نسبة إلى مؤسس هذا الفرع الشهير بدر الذي كان أول من استوطن وادي الدواسر حوالي سنة ١٤٠٠ب.م

وتشير الملاحظات التالية إلى أفراد هذه الأسرة الواردة أسماؤهم في جدول سلالتها والمميزين بنفس الحروف فيه.

(ج) راجي بن أمير كان أول من هاجر من الأسرة من وادي الدواسر صوب الشمال إلى إقليم القصيم حيث استقر في عنيزة

(د) محمد بن راجي هاجر من عنيزة ليقيم في عودة في إقليم سدير، وهو أول من لقب بالسديري.

(هـ) علي بن محمد السديري؛ كان أول من أقام في الغاط من الأسرة حوالي سنة ١٥٦٠ب.م ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الغاط موطن الأسرة حتى اليوم.

(ط) سليمان بن محمد بن حمود حفيد علي، ويعتبر مؤسس فرع الأسرة المبين بجدول السلالة. ويبدو أن أثار الفروع السابقة من نفس

الجزع قد فقدت في مجاهل التاريخ. وقد اشتهر سليمان خلال نهاية القرن السابع عشر وفجر القرن الثامن عشر إذا كان من كبار معاصري الشيخ محمد بن عبد الوهاب قبل أن يتولى منصب الوزارة.

(ى) تركي بن سليمان اشتهر في فجر حركة الوهابيين في حكم أول ملوك الوهابيين محمد بن سعود.

(ك) محمد بن تركي كان معاصراً للانتصارات الأولى للحركة الوهابية تحت الملك الوهابي الثاني عبد العزيز بن سعود في الحلقات الأخيرة من القرن الثامن عشر.

(أ) أحمد الكبير تمييزاً له عن أسباطه الذين يحملون نفس الاسم، عاش في الثلثين الأول والثاني من القرن التاسع عشر (١٨٠٠-١٨٦٨) وقضى من عمره (٥٠) سنة في عمل إيجابي من الناحيتين العسكرية والإدارية في الحركة الوهابية وقد اشترك فتى في الحملة ضد المصريين بقيادة إبراهيم باشا التي انتهت بسقوط وتخريب الدرعية عاصمة الوهابيين، وعين أثناء احتلال المصريين لنجد مديراً لإيرادات ولاية الأحساء التي أصبح فيما بعد حاكماً لها. ويبدو انه شغل هذا المنصب طوال حكم تركي بن سعود (١٨٢١-١٨٣٤) وخلال حكم فيصل القصير (١٨٣٤-١٨٣٧). وكذلك خلال الاحتلال المصري (الثاني) بقيادة خورشيد باشا ومدة حكم الأمير خالد بن سعود (١٨٣٧-١٨٤١). وعندما عاد فيصل إلى العرش سنة ١٨٣٤، عين أحمد الكبير قائداً للحملات الوهابية على عُمان في السنين التالية تاركاً ابنه محمد ليعمل بدله في الأحساء. وبعد انتهاء حملات عُمان عاد إلى وظيفته الأولى حاكماً للأحساء وترك ابنه تركي ليحكم عُمان، كما أصبح ابنه محمد، وقد ترك حكم الأحساء حاكماً لولاية القصيم. وظل أحمد الكبير حاكماً للأحساء حتى وفاته سنة ١٨٦٨.

(ب) محمد بن أحمد الكبير، شغل وظيفة حاكم الأحساء ثم حاكم القصيم وخلف أباه حاكماً للإحساء، وبقي هناك حتى حوالي سنة ١٨٧٠، عندما استقال من منصبه أثناء الكفاح على العرش بين عبدالله بن فيصل، الأمير الحاكم، وأخيه سعود وانحاز بكل قوته إلى الأخير، ثم قتل بعد ذلك في معركة طلال عندما كان يقود قوات سعود.

(جـ) تركي بن أحمد الكبير قتل حوالي سنة ١٨٧٠ في عُمان إذ خلف أباه حاكماً للإقليم بعد فتحه كما سبق القول.

(د) عبد العزيز بن أحمد الكبير، قتل في معركة طلال سالفة الذكر.

(هـ) سارة بنت أحمد الكبير تزوجت من عبد الرحمن أصغر أبناء فيصل وأصبحت بذلك أم جلالة ملك المملكة العربية السعودية الحالي: وكذلك هي أم أخيه سعد (الذي قتل في معركة سنة ١٩١٦) وأم أخواته نورة (توفيت سنة ١٩٥٠) وبزة وهيا.

(و) نورة بنت أحمد الكبير، تزوجت جلوي بن تركي أخ الأمير فيصل ورزقت منه جوهرة زوج الملك الحالي، وعبد العزيز بن مسعد حاكم حائل الآن وتوفيت سنة ١٩١٩.

(ز) أحمد بن محمد حفيد أحمد الكبير ولد بين سنتي ١٨٦٩-١٨٧٠ وتوفي سنة ١٩٣٥-١٩٣٦ بعد خدمة إدارية جليلة لدى جلالة الملك عبد العزيز آل سعود. وقد اشترك فتى في العمليات العسكرية ضد محمد الرشيد التي أسفرت عن أفول نجم الأسرة السعودية بعد معركة مليدة سنة ١٨٩١. ويبدو أنه لم يقم بأي دور إيجابي في الشؤون العامة أثناء الاحتلال الرشيدي لنجد، ولكنه بعد استرجاع الرياض بواسطة الملك في سنة ١٩٠٢، اشترك في الأعمال العسكرية التي انتهت بتحرير الولايات الشمالية. وقد قام بوجه خاص بدور أساسي هام في هزيمة ابن الرشيد

عند شقرا سنة ١٩٠٣ وعين حاكماً لولاية الوشم؛ أما وقد قام بعد ذلك بخدمات جليلة في رد عدوان ابن رشيد وتحطيم هجماته على إقليم سدير، فإنه عين حاكماً لهذا الإقليم الذي ينتمي إليه، ولكنه مع ذلك استمر في الاشتراك مع سيده في أعماله العسكرية ضد القصيم خلال السنين التالية، التي ظل بعدها حاكماً لسدير حتى سنة ١٩٠٦ حيث نقل حاكماً للافلاج. وفي سنة ١٩٠٨ عين حاكماً للقصيم على أثر نفي ابن مهنى أمير بريدة المتمرد، وعاد بعد سنتين إلى الافلاج ليبقى هناك سنة ١٩١٦ حيث تقاعد عن الخدمة نهائيًّا وعاد إلى أملاك أسرته في الغاط. وقد كان مثالاً عالياً في الخدمة العامة وما زال أبناؤه وأبناء عمومته يحتذون مثله في إخلاص حتى اليوم. هذا وهو والد إحدى أزواج الملك وعم زوج أخرى له، عاشتا في كنف جلالته عاماً على أحسن وفاق وأطيب معاشرة، كما كان عم زوجة ثالثة مكثت مع جلالته فترة اقصر: وقد أنجب هذه الزوجات الثلاث لا أقل من ثلاثة عشر من أبناء الملك، فضلاً عن بنات له عديدات.

(ح) تركي بن أحمد، ولد سنة ١٩٠١ وشغل منصب حاكم عسير سنين طويلة.

(ط) عبد العزيز بن أحمد، ولد سنة ١٩٠٧ وتنقل بين مناصب حكام الولايات ويشغل الآن وظيفة حاكم قريات الملح في وادي سرحان على الحدود الأردنية.

(ى) خالد بن أحمد، ولد سنة ١٩١٤، واشتغل كذلك حاكماً لولايات مختلفة وأصبح بعد ذلك حاكماً للأقاليم الشمالية لعدة سنين حيث كان مقره تبوك.

(ك) محمد بن أحمد هو الحاكم الحالي للأقاليم الذي يخترقه خط أنابيب البترول العربية.

(ل) عبد الرحمن بن أحمد وهو حاكم إقليم الجوف.

(م) مساعد بن أحمد حاكم جيزان والإقليم المتاخم للحدود اليمنية.

(ن) بندر أصغر أبناء أحمد، ولد سنة ١٩٣٤ وهي السنة السابقة لوفاة أبيه.

* **ملاحظة**: يتضح مما سبق أعلاه أن لا أقل من ستة من أبناء أحمد الثمانية هم في الوقت الحاضر حكام لأقاليم في المملكة العربية السعودية.

(س) حصة بنت أحمد تزوجت من جلالة الملك حوالي سنة ١٩٢١ ورزقت منه بأبناء لا يقلون عن سبعة إلى جانب بنات كثيرات؛ وأبناؤها هم: فهد، سلطان (حاكم الرياض الحالي)، عبد الرحمن، تركي، سلمان، نايف، أحمد.

(ع) سلطانة بنت أحمد الصغرى، تزوجت من أحد أبناء الملك وهو الأمير فيصل وزير الخارجية ونائب الملك في الحجاز، وهي أم أكبر أبنائه عبدالله.

(ف) عبدالله بن سعد ابن عم أحمد، ولد سنة ١٩٠٢ وتقلد منصب الحاكم في ولايات كثيرة، وهو حاكم المدينة المنورة الآن حيث عين في هذا المنصب منذ اثنتي عشرة سنة.

(ر) فهد بن سعد، وهو أيضاً ابن عم أحمد، وهو الآن حاكم وادي الدواسر الوطن الأصيل للأسرة.

(ص) هيا بنت سعد، بنت عم أحمد، تزوجت من الملك منذ عشرين سنة تقريباً. وهي أم ثلاثة من أبنائه هم (بدر، عبدالله، عبد المجيد) إلى جانب بنات كثيرات. وكانت متزوجة أولاً من محمد أخ الملك وله منها ولد واحد هو عبدالله.

(ت) جوهرة بنت سعد، بنت عم ثانية لأحمد، وكانت متزوجة أولاً

من سعد أخ الملك ورزقت منه بولد واحد هو سعود. وبعد وفاة سعد في معركة سنة ١٩٤٦ تزوجت من الملك وولدت له ثلاثة أبناء هم (سعد، مساعد، عبد المحسن) وبضع بنات.

(ق) أحمد بن عبد المحسن بن سعد وهو حاكم العلا الحالي.

(ش) ناصر بن عبدالله بن ناصر وهو حاكم الوجه الحالي.

(ض) عبد الرحمن بن أحمد أحد أسباط أحمد الكبير وقد تقلد وظيفة حاكم جدة لاثنتي عشرة سنة.

(+) عبدالله بن ناصر، ولد سنة ١٩١٥ وتوفي سنة ١٩٥٠، وهو من أبناء عمومة أحمد الكبير.

(X) محمد بن عبدالله، أحد أبناء عمومة أحمد الكبير وما زال حيًّا وليس له ولد.

(ز) سعود بن عبد الرحمن وهو أيضاً أحد أبناء عمومة أحمد الكبير، وكان حاكماً لمهد الذهب عدة سنين. وهذا إقليم به مناجم للذهب تستغلها نقابة التعدين العربية السعودية.

(١١) أحمد بن تركي وهو ابن عم أحمد الكبير الوحيد على قيد الحياة وهو حاكم قنفدة.

(١ب) مظهر إحدى بنات أحمد الصغير، تزوجت من ناصر أحد أبناء جلالة الملك، ورزقت منه خمسة أبناء هم: خالد، عبدالله، فهد، تركي، أحمد.

(١حـ) محمد بن عبد المحسن أحد أسباط أحمد الكبير وقتل في معارك ضد ابن الرشيد، وسمي ابنه الذي ولد بعد وفاته محمد كأبيه.

* **ملاحظة**: مما تجدر ملاحظته أن لا أقل من ثلاثة عشر من أعضاء أسرة السديري كانوا حكاماً لأقاليم في المملكة العربية السعودية

ومعظمهم شغل منصبه مدة طويلة. ولهذه الأسرة أهمية كبيرة تتمثل في الحقيقة التالية وهي أن حوالي أحد وعشرين من أبناء الملك وأحفاده يجري في عروقهم دم أسرة السديري عن طريق أمهاتهم؛ هذا فضلاً عن أميرات عديدات وغيرهن من أبناء وبنات عمومة الملك نفسه.



الملك عبد العزيز مع ولي العهد الأمير سعود،
في صورة التقطها ديغوري في خمسينيات القرن الهجري الماضي.



ملحق الصور





الملك عبد العزيز آل سعود يقف أمام عدسة المس جيريترود بيل.



الملك عبد العزيز آل سعود والسير بيرسي كوكس مع الشيخ خزعل أمير المحمرة - البصرة.

الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود على ظهر الباخرة الملكية «كيجوما».



الملك عبد العزيز آل سعود والسير بيرسي كوكس والمس بيل.



الملك عبد العزيز مع اللواء السير سبيرز والشيخ يوسف ياسين (واقفاً) وعبدالله بلخير (في الستينات الهجرية/ الأربعينات الميلادية) في جدة.



الاجتماع التاريخي بين الملك عبد العزيز آل سعود والملك فيصل الأول ملك العراق على ظهر الفرقاطة الملكية التابعة للأسطول البريطاني «لوين» في الخليج العربي في ٢٣ رمضان ١٣٤٨ هـ (١٩٣٠). ويظهر على يمين الملك فيصل السير فرانسيس همفريز المندوب السامي البريطاني في العراق فقائد الفرقاطة ثم السير يويهام قائد القوات الجوية في العراق. ويظهر على يسارالملك ناجي السويدي رئيس الوزراء العراقي. ويقف وراء الملك فيصل رستم حيدر بك سكرتيره ثم الشيخ حافظ وهبة ثم السير كورنو اليس مستشار وزراة الداخلية العراقية ثم فؤاد حمزة.



صورة للمسجد الحرام بمكة المكرمة التقطها المهندس المصري محمد صادق بك في عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠م.



الملك عبد العزيز في مجلسه الخاص - الرياض (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م).

الملك عبد العزيز مع الشيخ يوسف ياسين في جدة.



الملك عبد العزيز آل سعود مع الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة حاكم البحرين في أبو حدرية، ١٣٥٨هـ (٢٩ أبريل ١٩٣٩م).



الملك عبد العزيز آل سعود يحيط به كل من: اللورد كيليرن، الأمير منصور بن عبد العزيز، الأمير عبدالله بن عبد الرحمن، السير ونستون تشرشل. السيد أنتوني ايدن. الأمير محمد بن عبد العزيز والسير ادوارد جريج (الوقوف من اليسار إلى اليمين) الشيخ يوسف ياسين (خلف السير ونستون تشرشل)، والشيخ عبدالله السليمان، الشيخ بشير السعداوي، الشيخ حافظ وهبة.



ثلاثة من أنجال الملك عبد العزيز في القاهرة. الأمير طلال بن عبد العزيز على يمين الصورة والأمير نواف بن عبد العزيز على اليسار، وفي مقابلها الأمير متعب بن عبد العزيز.

الملك عبد العزيز والملك فاروق في الموكب الملكي - القاهرة.



الملك عبد العزيز آل سعود والملك فاروق والأمير عبدالله بن عبد الرحمن يشاهدون عرضاً عسكرياً في المنصة الملكية في الماظة بالقاهرة.



الملك عبد العزيز والملك فاروق في حدائق قصر النيل في القاهرة بمرافقة الأمير عبدالله بن عبد الرحمن.



الملك عبد العزيز آل سعود والملك فاروق متوجهان لتأدية الصلاة بالجامع الأزهر بالقاهرة.



الملك عبد العزيز آل سعود وولي عهده الأمير سعود في حفل افتتاح خط سكة الحديد بين الرياض والدمام في ١٨ محرم ١٣٧١هـ (١٩ أكتوبر ١٩٥١م)- الرياض.



الملك عبد العزيز مع ولديه الأمير سعود ولي العهد والأمير فيصل.



الملك عبد العزيز يستقبل الشريف عبدالله بن الحسين ملك الأردن في الرياض، ٢١ شعبان ١٣٦٧هـ (٢٩ يونيو ١٩٤٨م).



مخيم الملك عبد العزيز في جدّة في وادي فاطمة في ١٣٦٦هـ (٣ ديسمبر ١٩٤٦م).



الملك عبد العزيز مع عدد من أبنائه على سطح قصر المربع - الرياض ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٦م. وهم من اليسار إلى اليمين الأمراء: سعود، تركي، بدر، مشاري، متعب، عبد الرحمن، مشعل، سلمان، فواز، عبد المجيد، سعود، مقرن، عبد الإله. سطام، فهد، ماجد، نايف، نواف، طلال والسيد فؤاد حمزة مع محمد بن دغيثر.



كان حصن المصمك موقع هجوم الملك عبد العزيز الجريء عام ١٣١٩هـ،
وقد تحول الحصن الآن إلى متحف وهو أحد أهم المواقع التاريخية في المملكة العربية السعودية.

الكشاف العام

فهرس الأعلام ٤٤٩

فهرس الأماكن والبقاع ٤٦١

فهرس القبائل والجماعات ٤٧١

فهرس المحتويات ٤٧٥



فهرس الأعلام

(أ)

آدم عليه السلام: ٣٠١
إبراهيم عليه السلام: ٥
إبراهيم باشا هاشم: ٢٩٥
إبراهيم بن ثاقب بن وطبان: ٣٩٤
إبراهيم حقي باشا: ٦٢، ٣٠٣
إبراهيم بن صالح بن عيسى: ٨
إبراهيم بن مانع المريدي: ٣٩٣
إبراهيم بن محمد علي باشا: ٣٩٧
أحمد بن إبراهيم بن عبد الله: ٣٩٩
أحمد بن تركي السديري: ٤٢٤
أحمد بن ثنيان: ٥٥، ٩١
أحمد بن جابر الصباح: ١٠٥
أحمد بن حنبل (الإمام): ٤٣
أحمد السديري: ٣٠، ٥١
أحمد السنوسي: ٢٣٥
أحمد بن عبد العزيز آل سعود: ٤١١
أحمد بن عبد المحسن السديري: ٤٢٤
أحمد عجة: ٣٩٤
أحمد الغزاوي: ١٩٥
أحمد الكبير السديري: ٤٢٠
أحمد بن محمد السديري: ٤٢١
أحمد وحيد الدين: ٢٤٣
أحمد ياسين: ٢١٢
إدريس بن وطبان: ٣٩٤
إدوار غراي: ٦٢
أرمسترونغ س: ٣٠٥
إرميا: ١٤٥
أسباك: ٣٣٢
اسبيرس: ٣٣٢
إسماعيل عليه السلام: ٢٢٤
ألدون رتر: ١٢٢، ١٢٧

أليس (الأميرة): ١٧٣
أمان الله خان: ٢٤٣
أمين الريحاني: ١١٣، ١٢١
أندرو ريان: ١٩١، ٢٣١
أنور باشا: ٦٩
إيدن: ٣٢٥

(ب)

باربوف (طيار روسي): ١٧٠
باركلاي أونكير: ٦٧
بايلي وندر: ٣٩٦
برتران توماس: ٢٢٢، ٢٣٦
ابن بشر: ٣٩٦
بلفور: ٣١٠، ٣١٥
بندر بن أحمد السديري: ٤٢٣
بندر بن عبد العزيز آل سعود: ٤١٠
بوسيكولوت: ٢٦٢
بيك باشا: ٢١٩
بيرسي كوكس: ٦١، ٦٩، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٨٠، ٨١، ٨٨، ٩٠، ٩٢، ٩٧، ١٠٣، ١٠٧-١١٣، ٣٦٧
بيفن: ٢٩٥

(ت)

تركي بن أحمد السديري: ٤٢٢
تركي بن أحمد الكبير السديري: ٤٢١
تركي السديري: ٢٢٦
تركي بن سعود: ٢٠١
تركي بن سليمان السديري: ٤٢٠
تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود: ٣٩٧
تركي بن عبد العزيز آل سعود: ١٩، ٥١، ٩٣، ٢٠٣، ٤٠٧، ٤١١
تشالس كرين: ١٧٥
تشرشل: ١١٠، ٢٧٢، ٣١٣، ٣١٦-٣٣٢، ٣٥٣
توتشل: ٢٥١، ٢٧٠
ابن تيمية (الإمام): ٤٣

(ث)

ثاقب بن وطبان: ٣٩٤
ثنيان بن سعود بن محمد بن مقرن: ٣٩٥

(ج)

جابر ابن الشيخ مبارك: ٢٩، ٧٧، ٧٨
جامنز: ٣٢٥
جعفر البرمكي: ١٣٢
جلبرت كلايتون: ١٣٤، ١٤٥، ٢٢٧
جمال الحسيني: ٣١٥، ٣٦٤

جورج أنطونيوس: ٢٥٠، ٢٧٠
جوردان س ر: ١٣٥
جونثان كيب: ٢٩٧
جوهرة بنت سديري: ٤٠٥
جوهرة بنت سعد السديري: ٤٢٣
جوهرة بنت عبد العزيز آل سعود: ٤١٠
جوهرة بنت مساعد: ٤٠٠
جوهرة بنت مسيعد: ٢٠٣، ٤٠٩

(ح)

حافظ وهبة: ٢٩٧
حاكيموف: ٢٥٢، ٢٦١
حتشبسوت: ٣٤٩
حسن الإدريسي: ١٧٩، ١٩٨
حسن بك الأشموني: ٢٣٠
حسن البنا: ٣٧٠
حسن وفقي: ١٧١
حسين بن الجراد: ٣١
حسين بن علي (الشريف أمير مكة): ٤٨، ٥٠، ٥٤، ٧٤، ٧٥، ٨٤، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٧، ٩٩، ١١٥، ١١٧، ١٢٦، ٢١٩، ٢١٩، ٢٨١، ٣٠٤، ٣٢١، ٣٦٠
حصة بنت أحمد السديري: ٤٢٣
حصة بنت سديري: ٢٠٤، ٤١٠، ٤١١
ابن حمود (السلطان): ٤٥
حمود بن أحمد السديري: ١٨٤
حمود بن صبحان: ٤٦
حواء: ١٤١

(خ)

خالد بن أحمد السديري: ٤٢٢
خالد بن سعود آل سعود: ٣٩٨
خالد بن عبد العزيز آل سعود: ٤٠٨
خالد القرقاني: ١٧٠، ٢٥٤
خالد بن لؤي: ١٥٣، ٢٢١، ٢٨٢
خالد بن لويث: ٩٩
خزعل (أمير المحمرة): ٤٨، ٧٨
خورشيد باشا: ٣٩٨

(د)

داود بن غوريون: ٣١٥
دهام (أمير الرياض): ٣٩٦

(ر)

راجي بن أمير: ٤١٩
راكتسنسكي: ١٧١
ربيعة بن مرخان: ٣٩٤
ربيعة بن وطبان: ٣٩٤

رشدي ملحس: ١٩١
ابن الرشيد: ٨، ١٥، ٢٧، ٢٨، ٣٩، ٤٦، ٥٩، ٦٧، ٦٩، ٨١، ٨٤، ٩١، ٩٣، ٩٦، ١٠٤، ١٠٨
رشيد عالي الكيلاني: ٣٥٥، ٣٦٤
رشيد الليلا: ٩٣، ٩٥
روبرت هاي: ٧
روبرت هرست: ٣٠١
روجر مايغريت: ٢٥٢
روزفلت: ٣١٣، ٣٢٣، ٤٢٥، ٣٥٣
رونالد ستورز: ٨٨، ٩٠، ٩٢
ريجنالد وينجيت: ٨٨

(ز)

زامل السليم (زعيم عنيزة): ١٤، ١٦
زامل بن صبحان: ٤٦، ٤٧، ٥٤
زبيدة (زوجة هارون الرشيد): ١٨٣

(س)

سارة بنت أحمد الكبير السديري: ٤٢١
سالم بن سبهان: ١٤، ١٥
سالم السفاح: ١٥
سالم بن مبارك الصباح: ٧٧، ٨٨، ٩١
سامي باشا: ٤١
ستانلي مود: ٧٩
ستيفن لونجريج: ٢٧١
سعد بن بخيت بن سيد: ٢٧،
سعد بن عبد الرحمن آل سعود: ٤٩، ٥٠، ١٠٣
سعد بن عبد الرحمن بن فيصل: ٤٠٤
سعد بن عبد العزيز آل سعود: ٤١٠
سعد بن عتيق: ١٦٥
سعدون باشا: ٢١، ٢٢، ٤٧، ٥٤
سعود بن حمود: ٤٦
سعود بن عبد العزيز آل سعود: ١٩، ٣٢، ٤٦، ٤٩، ٥١، ١١٠، ٢٨٣، ٣٣٥، ٤٠٧
سعود بن عبد الرحمن السديري: ٤٢٤
سعود بن فيصل بن سعود: ١٣، ٤٩
سعود العرافة: ٤٠٣، ٤١٠
سعود بن محمد بن سعود: ٣٩٦
سعود بن محمد بن مقرن: ٣٩٥
سعود بن هذلول: ٨، ٩
سلطان بن بجاد: ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٤١، ١٥٣
سلطان بن عبد العزيز آل سعود: ٣٣٥، ٤١٠
سلطانة بنت أحمد السديري: ٤٢٣
سلطانة بنت سديري: ٤٠٨

سلمان بن عبد العزيز آل سعود: ٤١١

سليمان عليه السلام: ٣٠١، ٣٤٩

سليمان شفيق كمالي باشا: ٦٢، ٦٤

سليمان بن محمد بن حمود السديري: ٤١٩

سولازو: ٢٢٧، ٢٢٨

سومنر ويلز: ٣٢٥

سيف الإسلام إبراهيم ابن الإمام يحيى: ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٣

سيف الإسلام أحمد ابن الإمام يحيى: ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣

(ش)

شارل الثاني (ملك انكلترا): ١٣

شارلز كرين: ٢٥٠، ٢٧٠

شرف رضا: ١٣٩، ٣٤١

شعيب قريشي: ١٣٧

شكري القوتلي (الرئيس): ٢٨٤، ٣٧٣

شكسبير (الأديب): ٧

شكسبير (اليوزباشي): ٥٨، ٦٠، ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧١

شوكت علي: ٢٤٤

شويش بن دوامي: ٢٧

شيخة بنت عبد العزيز آل سعود: ٤١٠

(ص)

صالح بن مهنى: ٣٩

صدقي باشا: ٣٨

(ط)

طالب باشا النقيب: ٤١، ٤٨، ٦٢، ٦٩، ١٢١

طرفة (عمة الملك عبد العزيز): ٢١٣

طلعت باشا: ٦٥

طوسون بن محمد علي باشا: ٣٩٧

(ظ)

ظفر علي خان: ١٣٧

(ع)

العاصي بن شريم: ٤١٠

عبد الله أبو يابس: ٢٠٢

عبد الله الأمير (شريف مكة): ٧٠

عبد الله الأنقاري: ١٦٥

عبد الله بن بلهيد: ١٦٥، ١٨٤

عبد الله بن ثنيان بن سعود: ٣٩٨

عبد الله بن جلوي: ٢٦، ٣٠، ٣٢، ٤٦، ٨٣، ١٥٣، ٤٠٠

عبد الله بن حسن: ١٦٥، ٢٢٣

عبد الله بن الحسين (الشريف ملك الأردن): ٦، ٢٩٥-٣٠٨، ٣٧٣
عبد الله الحمصاني: ٢٧
عبد الله الدملوجي: ١٣٣
عبد الله بن سعد السديري: ٤٢٣
عبد الله بن سعد بن عبد المحسن بن أحمد السديري: ٩
عبد الله السليمان الحمدان: ١٣١، ١٤٠، ١٩٨، ٣٤١، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٦، ٣٦٤
عبد الله ابن الشريف حسين: ١٠١
عبد الله بن عبد الرحمن آل سعود: ٢٠٧
عبد الله بن عبد العزيز آل سعود: ٤٠٨، ٤١٠
عبد الله بن عبد اللطيف: ١٦
عبد الله بن عسكر: ١٦٩، ١٧٥
عبد الله علي رضا: ١٣٢، ١٣٣
عبد الله العماري: ٢٨٩
عبد الله بن فيصل بن سعود: ١٣، ٢٥٣
عبد الله بن متعب: ١٠٩، ٤٠٩
عبد الله بن محمد بن سعود: ٣٩٧
عبد الله بن مساعد: ٤٠٠
عبد الله بن ناصر السديري: ٤٢٤
عبد الله بن الوزير: ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢
عبد الجبار بك: ٥٥
عبد الحميد الثاني (السلطان العثماني): ٤٨
عبد الرحمن بن إبراهيم بن عبد الله: ٣٩٩
عبد الرحمن بن أحمد السديري: ٤٢٣، ٤٢٤
عبد الرحمن بن سويلم: ٥٥، ٨٣
عبد الرحمن بن عبد العزيز آل سعود: ٤١١
عبد الرحمن بن فيصل بن سعود آل سعود: ١٤-١٧، ٢٢، ٣٠، ٥٩، ١٤٥، ١٥٣، ٢١٣، ٤٠٢
عبد الرحمن بن ناصر: ٨
عبد العزيز بن أحمد السديري: ٤٢٢
عبد العزيز بن أحمد الكبير السديري: ٤٢١
عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن أحمد السديري: ٩
عبد العزيز بن محمد بن سعود: ٣٩٦
عبد العزيز بن ربيع: ٢٧
عبد العزيز بن الرشيد: ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٤٠
عبد العزيز بن متعب آل رشيد: ٢١

عبد العزيز بن مساعد: ٤٠٠
عبد العزيز بن مسعد آل سعود: ٢٧
عبد القادر بن إبراهيم بن عبد الله: ٣٩٩
عبد القادر الشيبي: ٢٣٥
عبد اللطيف منديل: ٧١
عبد الوهاب ابو ملحة: ١٩٨
عثمان بن بشر: ٨
عجلان (من آل رشيد): ٢٦
عجمي السعدون: ٨٤
علي بن حسين: ٢٠٢
علي حيدر (الشريف): ٧٥
علي ابن الشريف حسين: ١١٩، ١٢٠
علي بن محمد السديري: ٤١٩
علي بن محمد بن سعود: ٣٩٦
عمار أيمن: ٣٦٣
عمر بن عبد الرحمن بن ربيعان: ١٦٨
العنود بنت عبد العزيز آل سعود: ٤٠٩
عودة بن زأل: ١٩٣
عودة أبوطي: ١٩٣
ابن عيسى (المؤرخ): ٣٩٦

(غ)

غراهام براون: ٣١٥
غروسمان: ٣٠٩
غشام: ٢١٦
غلوب باشا: ٢٢٦، ٣٠٧
غيرترود بل: ٧٩، ١٠٨

(ف)

فاروق (ملك مصر): ٣٦٩، ٣٧١
فخري باشا: ٨٦
فران: ٣٣٢
فرانك هولمز: ١١٣
فرحان بن سعود بن محمد بن مقرن: ٣٩٥
فرحان بن مشهور: ١٤٩
فرنسيس هامفري: ٣٦٨
بنت الفكري: ٢٠٣
فهد بن خالد بن محمد: ٤٠٩
فهد بن سعد السديري: ٤٢٣
فهد بن عبد العزيز آل سعود: ٤١٠
فهد بن معمر: ٥٠، ٨٣
فهد بن هذال: ٤٧
فؤاد (ملك مصر): ١٣٦، ١٤٣، ١٩٢، ٢٣٠
فؤاد حمزة: ١٩١، ٢٢٨، ٢٩٧، ٣١٥
فؤاد سليم: ٢١٩
فيصل بن حشر: ١٥٣، ٢٢٠

فيصل الدويش: ٤٠، ٤٥، ٥٤، ١١٠، ١٤١، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٣، ٢٠٦
فيصل بن سعد آل سعود: ٤٠٨
فيصل بن سعود آل سعود: ٥١، ١٠١
فيصل بن سعود الكبير (الإمام): ١٣، ٢١٣
فيصل ابن الشريف حسين: ١٠٨، ١١٠، ١٤٦، ٣٠٧، ٣٦٨
فيصل بن عبد العزيز آل سعود: ١٨٦، ١٨٧، ١٩٨، ٢٢٧، ٢٨٦، ٣٢١، ٣٣٥، ٣٦٧، ٤٠٧
فيصل بن محمد بن سعود: ٣٩٦
فيضي باشا: ٣٤، ٣٧

(ق)

قاسم آل ثاني (حاكم قطر): ١٨، ٣٩
قماشة بنت شديدة: ٤١١

(ك)

كانون دوجلاس: ٣١٥
الكردي (مهندس): ٢٦٢
كلنكليف أوين: ٩٠، ٩٢
كليمنصو: ٣٠٦
كنوكس: ١١٦
كوكرين: ٢٣٦
كيرزون: ٣٤، ٣٦٠

(ل)

لانسدرون: ٣٤
لاي و ج: ٦٤
لؤلؤة بنت عبد العزيز آل سعود: ٤١٠
لورانس أ ه: ٣١٥
لورنس ب س: ٨٧، ٩٦، ١٠٨، ٢٦٤
لويد هاملتون: ٢٧١
ليشمان ج س: ٥٣، ٦٨

(م)

ماجد بن ختيك: ٢١٩
ماجد بن سبهان: ٣٢، ٣٣
ماركوني: ٢٦٥
مانع المريدي بن ربيعة: ٣٩٣
مبارك بن سويت: ٥١، ٥٢
مبارك الصباح (شيخ الكويت): ١٨، ٢٢، ٢٣، ٣٩، ٤٥، ٤٧، ٥٤، ٥٨، ٥٩، ٦٧، ٧٢، ٧٧، ٨٥
متعب بن الرشيد: ٢٠٧
متعب بن عبد العزيز بن الرشيد: ٨، ٤٠، ٤٥
محمد بن أحمد السديري: ٤٢٢

محمد بن أحمد الكبير السديري: ٤٢١
محمد أمين التميمي: ٣٩٥
محمد بن بلهيد النجدي: ٣٢
محمد بن تركي السديري: ٤٢٠
محمد أبو خليل: ٤٥، ٤٦
محمد بن راجي بن أمير السديري: ٤١٩
محمد الرشيد الكبير: ١٣، ١٥، ٢١، ٣٣، ٤٢
محمد السليمان الحمدان: ١٣٢
محمد الصباح (أمير الكويت): ١٨
محمد بن طلال آل سعود: ١٠٩
محمد بن عبد الله بن ثنيان: ٣٩٩
محمد بن عبد الله السديري: ٤٢٤
محمد بن عبد الله بن معمر آل خرفش: ٣٩٤
محمد بن عبد الرحمن آل سعود: ١١٠
محمد بن عبد العزيز آل سعود: ١٢٤، ٤٠٩
محمد بن عبد المحسن السديري: ٤٢٤
محمد بن عبد الوهاب (الإمام): ٤٣، ٣٩٥
محمد علوية باشا: ٢٨٤
محمد علي باشا (حاكم مصر): ٣٩٧
محمد علي الشواف: ٢٤١
محمد بن فيصل بن سعود: ١٤، ٣٩
محمد الكبسي: ٢٨٩
محمد بن مقرن بن عبد الرحمن: ٣٩٨
محمود (الدكتور): ٢١٥
محمود ناصف: ٢٥٠
مرخان بن مانع المريدي: ٣٩٤
مرقن بن مرخان: ٣٩٤
مساعد بن أحمد السديري: ٤٢٣
مساعد بن سويلم: ٣٠
مساعد بن عبد الرحمن آل سعود: ٧
مساعد بن عبد العزيز آل سعود: ٤١٠
مشاري بن سعود بن محمد بن مقرن: ٣٩٥
مشاري بن عبد العزيز: ٣٩٧
مشعل بن عبد العزيز آل سعود: ٤١١
مصطفى كمال أتاتورك: ١١٨
مصطفى المراغي: ٢٣٠
مصطفى النحاس: ١٤٣، ٣٧٠
مضاوي بنت أحمد السديري: ٤٠٩
مطلق بن زيد: ٢١٩، ٢٢٠

مطلق بن صالح: ٨
منصور بن عبد العزيز آل سعود: ٣٣٥، ٤١٠
مهدي بك: ١٨٥، ١٨٦
موسوليني: ٣١٠
موسى (من خدم الملك): ٢٣٤
موشي شرتوك: ٣٢٢
مولانا عرفان: ١٣٧
موين: ٣٢٦

(ن)

ناصر بن سعود بن إبراهيم: ٣٩٨
ناصر بن عبد الله السديري: ٤٢٤
ناصر بن عبد العزيز آل سعود: ٤٠٩
نامير ل ب: ٣١٥، ٣٢٢
نايف بن عبد العزيز آل سعود: ٤١١
النبي محمد (ﷺ): ٤٢، ٤٣، ١٠٠، ١٦٤، ٢٦٤
نجاشي الحبشة: ٢٤٨
نصر بن فرحان: ٢١٣
نورة بنت أحمد السديري: ٤٠٩
نورة بنت أحمد الكبير السديري: ٤٢١
نورة بنت عبد العزيز آل سعود: ١٥، ١٥٣، ٤٠٨
نوري السعيد (رئيس وزراء العراق): ٢٢٦
نوري الشعلان: ٤٧، ١١٠
نورينس بك: ٥٥
نوكس س ج: ٣٤، ٦٠

(هـ)

هاجر أم إسماعيل عليه السلام: ٢٢٤
هارون الرشيد: ١٣٢، ١٨٣
هاشم الأتاسي: ٣٧٤
هاملتون ر س: ٨٩
هتلر: ٣٢٨
هربرت صمويل: ٣٠٤
هنري كوكس: ٢٩٩
هنري مكمهون: ٧٤، ٣٢١
هوسكنز: ٣٢٦، ٣٢٧
هوغارت: ٩٦، ١٥١، ٣٥٩
هوغرات د. ج: ٩٦، ١٥١، ٣٥٩
هيا بنت سعد السديري: ٤١٠، ٤٢٣

(و)

وطبان بن ربيعة بن مرخان: ٣٩٤
ويزمان: ١٨٩، ٣١٢-٣١٥، ٣١٧، ٣٢٢-٣٣٢
ويلسون ت: ٩٠

(ي)

يحيى (إمام اليمن): ٢٨١-٢٩٤
يوحنا المعمدان: ١٥
يوسف قطان: ١٩٥
يوسف ياسين: ١٦٩، ١٨١، ١٩١، ٢١٥، ٢١٩، ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٩٧



فهرس الأماكن والبقاع

(أ)

آبار أبي جفان: ٢٥

آبار الأرطاوية: ٦٧

آبار بسية: ١٤٧

آبار حفر الباطن: ٢٩

آبار حمودة: ١٥٩

آبار عجيبة: ٩٨

أبها: ٤٩، ١١١، ١٦٩

أثلون: ١٧٣

الأجيد: ٢٣٥

الأحساء: ٧، ١٣، ١٧، ٢٥، ٤١، ٥٣، ٥٦، ٦٠، ٦٧، ٧٢، ٧٣، ٨٣، ٩٨، ٣٤٣

الأردن: ٤٤، ٩٣، ١٠٢، ١٢٣، ١٤٦، ١٤٧، ١٩٢، ٢١٩، ٢٨١، ٢٩٥، ٣٠٨، ٣٧١، ٣٧٢

الأرطاوية: ٥٢، ٦٩، ١٤٨

الأزهر الشريف: ١٤٦

إسرائيل: ٢٧٦، ٢٩٩، ٣٧٣، ٣٧٤

إسطنبول: ٨٤

الإسكندرية: ٣٧٠

الإسماعيلية: ٣٦٩

أسمرة: ١٣٤

الأسياح: ٣٩

إفريقيا: ٣٤٩

الأفلاج: ٢٧، ٥١

ألمانيا: ٥٩، ٦٨، ٨٤، ١٩٠، ١٩٧، ٣٥٤

أم العمد (قرية): ١١٩

اميركا: ١٥٣، ٣١٣-٣٣٢، ٣٥٠

أميركا الشمالية: ٣٦٧

انجلترا = بريطانيا

أهرامات مصر: ٣٦٩
أوروبا: ١٥٣، ١٩٨
إيران: ١٤١، ٢٤٨
إيرلندا: ١٧٣
إيطاليا: ٢٢٧، ٣٤٣

(ب)

باب السلام: ١٩٤
الباب العالي: ٣٤، ٦٥
بادولا: ١٤
باريس: ١٩١، ٢٢٨
الباطن: ٣٣
البحر الابيض المتوسط: ٢٧٤
البحر الأحمر: ٥، ١٠٥، ١٦٩، ٢٨٥
بحرة: ١٣٤
البحرين: ٢٣، ٥٥، ٦١، ٧٤، ١١٤، ٢٥٣، ٢٨١
بحيرة قارون: ٣٦٩
برلين: ١٨، ٢٤
بريدة: ٢٤، ٣٠، ٣٣، ٤٥، ٦٧، ٨٩، ٩٨
بريطانيا: ١٨، ٢٣، ٣٤، ٥٦-٨٢، ٨٤، ٨٥، ١٠١، ١٣٤، ١٤٧، ١٩٠، ٢٢٧، ٢٣٧، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣٠٧، ٣١١-٣٣٢، ٣٦٧
بسية: ١٤٧
البصرة: ٢٢، ٤١، ٥٥، ٩٠
بغداد: ١٨، ٢٤، ٦٨، ٨٨، ٩٠
البقم: ١٠١
بقيرية: ٥٣
البقيع: ٩٨
البكيرية: ٣٤، ٣٥
بلاد العرب: ٥، ٨٣
بلهافن: ٨٩
بور سودان: ١٢٤
بولندة: ١٧١
بومباي: ٢٤٩
بيت السقاف: ١٨٢
بيت المقدس: ٣١٥
بئر التنعيم: ٢٠٠
بئر جعرانة: ٢٠٠
بئر حصى: ٢٠٠
بيرل هاربر: ٣٢٨
بيروت: ٣٠٦
بيشة: ٤٩

(ت)

تبوك: ٢٣٣، ٢٦٥
ترابة: ٤٩، ١٠١، ١١١، ١١٧، ٢٩٦

تركيا: ١٣، ١٨، ٢٢، ٢٤، ٣١، ٣٤، ٤٨، ٦٠، ٦٣، ٦٧، ٦٨، ٧٧، ٨٥، ١٩٨، ٣٠٥
تعز: ٢٨٩، ٢٩٣
تهامة: ١٣٤، ٢٢١، ٢٨٣

(ث)

ثرمدا: ٣٠

(ج)

الجامع الأزهر: ٢٣٠، ٣٧١
جامعة برنستون: ٣٩٦
جاوة: ٢٦٧
جبل رضوى: ٣٦٩
جبل شمر: ١٣، ٧٢، ١١٠
جبل عرفات: ١٢
جبيل (هضبة): ٢٥، ٧٣
جدة: ٥٧، ١٠١، ١٢١-١٢٧، ١٣٤، ١٤١، ١٧٠، ١٩٩، ٢٢٨، ٢٤٧-٢٦٥، ٢٦٨، ٣٥٣
جراب: ٧٠، ٧٢، ١٠٢
الجرع: ١٨٠
الجرول: ٢٢٤
الجروى: ٢٣٥
الجزيرة العربية: ٥، ١٢، ٥٦
جعرانة: ٢٣٥
جهرة: ٢٤
الجوف: ١٣، ٤٦، ١٠٢، ١١١، ٢٢٦
جيزان: ١٣٠

(ح)

حائل: ١٤، ١٥، ٢١، ٢٩، ٤٦، ٧٧، ٩٤، ٩٧، ٩٩، ١١١، ٣٠١
الحبشة: ٢٧٠
الحجاز: ٣٨، ٤٤، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٩٩، ١١٥، ١١٧-١٢٧، ١٢٩، ١٣٦، ١٤٥، ١٨٨، ١٨٩، ٣٠٣، ٣٤٨
الحديدة: ٢٨٣
الحجر الأسود: ١٩٥
حجة: ٢٩٢
حرض (مياه): ٢٥
الحرم الشريف: ٢٢٣
حريق: ٤٩، ٥٠
حصن المصمك: ٢٦
حصن المعبدة: ٢٣٣
حضرموت: ٦٤، ٢٤٨، ٢٨١
حفر الباطن: ٢٤
الحميدية: ١٨٦، ٢٣٨

الحوطة: ٢٧، ٥١
الحوية: ١٧٩، ١٨٠

(خ)

الخبر: ٣٦
خبوب: ٣٤
الخرج: ٢٧، ٥٠، ٨٣، ٣٩٧
خرمة: ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١١٧
خزان البقيق: ٢٧٤
خشم العن: ٢١٠
الخفس (مستنقعات): ٥٤
خفيضة: ٦٩، ٧١
الخليج العربي: ٢٤، ٨٣، ١٦٩

(د)

دبدبة: ١٤٩
دجلة (نهر): ٨٨
الدرعية: ٣٩٣، ٣٩٦
دغبة: ٢٥٤
الدلم: ٢٨
دمشق: ٨٢، ٩٣
الدهناء: ٢٣، ٢٠٨
الدوادمي: ٣٦٣
الدواسر: ٥١

(ر)

رابغ: ١٢٤
رانية: ٤٩
الربع الخالي: ١٠٥، ١٦٠، ١٦١، ٢٢١، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٨١
الرس: ٣٥، ٣٩
الرصيف: ٢٤
الرملة: ٣٠٧
روسيا: ١٩٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٣٢٨، ٣٧٥
روضة مهنى: ٤٠، ٤٤، ٢٠٧
روما: ٢٢٧
الرياض: ٧، ١٣، ١٤، ١٥، ٢٤، ٢٦، ٣٠، ٥٠، ٥٧، ٨٤، ٩٩، ٢٠٧-٢٢٢، ٢٦٥، ٣٦١

(ز)

الزالفي: ٧٠
الزبير: ٥٢، ١٠٤، ٣٩٤
زلفى: ١٤، ٣٩، ٦٧، ١٤٨
زيزا: ١١٩

(س)

ساحل عُمان: ٧٤
سان فرنسيسكو: ٢٥١

سبلة: ١٤٨
سبيهية: ٦٢
ستينتون: ٨٩
سجن المصمك: ١٤٩
سدير: ١٤، ٣٠، ٣٩، ٣٩٧
السر: ٣١
السليمية: ٢٩
السودان: ١٣٤، ٣٧١
سوريا: ٨٨، ١٠٨، ١٤٤، ٢٤٨، ٢٩٧، ٣١٠، ٣٧٣
سوق الشيوخ: ٥٣
السويس: ١٣٨
سويسرا: ١٧٩
السيل الكبير: ٢٢٣
سيلمزفور: ١٩٨

(ش)

الشامية: ٢٣٥
شبه جزيرة عُمان: ٣٩٣
شرق الأردن = الأردن
الشرق الأوسط: ١٠١، ٣١٠
الشعب الشوكي: ٩٦
شفه: ٤٠
شقراء: ٣٠
شميسى: ١٢٤
شنانة: ٣٦

(ص)

صبخ: ٤٥
صحراء الأحساء: ١١٤
الصحراء الشرقية: ٥٨، ١٠٤
صحراء العرب: ٣٦، ٤٢، ٨٨
الصريف: ٢٧، ٣٩
الصفا: ٢٢٣
صنعاء: ٢٨٢، ٢٨٩، ٢٩٣

(ض)

ضريح حواء: ١٤١
ضوفر: ٢٣٦

(ط)

الطائف: ٤٩، ١١٩، ١٦١، ١٧٥، ١٧٩، ٢٨٤، ٣٥٣، ٣٥٦، ٣٦٠
طرابلس: ١٧٠
الطرفية: ٢٤، ٩٨
طهران: ١٠٧
طولكرم: ٣٠٧
طويق (هضبة): ٣٠

(ظ)

الظهران: ٣٥٦

(ع)

عدن: ٦٣، ١٢٢، ٢٣٧، ٢٨١
العراق: ٢٢، ٣٨، ٥٣، ٨٦، ٩٣، ١٠٢، ١٠٧، ١٠٨، ١٤٤، ١٤٨، ١٤٩، ١٥١، ١٩١، ٢١٩، ٢٨١، ٢٩٧، ٣٥٥، ٣٦٨
عرفات (جبل): ١٨٢
عرو: ٢٨٢
عسير: ٤٩، ٥٣، ١٠٢، ١١١، ١٩٨، ٢٨١
العقبة: ٨٧، ١٢١، ١٣٠، ٢٨١
العقير: ٥٥، ٦١، ١٠٧-١١٦
العلا: ٢٣٣، ٢٦٣، ٢٦٤
العمارات: ٤٧
عُمان: ٧٤، ١١١، ٢٨١
عمّان: ١٠٢، ١١٨، ٢١٩، ٢٩٥
عين البردان: ٢٠٢
عين السيد: ٢٣
عينية: ٣٩٤، ٣٩٥

(غ)

الغاط: ٤١٩
غزة: ٣٦٥
غسان: ٢٨٦
الغطغط: ١٤٨، ١٥٣

(ف)

الفاتيكان: ٢٤١
الفرات (نهر): ٣٤
فرنسا: ١٩٧، ٢٢٨، ٢٥٢
فلسطين: ٩٦، ١٢٣، ١٨٩، ١٩٠، ٢٧٦، ٢٩٥، ٣٠٩-٣٣٢، ٣٦٤، ٣٧٣
الفلق: ٢٣٥
فندق كارلتون: ٣١٥
الفيوم: ٣٦٩

(ق)

القاهرة: ٨٨، ١١٠، ٣٦٩
قبرص: ١٢٣
القرعى: ٣٤
قريات الملح: ٩، ١١٨
القسطنطينية: ٦٥، ٣٩٧
قصر ابن عقيل: ٣٦
القصر الأخضر: ٢٥٠
قصر شبرا: ١٦٤
قصر الطائف: ١٥٨
قصر المعبدة: ٢٢٣، ٢٣١، ٢٤١

القصر الملكي في مكة: ١٧٩-٢٠٦
قصيبة: ٣٤، ٩٨
القصيم: ١٣، ٣٠، ٣٤، ٤٥، ٤٦، ٦٧، ٧٢، ٨٣، ٨٩
قطر: ١٨، ٦٣، ٧٤، ٢٨١
القطيف: ٥٥، ٧٣، ٨٣، ٣٩٣
قناة باثة: ٢١١
قناة السويس: ٦٢، ٣٦٩
قناة الملكة زبيدة: ١٨٢
القناطر الخيرية (في مصر): ٣٧١
قنفذة: ١٣٤، ٤٢٤
القويعية: ٤٩

(ك)

كابدة: ٥٢
كاليفورنيا: ٢٥١، ٢٧٠
كحلان: ٢٩٣
كراتشي: ٢٤٩
كربلاء: ٣٦٩
الكعبة الشريفة: ١٤٣، ١٩٤، ٢٢٣
كهفة: ٧٢
الكويت: ١٨، ٢٢، ٢٥، ٢٦، ٢٩، ٣٤، ٥٨، ٦٧، ٧٤، ٧٨، ٨٨، ٨٩، ١٠٣، ٢٨١

(ل)

لبنان: ٢٢٨، ٣٠٧، ٣٢١، ٣٧٣
اللد: ٣٠٧
لندن: ٦٤، ١٠٨، ١٣٣، ٢٧٧، ٢٩٤، ٢٩٥
ليبيا: ٣١٠

(م)

مأرب: ٢٩٣
مبارك: ٢٩
المجمعة: ٣٠
المحمرة: ٤٨
المحيط الأطلسي: ٣١١
المحيط الهندي: ٣١١
مدائن صالح: ٩٣، ٢٦٥، ٣٠١
مدين: ٢٦٥
المدينة المنورة: ٩، ٣٨، ٤٨، ١٢٧، ٢٦٤، ٣٠٣، ٣٦٠، ٣٦٩
مراكش: ٢٥٢
المروة: ٢٢٣
المزدلفة: ٢٤٢
مستشفى مكة المكرمة: ٢٠١
مستنقعات الخفس: ٥٤
مسجد ابن عباس (في الرياض): ١٦٥

المسجد الحرام بمكة: ١٢٧
المسجد الكبير بدمشق: ١١٩
المسفلة: ٢٣٥
مسقط: ٢٣، ٢٢٢
مصر: ٦٨، ٨٨، ١٢٦، ١٣٤، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٣، ١٩١، ٢٣٠، ٢٤٨، ٢٩٧، ٣٥٣، ٣٦٩
مطار صنعاء: ٢٩١
معان: ١٣٠، ٢٨١
المعبدة: ٢٣٥
مغارة أبي مخروق: ٢١٥
مكة المكرمة: ٤٨، ٥٧، ٧٤، ٧٥، ١٠١، ١١٥، ١٢٠، ١٢٧، ١٣٤، ١٤١، ١٧٩-٢٠٦، ٢٢٣-٢٤٥، ٢٩٨، ٣٠٣، ٣٣٣، ٣٦٠
الملحاء: ٣٤
المليدا: ١٧، ٣٢
المملكة العربية السعودية: ٥٤، ٩٢، ١٨٨، ٢٣٠
المنتفك: ٢٢، ٤٧، ٨٤
منهل جراب: ٧٠
منى: ١٨٢، ٢٤٢
مهنى (روضة): ٤٠
موسكو: ٢٦١
الموسم: ٢٨٦
الموصل: ٢٢، ٦٨، ٧١، ٨٨، ٩٦، ١٠٨
ميدان المقربة: ١٧
ميدي: ٢٨٦
ميناء جدة: ٢٣٠، ٢٥٩
ميناء جيزان: ١٣٠
ميناء الحديدة: ٢٨٣
ميناء رابغ: ١٢٤
ميناء قنفذة: ١٣٤
ميناء لنجة: ٢٤٩
ميناء الوجه: ١٣٠
ميناء ينبع: ١٣٠

(ن)

نجد: ٧، ٣١، ٣٣، ٦٠، ٦٣، ٧٣، ٩١، ٢٠٦، ٢٥٦، ٣٠١، ٣٦٠
نجران: ٢٨١
نخيل نعجان: ٢٨
نعجان: ٢٨
النفود: ٣١
نهر دجلة: ٨٨
نهر الفرات: ٣٤
نهر اليرموك: ٣٧٣

نيرنبرج: ٣٥٥
نيوكاسل: ٢٥١

(هـ)

هضبة طويق: ٣٠
الهفوف: ٥٣، ٥٤، ٧٢، ١١٥
الهند: ١٢٦، ٢٤٨، ٢٦٧، ٣٤٩
الهند الإسلامية: ١٣٦
هوايتهول: ١٠٠

(و)

واحة خرمة: ٩٨، ٩٩، ١٠٩، ٢٩٦، ٣٦٢
واحة نعجان: ٢٨
وادي إبراهيم: ٢٣٥
وادي بيهان: ٢٩٣
وادي تهامة: ٢٥٤
وادي حنيفة: ١٠٠، ٢٠٠، ٣٩٣
وادي الحوطة: ٤٧
وادي الدواسر: ٢٧
وادي الرافدين: ٥
وادي رقبة: ١٥٩، ٢٢٨
وادي الرمة: ١٧، ٣١، ٣٥
وادي السرحان: ١٣، ١٠٢، ١١١، ١١٨، ١٦٩
وادي السلى: ٢٨، ٢١١
وادي الشعب الشوكي: ٢٣
وادي الطائف: ١٧٩
وادي الفرات: ١٠٥
وادي الليمون: ٢٠٢
وادي نعمان: ١٨٣
وارسو: ١٧٠
الوجه: ١٣٠
الوشم: ٣٠، ٣١، ٣٩، ٣٩٧

(ي)

اليابان: ٣٢٨
يثرب: ٢٦٤
اليمن: ٣٧، ٥٣، ٦٣، ١٣٠، ١٣٤، ١٦٩، ١٩٩، ٢٦٩، ٢٨١-٢٩٤، ٣٠١، ٣٠٧، ٣٦٢
ينبع: ١٣٠، ١٩٦، ٣٦٩
يوسفان: ١٢٥

فهرس القبائل والجماعات

(أ)

الآسيويون: ٣١٠

آل إدريس: ٣٩٤

آل بدر: ٤١٥

آل بسام: ٣٢

آل حيدر: ٣٩٣

آل خرفش: ٣٩٤

آل خليفة: ٢٥٣

آل الرشيد: ١٦٩

آل سعود: موجود في معظم صفحات الكتاب

آل عيسى: ٣٩٣

آل مقرن: ٣٩٤

آل ناصر: ٣٩٥

آل واطب: ٣٩٣

آل يحيى: ٣٩٣

الأتراك: ١٨، ٢٩، ٣٤، ٣٥، ٤٨، ٥٤، ٥٦، ٩٦، ٢٦٣، ٣١١

الإخوان: ٦٧، ٦٨، ٩٥، ١٠٥، ١١٠، ١٣٠، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ٢٢٠، ٣٥٩

الإخوان المسلمون في مصر: ٣٧٠

الأدارسة: ١٩٨

الإدريسيون = الأدارسة

بنو أسد: ٤١٥

أسرة ابن الرشيد: ٨، ٢٢

أسرة أبي الخليل: ٢٠٧

أسرة السديري: ٩، ٤١٥-٤٢٥

أسرة علي رضا: ٢٤٩

أسرة الفضل: ٢٤٩

الأسرة الوهابية: ١٨

الأشراف: ١٠٠

الأطباء السوريون: ٢٠٢
الأطباء المصريون: ٢٠٢
الأفغان: ٢٤٣
الألمان: ٢٤٧
الأميركيون: ١٧٢، ٢٧٢
الإنجليز: ٢٣
الإنجليز السكسونيون: ٣٠٧
الإنكشارية: ١٥٢
أهل تهامة: ١٧٩
أهل خميس: ١٩٨
أهل الكباش: ٣٩٣
الأوروبيون: ٢٤٧
الإيطاليون: ٣١٠

(ب)

البدريون: ٤١٥
بدو نجد: ١٦٢
بريدة: ٣٩، ٢٠٧
البريطانيون: ٦٠- ٨٥
البلجيكيون: ١١٤
البولنديون: ٢٤٧

(ت)

تجار الحجاز: ٢٢٩
الترك = الأتراك

(ث)

ثنيان (من الأسرة السعودية): ٨

(ج)

جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ١٦٢

(ح)

بنو الحارث: ٢٠٢
بنو حرب: ٣١، ٣٩، ١٢٥
الحضارمة: ١٨٢
الحويطات: ١٩٣

(د)

الدروع: ٣٩٣
الدعكي: ٢٢٢
الدواسر: ٤١٥

(ر)

الروس: ٢٤٧

(ز)

زامل: ٣١
الزيديون: ٢٨٧

(س)

السامیون: ٣١٠

السعوديون: ٣٠

سليم: ٣٢

السنوسيون: ٢٥١

السودانيون: ٢٣٨

السوريون: ٢٣٨

(ش)

الشبلان: ٢٠٨

شمّر: ١٥، ٣١، ٣٥، ٣٦، ٨٦

بنوشهر: ١٦٨

الشيوعية: ٣٧٥

(ص)

صبحان: ٤٦

الصهيونية: ٣١٠-٣٣٢

الصوماليون: ٢٣٨

(ظ)

الظفير: ٥١

(ع)

العباسيون: ٣٠١

عتيبة: ٣٠، ٣٥، ٤٩، ١٦٨، ٣٠٥

العجمان: ١٨، ٢٣، ٤٧، ٥١، ٥٤، ٧٢، ٧٦، ٩١، ٩٤، ١٠٢

العراقيون: ١٤٧

العرائف: ٣٢، ٥١، ٥٢، ٥٤

العرب: ٧٠، ١٨٩، ٣٠٩-٣٣٢

عرب الصحراء: ١٥٠

عرب فلسطين: ١٩٠، ٢٩٩

عنيزة: ١٤، ١٧، ٣١، ٣٢، ٣٥

العوازم: ١٠٤

بنو عيض: ١٦٩

(ف)

الفرنسيون: ١٠٨، ٣١٠

(ق)

قحطان: ٣٠، ٢٢٠

قريش: ٣٠٠

(ك)

الكوريون الشماليون: ٣٧٦

(م)

مرة: ٢٣، ٧٦، ٢٢٢

المسيحيون: ٢٤٤، ٣١٠

المصريون: ٣٧٠

مطير: ٢٣، ٣٠، ٣٥، ٤٥، ٥٤، ١٠٤، ١٤٧، ٢٠٨

ملوك سبأ: ٣٦٣

(هـ)

الهاشميون: ١٠٨، ١٩٢، ٣٠١

الهزازنة: ٤٧، ٥٠

الهنود: ١٣٧

(و)

بنو وائل: ٤١٥

الوهابيون: ١٢، ٣٠، ٣٦، ٥٥، ٩٣، ١٠١، ١٢٤، ١٣٦، ١٤٣، ٢٨٧، ٢٩٦، ٣٦٠

(ي)

اليمنيون: ٢٨٧

اليهود: ١٨٩، ٣٠٧، ٣٠٩-٣٣٢، ٣٧٣

فهرس المحتويات

المقدمة ٥

الفصل الأول: بزوغ الشمس ١١

الفصل الثاني: المغامرة الكبرى ٢١

الفصل الثالث: اتصالات مبكرة مع بريطانيا ٥٧

الفصل الرابع: ويلات الحرب وما بعدها ٨٣

الفصل الخامس: مؤتمر العقير ١٠٧

الفصل السادس: فتح الحجاز ١١٧

الفصل السابع: صعاب متزايدة ١٢٩

الفصل الثامن: تذمّر وتمرّد ١٤١

الفصل التاسع: يوم في بلاط الملك عبد العزيز ١٥٧

الفصل العاشر: القصر الملكي في مكة ١٧٩

الفصل الحادي عشر: الرحلة إلى الرياض ٢٠٧

الفصل الثاني عشر: الصوم والحج ٢٢٣

الفصل الثالث عشر: الأجانب في الجزيرة العربية ٢٤٧

الفصل الرابع عشر: المعجزةُ ٢٦٧
الفصل الخامس عشر: علاقات المملكة مع اليمن ٢٨١
الفصل السادس عشر: الشريف عبد الله بن الحسين ٢٩٥
الفصل السابع عشر: ابن سعود والقضية الفلسطينية ٣٠٩
الفصل الثامن عشر: غروب الشمس ٣٣٣
الملاحق: الدوحة السعودية وسلالة أسرة السديري ٣٧٧
الدوحة السعودية: الملحق الأول ٣٧٩
الدوحة السعودية: الملحق الثاني ٣٨٨
بعض الملاحظات عن الدوحة السعودية ٣٩٣
ملاحظات تاريخية: عن أسرة الملك عبد العزيز آل سعود ٤٠٧
سلالة أسرة السديري ٤١٥
ملاحظات عن أسرة السديري ٤١٩
ملحق الصور ٤٢٧
الكشاف العام: ٤٤٧
فهرس الأعلام ٤٤٩
فهرس الأماكن والبقاع ٤٦١
فهرس القبائل والجماعات ٤٧١
فهرس المحتويات ٤٧٥




الدار العربية للموسوعات